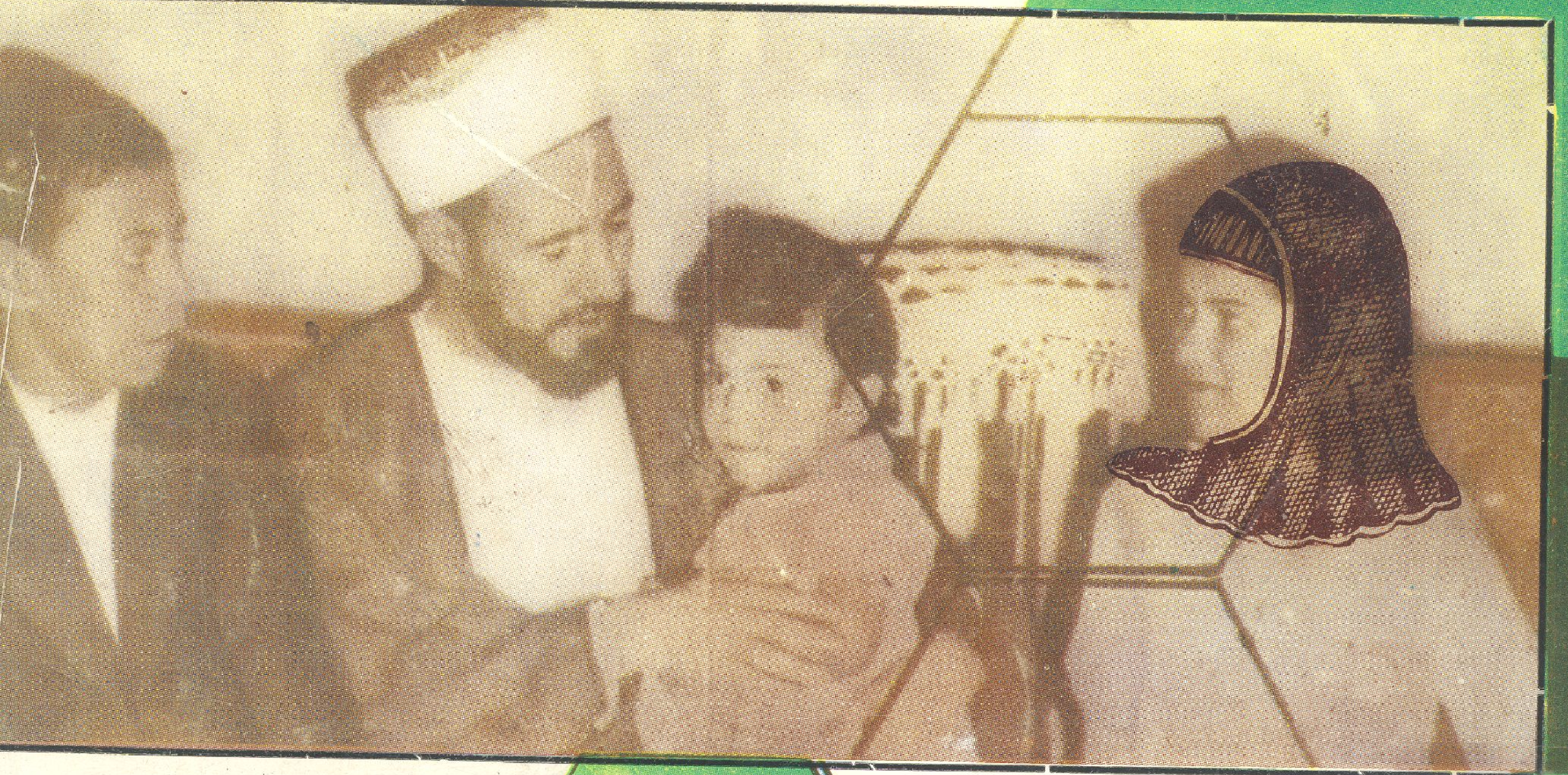
الأخوات المسلمات وبناء الأسرة القرآنية





محمود محمد الجوهري
محمد عبد الحكيم خيال

الأخوات المسلمات
وبناء الأسرة القرآنية

محمد عبد الحكيم خيال
محمود محمد الجوهري

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك (الاسكندرية)

الطبعة الأولى

ربيع ثان سنة ١٤٠٠ – مارس ١٩٨٠

إهداء

إلى الطامحين إلى بناء الأسرة المسلمة ... قاعدة المجتمع المسلم المرتقب .

إلى الرعيل الأول من الأخوات المسلمات .. أول من حملن عبء التحول الاجتماعي الإسلامي المعاصر مع الرجال في كتائب البنا .

إلى الطلائع الجديدة من الأخوات على نفس الطريق ... الواقع المؤمن الحي الواعي المتقدم لإزاحة ركام الهزيمة والخراب في عزم وثبات وإصرار الواثق بنصر الله . .

إلى الأخت الصابرة المحتسبة : **أمينة علي** .. واحدة من الرعيل الأول ، دفعتنا بقوة روحها إلى نشر هذا الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ،
أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ، فانهار به في نار جهنم.
والله لا يهدي القوم الظالمين . »(صدق الله العظيم)

« التوبة : ١٠٩ »

تقديم

ماذا نريد؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره،

ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له،

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

يا أيها الناس اتقوا ربكم، الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً.

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديداً، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم.

ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً

أما بعد..

• بما أن نظام الأسرة في المجتمعات الإسلامية يواجه خطر التفكك والانحلال الذي تظهر مقابيله وآثاره الوخيمة في سلوك قطاعات كبيرة

من الشباب ، وذلك بسبب تيارات ثقافية وحضارية غربية توجهها دوائر اليهودية التلمودية والصليبية والشيوعية ، التى تستهدف ضرب مقومات الأصالة والتميز فى الأمة المسلمة وتقويض بنيانها من القواعد

لقد جرفت هذه التيارات الجاهلية معها كل معنى من معانى الفضيلة والخير والكرامة ، وطفت على سطحها وجوه كالحة ارتسمت فيها كل أسباب الغواية والفتنة والشذوذ .

وأزكت مادية هذه الجاهلية للنتنة الأنوف ومسخت الفطرة حتى أصبح كثير منا ـ وقد عميت أبصارهم وبصائرهم وماتت أحاسيسهم ومشاعرهم ـ لايفكرون إلا بها ولا يعيشون إلا لها ولا يحكمون على الأشياء إلا من خـــلالها .

وهذه هى التركة المثقلة بالأعباء والمهمات التى ورثها دعاة الإسلام والعاملون له .

● وبما أن العاملين للإسلام مطالبون بتحصين كل جبهات المقاومة . ولما كانت الأسرة والزوجة والولد ، هى إحدى هذه الجبهات وخط دفاع خطير فى مقاومة الجاهلية التى تقف لهم بالمرصاد ، فعليهم أن يحصنوا هذه الجبهة بكل أسباب المناعة والقوة .

● وبما أن الاهتمام بالفرد المسلم وتـكوينه يجب أن يسبق أى عمـل آخر ، فالفرد المسلم هو حجر الزاوية فى أى بناء اجتماعى . ولما كانت الأسرة هى التى تستقبـل الفرد منـذ ولادته وتستمـر معه مدة طويلة من حياته، بل هى التى تحيط به طوال حياته ، فهى العامل الأول الذى تتحدد به معالم

الشخصية وخصائصها وصفاتها ، كما أنها الوسيط بين الفرد والمجتمع ، فإذا كان هـذا الوسيط سليما قوياً أمد طرفيه ـ الفرد والمجتمع ـ بالسلامة والقوة .

لهذا اهتم الإسلام بالأسرة واتجه إليها يضع لها الأسس التى تـكفل قيامها ونموها نموا سليما ، ورفع مستواها وشأنها وبوثق العلاقات بـين أفرادها ويدعم كيانها ويؤمن حياتها .

ويتجلى لنا اهتمام الإسلام بالأسرة من حركة الدعوة الإسلامية منذ ساعاتها الأولى ، إذ كان من قدر الله تعالى أن يـكون من أول السابقين إلى الإسلام امرأة « خديجة عليها السلام »: إشادة بمنزلة المرأة فى الإسلام وأنه يرسى قواعده على الأسرة . وصبى « على كرم الله وجهه » : إشارة لحاجة الدعوة إلى البراعم الجـديدة واهتمامها بالجيل الناشىء لتسير فى مراحلها الصحيحة لبناء المجتمع المسلم .

● وإذا كانت الدعوة الإسلامية قد ورثت مجتمعاً مثقلا بجرائم فساده وانهيـاره ، يواجه أخطر التحديات فى تاريخه ، بسبب ما تقوم به قوى النفوذ الاستعمارى بدوائره اليهودية والصليبية والشيوعية من تنفيذ مخطط الهدم لـكل مقومات الأمة ، المتمثلة فى الحركة التى استعلنت باسم « حركة تحـرير المرأة » ، التى حمل لواءها نساء ورجال قطعوا كل صلة لهم بنسبهم الإسلامى الأصيل ، وجعلوا كل ولائهم لحضارة الغرب وقيمها وتقاليدها .

لقد استهدفت هذه الحركة تفكك الأسرة وانحلال الأخلاق واستباحة العرض الإسلامى ، بإحداث ثغرات وتأصيل مفاهيم جـديدة باسم التقدم تدوراً فى إطار المفهوم الغربى العـارى من أسالب العفة والقيم والحصانة ،

وبالفعل تأصلت هذه المفاهيم الخاطئة لدى بعض ذرارى المسلمين وأصبحت فى عقولهم المريضة فى عداد المسلمات، فانحرفوا باتجاه المرأة المسلمة ورسالتها فى الحيـــاة وعملوا على إفساد علاقاتنا الاجتماعية عن طريق مواقعهم فى مؤسساتنا الإعلامية والتربوية فزدنا ضعفاً على ضعف ، وعمت الفـوضى حياتنا وابتعدت عن الصورة الكريمة العزيزة النظيفة للحياة الإسلامية .

والحق الذى لا مراء فيه أن هذه الجماعات لم تكن مخلصة لهذه الأمة أو صـادقة فى الناس هدف أصيل ، إذ أخذت على عاتقها كل عمليات تذويب ومسخ الشخصية المسلمة والقضاء على البقية البـاقية من معالمها ، وإيجاد وشائج وصلات تربطنا بوثنيات الحضارة الأوربية وأصولها الانحلالية المتهافتة وقطع كل ما يصلنا بنسبنا الإسلامى العريق .

فبرز الإمام البنـا يعيد لهذه الأمة أهدافهـا الأصيلة فى عملية التحول الاجتماعى ، ويضع أمام أنظار العاملين لاستئناف الحيـاة الإسلامية معالم الخطة النبوية الكريمة التى قامت على أساسها خير أمة أخرجت للناس ، وعلى أساسها تبعث هذه الأمة من جديد.

يقول رضى الله عنه : « وينظر الناس فى الدعوات إلى مظاهرها العملية وألوانها الشـكلية ويهملون كثيراً النظر إلى الدوافع النفسية والإلهامات الروحيـة ، التى هى فى الحقيقة ورد الدعوات وغذاؤها وعليهـا يتوقف انتصـارها ونماؤها . وتلك حقيقة لا يجـادل فيها إلا البعيد عن دراسـة الدعوات وتعرف أسرارها ، إن من وراء المظاهر جميعاً فى كل دعوة لروحاً دافعة ، وقوة باطنة تسيرها وتهيمن عليها وتدفع إليها ،ومحال أن تنهض أمة بغير هذه اليقظة الحقيقية فى النفوس والأرواح والمشاعر : « إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ولهذا أستطيع أن أقول ، إن أول ما نهتم له فى دعوتنا ، وأهم مانعول عليه فى نمائها وظهورها وانتشارها هذه اليقظة الروحية المرتجاة . فنحن نريد أول مانريد يقظة الروح وحياة القلوب وصحوة حقيقية فى الوجدان والمشاعر ، وليس يعنينا أن نتكلم مما نريد بهذه الدعوة من فروع الإصلاح فى النـواحى العملية المختلفة بقدر ما يعنينا أن نركز فى النفوس هذه الفكرة .

نحن نريد نفوسـاً حية قوية فتية ، قلوباً جـديدة خفاقة ، ومشاعر غيورة ملتهبة طموحة متطلعة متوثبة تحدد مثلا عليا ، وأهدافاً سامية لتسمو نحوها وتتطلع إليها ثم تصل إليها ، ولابد من أن تحـدد هذه الأهداف والمثل ، ولا بد من أن تحصر هذه العواطف والمشاعر ، ولابد أن تركز حتى تصبح عقيدة لا تقبل جدلا ولا تحتمل شـكا ولا ريباً . وبغير هـذا التحديد والتركيز سيكون مثل هذه الصحوة مثـل الشعاع التائه فى البيداء لا ضوء له ولا حرارة فيه .

.. فما حدود هذه الأهداف وما منتهاها ؟

إننا نتحرى بدعوتنا منهج الدعوة الأولى . ونحاول أن تـكون هذه الدعوة الحديثـة صدى حقيقياً لتلك الدعوة السابقة التى هتف بها رسول الله ﷺ فى بطحاء مكة قبل ألف ومئات من السنين ، فما أولانا بالرجوع بأذهاننا وتصـوراتنا إلى ذلك العصر المشرق بنور النبوة ، الزاهى بجلال الوحى لنقف بين يدى الأستاذ الأول ، وهو سيد المربين وفخر المرسلين الهادين لنتلقى عنه دروس الإصلاح من جديد ، وندرس خطوات الدعوة من جديد ...

إن النبي ﷺ قذف فى قلوب صحابته بهذه المشاعر الثلاثة ، فأشرقت بها وانطبعت عليها :

(أ) قذف فى قلوبهم : أن ما جاء به هو الحق وما عداه هو الباطل وأن رسالته خير الرسالات ، ونهجه أفضل المناهج ، وشريعته أكمل النظم التى تتحقق بها سعادة الناس أجمعين ، وتلا عليهم من كتاب الله ما يربط عليهم هذا المعنى ثباتاً فى النفس وتمكناً فى القلب : « فاستمسك بالذى أوحى إليك ، إنك على صراط مستقيم » « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » « فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين » « ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » . . . فآمنوا بهذا واعتقدوه وأصدروا عنه .

(ب) وقذف فى قلوبهم أنهم ماداموا أهل الحق ، وما داموا حملة رسالة النور وغيرهم يتخبط فى الظلام ومادام بين أيديهم هـــدى السماء لإرشاد الأرض ، فهم إذن يجب أن يكونوا أساتذة الناس ، وأن يقعدوا من غيرهم مقعد الأستاذ من تلميذه يحنو عليه ويرشده ، ويقومه ويسدده ويقوده إلى الخير ويهديه سواء السبيل .

وجاء القرآن الكريم يثبت هــذا المعنى ويزيده كذلك وضوحاً . وصاروا يتلقون من نبيهم من وحى السماء . « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ... فآمنوا بهذا أيضاً واعتقدوه وأصدروا عنه .

(ج) وقذف فى قلوبهم أنهم ماداموا مؤمنين بهذا الحق معتزين بانتسابهم إليه ، فإن الله معهم يعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيدهم إذا تخلى عنهم الناس ، ويدفع عنهم إذا أعوزهم النصير ، وهو معهم أينما كانوا ، وإذا لم ينهض معهم جند الأرض تنزل عليهم المدد من جند السماء وأخذوا يقرأون هذه المعانى واضحة فى كتاب الله : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » . . . « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » . . قرأوا هذا وفقهوه ، فآمنوا به واعتقدوه وأصدروا عنه .

وبهذه المشاعر الثلاثة : الإيمان بعظمة الرسالة والاعتزاز باعتناقها والأمل فى تأييد الله إياها ، أحياها الداعى الأول ﷺ فى قلوب المؤمنين من صحابته بإذن الله وحدد لهم أهدافهم فى هذه فاندفعوا يحملون رسالتهم محفوظة فى صدورهم ومصاحفهم بادية فى أخلاقهم وأعمالهم معتدين بتكريم الله إياهم واثقين بنصره وتأييده فدانت لهم الأرض وفرضوا على الدنيا مدنية المبادىء الفاضلة وحضارة الأخلاق الرحيمة العادلة وبدلوا سيئات المادية الجامدة إلى حسنات الربانية الخالدة ويأبى الله إلا أن يتم نوره . .

الفرد المسلم ، البيت المسلم ، الأمة المسلمة

وهذا الشعور القوى الذى يجب أن تفيض به النفوس وهذه اليقظة الروحية التى ندعو الناس إليها لابد أن يكون لها أثرها العملى فى حياتهم ولابد أن تسبقها ولاشك نهضة علمية تتناول الأفراد والأسر والمجتمعات.

(ا) ستعمل هذه اليقظة عملها فى الفرد، فإذا به نموذج قائم لما يريده الإسلام فى الأفراد ، يريد فى الفرد وجداناً شاعراً يتذوق الجمال والقبح ، وإدراكاً صحيحاً يتصور الصواب والخطأ، وإرادة حازمة لا تضعف ولا تلين أمام الحق

وجسماً سليما يقوم بأعباء الواجبات الإنسانية حق القيام ويصبح أداة صالحة لتحقيق الارادة الصالحة وينصر الحق والخير .

وقد وضع الإسلام تكاليفه الشخصية على القواعد التى توصل إلى هذه النتائج كلها ، فــى العبادات الإسلامية أفضل مايصل القلب بالله ، ويربى الوجدان الشاعر والإحساس الدقيق .

وفى النظر الإسلامى ما يرقى بالعقول والألباب ويدفعها إلى كشف ستائر الكون ومعرفة حقائق الوجود .

وفى الخلق الإسلامى مايربى الإرادة الحازمة والعزيمة الماضية الصارمة ، وفى النظام الإسلامى فى الطعام والشراب والمنام وتوابع ذلك من شئون الحياة ما لو اتبعه الفرد لحفظ جسمه من مهلكات لا دواء لها والفضل فى وقاية من فواتك الأمراض .

ولهذا يجب على الأخ المسلم أن يتعبد بما أمره الله به ليرقى وجدانه وأن يتعلم ما وسعه العلم ليتسع إدراكه وأن يتخلق بأخلاق الإسلام لتقوى إرادته وأن يلتزم نظام الإسلام فى الطعام والشراب والنوم ليحفظ الله عليه بدنه من غوائل الأمراض والسقام ، والإسلام حين يضع هذه القواعد لايضعها للرجال ويدع النساء ولكن الصنفين فى هذه الناحية الفردية فى الإسلام سواء ، فعلى الأخت المسلمة أن تكون كالأخ المسلم فى دقة وجدانها وسمو إدراكها ومتانة خلقها وسلامة بدنها .

(ب) وسيكون لهذا الإصلاح الفردى أثره فى الأسرة ، فإنما الأسرة مجموعة أفراد ، فإذا صلح الرجل وصلحت المرأة وهما عماد الأسرة . . استطاعا أن يكونا بيتا نموذجياً على القواعد التى وضعها الإسلام . وقد وضع الإسلام قواعد البيت فأحكم وضعها فأرشد إلى حسن الاختيار وبين أفضل الطرائق للارتباط وحدد الحقوق والواجبات وأوجب على الطرفين

رعاية ثمرات هذا الزواج حتى تينع وتنضج في غير عبث ولا إهمال ، وعالج مايعترض هذه الحياة الزوجية من مشكلات أدق علاج وأختط فى كل نظراته طريقاً وسطاً لاتفريط فيه ولا إسراف .

(ج) وإذا صلحت الأسرة فقد صلحت الأمة، وإنما الأمة مجموعة هذه الأسر، وإنما الأسرة أمة مصغرة، والأمة أسرة مكبرة . وقد وضع الإسلام للأمة قواعد الحياة الاجتماعية السعيدة فعقد بينها آصرة الأخوة وجعلها قرينة الإيمان ورفع مستوى هذه الصلة إلى المحبة بل إلى الإيثار وقضى على كل ما من شأنه أن يمزق هذه الروابط أو يضعف هذه الوشائج وحدد الحقوق والواجبات والصلات . فللأبوة حقها وعليها واجبات . وللبنوة مثل ذلك ، ولذوى القربى حقوقهم وعليهم واجباتهم ، وفصل مهمة الحاكم والمحكوم أدق تفصيل و بين أحوال الناس بأفصح بيان ولم يجعل لأحد على أحد فضلا إلا بالتقوى ، فلا سيد ولا مسود ولا أمراء ولا عبيد ولكن الناس أمام الله سواسية كأسنان المشط ، إنما يتفاوتون بعمل الصالحات . وكذلك حدد صلات الأمم بعضها ببعض و بين حقوق كل صنف فيها وواجباته ولم يدع من ذلك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وقد عالج الإسلام بعد ذلك مشاكل المجتمعات : فالوقاية مما يؤدى إليها أولا . واستئصال ماعساه أن يحدث منها ثانيا فلكل مشكلة اجتماعية عنده دواء . والدواء الأول فى كل علاج صلاح النفوس والتضامن الاجتماعى بين بنى الانسان .

والاسلام يحيط بكل ذلك ولا يسلك سبيل العنت ولا يحمل الناس إلى مايؤدى إلى الحرج ، ولكن يريد بالناس اليسر ولا يريد بهم العسر ويضع القواعد الكلية ويدع الفرعيات والجزئيات ويرسم طرائق التطبيق ،

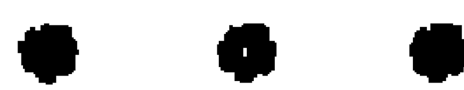
ويـكل للأزمان والعصور بعد ذلك أن تحمل عملها ، وهو لذلك شريعة كل زمان ومكان وهو لذلك يفرض نشر الدعوة حتى تشمل الناس أجمعين ويتحقق قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فإذا قـوى الشعور الذى أشـرنا إليه آنفا ، وأدى إلى النتيجة التى وضحناها الآن فطبق نظام الإسلام على الفرد والبيت والأمة ، ووصلت الرسالة إلى القلب والوجدان ، فقد نجحت فكرتنا واستجيبت دعوتنا ويأبى الله ألا أن يتم نوره .

بين الصبغة الاستقلالية والصبغة التقليدية

نحن نريد الفرد المسلم ، والبيت المسلم ، والشعب المسلم .

ولـكنا نريد قبل ذلك أن تسود الفكرة الاسلامية حتى تؤثر فى كل هذه الأوضاع وتصبغها صبغة إسلامية وبدون ذلك لن نصل إلى شىء . نريد أن نفكر تفكيراً استقلالياً يعتمد على أساس الاسلام الحنيف، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شىء . ونريد أن نتميز بمقومات ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة مجيدة تجر وراءها أقوم وأفضل ماعرف التاريخ من دلائل ومظـــاهر الفخار والمجد (١) .



(١) عن رسالة دعوتنا فى طور جديد للإمام الشهيد حسن البنا

وبعد استعراضنا لهذه الكلمات الغالية للإمام البنا التى أرشدنا بها إلى المنهج النبوى الكريم فى بعث الشخصية المسلمة التى يقوم على عاتقها بناء البيت المسلم والأمة المسلمة من جديد . . بعد هذا العرض يصبح من الجلى أننا استلهمنا خطتنا فى هذا الكتاب من هذه الكلمات التى آثرنا أن نورد نصها فى هذه المقدمة .

ـ وبذلك يتبين لماذا بسطنا البحث فى خصائص المنهج القرآنى فى تربية الفرد وبناء الجماعة كما جاء فى الفصل التمهيدى ، لأننا نريد كما يقول الإمام البنا « أن تفكر تفكيراً استقلالياً يعتمد على الإسلام الحنيف » .

ـ ويأتى بعد ذلك الباب الأول ليدحض زيف الحلول الدخيلة لمشكلات المرأة والأسرة ويفضح مخططات الهدم والجماعات الضالعة فى تنفيذ هذه المخططات .

ـ ثم تجىء بقية أبواب الكتاب فى كيفية بناء الأسرة المسلمة كما يجب أن تكون . والأخوات المسلمات ومكانتهن ودورهن فى حركة التحول الاجتماعى الإسلامى المعاصر ، وبأى المناهج تتكون الأخت المسلمة .

فإن كنا قد وفقنا فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وإن كنا لم نبلغ الغاية ، فنسأل الله العفو ، فهذا جهد العاجز الضعيف ، الذى حاول أن يقطف من كل بستان زهرة ويضع ماقطفه فى هذا النسق .

والله أكبر ولله الحمد ؟

فصل تمهيدي

نظرات في المنهج القرآني في تربية الفرد وبناء الجماعة

« الخصائص »

- بين الوسائل والأهداف
- التكامل والشمول
- التحرر
- الايجابية
- التوازن
- الواقعية
- التقدم والتطور
- التكافل والعدل
- التميز

بين

الوسائل والأهداف

إن حاجتنا إلى اجتياز مشكلات أمتنا الإسلامية وتفككها وضعفها وهوانها على الأمم لاتتحقق إلا فى حدود ما يكون لنا من إخلاص وهمة صادقة على بعث الفاعلية القرآنية فى النفوس مع ما نملكه من وسائل وأساليب منهجية للتسامى الروحى فى الوعى الإنسانى . . هذا التسامى هو الذى يحول الإنسان «ذكراً وأنثى» - وهو قاعدة أى نهضة - إلى أمر صارم للعمل ، ويستثير همته إلى البذل والتضحية ، وبهذا نكون قد سلكنا الطريق الصحيح إلى قيام المجتمع المسلم ليستأنف رسالته فى الحياة .

إن أى سياسة تربوية لاتعمل على تغيير مابالنفس ، وهو يحفزها للتفوق على ذاتها ، وانبعاثها وتزويدها بقيمتها الايجابية .. بتخليصها من أهوائها وكل ماران عليها من ركام الجاهلية ، هى سياسة لاتريد أن تجتاز بهذه الأمة صعوباتها ومشكلاتها . إن عجز العالم الإسلامى الحديث يكمن فى بناء الإنسان المسلم نفسه الذى يعانى من شلل أخلاقى واجتماعى وفكرى ، هذا العجز يمتد بجذوره إلى نفس هذا الانسان - فرداً وأسرة - فكيف تنبعث هذه النفس ؟

وكيف تستأنف الحركة من السكون وبلادة الحس ؟

وكيف ينسجم لها تفكير فى خضم هذه الثقافات والمناهج المضطربة المتنافرة ؟

وكيف يستقيم لها خلق فى أوحال هذا السقوط والانحلال ؟

والمسألة كذلك ليست فى أن نعلم الانسان ألفاظاً وشعارات ، كما أن المسألة ليست فى أن نغنى له لحن « الحرية والعزة والكرامة » ، فهو يعرف هذه الأغنية ، وليست المسألة كذلك فى أن نقول له ونكرر بأن له حقوقاً وعليه واجبات ، فهو يعرف هذا القول أيضاً ، وليس علينا أن نلقنه فضائل التكافل والوحدة المقدسة ، ففطرته وغريزته الجماعية مركوز فيها هذه المعانى فهى أمر من أمور البداهة عنده ، وبتعبير آخر ليس علينا أن نلقنه . أو أن نعرفه ما قد عرفه من قبل ، بل الذى علينا هو أن نسلك به المنهج الناجح لاستنهاض مواهبه وتقويم معارفه فى شكل جماعى واقعى ملموس لتحقيق دوره فى الحياة وبناء حضارته وبتعبير أدق ليست القضية أن نحدثه عن ضياعه وضعفه وتمزقه وحقوقه المهضومة وحرياته المسلوبة وفضائل العودة إلى الاسلام وشريعته ، بل الذى علينا أن نعلمه ونمرنه على الوسائل والأساليب والأعمال التى يسترد بها ما سلب منه ، وهى الوسائل والأساليب والأعمال المعبرة عن واجباته كانسان صاحب رسالة وحضارة .

إن عمل السياسة التربوية الرشيدة ، هو فى الواقع توفير لكل الأساليب العملية ، وتهيئة لكل الشروط النفسية والمادية الكفيلة بظهور الانسان المسلم ، ذكراً وأنثى من جديد ليستأنف حركته على الأرض ومع الناس بمنهاج الخلافة عن الله .

ولكى نصل إلى هذا الهدف . . هدف بروز الإنسان المسلم من جديد ، لابد أن نبدأ أولا بتصحيح الفهم . فهم عقائد الاسلام وتصوراته عن الله والانسان والحياة ، فقد مسخت هذه العقائد فى كثير من عقول المسلمين ولحقها فساد التأويل ، وهو الفساد الذى كان من نتائجه أن استغل الاسلام ضد طبيعته وروحه لعرقلة انبعاث الشخصية المسلمة ، وذلك

بافتعال تفسيرات له تنحرف بل تتصادم مع حكمته الالهية السامية ، كما كان من نتائج فساد التأويل «أن تصور بعض الناس واهمين أن عليهم أن يختاروا بين رفض التقدم باسم دين تصوروا أنه يقف فى وجه الحياة . . وبين حياة تدار شئونها بعيداً عن الدين وتوجيهاته فخسروا وخسر الناس معهم على الحالين» .

والتصحيح الذى نقصده يهدف الى القضاء على الافكار الخبيثة والأعمال المضللة لفصل الدين عن الحياة .. حياة الفرد وحياة الأسرة وحياة المجتمع وتصويره على أنه عالم مستقل لايتجاوز عتبة المسجد . وهو التصور الذى أوجد عند كثير من ذرارى المسلمين نوعا من ثنائية الحياة والاتجاه ، فتمزقت نفس الانسان المسلم وتبددت طاقتها ، فتوقفت عجلة التقدم فى ربوع العالم الاسلامى فأصبحت ناصية أمورنا بيد أعدائنا ، بعد أن تأثرنا بهم واستجبنا لهم وارتكبنا معهم كل الموبقات فأذاقنا الله لباس الخوف والذل .

أما وقد جربنا كل المناهج ، وفشلنا فى أن نلمس أوتار النفس المسلمة ، كما فشلنا فى تفجير طاقتها المذخورة ، ذلك أن الناس فى هذه الأمة الاسلامية بالذات لاينصلحون ولا تنصلح أحوالهم إلا إذا عرفوا ربهم وعدنا بهم إلى منهجه . .

القول الفصل فى حل مشكلات الأمة الاسلامية ، هو فى قيامها على على أمر الله ، ولا يتأتى لها ذلك إلا إذا عرفت الله وتفتحت قلوبها عليه ، «فاذا لامست معرفة الله قلب الانسان تحول من حال إلى حال ، وإذا تحول القلب تحول الفرد ، وإذا تحول الفرد تحولت الأسرة ، وإذا تحولت الأسرة تحولت الأمة ، وما الأمة إلا مجموعة أسر وأفراد (١) » .

---

(١) من كلمات للامام الشهيد حسن البنا .

والواقع أننا لو نعرف شأن الأسرة فى عملية التحول هذه لأدركنا أنها قطب الرحى ومركز الدائرة بالنسبة لتحول الفرد وتحول المجتمع، فالأسرة أصل الفرد، وهى فى ذات الوقت أصل المجتمع ووحدته الأولى، الأمر الذى يجعلنا ندرك أيضا سر عناية الإسلام بها ومجىء أحكامه بشأنها فى بيان وتفصيل، فالأسرة فى نظام الإسلام مؤسسته التربوية الأولى، فهى المحضن الذى يتربى فيه الطفل، ويتشرب منها أخلاق الإسلام وعقائده وشرائعه وتاريخه، وهى التى تقوده إلى المسجد مؤسسة التربية الثانية فى الإسلام وتترتب على هذه المهمة الضخمة الخطيرة الهائلة الملقاة على عاتق الأسرة كل صورة المجتمع المقبلة .

فعلى الأسرة إذن يقع العبء الأكبر من واجب التنشئة الاسلامية فى جميع مراحل الطفولة بل فى المراحل التالية لها كذلك، وفى ظل الأنظمة العلمانية التى تحكمنا وتعمل مؤسساتها التربوية والاعلامية على تشويه حقائق الدين وتأويله تأويلا فاسداً يتصادم مع حكمته الالهية السامية، كما تروج لكل تيارات الغرب الفكرية والأدبية والفنية والتربوية العاملة على مسخ الشخصية المسلمة وانحلالها . . فى ظل هذه الأنظمة يقع عبء التربية الاسلامية الأكبر على عاتق الأسرة .

وللاسلام منهجه المتفرد فى تربية الفرد وبناء الجماعة الذى يختلف عن غيره من المناهج فى أنه منهج ربانى وأنها مناهج وضعية، ومن هذه النقطة تبدأ سائر الاختلافات بين طبيعة المنهج الاسلامى وطبيعة هذه المناهج .

ولكى نكشف عن طبيعة ذلك الاختلاف الأساسى إجمالا فاننا نقول : إن المناهج الوضعية هى من صنع المجتمع، يصوغها هو ويكيفها وفق

ارتباطاته أو وفق حاجاته ، أو وفق تصوراته . على حين أن المنهج الاسلامى من نتاج الوحى الالهى ومتكيف به ومحكوم باتجاهاته ، بل ناشىء أصلا من فاعليته .

والله سبحانه يقول «كنتم خير أمة أخرجت للناس»[1] وهذا التعبير «أخرجت» يدل دلالة كاملة على حقيقة تكوين الأمة المسلمة ونشأتها، وطبيعة المنهج التربوى الذى أخرجها ، فهى أمة مخرجة إخراجاً وفق اتجاه معين ، يمثله منهج معين ، وهى لم تخرج نفسها فى وضع اختارته ، ولم تصنع منهجها من ذات نفسها ، وإنما صيغ لها هذا المنهج وأخرجت على وفقه إخراجاً ربانياً وفق منهج ربانى .

خصائص المنهج القرآنى

فى تربية الفرد وبناء الجماعة

كان الرسول ﷺ وخلفاؤه من بعده حريصين كل الحرص على تربية الأمة تربية قرآنية ، وإقامة الدولة على أساس قرآنى سليم . ومن واقع التاريخ الاسلامى يبرز عنصر التربية القرآنية واضحاً فى فتراته المشرقة ، وحين تخلف هذا العنصر وقلت العناية به ، أو شغلت الدولة عنه وصرفت إلى غيره من المناهج الوضعية ، دب الضعف فى كيان الفرد وبناء الأسرة فأصاب الأمة ماأصاب الأمم قبلها من نزاع وتخلف وانحلال ، ومازال القرآن باقياً ، ومازال غضاً طرياً فيه من الاعجاز الذى يبلغ بالأمة الاسلامية مابلغ بها من قبل إذا وجد حملة ودعاة ومؤمنين .

---

(١) سورة : آل عمران ١١٠

والقرآن منهج فريد فى التربية ، يربى بآياته متى صادف الفطرة السليمة ، والقلب الذكي ، والعقل الواعى ، والقدوة الحسنة . . هذا المنهج له خصائصه التى تميزه عن غيره من المناهج ، تنبثق هذه الخصائص من خاصية الربانية فهو منهج ربانى موحى به من الله ـ سبحانه ـ ومحصور فى هذا المصدر لايستمد من غيره .

الخاصية الاولى :

التكامل والشمول

والمقصود بالتكامل والشمول أن أحكام الاسلام المختلفة وتوجيهاته فى مجال العقيدة أو فى مجال السلوك الفردى أو فى نطاق النظام الاجتماعى ، ترتبط كلها فى وحدة محكمة ، وترتد كلها إلى تصور شامل للحياة وحقائقها وكل مافيها ، ومعنى هذا أن الخطأ المؤدى إلى سوء الفهم ونقص التصور بل اضطرابه أن ينتزع جزء من أحكام الاسلام فى التربية الأخلاقية أو فى غيرها وأن يدرس ويحلل أو يعمل به بعيداً عن سائر أجزاء البناء المتكامل الذى يقيمه لتربية الفرد وتكوين المجتمع ، ومن هنا نستطيع أن نقرر فى يقين أن مما يخالف المنطق العلمي فى دراسة أى حكم من أحكام الاسلام أن يفصل هذا الحكم من الصورة العامة التى يقيمها الاسلام للوجود وحقائقه وقيمه ونظمه . إن دين الله تتفاعل فيه العقائد والشرائع والتوجيهات الأخلاقية وتتصل فيه الدنيا بالآخرة وترتبط فى نظامه مصالح الفرد بمصالح الجماعة .

ولهذا أيضا يكون المنهج الصحيح فى عرض منهج الاسلام فى تربية الفرد وبناء الجماعة أن يعرض نظام الاسلام فى هذا المجال مرتبطا بأساسه العقائدى لأن هذا الأساس العقائدى المميز هو الذى يحدد جذور التكوين

النفسي أو العقلي للفرد والأمة وهو الذي تصاغ على أساسه قيمها ومفاهيمها وموازينها .

والتكامل في منهج الإسلام يرجع إلى وحدة مصدره من ناحية ووحدة موضوعه من ناحية أخرى :

(أ) أما وحدة المصدر : فردها أنه منهج رباني وصاحب العقيدة فيه هو صاحب الشريعة « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (١) »

فمصدر أحكام الاسلام كلها التنزيل السماوي الموحى به إلى الرسول الكريم (قرآنا وسنة) ، فالقرآن هو كتاب الله وتنزيله الكريم : « إنا نحن نزلنا عليك [القرآن تنزيلا » (٢) ، وسنة رسول الله التي هي المأثور عنه في تبليغ رسالة ربه من قول أو فعل أو تقرير ، هي من الوحي أيضا « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » (٣) .

وقد أمرنا الله في شأن اتباع الرسول أمراً بيّنا : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » (٤) . « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » (٥) .

هذا ، وباستعراضنا للأسلوب القرآني نجد ترابطا ووحدة بين الايمان والتكليف ، فخطاب التشريع في القرآن لا ينفصم عن وصف الايمان في الجماعة المسلمة المكلفة بهذا التشريع ، فالايمان هو أساس التكليف ، وهو الوازع العميق في نفوس هذه الجماعة والحارس الأول على أمر الله فيها .

---

(١) سورة النساء : ٨٢
(٢) سورة الإنسان : ٢٣
(٣) سورة النجم : ٢
(٤) سورة النساء ٦٥
(٥) سورة النساء : ٨٠

« وإنك لتقرأ القرآن فى نور هذا المعنى فيأخذك أسلوبه الالهى القاهر فى مخاطبة هذا الايمان . وفى دأبه على تحريكه واستثارته وتزكيته : فهو حين يشرع مناسك الحج يردفها بقوله : واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون » (١) . وحين يفصل فى الانفاق يعقب بقوله : « وماتفعلوا من خير فإن الله به عليم » (٢) . وحين يفرض القتال يقول : « والله يعلم وأنتم لاتعلمون » (٣) . وحين يسرد أحكام النكاح يقول : « ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » (٤) . ويقول : واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين» (٥) . ويقول بعد آداب الخطبة : « واعلموا أن الله يعلم مافى أنفسكم ، فاحذروه واعلموا أن الله غفور حليم» (٦) ويقول بعد الطلاق والرجعة : « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر » (٧) . وبعد حد الزنا يقول : « ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» (٨) وبعد حد السرقة يقول : « نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » (٩) . وفى رعاية العهد : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين» (١٠)

وهكذا نجد الأسلوب الإلهى فى التشريع يذكر دائماً بالله الذى أحكمه وفصّله وأنزله « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (١١)

---

(١) سورة البقرة : ٢٠٣
(٢) سورة البقرة : ٢١٥
(٣) سورة البقرة : ٢١٦
(٤) سورة البقرة : ٢٢١
(٥) سورة البقرة : ٢٢٣
(٦) سورة البقرة : ٢٣٥
(٧) سورة البقرة : ٢٣٢
(٨) سورة النور : ٢
(٩) سورة المائدة : ٣٨
(١٠) سورة التوبة : ٧
(١١) سورة هود : ١

ليستثير بالذكرى روح الإيمان فى الناس ، تارة بالترغيب فى مرضاته ورحمته وتارة بالترهيب من غضبه وعذابه ، والجنة والنار قائمتان تنتظران أهلها ؛ وليس بين الناس وبينهما إلا سكرة الموت بالحق ، ثم حساب بين يدى الله عسير ، وسؤال للناس عما فعلوا بالذى أنزل إليهم : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين (١) » .

(ب) وأما عن وحدة الموضوع: فإن موضوع وهدف التوجيهات والتكاليف الاسلامية هو « النفس الانسانية » أى حقيقة الانسان فى أعماقه التى لا يراها غير صاحبها وعين الله الناظرة إليه ، والتى تنبعث منها خواطر الخير والشر ، وتكون من عندها الحركة الأولى نحو الخير أو نحو الجريمة : « ونفس وماسواها فألهمها فجورها وتقواها » (٢) .

فمن غير المعقول ولا المقبول أن يتولى هذا الدين تنظيم جانب واحد من جوانب حياة هذا الانسان فيحكمها بمنطقه ويوجهها بموازينه ومنهجه . ثم يترك سائر جوانبها مهنياً لموازين غير موازينه ومناهج غير منهجه ، وذلك يعتبر تجاهلا شنيعاً لوحدة الكيان البشرى ، كما يعتبر من وجهة النظر الاسلامية تجاهلا لطبيعة هذا الدين الذى يقول كتابه : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٣) والذى جاء مستغرقاً للحياة مهيمنا على النفس . . ومن هنا كان تنظيم شئون الحياة المختلفة أمر تستوجبه طبيعة الاسلام ، ويصبح من الضرورى أن تكون العلاقة بين المسجد والبيت والشارع والمدرسة والصحافة والسينما والمحكمة والسوق التجارية والمصنع والمزرعة والسياسة فى الداخل والخارج وشئون السلم والحرب ،علاقة انسجام وتعاون على « الخُلق الرفيع »

(١) سورة النحل : ٦
(٢) سورة الشمس : ٧
(٣) سوره النحل : ١٦

الذى هو عمل الإسلام الرئيسى ، لا علاقة خصام وتدابر وتنافر والوحدة: الأخلاقية بين هذه كلها ـ فضلا عن أنها علامة الصدق على إسلام الأمة واتجاهها إلى الله ـ هى الضمان الرئيسى لبقاء كل فرد فى نفسه مسلماً ، فإن للمسلم نفساً واحدة يدخل بها المسجد ويدرس بها فى المدرسة ويقرأ بها فى الصحيفة ويمشى بها الشارع ويعمل بها ويتاجر بها ويسوس بها ولن يستطيع أن يعيش مسلما إذا تخلفت مناهج الأسرة والدراسة والصحافة والشارع وسوق التجارة والسياسة عن أخلاق الإسلام .

وجميل أن يلتفت المسلم إلى صورة هذه الوحدة فى صلواته كل يوم وليلة فهو ذا قائم فى المحراب يناجى ربه ، حتى إذا أشرق قلبه بمعانى فاتحة الكتاب وشرع يقرأ ما تيسر من القرآن .. رأيته يقرأ مرة آيات فى التقوى وحسن الخلق، ومرة أخرى آيات فى الوصية والميراث « وثالثة فى القانون المدنى ، ورابعة فى القانون الجنائى » وخامسة فى أحكام القتال والصلح والمعاهدات ، والمسلم الذى يقرأ كل ذلك هو هو لم يتغير » وكل ذلك قرآن أنزله الله الذى يقبل عليه بصلاته ويسجد خاشعا لجلاله وقل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض » .

فإذا أردنا أن نبين ونبسط البحث ـ بعد ذلك ـ لنبرز مظاهر تكامل المنهج الإسلامى فى ربطه بين الأســاس الاعتقادى والنظام الأخلاقى والاجتماعى لزمنا أن نحدد فى بساطة وإيجاز هذا الأساس الاعتقادى .

والأساس الاعتقادى للاسلام يقوم على الايمان بمبدأين أساسيين :

● أولهما : توحيد الله تعالى وافراده بالعبادة :

والتوحيد هو الحقيقة الأساسية فى العقيدة الاسلامية . فتقرر العقيدة

« أن هناك ألوهية وعبودية، ألوهية يتفرد بها الله ـ سبحانه ـ بخصائص الألوهية وتجرد العبيد من هذه الخصائص، وعبودية يشترك فيها كل حي وكل شيء .. ومن ثم يترتب على هذا التصور كل مقتضياته وكل ونتائجه في الحياة الانسانية » .

فمن مقتضيات عقيدة التوحيد : أن يعتقد المسلم « أن لا إله إلا الله ، وأن لا معبود إلا الله ، وأن لا خالق إلا الله ، وأن لا رازق إلا الله ، وأن لا نافع أو ضار إلا الله، وأن لا متصرف في شأنه ـ وفي شأن الكون كله ـ إلا الله. فيتوجه لله وحده بالشعائر التعبدية ، ويتوجه لله وحده بالطلب والرجاء ، ويتوجه لله وحده بالخشية والتقوى » .

ومن مقتضيات عقيدة التوحيد كذلك : أن يعتقد المسلم أن لا إله إلا الله ، وأن لا مشرع إلا الله ، وأن لا منظم لحياة البشر وعلاقاتهم وارتباطاتهم بالكون وبالأحياء وببني الانسان من جنسه إلا الله .. فيتلقى من الله وحده التوجيه والتشريع، ومنهج الحياة ، ونظام الحياة ، وقواعد الارتباطات ، وميزان القيم والاعتبارات .. سواء » .

إن عقيدة التوحيد « ليست مجرد تقرير غيبي لحقيقة الألوهية ، ولا هي مجرد إثبات فلسفي ، وإنما هي خطاب كامل للكينونة الانسانية بكل جوانبها وفي جميع أطوارها وحالاتها ، ومنهج شامل في الفكر والسلوك ، ومذهب رباني في الإصلاح ويستطيع المتأمل في جنبات النظام الاسلامي المتكامل أن يرى له العديد من النتائج والآثار .

إن عقيدة التوحيد إذ تستجمع الكينونة الإنسانية .. تستجمعها شعوراً وسلوكا وتصوراً واستجابة في شأن التصور والمنهج وشأن الاستمداد والتلقي وشأن الحياة والموت وشأن السعي والحركة . وشأن الصحة والرزق وشأن

الدنيا والآخرة ، فلا تتفرق مزقا ، ولا تتجه الى شتى السبل ، وتسلك شتى الطرق ..

إن عقيدة التوحيد حين تستجمع الكينونة الانسانية ومشاعرها تستجمع مشاعر الولاء والخضوع فى العقل والنفس وتردها الى الإله الواحد الذى «ليس كمثله شىء» والذى «لم يكن له كفواً أحد» ، كما تستنقذ فى نفس الوقت هذه المشاعر وتحررها من الاتجاه إلى أى مخلوق من الناس أو قوة من قوى الطبيعة والانسان ، أو حزب غير حزب الله أو منهج غير منهج الله . وقد حرم الله على المسلم أن يعطى ولاءه على أساس غير أساس الاسلام «أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء ، إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلا[1]» ،فهذا غير ممكن فى حق المؤمن ، لأن عباد الله لا يوالون أحداً من دون الله فكيف يوالون أعداء الله ؟!

إن فى كيان الانسان وتكوينه أنه لا يستطيع أن يعيش بغير ولاء .. والذين تصوروا ذلك وزعموه خرجوا من دين إلى دين . ولم يزيدوا أن استبدلوا إلهاً باله .. ولقد قيل بحق « إن الانسان لا يكون متدينا إلا إذا عبد إلهاً فحسب ، فلا يصبح متديناً حقا إلا عندما يخضع جميع منابع نفسه فى خدمة قضية أو موجود يستولى على المشاعر ويوجهها » ومعنى هذا أن الدين لازمة من لوازم النفس البشرية ، وأنه ليس فى وسع الناس أن يعيشوا بغير دين إلا أن يتخلصوا من طبيعتهم .

وأين تذهب مشاعر الدين فى غيبة عقيدة التوحيد . إن أوربا قد جربت هذا الهروب من الله فى أعقاب عصر النهضة حينما تمرد الناس على كل تبعية ورفضوا كل سلطان الله واختلط التمرد على الملوك بالتمرد على القساوسة

---

(١) سورة الانعام ١٥١

بالتمرد على الله .. فهل تحرر الإنسان فى ظل هذه الثورة من تبعات الخضوع التى يفرضها الايمان بالله لقد خرجوا من الخضوع لإله الكنيسة ليدخلوا فى الخضوع لآلهة حديدة هى المادة والشهوة وأهواء النفس .

إن ضغوط الأنانية ومطالب الأهواء المتفرقة .. وألوهية الناس قد فرضت على الملحدين تبعات أشد فداحة وأثقل وزنا من تبعات الخضوع للإله الواحد وصدق الله العظيم «أأرباب متفرقون خير، أم الله الواحد القهار؟!» «فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ؟!» بل إن عبادة الله لاتقتضى الإنسان ذلا ولا قهراً ولا تكلفه أتاوة يقدمها صاغراً وهو لا يفهم لها معنى : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ».

أما عقيدة التوحيد فإنها تستنقذ الانسان وتحرره من تبعات هذا الولاء المشتت وعبادة الله وحده، تقتضى التحرر من سلطان الخلق أجمعين «وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » ، « فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فالله وحده هو الذى « لايسأل عما يفعل وهم يسألون » ، وهو وحده الذى « يعلم وأنتم لاتعلمون » وهو الذى « لايحمد على مكروه سواه » .

أما موقف الناس من الناس ، فأساسه الحرية وقوامه المساواة ، ولذلك قيل بحق أن لا إله إلا الله إعلان للاخوة الانسانية عن طريق إفراد الله بالربوبية .

ومن هنا نستطيع أن نقول فى وضوح أن الايمان بالله وحده ينعكس اجتماعياً وأخلاقياً فى صورة قيمتين أساسيتين هما : الحرية والمساواة .

والإيمان بالله وحده ـ فوق ذلك ـ هو الذى يطبع الفرد المؤمن والأمة المؤمنة بموقف الصلابة فى الحق ويمدها بروح الجهاد والصبر عند لقاء الظلمة والمعتدين . . لأن المؤمنين كما يصفهم القرآن الكريم « يجاهدون فى سبيل

الله ولا يخافون لومة لائم ».. لأنهم يؤمنون بإله واحد « يرجون رحمته ويخافون عذابه »، والإيمان بالله . هو الذى يجعل الفرد المؤمن مؤتمناً على عمله حريصاً على إتقانه وإجادته .ولو غفلت عنه عين الدولة وحراسة القانون لأنه يقرأ من ربه قوله تعالى « ألم يعلم بأن الله يرى » ويسمع من نبيه ﷺ « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » رواه البخارى

من أجل ذلك لا نبالغ إذا نحن قلنا أن الخطوة الأولى فى منهج الإسلام التربوى أنه يبدأ بغرس عقيدة الإيمان بالله .. وتوحيده .. لأنه بقدر ما تستقر هذه العقيدة فى النفس يكون انطلاقها إلى سائر الفضائل الخلقية .. ويكون استعدادها لإقامة سائر أحكام الإسلام، ولهذا لم يكن غريباً أن يمضى الرسول ﷺ ثلاثة عشر عاماً فى مكة يعلم الناس التوحيد.. ولو كان الأمر فى التوحيد أمر تقرير فلسفى لما احتاج أكثر من ساعات.. ولكن الأمر فيه أمر استخلاص مشاعر النفس وملكات العقل وحركات الجوارح حتى تسلم كلها لله . متحررة من ذل العبودية لسواه ويكون حالها كما كان حال أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

• وثانيها : الإيمان بالغيب :

والغيب هو ما غاب عن العباد وخرج عن مدركاتهم الحسية ، وهو العتبة التى يجتازها الإنسان ، فيتجاوز مرتبة الحيوان - الذى لا يدرك إلا ما تدركه حواسه - إلى مرتبة الإنسان الذى رفع الله قدره بين الأحياء بنفخة الروح التى نفخها فيه ، وجعل ملكته الكاشفة يكتشف بها فى آفاق الغيب، فارتفع عن أفقه هذا المحدود بالمشهود .

فنى شفت الروح وأزاحت الحجب بينها وبين المشهود والمغيب ، يكون الإيمان بالغيب عندئذ هو الثمرة الطبيعية لإزالة الحجب الساترة واتصال الروح بالغيب والاطمئنان إليه .

ولذلك كانت أول صفة للمتقين فى القرآن الكريم : أنهم « يؤمنون بالغيب » التى فسرها بعض السلف فقال : « يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وجنته وناره ولقائه ، ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله (١) » .

وجاءت خيرية الفئة المؤمنة بعد جيل الصحابة من صفة الايمان بالغيب ، عن ابن محيريز قال : « قلت لأبى جمعة : حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال : نعم ، أحدثك حديثا جيداً : تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح ، فقال يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك . قال : نعم ، قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » .

هذا الاكتشاف لآفاق الغيب والايمان به ، هو فى واقع الأمر نقلة بعيدة الأثر فى تصور الانسان لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة وجوده الذاتى كخليفة ، ولحقيقة القوى المنطلقة فى كيان هذا الوجود (ملائكية وشيطانية) وفى إحساسه بالكون وما وراء الكون من قدر الله وتدبيره وجنته وناره . كما أنها نقلة بعيدة فى حياته على الأرض ، فهو إذ يستمد مثله وقيمه ومادة معارفه من أفق الحق الأعلى ، لكى يقرها فى هذه الأرض ، سلوكا وأوضاعا ومعاملات وعرفاً صالحا ، إنما يهب لعالمنا هذا المشهود أمراً ليس من طبيعته ، أو يدخل على أرضنا هذه لونا ليس من قبيل مادتها

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٦٣ ط الشعب .

وعناصرها .. فهو حامل « روح » من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، وجالب « حق » من كون إلى كون ، وناقل « رحيق » من عالم قدسى إلى عالم يراد له أن يتقدس ويتطهر كل ما فيه من أعمال العباد ومجتمعاتهم .

إنها نقلة بعيدة فى حياته على الأرض ، فالإيمان مثلا بضرورة حدوث اليوم الآخر هو الذى يدفع الانسان المؤمن إلى الجهاد الدائم لتحقيق الهدف الذى خلقه الله له . مستهيناً بكل العقبات « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً ، وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق (١) » . إن الإيمان باليوم الآخر يستتبع بالضرورة وجود رقابة على كل الناس، على كل صغيرة وكبيرة يقومون بها، ابتداء من النفس وانتهاء بأحداث الحياة ، وذلك حتى يحاسبوا عليها حساباً دقيقاً عادلا لا ظلم فيه ، فهناك رقابة الله المباشرة : « يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور » (٢) ، وهناك لكل إنسان ملكان غير منظورين يسجلان له كل أعماله ونياته . « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد(٣) » « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (٤) فى كتاب منذ انطلاق نفسه الأول فى هذه الأرض ، وحتى آخر نفس عليها .

إن تحقيق العدل المطلق الذى جاء به الإسلام ، والذى تبذل من أجله الدماء والأرواح والأموال والأوقات ، إن هذا العدل لايمكن أن يتحقق فى واقع الحياة بدون حساب أو جزاء ينتظر الناس فى اليوم الآخر «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين(١) » .

---

(١) سورة المؤمنون : ١٥ (٢) سورة غافر : ١٩
(٣) سورة ق : ١٨ (٤) سورة الجاثية : ٢٩

وللمنهج الإسلامى عندما يتناول الكائن الإنسانى بالتربية و الإصلاح يتناوله تناولا شاملا لايترك جانباً من جوانبه ولايفضل عنصراً من عناصر تكوينه .. جسمه وعقله وروحه ، حياته المادية والمعنوية ، وكل نشاطه على الأرض

كما أنه فى الوقت التى يتناول جوانب الكائن الإنسانى مجتمعة، لايتناول كلا منها على حدة، فيهتم بجانب ويهمل الجوانب الأخرى أو يعلى من شأن جانب على حساب الآخر ،كما تناولته المناهج البشرية التى لا ترى إلا جانباً واحداً منه ، فراحت تعمل على تنميته وتغذيته دون جوانبه الأخرى .

فهناك من المناهج ما يؤمن بالجانب الحسى فى الانسان والحياة .. كل ما تدركه الحواس فهو حقيقة وما لا تدركه غير موجود ، فاهتمت بكل محسوس على الأرض ، وكل ما هو محسوس فى الكيان البشرى ، فحاولت أن تيسر له مأكله وملبسه ومسكنه ، ويسرت له قضاء الشهوات .. ثم أغفلت من كيانه جانب الروح . أغفلت ما لا تدركه الحواس . . أغفلت العقيدة فى الله ، وما يشع منها من مثل وأخلاق .. وكانت النتيجة خواء الروح من الإيمان وخواء الحياة من العقيدة فانهارت الأخلاق وخلت الحياة من القيم.

وهناك من المناهج ما يؤمن بالجانب الروحى من الإنسان .. وأنه هو الجوهر الحق وكل ماعداه لايثبت على حقيقة ، فراحت تغذى الروح بالترهب والتنسك ، وترفع الإنسان على ضرورات جسده كلها ، وتقهر هذا الجسد لأنه دنس لاينبغى الاستجابة لمطالبه وكانت النتيجة أن تمرد الجسد المكبوت على خنق الفطرة .

وكل النظم التى عملت أو تعمل بهذه المناهج وتأخذ بجانب واحد من

الإنسان وتفصله عن بقية الكائن ، تؤدى بشعوبها إلى الهلاك فى النهاية

والمنهج الإسلامى يجمع فضائل هذه المناهج ولا ينحرف كما انحرفت فهو الذى يخاطب الكينونة الإنسانية بكل جوانبها ، وبكل أشواقها ، وبكل حاجاتها ، وبكل اتجاهاتها ، ويردها إلى جهة واحدة .. جهة الله الخالق تتعامل معه وحده وهو يؤمن من الكائن الإنسانى بما تدركه الحواس ، وبما يقع خارج نطاق الحواس .. يؤمن بكيانه الجسمى ؛ وأنه قبضة من طين الأرض « إنى خالق بشراً من طين(١) »، وفى الوقت ذاته يؤمن بالكيان الروحى للإنسان ؛ يؤمن بأن فيه نفخة من روح الله : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » (٢) .

إن كيان الإنسان ـ فى التصور الإسلامى ـ من جسم وروح ؛ أو جسم وعقل وروح . هذا الكيان ليس منفصل الأجزاء . إنه ليس جسما وحده مستقلا بذاته لا علاقة له بالروح أو العقل ، وليس عقلا منفصلا مستقلا بذاته لا يرتبط بجسم أو روح ، وليس روحا وحدها هائمة بلا وعاء الجسم أو رباط العقل ، وإنما هو كيان واحد ممتزج مترابط الأجزاء .

وليست مزية المنهج الإسلامى فى أنه يشمل الكيان البشرى كله ولا يترك شيئا من جوانبه المتعددة الطاقات ، وإنما المزية الحقة أنه يساير الفطرة فيما هو أبعد من هذه الحقيقة . فالمنهج الإسلامى يجارى الفطرة فى تركيبها جميعه . يجاريها ولا يعتسفها .. يجاريها فى السماح ببروز بعض الجوانب أحيانا وانحسار بعض ، فيجعل ساعة للعبادة ، وساعة للتفكر وساعة للعمل ، وساعة للاستمتاع ... يجاريها محتفظا بترابط الجوانب كلها

---

(١) سورة ص : ٧١ (٢) سورة ص : ٧٢ .

وامتزاجها ، فلا يسمح بفصل جانب عن بقية الجوانب ؛ أو إبراز جانب وكبت الجوانب الأخرى فى أى وقت من الأوقات .

ساعة العبادة ليست تهويمة روح خالصة ، وإنما هى حركة جسم ونظرة عقل وانطلاقة روح ، والصلاة فيها هذه الحقيقة بوضوح ، فهى تشمل الجسم والعقل والروح كلها فى آن ، ثم كل عمل فى عرف الإسلام عبادة مادام يتجه به الإنسان إلى الله .

وساعة التفكر ، لا تنقطع عن الاحساس بالله والتفكير فيه . . لا تنقطع صلتها بالروح .

وساعة الجسد الخالصة لا يفصلها الإسلام عن الروح ! . إن كان طعاما أو شرابا فهى باسم الله . والصلة بالله هى صلة الروح ؛ وإن كانت متعة جنس - حلال - فهى كذلك ، يقرأ عليها اسم الله ويدعوه قائلا : اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا . ويقول فيها الرسول الكريم: « إن فى بضع أحدكم لأجراً ! قالوا يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ثم يكون له عليها أجر ؟! قال : أرأيت لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذ وضعها فى حلال فله عليها أجر » روه مسلم .

• • •

الخاصية الثانية:

التحرر

« يستذل الإنسان لنظام جاهلي .. فيفقد شخصيته وذاتيته ، ويفقد قدرته على الحكم على الأشياء ويفقد قدرته على التوجيه . ويصبح كماً سالباً ، ينقاد ولايقود ، يُوجَّه ولا يوجه . ترسم له الطواغيت التعليمات فينفذها ، ولا يفكر يوما فى اختبار هذه التعليمات ليرى إن كانت صالحة حقاً أم داعية إلى الفساد .

« ويستذل لعادة أو شهوة ، فينطلق معها إلى آخر المدى .. وتستعبده فيصبح منقاداً لما يستعبد له ، لايملك نفسه ولا يحررها . ولا يصلح للانطلاق لإصلاح مايفسد من الأمور فى الأرض . فالانطلاق يحتاج إيجابية ووعى ، وقدرة على التحكم فى الشهوات ..

« ويستذل الإنسان لتقليد اجتماعى له أصل أو لا أصل له ، فينساق وراءه ، ويظل يزاوله حتى وهو لايؤمن فى دخيلة نفسه ، ومن ثم يصبح منافقا ، وينقلب المجتمع إلى بؤرة من الفساد (١) .

. فجاءت عقيدة التوحيد لتعلن ، أنه لا عبودية إلا لله ، ولا خضوع ولا ذل إلا لله ، ولا إستسلام ولا انقياد إلا لحكم الله .

ومن هذا التسليم الخالص لله يستمد الإنسان حريته وإيجابيته الكاملة تجاه الأشياء والأشخاص والأحداث ، ومنه تمطى النفس هذه القوة العجيبة التى تكافح بها كل شىء وتستعلى بها على كل شىء ، وتنشىء بها ما تريد.

---

(١) محمد قطب : منهج التربية الاسلامية ص ٢١٦ وص ٢١٩ بتصرف

« إنه لا عبودية لقوة المادة ولا لقوة الاقتصاد ولا لقوة الدولة ولا لقوة المجتمع ولا لقوة العادة ولا لقوة التقاليد . لا (حتمية) لشيء على وجه الأرض إلا لسنة من سنة الله : (ولن تجد لسنة الله تبديلا) . ومن سنة الله أن تكون النفس المؤمنة قوة كونية فاعلة ، تسير مع الناموس الأكبر وتفهم عنه أسراره ، وتستغل قواه وطاقاته .. لأن هذه القوى والطاقات كلها مسخرة للانسان بإذن الله » .

ومن هنا يكون مفرق الطريق بين موقف الإسلام ومنهجه فى تحرير الانسان وبين موقف الديموقراطيات فى الغرب ، فهو - أى الاسلام يعنى بالحرية فى معطياتها الجذرية التى تحرر الانسان من سيطرة الآخرين ويكسر القيود والأغلال التى تكبل قواه وطاقاته ، ويعتبر تحقيق هذه المعطيات التحررية هدفا من الأهداف الكبرى للرسالة السماوية « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » (١) . ولكنه لا يربط بين هذا النوع من الحرية وبين معطياتها الايجابية فى ديموقراطيات الغرب ، لأنه لا يعتبر حق الإنسان فى التحرر من سيطرة الآخرين والوقوف معهم على صعيد واحد نتيجة لعبادة الانسان لنفسه و « تحقيق ذاته بأهوائها وشهواتها الصنمية » ، وحقه فى تقرير سلوكه ومنهجه فى الحياة !! وإنما يربط بين الحرية والتحرر من كل الأصنام والقيود المصطنعة ، وبين العبودية المخلصة لله . فالانسان عبد الله قبل كل شيء ، وهو بوصفه عبداً لله لا يمكن أن يقر سيطرة لسواه عليه ، أو يخضع لعلاقة (صنمية) مهما كان لونها وشكلها ، إنه يقف على صعيد العبودية المخلصة لله ، مع المجموعة الكونية كلها على قدم المساواة .

فالقاعدة الأساسية للحرية فى الاسلام هى : التوحيد والإيمان بالعبودية المخلصة لله ، الذى تتحطم بين يديه كل القوى الوثنية التى هدرت كرامة الانسان على مر التاريخ .

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٦

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله (١).

« أتعبدون ما تنحتون ؟! والله خلقكم وما تعملون »(٢).

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » (٣).

« أأرباب متفرقون خير ؟! أم الله الواحد القهار » (٤).

وهكذا يقيم الاسلام نظامه في التحرر من كل العبوديات على أساس الإقرار بالعبودية المخلصة لله تعالى ، ويجعل من علاقة الانسان بربه الأساس المتين الثابت لتحرره في علاقاته مع سائر الناس ومع كل قوى الكون الطبيعية .

فالإسلام والديموقراطيات في الغرب ، وإن مارسا معا عملية تحرير الإنسان ، ولكنهما يختلفان في القاعدة الفكرية التي يقوم عليها هذا التحرير فالإسلام يقيمها على أساس العبودية لله والإيمان به ، والديموقراطيات في الغرب تقيمها على أساس الايمان « بالذات الإنسانية » والتأكيد على مطالب « الأنا * » ، بعد أن شكت في كل القيم والحقائق وراء الأبعاد المادية لوجود الإنسان .

ومن أجل ذلك كان مرد فكرة الحرية في الاسلام إلى عقيدة إيمانية موحدة لله ، ويقين ثابت بسيطرته على الكون المسخر له من الله تعالى .

---

(١) سورة آل عمران : ٦٤ (٢) سورة الصافات : ٩٥ ، ٩٦
(٣) سورة الأعراف : ١٩٢ (٤) سورة يوسف : ٣٩

* فاليوم في أوربا ـ كما قال جوليان هكسلي ـ يعبد الإنسان نفسه ، فالإنسان هو الله !! فالله « سبحانه » كان خرافة خلقها الإنسان لنفسه لتؤنسه حين أحس بالوحشة في هذا الكون ، وأنه قد آن الآوان لنبذ هذه الخرافة ، ولأن يضع الإنسان نفسه مكان الله !!

وكلما تأصل هذا اليقين فى نفس المسلم ، وتركز اتجاهه الموحد الى الله تسامت نسه وتعمق إحساسه بكرامته وحريته وتصلبت إرادته فى وجه الطغيـان تبغى واستبعاد الآخرين : « والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون(١)

وعلى العكس من ذلك فكرة الحرية فى ديموقراطيات الغرب : فانها كانت وليدة الشك لا اليقين ، ونتيجة القلق والثورة لا اليقين والاستقرار .

• الحرية فى مجالاتها :

ويمكننا أن نقسم الحريات فى ديموقراطيات الغرب إلى قسمين ، للمقارنة بينها وبين الاسلام ، لنرى هل تحرر الانسان هناك بالفعل ، أم كان الأمر مجرد ثورة لينفلت الانسان هناك فتصبح الحرية فوضى تنذر بدمار هذه الحضارة ودمار الانسان نفسه بعد أن أخذت الصراعات تنخر فى كيانه .

القسم الأول : الحرية فى المجال الشخصى للإنسـان ، وهى ما تطلق عليه الديموقراطيات اسم : الحرية الشخصية .

والقسم الثانى : الحرية فى المجال الاجتماعى ، وهى تشمـل الحريات : الاجتماعية والفكرية ؛

فإن الحرية الشخصية تعالج سلوك الإنسان بوصفه فردا سواء كان يعيش بصورة مستقلة أو جزءا من مجتمع . وأما الحريات الأخرى فهى تعالج الإنسان بوصفه فردا يعيش فى جماعة ، فيسمح له بالاعلان عن أفكاره للآخرين كما يحلو له ، ويمنحه الحق فى تقرير نوع السلطة الحاكمة ، وتفتح أمامه السبيل لمختلف ألوان النشاط الاجتماعى والاقتصادى تبعا لقدرته وهواه .

---

(١) سورة الشورى ٣٩ :

• <u>الحرية فى المجال الشخصى :</u>

حرصت الحضارة الغربية الحديثة على : توفير أكبر نصيب ممكن من الحرية لكل فرد فى سلوكه الخاص ، بالقدر الذى لا يتعارض مع حريات الآخرين ، فلا تنتهى حرية كل فرد إلا حيث تبدأ حريات الأفراد الآخرين .

وليس من المهم لديها — بعد توفير هذه الحرية لجميع الأفراد — طريقة استعمالهم لها ، والنتائج التى تتمخض عنها ، وردود الفعل النفسية والفكرية لها .. ما دام كل فرد حراً فى تصرفاته وسلوكه ، وقادرا على تنفيذ إرادته فى مجالاته الخاصة ، فالمخمور مثلا لا حرج عليه أن يشرب ما شاء من الخمر ، ويضحى بآخر ذرة من وعيه وإدراكه ، لأن من حقه أن يتمتع بهذه الحرية فى سلوكه الخاص ، مالم يعترض طريق الآخرين ، أو يصبح خطرا على حياتهم.

وفى مجال الجنس يتاح لغرائزه الحيوانى بالانطلاق بلا حدود ولا ضوابط فللفرد هناك الحق باسم الحرية أن يخالل ويخادن من يشاء .

ولقد سكرت الانسانية على أنغام هذه الحرية ، وأغفت فى ظلالها برهة من الزمن ، وهى تشعر لأول مرة أنها حطمت كل القيود. وأن هذا العملاق المكبوت فى أعماقها آلاف السنين قد انطلق لأول مرة ، وأتيح له أن يعمل كما يشاء فى النور دون خوف أو قلق .

ولكن لم يدم هذا الحلم اللذيذ طويلا ، فقد بدأت الإنسانية هناك تستيقظ وتدرك بصورة تدريجية ولكنها مرعبة . أن هذه الحرية ربطتها بقيود هائلة ، وقضت على آمالها فى الانطلاق الانسانى الحر ، لأنها وجدت نفسها مدفوعة فى عربة تسير باتجاه محدد ، لا تملك له تغييرا ولا تطويرا ، وإنما كل سلوتها وعزائها . وهى تطالع مصيرها فى طريقها المحدد — أن هناك من قال لها : إن هذه العربة (وإن كانت طائشة) هى عربة الحرية . بالرغم من هذه الأغلال وهذه القيود التى وضعت فى يديها .

أما كيف عادت الحرية قيداً ؟! وكيف أدى الانطلاق الى تلك الأغلال التى تجر الغربة فى اتجاه محتوم ، وكيف أفاقت الانسانية على هذا الواقع المر فى نهاية المطاف ؟! . فهذا كل ما قدره الإسلام قبل أربعة عشر قرنا ، حين لم يكتف بتوفير هذا المعنى السطحى القاصر من تحرير الانسان ، الذى منى بكل هذه التناقضات كما ظهرت فى بالممارسة فى الحياة الحديثة للإنسان الغربى . وإنما ذهب الى أبعد حد من ذلك ، وجاء بمفهوم أعمق لتحرير الإنسان ، وأعلنها حربا ، لا على الأغلال والقيود بشكلها الظاهرى فحسب بل على جذورها النفسية والفكرية ، وبهذا كفل للانسان أرقى وأنزه أشكال الحرية التى ذاقها الناس على مر السنين .

ولئن كانت الحرية فى ديموقراطيات الغرب تبدأ من التحرر لتنتهى إلى ألوان من العبودية والأغلال كما أشرنا فى بداية موضوعنا هذا وكما سنوضح فان الحرية الرحيبة فى الإسلام على العكس ، لأنها تبدأ من العبودية المخلصة لله تعالى لتنتهى إلى التحرر من كل أشكال العبوديه المهينة .

يبدأ الاسلام عمليته فى تحرير الإنسانية من المحتوى الداخلى للإنسان نفسه ، لأنه يرى أن منح الانسان الحرية ليس أن يقال له: هذا هو الطريق قد أخليناه لك فسر كما تهوى وتحب . وإنما يصبح الانسان حراً حقيقة حين يستطيع أن يتحكم فى طريقه ويحتفظ لإنسانيته بالرأى فى تحديد الطريق ورسم معالمه واتجاهاته . وهذا يتوقف على تحرير الانسان قبل كل شىء من عبوديته لأصنام الشهوات التى تعتلج فى نفسه ، لتصبح الشهوات أداة تنبيه للانسان إلى ما يشتهيه ليشبعها بالحلال وبالأسلوب الرشيد الذى يرتقى بحياته ويحقق سعادته فى الكون ، لا قوة جارفة تسخر إرادة الانسان دون أن يملك بإزائها حولا أو طولا ، لإنها إذا أصبحت كذلك خسر الانسان حريته من بداية الطريق . ولا يغير من الواقع شيئا أن تكون يداه طليقتين ، ما دام عقله ،

وروحه وكل ملكاته الإنسانية التى تميزه عن مملكة الحيوان ممتقاه ومجمدة .. ونحن نعلم أن الشيء الأساسى الذى يميز حرية الانسان عن حرية الحيوان بشكل عام : أن الحيوان مسخر دائما لشهواته وإيحاءاته الغـريزية ، وأمـا الانسان فقد زود بالإرادة التى تمكنه من السيطرة على شهواته وتحكيم منطقه العقلى فيها . فسر حريته — كإنسان - يكمن فى هذه القدرة . فنحن إذا جمدناها فيه وا كتفينا بمنحه الحرية الظـاهرية فى سلوكه العملى ووفرنا له بذلك كل امكانات ومغريات الاستجابة لشهواته ، كما صنعت الحضارة الغربية الحديثة . فقد قضينا بالتدريج على حريته الانسانية ، فى مقابل شهوات الحيوان الكامن فى أعماقه ، وجعلنا منه أداة تنفيذ (لهذه الشهوات) حتى إذا التفت إلى نفسه فى أثناء الطريق وجد نفسه محكوما لا حاكما ، ومغلوبا على أمره وإرادته .

وعلى العكس من ذلك . إذا بدأنا بتلك القدرة التى يكمن فيها سر الحرية الإنسانية فأنميناها وغذيناها جاء بذورنا للانسان بناء انسانيا لا حيوانيا ؛ وجعلناه يعى أن رسالته فى الحياة أرفع من هذا المصير الحيوانى المبتذل الذى تسوقه إليه حضارة الشهوات وأن مثله الأعلى الذى خلق للسعى فى سبيله أسمى من هذه الغايات التافهة ، والمكاسب الرخيصة ، التى يحصل عليها فى متمه المادية . . نقول : إذا قمنا بذلك كله حتى جعلنا الانسان يتحرر من عبودية شهواته ، وينعتق من سلطانها الآسر ، ويمتلك إرادته . . فسوف يظهر لنا من جديد « الانسان المسلم » .. ذلك الإنسان الحر الذى يستطيع أن يقول لا أو نعم ، دون أن تكمم فاه أو تغل يديه هذه الشهوة الموقوتة أو تلك اللذة المبتذلة .

وهذا ما صنعه القرآن حين وضع للفرد المسلم طابعه الروحى الخاص ،

وارتفع بمقاييسه ومثله ، وانتزعه من طينة الأرض وأهدافها المحدودة ، إلى آفاق رحيبة وأهداف سامية : « زين للناس حب الشهوات : من النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيـل المسومة ، والأنعام ، والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذالكم ؟ .. للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد (١) » .

هـذه هى جولة التحرير فى المحتوى الداخلى للإنسـان ، وهى فى نفس الوقت الأسـاس الأول والرئيسى لتحـرير الانسانية فى المنهج القرآنى ، بدونها تصبح كل حرية زيفا وخداعا ، وبالتالى أسـرا وقيدا * .

ونحن نجد فى هذا الضوء القرآنى : أن الطريقة التى استعان بها القرآن

---

(١) سورة آل عمران : ١٤ ، ١٥

* هذا المعنى الحقيقى للحرية ، هو الذى نريد أن نبسطه أمام أنظار الببغاوات عندنا ممن يسمون بدعاة تحرير المرأة وأصحاب الأقلام الرخيصة ، لكى يتدبروا ، ولكى يتحرروا هم أولا . ثم لينظروا بعد ذلك أى مصير بائس يراد بهم ويراد بالمرأة من الذين يتبعون الشهوات ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ولم يشرعها لعباده ... يريدون لهم أن ينطلق السعار الجنسى المحموم الذى لا يقر معه قلب ، ولا يسكن معه عصب ، ولا يطمئن معه بيت ، ولا يسلم منه عرض ، ولا تقوم معه أسرة ... يريدون أن يعود الآدميون قطعاناً من البهائم ، ينزو فيها الذكران على الإناث بلا ضابط ... كل هذا الشر وكل هذا الفساد والدمار باسم الحرية ، وهى ليست - فى هذا الوضع - ليست سوى اسم آخر للشهوة والنزوة !!

على انفصال الانسانية من ربقة الشهوات وعبوديات المجتمع بتقاليده وعاداته الجاهلية .. هى الطريقة العامة التى يستعملها الاسلام دائما فى تربية الانسان فى كل المجالات : طريقة التوحيد . فالاسلام حين يحرر الانسان من عبودية الأرض وملذاتها العاجلة ، يربطه بالسماء وجنانها ومثلها ورضوان من الله ؛ لأن التوحيد فى هذا الدين هو دعامة الإنسانية فى تحررها الداخلى من كل العبوديات ، كما أنه عماد التحرر الانسانى فى كل المجالات .

والأمثلة كثيرة ، لنعرف النتائج الباهرة التى تمخض عنها هـذا التحرير ، ومدى الفرق بين حرية الانسان القرآنى الحقيقية ، وتلك الحريات المصطنعة التى تزعمها ديموقراطيات الغرب ، . فقد استطاع الانسان الذى حرره القرآن . حين دعاه الله فى كلمة واحدة إلى اجتناب الخمر ـ أن يقول : نعم ، للأمر الإلهى فى التو واللحظة ، وأن يقول : لا ، لرغائب النفس وشهواتها فى التو واللحظة ، لأنه يملك نفسه ويملك إرادته .

عن أبى بريدة عن أبيه قال .

« بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر ، إذ قمت حتى آتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه ، وقد نزل تحريم الخمر ، فجئت أصحابى فقرأت الآية عليهم إلى قوله : « فهل أنتم منتهون ؟ » . قال : وبعض القوم شربته فى يده شرب بعضا وبقى بعض فى الإناء ، فأراقوا ما فى كؤوسهم ثم صبوا ما فى باطيتهم وقالوا : انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا »(١) .

وشطبت الخمر من قاموس حياة المسلم بعد أن كان جزءا من كيانه وضرورة من ضرورات نفسه ، مالكة لإرادته . فأصبح حرا بإزاء شهواته ودوافعه

---

(١) رواه ابن جرير بسنده « تفسير ابن كثير ص ٢٨٤ المجلد الثالث » ط. التجارية

الحيوانية وبكلمة مختصرة : كان ذلك الانسان يتمتع بحرية حقيقية تسمح له بالضبط والتحكم فى سلوكه ..

أما ذلك الانسان الذى نشأ فى ظل ديموقراطيات الغرب ، ومنحته الحرية الشخصية بطريقتها الخاصة .. فهو بالرغم من هذا القناع الظاهرى للحرية ، لا يملك شيئا من إرادته ولا يستطيع أن يتحكم فى وجوده لأنها لم تحرر المحتوى الداخلى له . . وإنما أسلمته إلى شهواته ونزواته تحت ستار من الحرية الشخصية حتى فقد حريته - كإنسان - إزاء تلك الشهوات والنزوات ، فلم تستطع أكبر حملة للدعاية ضد الخمر جندتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية أن تحرر الإنسان الأمريكى من الخمر ، بالرغم من قوة القانون والطاقات المادية والمعنوية الهائلة التى جندتها السلطة الحاكمة ومعها المؤسسات الاجتماعية مدة أربعة عشر عاما فى هـذا الغرض . وليس هذا الفشل الذريع إلا نتيجة فقدان الانسان الغربى للحرية الحقيقيـة ، فهو لا يستطيع أن يقول : لا ، كلما اقتنع بذلك كالانسان القرآنى ، وإنما يقول الكلمة التى تفرضها عليه شهوته فحسب ، ولهذا فلم يستطع إن يعتق نفسه من أسر الخمر ، لأنه لم يكن قد ظفر فى ظل حضارته بتحرير حقيقى فى محتواه الروحى والفكرى .

كما استطاع الانسان الذى حرره القرآن ، حين دعاه فى كلمة واحدة الى الحجاب أن يمتثل للأمر الإلهى لا يقيده فى ذلك رغبة نفس أو مألوف مجتمع ..عن صفية بنت شيبـة قالت : « بينما نحن عند عائشـة ، قالت : فذكرنا نساء قريش وفضلهن ، فقالت عائشة : إن لنساء قريش لفضلا ، وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار ، وأشد تصـديقا لـكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل ، لما نزلت فى سورة النور : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم منها ، يتلو الرجل على

امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتاب. فأصبحن وراء رسول الله ﷺ كأن على رؤوسهن الغربان » ـ رواه أبو داود.

ولكن النفس قد تتحرر من قيود الشهوات الأسرة وتقاليد المجتمع الجاهلى ومن العبودية لغير الله، ثم تتأثر بعبودية الخوف على الحياة أو الرزق أو المكانة وقيم المال والجاه والحسب والنسب، وهنا لايترك المنهج القرآنى هذه المشاعر ترهق كاهل الإنسان الذى يتعهده بالتربية وعنده الحل . .

• فالحياة والموت بيد الله : « إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير »(١) والعمر مكتوب وليس لمخلوق قدرة على أن ينقصه ساعة أو بعض ساعة : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا »(٢).

• والرزق بيد الله وحده ولن يملك مخلوق أن يقطع رزق إنسان، أو يضيق عليه فى الرزق شيئاً « وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم(٣) » وهذا لاينفى الأسباب والعمل « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »(٤).

• والخوف على المركز والمكانة قد يعدل الخوف من الموت والخوف من الفقر، لذلك حرص المنهج القرآنى على تحرير الإنسان من هذا الخوف أيضاً، ولن يملك مخلوق فى هذا الأمر شيئاً « قل : اللهم مالك الملك تؤتى

---

(١) سورة ق : ٤٣
(٢) سورة آل عمران : ١٤٥
(٣) سورة العنكبوت : ٦٠
(٤) سورة الملك : ١٥

الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير » (١).

* أما عبودية القيم الاجتماعية . أو إفراط المرء فى حب المال وتعلقه الشديد بجاهه وحسبه ونسبه ، فقد وضع الإسلام هذه القيم فى مكانها الحقيقى وجعل الإيمان والعمل الصالح ، هى المعيار الذى تتحدد به مكانة المرء الحقيقية ، كما جعل منهما القيمتان الحقيقيتان اللتان لهما كل الاعتبار : « وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولاداً ، وما نحن بمعذبين . قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون » . والإسلام لا يغض مع هذا من شأن المال ولا من شأن الأبناء : « المال والبنون زينة حياة الدنيا » . . زينة ولكنهما ليسا قيمة من قيمها التى ترفع ، فالذى يرفع ويخفض هو العمل الصالح : « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » .

هذا التحرير الداخلى أو البناء الداخلى لكيان الإنسان هو فى المنهج القرآنى حجر الزاوية فى عملية بناء الإنسان وإقامة المجتمع الاسلامى الحر السعيد . فإذا لم يملك الانسان إرادته ، ويسيطر على موقفه الداخلى ويحتفظ لنفسه بالكلمة العليا فى تقرير سلوكه ، لا يستطيع أن يحرر نفسه فى المجال الاجتماعى تحريرا حقيقيا يصمد فى وجه الاغراء والاغواء ، ولا أن يخوض

---

(١) سورة آل عمران : ٤٦

معركة التحرير الخارجي بجدارة وبسالة .. وصدق الله العظيم : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) .

• الحرية فى المجال الاجتماعى :

وكما يقطع الاسلام أشواطا بعيدة فى تحرير الكيان الانسانى من الداخل ، كذلك يخوض معركة عظيمة لتحرير الانسان فى المجال الاجتماعى فهو كما يحطم فى المحتوى الداخلى للانسان أصنام الشهوة التى تسلبه حريته الانسانية، يحطم أيضا فى نطاق العلاقات المتبادلة بين الأفراد الأصنام الاجتماعية ويحرر الانسان من عبوديتها ، ويقضى على عبادة الانسان للإنسان : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

فعبودية الإنسان لله تجعل الناس كلهم يقفون على صعيد واحد بين يدى الخالق المعبود سواسية كأسنان المشط ، فلا توجد أمة لها الحق فى استعباد أمة أخرى والاستعلاء عليها، ولا فئة أو طبقة من المجتمع يباح لها اغتصاب طبقة أخرى وانتهاك حريتها ، ولا إنسان أيا كان مركزه يحق له أن ينصب نفسه صنما للآخرين .

ومرة أخرى نجد أن الجولة القرآنية الثانية من جولات التحرير قد سلك فيها القرآن نفس الطريقة التى سلكها فى شوطه الأول فى تحرير النفس الانسانية من العبودية للشهوات .. وهى : التوحيد . فما دام الإنسان يقر بالعبودية لله ، فعليه أن يرفض كل صنم وكل تأليه مزور لأى طاغوت

---

(١) سورة الرعد : ١١

« فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور » (١) حينئذ يستطيع أن يرفع رأسه حرا أبيا لا يستشعر ذل العبودية والهوان أمام أى قوة من قوى الأرض أو صنم من أصنامها ، لأن ظاهرة العبودية للأوثان والأصنام فى حياة الانسان نشأت عن سببين :

أحدهما : عبوديته للشهوة التى تجعله يتنازل عن حريته إلى الصنم الانسانى الذى بيده إمكانية إشباع شهواته وضمانها له .

والآخر : جهله بما وراء الأقنعة الصنمية المتألهة من جوانب الضعف والعجز .

وقد جاء الاسلام ليحرر الانسان من عبودية الشهوة - كما عرفنا - ويزيف هذه الأقنعة الصنمية الخادعة التى لا تخلق شيئا بل هى تخلق ، ولا تنصر عبادها بل لا تملك لأنفسها نصرا : « ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » (٢) ، فمن الطبيعى أن ينتصر على ظاهرة الشرك والعبودية للأصنام ، ويمحو من عقول وقلوب المسلمين كل أثر من آثار العبودية للأصنام بمختلف أشكالها وألوانها . أن الذى يخلق هو الذى يستحق أن يعبد والذى يملك أن ينصر عباده بقوته ويحميهم هو الذى ينبغى ان يعبد .

وعلى ضوء الأسس التى يقوم عليها تحرير الإنسان من عبوديات أصنام الشهوة فى المجال الشخصى ، وتحريره من عبودية الأصنام الإجتماعية ، سواء أكان الصنم (أمة) أم (فئة) أم (فرداً) .. نستطيع أن نعرف مجال السلوك الفردى فى الإسلام ، فإن الإسلام يختلف عن ديموقراطيات الغرب التى لا تضع لهذه

(١) سورة الحج : ٣٠

(٢) سورة الاعراف : ١٩٤

الحرية الفردية حداً إلا حريات الأفراد الآخرين ، لأن الإسلام يهتم قبل كل شيء - كما عرفنا - بتحرير الفرد من عبودية الشهوات والأصنام، ويسمح له بالتصرف كما يشاء على أن لا يخرج عن حدود الله فالقرآن يقول «خلق لكم ما في الأرض جميعا» (١) «وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه (٢)» وبذلك يضع الكون كله تحت تصرف الإنسان وحريته ، ولكنها حرية محدودة بالحدود التي يجعلها تتفق مع تحرره الداخلي من عبودية الشهوة والهوى وتحرره الخارجي من عبودية الأصنام الاجتماعية .

وبناء على هذه القاعدة نستطيع أن نرى المجال الذي يتحرك فيه الفرد المسلم والمدى الواسع الذي يزاول فيه نشاطه بحرية ..

في الإسلام لا تتدخل الدولة ممثلة للمجتمع في الحرية الشخصية للأفراد ولكن الحرية الشخصية هنا شيء آخر غير ما تفهمه الدول المنحلة، التي تترك أفرادها يعيثون فساداً في الأرض باسم الحرية الشخصية .

• ففي سياسة المال ، يبيح الاسلام حرية التملك ، وللدولة حق التدخل لحماية المجتمع من أخطار عدم التوازن ، التي تؤدي الى الفتن والثورات وانحلال عقدة المجتمع ، بسبب وجود الترف المجرم من جانب ، والحرمان الكافر من جانب آخر . وهنا يفترق الاسلام افتراقاً أساسياً عن الدول الرأسمالية التي تترك حفنة من الناس أحراراً في استعباد بقية الشعب، لمصلحتهم الخاصة .. فليس استغلال الآخرين حرية شخصية في الاسلام .

---

(١) سورة البقرة : ٢٩ .

(٢) سورة الجاثية : ١٣

« وكذلك الانحلال الخلقي أمر غير مباح . وحكمة تحريمه واضحة ، تتضح في الأثر السيء الذي ينتج من هذا الانحلال على كيان الفرد نفسه وعلى كيان المجتمع على مدى الأجيال . فليس الاسلام من قصر النظر بحيث ينظر إلى جيل واحد كأنه مقطوع الصلة بما قبله أو بعده من أجيال . فالانسانية حلقة مستمرة . فالذي نصنعه اليوم يؤثر حتماً فيما يحدث غداً . وأبناؤنا الذين نربيهم اليوم ونحن منحلون ، أو نهمل تربيتهم لهذا السبب ، سيكونون أكثر انحلالا في الجيل القادم لأن الإفلات من الضوابط الأخلاقية والارتداد الى الحيوانية أسهل على الأفراد والمجتمعات من ضبط الشهوات ومحاولة الارتفاع (حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات) » ومن هنا كانت التربية الرشيدة واجباً دائماً لايسقط عن الآباء ، ولا عن أولياء الأمور في أي جيل من الأجيال .

• « والاعتداء على الآخرين بأية صورة من الصور أمر كذلك غير مباح فإصابة أي مسلم في دمه أو عرضه أو ماله أو كرامته أمر لايجوز لأحد من الحكام أو المحكومين .

* فحدود الحرية الشخصية إذن في الإسلام هي عدم الإيذاء للآخرين سواءاً كان الإيذاء يقع على فرد بعينه ، أو على المجتمع كله . وسواءاً كان الضرر الناشيء واضحاً لمرتكبيه ، عاجل الأثر ، أو كان خفياً لايتبين مداه إلا بعد أجيال .

أما مايتحقق به النفع الفردي ، ولاينتج منه إيذاء للفرد بعينه ، أو لمجموع الأفراد ؛ فالحرية مباحة فيه إلى آخر الحدود .

وكل فرد يختار عمله بنفسه ، وبما يرى أنه موهوب فيه

والأسرة تقوم بإرادة حرة بطرفين متكافئين ، وتستمر بالرغبة المشتركة

التى تجمع بين طرفيها المتساويين ، وتنفصم بالإرادة الحرة .

« والفرد فى الاسلام حر فى أن يمتلك مايشاء فى الحدود العامة للاستخلاف التى تحول دون الطغيان » ..

« وحر فى اختيار حاكمه ، بانتخاب حر لاتتدخل فيه سلطة الحاكم ، ولا نفوذ أسرته ، ولا يخضع لضغط أى طبقة أو فئة ..

« وهو حر على العموم فى الاستمتاع بكل طيبات الحياة بالقدر الذى لا يؤذى به نفسه ولا غيره . وحر فى التفكير فى أمور الحياة فى داخل الحدود الاسلامية ..

« إن الذى لايباح للمسلم ، ويعتبر فى الظاهر من قبيل الحرية الشخصية ، هو الكفر بعد الايمان ، ورفضه التحاكم إلى شريعة الله ، وعقوبته الصريحة هى القتل .. « وذلك أن الارتداد ليس مسألة شخصية وإن بدا ذلك فى ظاهر الأمر . إذ كيف كان يجوز أن يقتل الآلاف ويشردون ، لأنهم لا يؤمنون بلينين وستالين وعبد الناصر من الطغاة والجبابرة على مر التاريخ القديم والمعاصر ، ثم يباح للناس أن لا يؤمنوا بخالق لينين وستالين وأمثالهم ؟ على أن غير المسلم له أن يعتقد مايشاء ، وليس لأحد عليه سلطان ـ حتى داخل الدولة الإسلامية ـ مالم يتعرض لعقيدة الأمة بسوء « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى . . هذا فى الوقت الذى يعاقب المرتد بالقتل ، ذلك أن ردة المسلم عن دينه لها معناها الذى لاتظهر نتائجه الخطيرة إلا فى إطار النظام والمجتمع .

.. إن الارتداد عن دين الله بعد الايمان معناه إفساد نظام لا مجرد تغيير عقيدة فردية ، فالاسلام نظام عملى قائم على عقيدة ، ومجتمع قائم على هذا النظام . وأوامره مفروضة لصالح الفرد أولاً ، وصالح المجتمع فى الوقت ذاته

ثانياً ، فهى إذن ليست مسألة شخصية ، وإنما يرجع الضرر فيها على الجميع .
نخلص إلى أن عبادة الله ـ كما عرفنا ـ ترفع الانسان عن أن يستذل لأية قوة على الأرض سواء أكانت قوة الشهوة والهوى أو قوة السلطان الجائر ، أو غيرها مما يستذل الأفراد والمجتمعات التى لا تدخل فى دين الله ، هذه العبودية لله تدفع المؤمن الحق ، بل تكلفه تكليفا أن يضرب كل قوة صنمية تستذل رقاب الناس لإنقاذ أرواحهم وكرامتهم وسلامتهم .

كما أن عبادة الطاغوت كما يقول الاستاذ سيد قطب فى الظلال « عظيمة التكاليف فى النفس والعرض والمال .. ومهما تكن تكاليف العبودية لله ، فهى أربح وأقوم حتى بميزان هذه الحياة ، فضلا عن وزنها فى ميزان الله .(١)

« .. إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة ـ مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق ! ـ إنها تكاليف بطيئة مديدة ! تكاليف فى إنسانية الإنسان ذاته فهذه (الإنسانية) لا توجد ، والإنسان عبد للإنسان ـ وأى عبودية شر من خضوع الانسان لما يشرعه له إنسان ؟ وأى عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به ، ورضاه وغضبه عليه .. وأى عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته ؟ ! وأى عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام (كالحيوان) يقوده منه كيفما شاء إنسان ؟ !

على أن الأمر لا يقف عند حد هذه المعانى الرفيعة .. إنه يهبط ويهبط حتى يكلف الناس فى حكم الطواغيت ، أموالهم التى لا يحميها شرع ولا يحوطها سياج . كما يكلفهم أولادهم إذ ينشئهم الطاغوت كما شاء على ما يشاء من

---

(١) الظلال : المجلد الثالث ١٢١٩ ط/الشروق

التصورات والأفكار والمفاهيم على مذبح هواه، ويقيم من جماجم وأشلائهم أعلام المجد لذاته .. ! ثم يكلفهم أعراضهم فى النهاية . . حيث لا يملك أب أن يمنع فتاته من الدعارة التى يريدها بها الطواغيت ، سواء فى صورة الغصب المباشر أو فى صورة تنشئتهن على تصورات ومناهج تجعلهن نهباً مباحاً للشهوات تحت أى شعار ! وتمهد لهن الدعارة والفجور تحت أى ستار .. والذى يتصور أنه ينجو بماله وعرضه وحياته وحياة أبنائه وبناته فى حكم الطواغيت من دون الله .. إنما يعيش فى وهم ،أو يفقد الإحساس بالواقع ! .

إن الانحراف بمعانى الحرية الشخصية فى عبادة الشهوات والأهواء والالتصاق بطين الأرض أو التخلص عن الحرية الإنسانية بمعناها الحقيقى، مع الانحراف بمعانى الحرية الاجتماعية فى السكوت عن الظلم والتنازل عن الحق وعبادة الأصنام البشرية والتزلف لها ، والانسياق وراء مصالحها، والتخلص عن الرسالة الحقيقية الكبرى للانسان المسلم فى الحياة، هذا الانحراف لم يأذن به الإسلام لأنه تحطيم لأعمق معانى الحرية فى الانسان ، ولأن الاسلام لا يفهم من الحرية إيجاد منطلق للمعانى الحيوانية فى الانسان ،وإنما يفهمها بوصفها جزءاً من منهج فكرى وروحى كامل يجب أن يقوم على أساسه بناء الكيان الإنسانى •

• الحرية فى المجال الفكرى :

.. عرفنا أن الإسلام من الحرية إيجاد أى منطلق للمعانى والنزعات الشهوانية الحيوانية فى الإنسان المسلم ، لأن هذا الانطلاق الذى لا يعرف ضبطاً ولا تسامياً يشكل أخطر تهديد لأعمق معانى الحرية عند هذه الشخصية المتميزة •

فإذا لم يسيطر الانسان على إرادته ويسيطر على زمام موقفه الداخلى

ويحتفظ لنفسه بالكلمة العليا فى تقرير سلوكه ، لايستطيع أن يحرر نفسه فى المجال الاجتماعى تحريراً حقيقياً يصمد فى وجه الإغراء والإغواء ، ولا أن يخوض معركة التحرير الخارجى بجدارة وبسالة ، وهى المعركة التى ابتعث الله الإنسان المسلم من أجلها ، وتعهده المنهج القرآنى بالتربية الكاملة ليخوضها فى قوة واقتدار وثقة واطمئنان . روى الطبرى فى «ابتداء أمر القادسية » أن ربعى بن عامر دخل على رستم قائد الفرس فى مجلسه ، فسأله ماجاء بكم ؟؟ فقال ربعى : « الله ابتعثنا ، والله جاء بنا ، لنخرج من شاء :

* من عبـادة العبـاد .. إلى عبادة الله
* ومن ضيق الدنيـا .. إلى سعتها
* ومن جـور الأديان .. إلى عدل الإسلام

فأرسلنا بدينه إلى خلقه ، لندعوهم إليه .. »

إن الإسلام لايعلن الجهاد إلا لتحرير الانسان وحماية حقه فى الاختيار الحر .. ليكون الفيصل فى قضايا الفكر : هو (اقتناع العقل) لا (رهبـة السلطة) .. إنه يدفع القوة بالقوة ليكون الدين (لله) لا تحت سلطان أحد من الحكام والطواغيت يحجر على عقول الناس .

جاء فى دائرة معارف لاروس : « إذا بحثنا بدون غرض ولا وهم عن سبب الرقى الذى حدث فى العالم المادى والفكرى والخلقى منذ طفولة الجماعات البشرية إلى أيامنا هذه ، فلا نراه إلا فى خلاص العقل من الضغط عليه » .

فالخاصية التى تجعل الإنسان إنسـاناً ، هى العقل والفـكر ، فتلك هى المنطقة التى يوجد فيها الاختيار ، وهى منطقة التكليف من الله ، ولذلك نجد أن فاقد هذه لايكلف من الله ، كما يحدث بالنسبة للطفل والمجنون مثلا .

وهنا يكمن سر عناية الإسلام بتحرير العقل وتكريمه عن طريق دعوته إلى التوحيد وتحطيم الأصنام وحثه على البحث والتقصي، والنظر في ملكوت السماوات والأرض فقد ورد في الأثر : « الدين هو العقل ، ولا دين لمن لاعقل له » « أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل ، تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه ينجدكم عند ربكم » .

فالعقل في الإنسان طاقة من أكبر طاقاته ، ونعمة من أكبر نعم الله عليه ، « قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ماتشكرون »(١) . والفؤاد يستخدم في التعبير القرآني بمعنى العقل ، أو القوة الواعية المدركة في الإنسان .

« والإسلام يحترم الطاقات البشرية كلها ، ولكنه يعطيها أقدارها الصحيحة ، لايبخسها قدرها ، ولا يعطيها فوق قيمتها ، ويستغلها جميعا إلى أقصى طاقتها لفائدة المخلوق البشري وصلاح حاله على الأرض

ومن ثم فهو يحترم الطاقة العقلية ويشجعها ، ويربيها لتتجه في طريق الخير .. ولكي يصل إلى ذلك فإنه يمزجها بمزيج الروح ، ويستنبتها في تربة الروح الأريجة المشعة ، لتستمد من أريجها العذب وإشعاعها الطليق » (٢)
ومن هذا المنطلق تجيء الحرية الفكرية في الإسلام ، لذلك يختلف الإسلام ن ديموقراطيات الغرب في موقفه من تحرير العقل ، لاختلافه عنها في ظرته للطبيعة الإنسانية ، في شمولها فهو يسمح للفكر الإنساني أن ينطلق يعلن عن نفسه كشخصية مجاهدة في سبيل قاعدة « لا إله إلا الله » التي

---

(١) سورة الملك : ٢٣
(٢) محمد قطب : منهج التربية الاسلامية ص ٩١

هى الأساس الحقيقى لتوفير الحرية الحقيقية للإنسان ، بعد أن يخلصها من أغلال التقليد ، وجمود الفكر ، والاستسلام للأساطير* أو لآراء الآخرين ، دون وعى أو تمحيص وتكوين العقل الاستدلالى أو البرهانى عند الإنسان، فلا يكفى لتكوين التفكير الحر لدى الإنسان أن يقال له : فكر كما يحلو لك، كما صنعت ديموقراطيات الغرب ، الأمر الذى يؤدى إلى الفوضى ، ويؤدى إلى ألوان من عبودية الفكر المتمثلة فى التقليد والتعصب وتقديس الخرافات المزرية بقيمة العقل الإنسانى .

والمنهج القرآنى فى خطته لإنشاء الفكر الحر يحرص على أن يتكون فى الإنسان العقل الاستدلالى أو البرهانى الذى لا يتقبل فكرة دون تمحيص ، ولا يؤمن بعقيدة مالم يتحصل على برهان ليكون هـذا العقل الواعى ضمانا للحرية الفكرية وعاصما للانسان من التفريط بها ، بدافع من تقليد أو تعصب أو خرافة . وفى الواقع إن هذا جزء من المنهج الإسلامى وجولاته فى سبيل

* « السحر : الدين البديل » .. هذا هو العنوان الذى اختارته مجلة تايم (TIME) الأمريكية فى عدد ١٩٧٢/٦/١٩ لموضوع الغلاف .. أو موضوع الضياع الماحق الذى جعل من السحر والشعوذة وعبادة الشيطان ديناً للانسان الأمريكى ، النموذج الحى المتطور لإنسان القرن العشرين والحضارة الغربية المعاصرة التى جعلت من العلم والمادة إلهين من دون الله . إن هذه الظاهرة تحمل = من الدلائل على قصور الحضارة الغربية عما يكفى لإدانتها إدانة كاملة ، ذلك أن الذين يعتنقون « الدين الجديد » هم فى الغالب من صفوة العلماء ورجال الفلسفة والفن الذين لم يجدوا فى آلهتهم ما تطمئن إليه عقولهم وأرواحهم ، لقد جرب الإنسان الغربى كل شىء وأخيراً أصابه اليأس والسقوط المعنوى ، وها هو الآن يتشبث بأى أمل ولو لم يكن مقنعاً ، فاستسلم للشعوذة والدجل .

تحرير المحتوى الداخلى للانسان ، فهو كما حرر الإرادة الإنسانية من عبودية الشهوات ، كذلك حرر الوعى الإنسانى من عبودية التقليد والتعصب والخرافة والأسطورة ، وكل ألوان السحر والدجل والشعوذة ، لذلك جاء نهى الرسول الكريم حاسماً وصريحاً فى أمر إتيان الكهان والمنجمين .. وبهذا وذاك أصبح الإنسان حراً فى تفكيره وحراً فى إرادته .

« .. فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » [1] . « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون [2] وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون » [3] .

وبعد :

إن أدعياء الحرية فى عالمنا هذا أمرهم عجيب ، ووضعهم غريب وحالهم مريب ، تراهم يدعون أنهم أساطين العلم فيها وهم أجهل الناس بها ، ويتبجحون تبجح المغرور برفع أعلامها وهم أشد الناس تنكيساً لها ، ويتخيلون تخيل الواهم أنهم يشيدون بناءها وهم يقوضون أركانها [4] .

• ويقول قائلهم : إنه متحرر فى عالم السياسة .. وهو محكوم (بالديكتاتوريات) الفردية والتسلطات الحزبية .

---

(١) سورة الزمر : ١٧ — ١٨

(٢) سورة البقرة : ١٧٠

(٣) سورة النحل : ٤٤

(٤) عبد الباقى رمضون : خطر التبرج والاختلاط/ص ٢٥٦ وما بعدها بتصرف .

* ويقول : إنه متحرر فى عالم الاقتصاد .. وهو محروم من ضرورات الطعام والشراب والملبس والمسكن .

* ويقول : إنه متحرر فى عالم النفس .. وهو يعيش القلق والحيرة والخوف والحسرة .

* ويقول : إنه متحرر فى عالم الضمير .. وهو يعيش الغش والخداع والمكر والاحتيال .

* ويقول : إنه متحرر فى عالم الدين والإيمان . وهو مستعبد للدنيا بجميع شهواتها ومغرياتها .

* ويقول : إنه متحرر فى عالم الفكر .. وهو يعيش الخطأ والانحراف ويتلقى الكذب والدجل .

* ويقول : إنه متحرر فى عالم السلوك والأخلاق.. وهو يعيش الوقاحة والسفه والفحش والمنكر .

* ويقول : إنه متحرر من كل شىء .. وهو عبد لكل شىء .

إن الحرية الحقيقية التى تليق بالإنسان المكرم كما تعلمناها من رسالة الإسلام هى الخلاص من جميع قيود الشر والفساد ، وانفساح المجال للانطلاق فى جميع سبل الخير والصلاح ، دون أى عائق يعوق أو أى حائل يحول .

* والإنسان الحر حقيقة هو الخالص من جميع قيود الشر والفساد ، والسائر المطمئن فى جميع سبل الخير والرشاد .

* وهو الواقف إزاء رغبات النفس ونزوات الجنس موقف العاقل

الحكيم والمميز الرزين ليضع كل شيء في مكانه اللائق، ووضعه للموافق، دون أن تطغى رغبة على حق أو أن تتعدى نزوة على حد.

. وهو السليم في عقله وتفكيره. إذ لا حرية مع فساد العقل والتفكير

. وهو المستقيم في تصوره واعتقاده .. إذ لا حرية مع انحراف التصور والاعتقاد

. وهو المخلص لله في نيته وطويته .. إذ لا حرية مع سوء النية وفساد الطوية.

. وهو المستسلم لله تعالى بكل شيء .. إذ لا حرية مع الخضوع للدنيا والتثاقل إلى الأرض

. وهو العابد لله تعالى وحده .. إذ لا حرية مع الشرك

. وهو الملتزم لأمر الله وحكمه .. إذ لا حرية مع الالتزام لأمر البشر وحكمهم

. وهو الصحيح في خلقه وسلوكه .. إذ لا حرية مع سوء الخلق والسلوك.

. وهو الطيب في كسبه وإنفاقه .. إذ لا حرية مع الكسب الخبيث والانفاق الخبيث.

هذا هو مفهوم الحرية كما تعلمناه من الاسلام، وهذه هي صفات المسلم الحر.

قال تعالى: « ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين، ولا تجعلوا مع الله

إلها آخر إنى لكم منه نذير مبين »(١) .

فهل آن آ لأدعياء الحرية المزيفة والتحرر المنحرف أن يفهموا الحرية على معناها الحقيقى ، ويعرفوها على وجهها الصحيح ؟!!

وهل آن للشباب المحروم ، الذى لم يذق بعد طعم الحرية الحقة أن يتذوقها ويشب على غذاها النافع اللذيذ .

وهل آن لهذه الأمة المخدوعة بالأكاذيب والأباطيل ، الغافلة عن الحق المبين أن تتنبه من غفلتها وتفيق من رقادها . « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » (٢) .

(١) سورة الذاريات : ٦٠-٥١ (٢) سورة الحديد : ١٧

الخاصية الثالثة :

الإيجابية

الانسان الذى حررته عقيدة التوحيد ، قوة مريدة بانية ، ومن ثم فهو قوة إيجابية فى واقع الحياة . . قوة تدفع الحياة إلى الأمام ، قوة تسيطر على قوى الكون وطاقاته ، وتستغلها لخير الأرض وعمارتها بالحق . وبهذا يستحق أن يوصف بأنه خليفة الله فى الأرض .

إن العقيدة الإسلامية ، ليست مجرد حقائق إيمانية يعيشها الانسان فى عالم الضمير لا يكفيها أن توجد فى صورة مثالية نظرية ، أو تصوفية روحانية ، ذلك لأنها منهج لواقع مطلوب إنشاؤه ، بالعمل والجهاد الدائب . . منهج يحمل معه بواعثه ومحركاته التى تؤثر غاية التأثير فى الانسان .

هذا ما تثيره عقيدة التوحيد فى شعور المسلم . . « ومن ثم يجد دائماً هاتفاً ملحاً فى أعماقه ، يهيب به الى تحقيق هذا التصور فى دنيا الواقع ؛ ويؤرقه ؛ حتى يهب للعمل ، ويفرغ طاقته الايمانية كلها ، فى هـذا العمل الايجابى البنّاء وفى إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة فى حياة الناس[1]

« وحيثما ذكر الإيمان فى القرآن أو ذكر المؤمنون ، ذكر العمل ، الذى هو الترجمة الواقعية للإيمان ، فليس الأمر مجرد مشاعر تفرّغ فى حركة ، لإنشاء واقع ، وفق (التصميم) الاسلامى للحياة ، أو وفق التصور الاسلامى للحياة . . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ـ ثم لم يرتابوا ـ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » [2] .

---

(١) سيد قطب : خصائص التصور الاسلامى ص ١٨٥ .

(٢) سورة الحجرات : ١٥

وتلك حقيقة كبرى فى منهج الإسلام تفسر طبيعته ووظيفته باعتباره حركة تغيير جذرى للحياة .. وليس نظاما منفصلا عنها يعاديها وينعزل عنها، ويستهلك طاقة الناس تحت لوائه فى محاولة يائسة للوقوف فى وجه حركتها كما يفعل بعض الناس . غير أن التقاء الإسلام بالحياة ليس إلتقاء (ميكانيكيا) كالتقاء الظاهرة الاجتماعية التى تستجيب استجابة مطلقة عمياء لعوامل البيئة وتفاعل أسباب التأثير ، وإنما هو التقاء النظام الواعى الذى يستهدف السيطرة على الحياة وتوجيهها - والأمة المؤمنة لاتقف عاجزة فى انتظار قدر الله « وإنما هى نفسها قدر الله الذى تجرى به السنن وتتحقق من خلاله القوانين» ان الإسلام ليس ملجأ للضعفاء واليائسين والهاربين من الحياة .. وأخلاقه ليست أخلاق الهزيمة والخوف والسكون وإنما هو معسكر كبير لتربية النفوس العملاقة وتكوين القمم الشامخة التى تسيطر على الحياة وتوجهها لما ينفع الناس .. وأخلاقه لذلك أخلاق أمن ونصر وحركة .. وتفاعل مع الحياة .

الإسلام كما قيل بحق لايسلب الإنسان من الدنيا ولا يسلبها منه ولا يحرمه من نعيمها وسرورها .. ولايضعه مع قواها الدافعة فى معركة خاسرة فالدنيا هى دنيانا نحن .. وحياتنا فيها لا يمكن ولا يجوز أن تكون حياة زهد وحزن وصمت والله تعالى لم يرسل رسله وينزل كتبه ليحارب الحياة وإنما فعل ذلك لتستقيم الحياة على موازينه القسط «ولقد أرسلنا رسلنا وأنزلنا بالبينات الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »، «خلق لكم ما فى الأرض جميعا » .

« وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا » .

ولفهم هذه الإيجابية وآفاقها الواسعة نعرض لمسألتين :

أولهما - معنى العبادة ومكانها فى الإسلام ومظاهر الإيجابية فيها ونظرة الإسلام إلى متع الحياة ومباهجها .

ثانيا - مظاهر الإيجابية فى الأخلاق التى يربى عليها الإسلام أتباعه .

١ ـ معنى العبودية والعبادة :

فقد أساء كثير من الناس فهمه .. فجعلوها قاصرة على أداء الشعائر المخصوصة المحددة التي هي أركان الإسلام الأساسية كالصلاة والصيام والزكاة والحج .. واعتبروا ما عداها لا يحقق عبودية لله .. وكان لهذا التفسير الخاطىء انعكاسان خطيران ..

أولهما: اختلال ميزان التقويم الأخلاقي عند كثير من الناس حتى صار الرجل الفاضل الصالح هو من يقيم هذه الشعائر وحدها . ولو كان منحرفا مهلهلا في سائر جوانب شخصيته وحتى لو أسقطت من أساس التقويم الأخلاقي كل العناصر الحيوية الأخرى في تكوين الشخصية والسلوك ..

الآخر : الوقوف من سائر ضروب النشاط الحيوي للفرد والمجتمع موقفا معاديا على أساس أنها ، لخروجها من نطاق شعائر العبادة .. تعتبر .. لهوا ولعبا واشتغالا بزينة الحياة الدنيا .

وكان من التقاء هذين الخطين الكبيرين في بعض النفوس أن قسمت الحياة الإنسانية قسمة جائرة فاسدة بين الدين والدنيا .. وبين العبادة والعمل وبين الرب والقلب وكما يقول التعبير الشائع الذي يعكس هذا الفهم المنحرف ..

وقد آن الأوان لتعرف الأجيال الصاعدة من الشباب المؤمن أن الدنيا كلها معبد للمؤمنين وأن شعائر الإسلام المعروفة هي الأركان الرئيسية للطاعة وهي الحد الأول من العبادة ولكنها ليست وحدها كل ما يحقق العبودية لله بمفهوم الاسلام وإنما الذي يحقق العبودية الكاملة لله ، هو القيام بهذه الشعائر وكل عمل ينفع الناس ويبتغى به الخير ووجه الله .. رأى الصحابة في مجلس رسول الله : شابا قويا يسعى في نشاط فقالوا « لو كان ذلك في سبيل الله » .. فصحح لهم الرسول ﷺ مفهوم العمل في سبيل الله قائلا : « إن كان خرج يسعى على ولد صغار فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين

كبيرين فهو فى سبيل الله وأن كان خرج على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ».

وعن أنس قال : كنا مع النبى ﷺ فى سفر فمنا الصائم ومنا الفاطر . . قال : فنزلنا منزلا فى يوم حار ، فسقط الصوام اعياء وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب فقال الرسول ﷺ : « ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله » .

ويغرس الرسول ﷺ هذا المعنى الكبير فى نفوس أتباعه فيقول لهم : « لأن يمشى أحدكم فى حاجة أخيه خير له من أن يعبد الله فى مسجدى هذا شهرا » بل إننا إذا حققنا النظر وأحسنا التأمل فى شعائر الاسلام .. لوجدنا لها انعكاسا عمليا معينا على العمل الايجابى فى الحياة . . بل إن نصوص الاسلام صريحة فى توكيد هذا المعنى والارشاد إليه . .

يقول تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

ويقول تعالى . « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج » .

بل إذا تأملنا فى كثير من الأوامر والتوجيهات المتعلقة بالشعائر والعبادات الأساسية لوجدنا لها بالاضافة إلى هدفها الدينى الأساسى المتمثل فى التسليم لله والدخول فى طاعته آثارا وانعكاسات عملية ذات طابع إيجابى من شأنها حين تتحقق أن تضفى على الفرد المسلم والجماعة المسلمة صورا متعددة من القوة والتماسك ،فضبط القبلة وضبط مواعيد الصلاة وإتمام الركوع والسجود من شأنه أن يعود صاحبه ضبط النفس وإحكام الأقوال وإتمام الأفعال وإتقانها وقراءة القرآن والسنن النبوية وتلاوة الأوراد وسماع العظات،من شأنه أن ينجب فكرا مثقفا يعرف كيف يفقه ويتدبر ويعمل حين

يقرأ ويسمع،والامتناع عن الأكل والشراب فى رمضان من شأنه أن يعقب إرادة قوية تجيد الاستعلاء على ضبط النفس والجسد وتحسن التحكم فى الحياة وتجعل ضبط النفس طبعا سائدا مغروسا. بل إن هذه العبادات وتلك الشعائر إذا لم تعكس شيئا من هذه الآثار على صاحبها فقد تجردت من كثير قيمتها ومن ثوابها وقد وصدق رسول الله ﷺ «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر».

بل إن الاسلام ليحرص على ربط شعائره وعباداته كلها بالحياة ... حتى لا يقع اتباعه فيما وقع فيه أصحاب الديانات الأخرى من الوهم حين تصوروا الدين بشعائره ونظمه تعبيراً عن جانب الحزن والألم فى الحياة.

ولذلك حرص على أن يردف صيام رمضان بعيد الفطر.

وأن يردف أيام الحج بعيد النحر.

ليؤكد فى وضوح أنه لا رهبانية فى الاسلام وأن الحياة الإنسانية السوية تتعانق فيها مشاعر التمتع بالحياة مع مشاعر العبادة التى تدرب النفس على صناعة الحياة.. وليعلن أن الحياة فى الاسلام متكاملة تستوعب الجد واللهو، وتلبى مطالب الجسد والروح.. وتطلب الزينة والكمال. كما تطلب الضرورة التى تبقى على الحياة.. ولهذا حارب الاسلام مصادرة مباهج الحياة والاسراف فى حرمان النفس وتعذيب الجسد تخليصاً للروح كما تصور نساك الفرس والهند وبعض فلاسفة اليونان ورهبان النصارى.

وشعار الاسلام العام فى هذه القضية الحيوية قول الله تعالى: «ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم»، وقوله: «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق».

وهو حين فطم النفس عن هذه الزينة لا يفعل ذلك عداء منه للحياة

وإنما تربية منه لتلك النفس ولهذا يكره للمسلمين استمرار هذا الفطام . . فيقول ﷺ فى الصيام : « لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطور » ويجعل الاسلام صيام يوم العيد حراما .

ويقول ﷺ فى الحديث المعروف . « ولكننى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأتزوج النساء هذه سنتى فمن رغب عن سنتى فقد رغب عنى » .

ويطلب الله تعالى من المؤمنين ألا تمنعهم إقامة الشعائر من الضرب فى الأرض وإقامة شئون الحياة فيقول : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » .

بل انه ليحرص وهو يذكر المؤمنين بمنافع الدواب من الخيل والبغال والحمير وهى الوسيلة الوحيدة للمواصلات وقت نزول الوحى فى قفار الجزيرة العربية . . على أن يشبع نزعة التزين والتجمل فى نفس الانسان فيقول : « والخيل والحمير لتركبوها وزينة » .

ويعلمهم العناية بالمظهر والملبس إذا جاءتهم مناسبة من المناسبات فيقول الله تعالى : « وخذوا زينتكم عند كل مسجد » ولا يخفى أن صلاة الجماعة فى المسجد كانت فى ذلك الوقت مناسبة اللقاء الاجتماعى الأساسية .

٢ — وأما مظاهر الايجابية فى توجيهات الاسلام وتعاليمه :

فتكشف عنها أمور كثيرة . . فإن رسالات الله — كما قدمنا — لم تكن دعوات نظرية تستهدف تقرير بعض الحقائق المتصلة بالغيب والألوهية وإنما كانت فى هدفها النهائى دعوات للإصلاح العملى . . وهو ما تكشف عنه الآية الرئيسية فى هذا الموضوع وهى قوله تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » .

والقرآن الكريم فى سورة هود وفى غيرها يستعرض لنا نماذج من الأهداف الاجتماعية المتنوعة التى دعا إليها رسل الله.. بعد نبذ الشرك وتحقيق العبودية لله

وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبـــدوا الله ما لكم من إله غيره وقد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم » .

« ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين » .

ويسجل القرآن كيف استغرب الناس فى تلك الأزمنة أن تمتد مطالبات الدين إلى تنظيم حياتهم فى أنفسهم وأموالهم . وتخيلوا أن فى وسعهم أن يعبدوا الله فى البيع والمحاريب .. ثم ينطلقوا بعد ذلك فى حياتهم بعيداً عن الدين وموازينه ، « قالوا يا شعيبا أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبدا آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد » .

ثم تمتد هذه الايجابية إلى منهج الاسلام فى تقرير عقيدته وتعاليمه . . فهو منهج حركى يدعو أصحابه إلى الدخول فى معركة تحكمها ـ هى الأخرى ـ موازين الدين وشرائعه وحدوده .

« فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين» .

« ودوا لو تدهن فيدهنون » .

« ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا » .

والمسلم مطالب إزاء الشرور والمظالم والانحرافات بموقف واضح ثابت . . هو موقف السعى إلى تغييرها . . « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن

لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » .

بل إن هذه الايجابية لتمتد إلى أسلوب معالجة الصدام الداخلى بين طوائف المؤمنين .. ولا يقبل من المسلم إزاء هذا الصدام أن يضرب كفا بكف .. أو أن يشير إلى الظالم والمظلوم من بعيد، لا وإنما عليه واجب التدخل المباشر والعمل الايجابى لتصفية الصدام بالحق والعدل « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما : فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين » .

وتظهر هذه الايجابية فى نظرة الإسلام إلى القيم والفضائل فهو يحميها ويعمل على تقدمها ودفع عجلة تطورها غير مكتف بما يمكن أن نسميه فضائل السكون . .

« فالعلم فضيلة . . ولكنه ينبغى أن يوجه لخدمة الناس وتحقيق مصالحهم ولهذا كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع » .

بل إن دعاء الرسول ﷺ المأثور ليكشف كشفا رائعاً عن هذه الايجابية التى يربى عليها الإسلام جنوده فقد كان ﷺ يقول فى دعائه : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » .

والإيمان نفسه كما قدمنا ليس مجرد حالة نفسية أو عقلية ولكن ينبغى فى منطق الإسلام أن يتحول إيجابيا إلى عمل صالح .. ولهذا لا تكاد آية من القرآن تذكر الذين آمنوا حتى ترد فيها بالذين عملوا الصالحات وجاء الحديث الشريف مفسراً هذا المعنى الكبير فى الحديث الذى يرويه البخارى

من أن رسـول الله ﷺ قال : الإيمان بضع وسبعون شعبه ، فأفضلها قول : لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الاذى عن الطريق والحيـاء شعبة من الايمان.

بل إن الصدقة التى يحصرها الناس اليوم فى متاع قليـل تمتد به يد الغنى إلى يد الفقير يحولها الإسـلام إلى فضيلة إيجابية متعددة الجوانب فيقول الرسول ﷺ : تبسمك فى وجه أخيك صدقة وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل فى أرض الضلال لك صدقة ،وإماطتك الأذى والشوك والعظم عن الطريق لك صـدقة ، وإفراغك من دلوك فى دلو أخيك لك صدقة وبصرك للرجل الردىالبصر لك صدقة./رواه البخارى).

بل إن الحق والباطل يوزنان فى الاسلام بمقدار ما يؤديان إليه من نفع أو ضرر إيجابى للنـاس يقول تعالى : وكذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء « وإما ما ينفع الناس فيمـكث فى الارض »

الخاصية الرابعة

التوازن

التوازن قاعدة الحياة السوية ، يحرص عليه الإسلام ويجعله هدفاً أساسياً فى منهاجه ، عندما يوازن فى الإنسان بين طاقة الجسد وطاقة العقل وطاقة الروح . . بين مادياته ومعنوياته . بين ضرورياته وأشواقه . . بين حقوقه وواجباته ، فالذى ينشد الحق لا بد أن يقوم بكل متطلباته من واجبات . كما يوازن فى الحياة بين الواقع والمثال .. بين الايمان بالواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذى لا تدركه الحواس .. بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » (١) .. وسطاً فى كل شىء ، متوازنين فى كل ما تقومون به من نشاط ، فكنتم بذلك خير أمة ، قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية ، الوسط ههنا : الخيار والأجود .

وإذا كان التوازن قاعدة للحياة السوية فيما يتعلق بالإنسان فى كيانه الخاص كفرد أو بكيانه فى أسرته أو مجتمعه ، وكان هذا التوزان سبب الاستقرار والاستمرار ، فإنه قاعدة مطردة فى الكون وظواهر الطبيعة ، فالرياح والأمطار والزوابع والأعاصير والزلازل والبراكين والحر والبرد ، والليل والنهار والحياة والموت ، واختلاف الفصول بين الصيف والشتاء والربيع والخريف، كلها ظواهر لقانون التوازن فى الطبيعة . والشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة فى فضاء الكون الفسيح ، لكل منها

---

(١) سورة البقرة : ١٤٣

مداره الذى يسبح فيه ويدور فى فلكه بانتظام دون أن يصادم غيره أو يخرج من دائرته الفلكية ، تخضع كلها لقانون التوازن الذى تكفل الله به لهذا الكون بما فيه ومن فيه بالاستقرار والاستمرار لأوضاعه ونظمه دون طغيان فى حساب مقدر مقرر ، شاءه خالق الكون وخالق الإنسان ، قال تعالى : « إن كل شىء خلقناه بقدر »(١)

* الطغيان اختلال لا يليق بالإنسان المسلم

وإذا كان الإنسان كما يريده الله ، قوة إيجابية ، فقد أراد له أحسن الخالقين أن تكون إيجابيته فى واقع الحياة بغير طغيان . . ذلك أن « الطغيان » ـ بكل أنواعه ـ هو المنزلق السهل أمام الإيجابية الفاعلة .

يطغى الإنسان على نفسه فيكبت بعض طاقاته ليبرز بعضها الآخر . يكبت طاقة الروح ليبرز طاقة الجسم أو طاقة العقل. يكبت معنوياته ليبرز جوانبه المادية ، ويحقق كيانه عن طريق الإنتاج المادى .

« ويطغى الإنسان على غيره ، فيعطى نفسه حقوقاً لا يعطيها للآخرين . يعتبر نفسه ـ فرداً أو شعباً ـ من عنصر ممتاز يحق له أن يستعبد الآخرين ويخضعهم لسلطانه . يحق له أن يسلبهم كراماتهم وحرياتهم و مقومات حياتهم لينتفش بها وحده ويتضخم . . أو يحق له أن يصنع كما يشتهى ، ويقرر حقوقه كما يتراءى له ، ويقرر واجباته بنفسه ـ إذا رأى أن تكون عليه واجبات ـ ولا يعنيه ترابط المجتمع ولا الخلل الذى يطرأ عليه حين يصنع كل فرد فيه ما يريد حينما يريد . . تلك نماذج الإيجابية المختلة » و فى مقابل هذه النماذج من الإيجابية المختلة نماذج أخرى سلبية مريضة : « يكون

---

(١) سورة القمر : ٤٩

الإنسان سلبياً مع نفسه ، فيطلق لها عنان الشهوات ، لأنه لا يملك القوة الضابطة ـ القوة الموجبة ـ التي يضبط بها نوازع الشهوة ٠

ويكون سلبياً مع غيره ٠٠ سلبياً مع إزاء القوى المادية والاقتصادية والاجتماعية . . سلبياً إزاء العرف والعادات والتقاليد ٠٠ سلبياً إزاء سطوة المجتمع أو جموده أو القوى المسيطرة عليه ، ومن ثم يضيع كيانه الفردى وينسحق تحت ما يقع عليه من ضغوط ٠

كلاهما اختلال لا يليق بخليفة الله فى الأرض !

وكلاهما اختلال ينشأ من سوء التربية وسوء التوجيه ، ينشأ من التوقيع على بعض جوانب النفس وطاقاتها دون بعضها الآخر ، أو التوقيع على بعضها بأكثر مما ينبغى لها ، بحيث تطغى على ما يقابلها من جوانب وطاقات ٠

والإسلام يريد الإنسان قوة إيجابية فاعلة ، ولكنها سوية، وطريقته هى التوقيع على الأوتار كلها مجتمعة فى تناسب وترابط ٠٠ (١)

* التناسب فى قيم الحياة :

المال واللذة والعمل والفكر والقوة والعبادة والقرابة والقومية والإنسانية قيم من قيم الحياة الدنيا ، جعل الإسلام لكل منها موضعاً فى نظام الحياة وقدراً ونسبة محدودة لا تتجاوزها حتى لا تطغى قيمة على قيمة ٠ وإن من التشويه والانحراف بمنهج الإسلام وطريقته المتوازنة تبديل هذه النسب بحيث تزاد عن حدها أو تنقص بالنسبة إلى غيرها ـ كما حدث فعلا فى العصور الأخيرة من حياة المسلمين فاختلت حياتهم وانحرفوا عن

---

(١) من كتاب « منهج التربية الاسلامية » ص٣٤ و ٣٥ ببعض التصرف ٠

طريق الإسلام القويم . فإن تغيير النسب فى نظام الحياة كتغيير النسب فى فى « الرسم الكاريكاتيرى » الذى يعطى من الإنسان المعالم والمشابه، ولكن على وجه هزلى ممسوخ ، و كتغيير النسب فى مواد الدواء و كمياته ، فقد يؤدى إلى إفساده وتغيير صفاته وخصائصه وربما انقلب إلى مادة ضارة أو مادة سامة ، وكذلك الإنسان لو غيرنا فى التناسب بين جوانب حياته كما أرادها الله فى منهجه لكانت النتيجة هى مسخ لفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وفقدان للسعادة بما يحدثه الخلل من تمزق وشقاء » .

فلو جعلنا الحياة مئة جزء لوجدنا أن الإسلام قد خص العبادة منها بأجزاء وكذلك الإنفاق والكسب والجهاد والتمتع بالملذات المشروعة لكل منها قدره ونصيبه المحدد ، ولو غيرنا هذه النسب، فقللنا قيمة الجهاد والقدر الممنوح له وزدنا فى نصيب شعائر العبادة وانتقصنا من حظ المال كسباً أو إنفاقاً ، وأفرطنا فى المآكل والملذات أو فرطنا فيها أو ألغيناها لخرجنا بذلك إلى نظام يخالف فى حقيقته وروحه نظام الإسلام وأخللنا بالتوازن الذى أقامه بين قيم الحياة وجوانبها ، فالمسلم الكامل فى نظر البعض ، هو المنصرف كلية إلى شعائر العبادة لا يهتم بغيرها، المعتكف فى محرابه لا يبارحه، الملتزم لأذكاره وأوراده ، والمسلم الكامل فى نظر الآخرين هو المنصرف إلى تجارته وأمواله وأولاده وأهله هم شغله الشاغل . إن هذه الصور لا تشبه مطلقاً الصورة التى كان عليها الرسول الكريم وأصحابه المقتدون به ، فإن كانت العبادة جزءاً أساسياً فى حياتهم وكان للتجارة نصيباً فى حياتهم ، فإن الجهاد كان مالئاً لصفحاتها .. الجهاد فى سبيل تحرير المجتمع من العقائد الفاسدة وترسيخ العقائد الصحيحة وتحريره من ظلم الظالمين واستبداد المستبدين لحماية المستضعفين وإقامة العدل بين الناس ، وكذلك تكون حياة

للمسلم المنشغل بالجهاد والاصلاح الاجتماعي مختلة مشوهة بالقياس إلى الصورة الإسلامية الكاملة إذا كانت خالية من العبادة ضعيفة الصلة بالله ومن السعي في طلب الرزق ليعف نفسه ويستغني بما في يده عما في أيدي الناس .

فالتوازن من أبرز خصائص التربية الاسلامية ، وهو القاعدة الكبرى في المنهج القرآني ، الغلو فيه كالتفريط كلاهما يخل بتوازن الحياة ، ولذلك قامت تكاليف الاسلام كلها على الاعتدال مراعاة لتكوين الانسان باعتباره مزيجاً من الروح والمادة ، فالطاقة الروحية هي أكبر طاقات الإنسان حرص الاسلام على عقد الصلة الدائمة بينها وبين الله ، حتى يرتفع المسلم للمستوى اللائق به ، وفي الوقت نفسه يعترف الاسلام بمواطن الضعف والقصور في الانسان بما فيه من مادية ، فيحاول أن يرتفع به عن ضعفه « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا (١) ومن هنا كان تعامل الإسلام مع الإنسان من خلال توجيهاته وشرائعه مراعياً ألا يعلو على مستوى طبيعته، وألا يهبط عنها موازيا بين حاجاته الجسدية وأشواقه الروحية .

« إن دوافع الحياة الطبيعية كلها ليست مستقذرة في عرف الاسلام ، والرغبة في الامتداد ليست سقوطاً يترفع عنه المتطهرون. فالرغبة في امتداد الحياة تتفق مع مشيئة الله في خلق الحياة ، وإنما يريد الله ترقية الحياة لامجرد امتدادها . وهذا الامتداد هو وسيلة الارتقاء ، وليس مضاداً لفكرة الارتقاء . ومن ثم فالاسلام ينسق الدوافع الحيوية في بيئة البشر، مع الأشواق الروحية العميقة في الفطرة ، ويصوغ من كلتيهما وحدة ، لاتفريط فيها ولا إفراط ، ولاصراع في داخلها ولا اصطدام .

« والدعوة إلى الاستمتاع في الاسلام تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة الى

---

(١) سورة النساء : ٢٨

التسامى ، فتنشأ من بينهما صورة للاعتدال ، البرىء من الفحش ، البرىء من الحرمان: «يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين . قل: من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ،قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطـانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

والفواحش من الفحش وهو تجاوز الاعتدال ، وشأنه شأن البغى بغير الحق وشأن الاشراك بالله .. كله مفسد للفطرة ، مناف للعدالة ، مخالف لناموس الحياة المتناسق .

وقد قامت تكاليف الإسلام كله على الاعتدال فى الطلب ، وأوساط الناس يقدرون عليها ، فإذا ماقصر المسلم عن شيء منها أو وقع فى إثم ثم رجع إلى نفسه يزكيها ويطهرها ، وإلى الله تائباً ، فهذا أمر طبيعى فى جبلة الانسان

يلاحظ الإسلام بصفة عامة ألا يكلف الفرد فوق طاقته ، فى شرائعه أو شعائره ، فالتكليف فوق الطاقة ، إيجاباً أو منعاً ، لاينتهى إلا إلى نتائج ثلاث

١ - إما الإرهاق والعسر ، والحرمان والكبت ، وتحطيم الذات الإنسانية تحت الكبت أو الإرهاق ، وتعويق الحياة عن النمو المطرد ، والرقى المعتدل.

٢ - وإما إلى النفور والجماح والخروج على الأوامر والنواهى ، والعداء الجامح الذى يقود صاحبه إلى الغلو فى الإباحة ، كرد فعل للكبت أو الارهاق

٣ - وإما القلق النفسى الدائم ، والشعور دائماً بالخطيئة أو التقصير ، فيما لاخطيئة فيه ولاتقصير . وهو عذاب دائم لايطاق .

« ولذلك يحرص الاسلام على أن تكون تكاليفه كلها فى حدود الطاقة ،

ويرعى الطبيعة البشرية بكل إمكانياتها وهو يشرع إيجاباً وتحريماً ، ثم يدع لها أن تتطوع بالأكثر فوق التكاليف المفروضة ، إذا استطاعت،في غير ضيق ولاحرج ولامشقة وبذلك يصونها من التحطيم ، ويصونها من الجموح ، ويصونها من القلق الذى لايريح .

« وفى ذلك يقول الله تعالى فى القرآن الكريم : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها» (١) .. « ماجعل عليكم فى الدين من حرج » (٢) . ويقول الرسول العظيم ﷺ إن هذا الدين يسر لا عسر فيه ولن يشاد الدين أحدإلا غلبه » رواه البخارى والنسائى . وينهى ﷺ التنطع والتشدد فى تفسير الدين وفى القيام بتكاليفه فيقول : « لاتشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم» رواه أبو داود أو يقول : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق» . ويشبه المتشدد المرهق لنفسه بالمسافر الذى يهلك راحلته ولايبلغ غرضه : « إن المنبت لا أرضا قطع ولاظهراً أبقى » رواه البخارى

وفيما مضى من أمثلة على هـذا القصد والاعتدال ومراعاة الطـاقة ، وبخـاصة فى التنسيق بين الضرورات والأشواق ، وفى الاعـتراف بدواعى الخطأ ، لابأس من أن نسوق منه ناحية أخرى .

إن انفعالات الغضب ووجدانات الغيظ انفعالات ووجدانات لاسبيل إلى محـــوها أو قتلهـــا فى النفس البشرية لأسبـــاب شتى . بعضها ينبع من الشعور بالذات ، وبعضهـــا ينشأ من تصـــادم المصالح وبعضها يأتى من اختلاف المشاعر والمسالك . والإسلام يدعـــو الى السماحة والرفق والبشاشة ولكنه لا يلغى من حسابه أن مشاعر الغضب والغيظ مشاعر طبيعية ، فلا يكلف الناس محوها من الناس محواً ، ولايعدها فى ذاتها خطيئة

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٦ (٢) سورة الحج : ٧٨

واغماً ، إنما يدعو إلى كظمها وضبطها ، لا على أن تستحيل أحقاداً وضغائن في الصدور ، بل على أن يكون هذا الضبط سبيلا إلى التسامي والتصعيد . وفى هذا السبيل يأخـــذ النفس البشرية بالترغيب والتحضيض لا بالأمر والتكليف : « ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور » (١) . « الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » (٢) وهكذا يقرن الصبر بالغفران، ويتبع الكظم بالعفو لأن الصبر والكظم إن لم يوجها الى الغفران والعفو فقد يؤديان إلى الضغينة والحقد ، والاسلام يكره الضغينة وينفر من الحقد، فيوجه ويرغب فى العفو والسماحة ، ليغسل النفوس من الغيظ والغضب ، قبل أن يستحيلا حقداً وضغينة ..

« والإسلام يكره أن تقع الخصومة بين المسلم والمسلم ، وأن تسودهما القطيعة ولكنه يقدر أن شعور الغضب لا يمكن محوه ، ولا يعده ذنباً بمجرد وقوعه ، ولا يقول كالنصرانية الكنسية : « من غضب على أخيه باطلاً كان مستوجب الحكم » فإذا دعا إلى الصلح والوئام، أعطى فرصة من الزمن تهدأ فيها الثورة ، وتخمد فيها النزوة ، وترجع فيها النفس إلى الهدوء والسكينة فيمنح كلا من المتخاصمين ثلاثة أيام ، يفثأ فيها غضبه ، وتسكن فيها نفسه، قبل أن يلزمهما بالسلام بعد الخصام : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذى يبـدأ بالسلام » رواه البخارى .

« والإسلام يكره الجزع الذى تتهاوى بسببه النفس ، ويتداعى إيمـانهـا بالله واحتمالها للمكروه ، لأن الصبر والتماسك مقياس القوة ومقياس الإيمان

---

(١) سورة الشورى : ٤٣ (٢) سورة آل عمران : ١٣٤

فيقول الرسول الكريم : « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » . ولكنه لايعد الحزن والدمع جريمة ، ولايقهر النفس على السكون الكامل الجامد، لأنه فوق الطاقة، وربما قاد إلى القسوة والتحجر. فها هو ذا محمد رسول ﷺ نفسه تدمع عيناه على ابنه إبراهيم ، ويناجيه وهو مسجى : «ياإبراهيم، إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا مايرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»(١) .. إنما الصبر الذى يتطلبه الإسلام هو صبر التأسى والتجمل وتذكر الله ورد الأمر إليه فى الكروب « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ؛ وبشر الصابرين ؛ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون» (٢) .

* التوازن بين الفردية والجماعية :

للفرد فى المنهج القرآنى قيمة أساسية ، فهو اللبنة الأولى فى بناء الجماعة يبدأ الإسلام عمله فى إقامة المجتمع المتوازن بدءاً بالنفس ، يطلق طاقتها وقواها الصالحة البانية ، ويهذب نزواتها بلا كبت أو تنويم أو إخماد .

وفى النظام الإسلامى تلتقى النزعات الفردية مع مصلحة الجماعة فى صورة متزنة ، فعندما تتخبط المذاهب الاجتماعية، فى قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما ، مفترضة أن العلاقة بين الفرد هى أبداً علاقة صراع وخصومة ، وأن العلاقة بين الأفراد والسلطات هى أبداً علاقة كبت وإجبار .. يقرر الإسلام أن العلاقة بينهم جميعاً - فى المجتمع المسلم - هى :

● علاقة الود والرحمة : يقول الرسول الكريم « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

---

(١) رواه الأربعة

(٢) سورة البقرة ١٥٥ ــ ١٥٧

● وعلاقة التضامن والتعاون. يقول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته.» ويقول: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له».

● وعلاقة الأمن والسلام: لقول الله تبارك وتعالى: «من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض: فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحياها: فكأنما أحيا الناس جميعاً» (١)

«ويقرر أن القاعدة التى تقوم عليها حياة الناس فى المجتمع المسلم هى قاعدة التناسق بين الحقوق والواجبات، والتعادل بين المغانم والمغارم، والتوازن بين الجهد والجزاء، كل ذلك وفق مبدأ إسلامى أساسى: «الرجل وبلاؤه والرجل وحاجته» (٢). هذا المبدأ الذى وزع عمر بن الخطاب الفىء على أساسه فى أيام الإسلام الأولى، والذى ماتزال البشرية تحاوله حتى اليوم، فتخفق لأنها لا تأخذ بشقيه، إنما يأخذ مذهب من مذاهبها بشق، ويأخذ مذهب آخر بالشق الثانى، فلا يجتمع لأيهما ما جمعه الإسلام بطريقته المتوازنة فى علاج مشكلات الحياة.

ويقرر أن الغاية المقدرة لهم جميعاً هى امتداد الحياة، وإنماء الحياة، وترقية الحياة والتوجه بكل نشاط فيها وبكل نية وكل عمل إلى الله خالق الكون والحياة.

ومن ثم ينتهى كل نشاط فردى، وكل نشاط اجتماعى، كما ينتهى كل تنظيم وكل إنتاج، إلى التوازن والسلام، الذى ينسق بين مختلف النوازع والاتجاهات، ومختلف القوى والطاقات، ومختلف الأفراد والجماعات،

---

(١) سورة الأنعام: ١٥١ (٢) من كلام سيدنا عمر بن الخطاب

لأن هنالك أفقا أعلى من أفق للمصالح الوقتية التى تثير الشحناء، وتؤجج العداوات .

إن الصراع كثيراً ما ينشأ من الطاقة المكبوتة التى لا تجد لها متصرفاً ، ومن المجال الضيق الذى لا يسمح لهذه الطاقة بالتسامى . ذلك حين تضيق آفاق النفس ، وتضمر أهداف الحياة ، ويصبح الواقع الفردى الصغير ، أو الواقع الطبقى المحدود ، أو الواقع القومى المغلق هو مجال النشاط ، ومجال العمل ، ومجال الخيال .

والإسلام يفطن إلى هذا كله ، فيخرج الفرد ، ويخرج الطبقة ويخرج القوم من جحر الغايات الصغيرة القريبة ، ليطلقها فى مجال الأهداف العليا للحياة الطليقة .. يطلقها من مضيق العمر الفردى القصير إلى فضاء الحياة العامة الكبيرة ، ومن مجال النظرة الطبقية أو القومية الضيقة إلى آفاق الإنسانية الرفيعة الشاملة . (١)

عندئذ يحس الفرد أنه لا يعيش لذاته ، وإنما يعيش للإنسانية جميعاً . وعندئذ تحس الجماعة أنها لا تحيا لهذا الجيل ، وإنما تحيا للبشرية قاطبة . وعندئذ يحس المسلمون أنهم أوصياء فى الأرض، خلفاء الله ، وأن ذواتهم ليست ملكهم، وجهودهم ليست لهم، وحياتهم وسيلة لا غاية. ولا وقت إذن ولا متسع للصراع الفردى أو الطبقى أو القومى الصغير الضئيل المزيل، بينما الغايات العليا والأهداف الشاملة تنتظر الجميع. « يا أيها الذين آمنوا: هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم؟ تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » (٢)

---

(١) سورة الصف : ١٠ – ١١

(٢) يراجع بتوسع كتاب « السلام العالمى والإسلام » للأستاذ سيد قطب

الخاصية الخامسة

الواقعية

منهج للبشر :

عندما نستشرف القرآن الكريم وننظر فيه بقلوب وعقول فاحصة متفتحة ، نجد « الواقعية » أساساً مستوعباً لعقيدته وشريعته ، وطريقة عمله فى حياة البشر ، وأسلوب عرضه لقضايا الحق ، وتحليله لقوانين النصر والهزيمة ، ومعالجة الآثار المترتبة على ذلك كله فى الحياة الإنسانية . . وإنه لواقعى كذلك فى معالجة الغريزة ، استجاشة الفطرة وبواعث الحركة ، وسنن الكون وأحداث التاريخ . وكذلك حين يعرض لحياة الرسول وأسلوب عمله ومنهج حياته ، نراه يركز على الجوانب الواقعية لتستطيع البشرية أن تتأسى به وتقتدى . .

ومن هنا يتضح لنا أن عقيدة القرآن لا ترضى لنفسها أن تظل حبيسة المشاعر والوجدان ، منفصلة عن الحياة ، معتزلة واقع المجتمع ، كما أنها ترفض التعبير عن نفسها تعبيراً هزيلا فى مجموعة الأخلاقيات النظرية ، مكتفية بفتح حوار حول تلك القضايا التى لا هدف لها ، ولا طائل إلا الجدل كما فعلت الكتب التى ألفت فى عصور الانحطاط ، فاصطبغت بصبغة الفلسفة ، فشوهت جمال العقيدة وكدرت صفاءها ونقاءها فى النفوس ، وعطلت فاعليتها فى الواقع الإنسانى . .

وتبرز لنا الواقعية القرآنية فى نظرة القرآن إلى الواقع الإنسانى ، والواقع الكونى ، وواقع الحياة كله ، محاولا ربط الإنسان بكونه الذى يتعامل معه ، ويعيش فيه ، ويتفاعل مع عناصره مؤكداً العلاقة الوثيقة بينهما ، لأنهما معاً

من صنع الله ، فواجب أن تتم الألفة بينهما على نحو يمكن الإنسان من أداء رسالته ، رسالة الاستخلاف فى الأرض ، وهذا هو السر الخالد الذى يدفع بعناصر الوجود كله إلى المضى فى حركة متناسقة سديدة الخطو إلى غاية سامية نبيلة، هى معرفة الله من خلال روائع صنعه .. ثم إلى بناء الحياة بمنهاج الخلافة الراشدة بناء يتجه إلى الله فى كل لحظة ويستمد منه العون والتوفيق : « لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين »(١) فليس عجيباً بعد هذا أن يحتفى القرآن الكريم بالواقعية فى مجال كهذا ـ لكى يربط بين الإنسان بانى الحضارات وبين عناصر الوجود كله من مادية ومعنوية ، لكى تكون هذه العناصر فى متناول يده ، وهو يؤدى دوره فى بناء الحياة ، ومن هنا اتسمت المشاهد الكونية التى يعرضها القرآن بالبساطة والوضوح والواقعية ، ليدرك الإنسان عناصرها وأبعادها وغاياتها ، وينفذ « بعلمه » الذى هو منحة من ربه إلى حلها وتركيبها وبنائها ، وهدمها ، وإخضاعها لإرادته تحقيقاً لقانون التسخير الإلهى « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه (٢) ».

وتسخيرها يقتضى أن نتصرف فيها بالعلم تصريفاً يجعلها فى خدمتنا وتحت إرادتنا ؛ على أن نظل بعد أن مكننا الله من قوى الطبيعة ذاكرين لقوله سبحانه: (جميعا منه) فلا نفتر ولا نغفل عن الله طرفة عين، لأنه لولا تسخيره لتلك العناصر لكانت فوق طاقة العلم ، ولولا خلقه المادة بهذه الكيفية لما استطعنا أن نشكلها بالمعرفة ، بل لولا إمدادنا بالمعرفة لما وصلنا إلى شىء،

---

(١) عن كتاب « واقعية المنهج القرآنى » للشيخ توفيق سبع (بتصرف) .

(٢) سورة الزخرف : ١٣

(٣) سورة الجاثية ١٣

وأيسر ذلك يجعلنا نلزم حد التواضع فنهتف (سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) .

هكذا مشاهد القرآن التى يعرضها تتسم جميعاً بالواقعية ، لمسات كونية ، تفضى إلى حركة شعورية ، ثم إلى حركة علمية ، ثم إلى واقع فى الحياة .

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، فى سائر شئون الحياة ، لكنه لايؤتى نتائجه إلا « بتحقيقه فى حياة البشر بجهد البشر أنفسهم فى حدود طاقتهم البشرية ، وفى حدود الواقع المادى للحياة الإنسانية فى كل بيئة ويبدأ العمل من النقطة التى يكون البشر عندها حينما يتسلم مقاليدهم . ويسير بهم إلى نهاية الطريق فى حدود طاقتهم البشرية ، وبقدر مايبذلونه من هذه الطاقة .

والميزة الأساسية للمنهج القرآنى «أنه لايغفل لحظة، فى أى خطة وفى أى خطوة عن فطرة الإنسان وحدود طاقته، وواقع حياته المادى أيضاً. وأنه ـ فى الوقت ذاته يبلغ به ـ كما تحقق ذلك فعلا فى بعض الفترات ، وكما يمكن أن يتحقق دائما كلما بذلت محاولة جادة ، إلى مالم يبلغه أى منهج آخر من صنع البشر على الإطلاق . وفى يسر وراحة وطمأنينة واعتدال .

« ولكن الخطأ كله .. ينشأ من عدم إدراك طبيعة هذا المنهج أو من نسيانها ، ومن انتظار الخوارق والمعجزات المجهولة الأسباب على يديه .. تلك الخوارق التى تبدل فطرة الإنسان ، ولا تبالى طاقاته المحدودة ، ولا تحفل واقعه المادى البيئى » (١) .

لقد خاض المسلمون معارك منتصرة ، لأنهم بذلوا أقصى جهدهم ، وخاضوا معارك دون ذلك لأنهم لم يحققوا شرط النصر فى أنفسهم ، ففى

---

(١) عن كتاب « هذا الدين » للاستاذ سيد قطب .

غزوة بدر كانت النتيجة كما صورها الحق تبارك وتعالى : (لقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ..) لماذا ؟ لأن أصحاب رسول الله ﷺ بذلوا أقصى ما فى الطوق واتجهوا إلى الله بكل قلوبهم ، فأكمل نقصهم ، وحول ضعفهم إلى قوة ، وذلتهم إلى عزة ، ومنحهم نصره المبين .

وفى غزوة أحد حلت بهم هزيمة ، لأنهم نسوا الله وذكروا أنفسهم واستهوتهم الغنائم ، فتركوا مواقعهم ، وكشفوا ظهورهم ونزلوا يجمعون الحطام الفانى ، فكانت النتيجة كما صورها الحق تبارك وتعالى : (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم أنى هذا ؟! قل هو من عند أنفسكم ؛ إن الله على كل شىء قدير) (١) . ويستوقفنا قوله سبحانه : (قل هو من عند أنفسكم) وذلك لدلالة الواقعية ، فما من ضر يصيب البشر إلا بما كسبت أيديهم ، وما كان الله ليخذل قوما جعلوه ـ سبحانه ـ غايتهم ، ففوضوا له الأمر ، واستعدوا على قدر طاقتهم .

* منهج يراعى حدود الاستعداد البشرى :

ميزة المنهج القرآنى التى تفرد بها أنه لا يغفل طبيعة الإنسان ، وتفاوت الناس فى مدى استعدادهم لبلوغ أهدافه .. هذه ميزته الكبرى ، لأنه كلمات الله الباقية لكافة الخلق ، وهو الهداية الخالدة للأبيض والأسود ، ورحمة الله الشاملة للعالمين ، وهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولهذا جاءت تعاليمه تليق بحال البشر أين كانوا ومتى كانوا وكيف كانوا ، لأنها انبثقت من عقيدة واقعية لا تعدو الإدراك البشرى ، ولم تتجاوز حدود الكينونة الإنسانية .. فلا غرو أن راعى هذا المنهج الربانى بعقائده وعباداته وأخلاقه وتشريعاته الواقع البشرى ، فهو بحق

(١) سورة آل عمران ١٦٤

دين للواقع .

أ ـ من واقعية العقيدة .

شاءت إرادة العليم الخبير ، أن لا يحدثنا عن نفسه إلا فى الحدود التى تدركها عقولنا ، وتقع فى دائرة أفهامنا ، بالأسلوب الذى يقنعنا ويريحنا ويدخر طاقاتنا .. أما ما كان خارج هذه الحدود فقد طواه الله عنا ، لأنه لا يدخل فى محيط إدراكنا ولا تطيقه عقولنا ، وهى معرفة كنه الذات العلية ، إن هذا الإدراك أكبر وأوسع من الكينونة الإنسانية ، لأن هذا المجال سرمدى أزلى مطلق ، فهل يستطيع الإنسان كمخلوق حادث متحيز فى حدود الزمان والمكان محدود الفكر والعقل والتصور أن ينفذ إلى إدراك مالم يتهيأ له : (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) (١) .

ومن ثم فلا قدرة للكائن البشرى على أن يعمل خارج حدوده . وليس له أن يعدو قدره ولا أن يتجاوز حجمه ، وإنما عليه أن يتلقى عن الله فيحسن التلقى ، ومن الخير له أن ينتهى عن التفكير فيما لم يخلق له : (ولا تقف ماليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) (٢) فما قيمة البحث عن ذات الله بالنسبة لمهمة الإنسان فى الأرض؟! وليس من كمال العبودية لله أن نخوض فيما نهانا الله عن الخوض فيه «فكروا فى خلق ولا تفكروا فى ذاته » .

إن رسالة الإنسان على ظهر الأرض ـ بوصفه خليفة عن الله ـ لا يدخل فيها هذا النوع من البحث ، فقد وهب الله الإنسان إدراكا يتناسب مع حجم رسالته .. وهبه قدرات عظيمة على اكتشاف أسرار المادة ، والتأليف بين

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٣ (٢) سورة الاسراء : ٣٦

عناصرها ، والبحث فى كون الله الفسيح ، والتنقيب فى الأرض ، والقدرة على الهدم والبناء ، والحل والتركيب ، ليصل بذلك كله إلى تحقيق معنى الاستخلاف ، أما غير ذلك من أمور ما وراء الطبيعة وأسرار الغيب فليس من اختصاصه وقد كفاه الوحى هذه المؤونة .. ليس له أن يخوض فى :

١ ـ مسألة كنه الذات الإلهية

٢ ـ موضوع تعلق المشيئة الإلهية بالخلق من مثل قولهم قديما : (أنى يحيى هذه الله بعد موتها) (١) .

٣ ـ مسألة السؤال عن جوهر الروح . (قل : الروح من أمر ربى)(٢)

٤ ـ محاولة معرفة الغيب واستطلاع المستقبل (عالم الغيب، فلا يظهرعلى غيبه أحداً) (٣)

٥ ـ ومن ذلك علم الساعة ، فهو إلى الله وحده .

. . هذه الموضوعات وأضرابها تخرج عن حدود الادراك البشرى ، تقتضى من المؤمنين الصادقين والراسخين فى العلم الوقوف عندها موقف التسليم وتفويض العلم فيها إلى الله (.. الراسخون فى العلم يقولون : آمنا به كل من عند ربنا).(٤)

وفيما غير ذلك ، فالمجال فسيح لسعى الإنسان وعمله وكفاحه وتفكيره ، والله تعالى قد فتح المنافذ كلها أمام العقول الباحثة لتكتشف وترتاد، وحث الإنسان على المعرفة التى تعينه على أداء رسالته فى الحياة ، وأغراه بالعمل فى ميادين الصناعة والزراعة ليكتشف بالتجربة الواعية كل مايعينه على معرفة نواميس الطبيعة وقوانينها، ليعيش معها فى مودة وأنس،وينطلق معها مسبحاً باسم ربه خالق الطبيعة والإنسان معاً .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٩
(٢) سورة الاسراء : ٨٥
(٣) سورة الجن : ٢٦
(٤) سورة آل عمران : ٧

ب - من واقعية الشريعة

لقد جعل الإسلام حداً أدنى من الكمال لا يجوز الهبوط عنه لأن هذا الحد ضروري لتكوين شخصية المسلم على النحو العادي ، لأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون فى عداد المسلمين ، ولأنه وضع على النحو الذى يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة على الارتفاع إلى المستوى الكامل . إن هذا الحد الأدنى يتكون من جملة واجبات يجب القيام بها وهى المسماة بالفرائض ، كما يشمل جملة واجبات أخرى يجب هجرها والبعد عنها وهى المسماة بالمحرمات. إن هذه الفرائض والمحرمات جاءت بقدر طاقة أقل الناس استعداداً لفعل الخير وابتعاداً عن الشر ، ومن ثم يستطيع كل واحد الوفاء بمقتضاها ، ولا يعذر فى التخلف عنها ، ولكن فوق هذا الحد الإلزامى الواجب بلوغه على كل مسلم ، جاءت الشريعة بمستوى آخر أرفع وأعلا وأوسع مجالا ، حببته إلى المسلمين ورغبتهم فى بلوغه . . هذا المستوى الرفيع يشمل المندوبات التى ترغب الشريعة فى القيام بها ، والمكروهات التى تستحث المسلم على تركها .

وهذان المستويان الأدنى والأعلى موجودان فى كل تشريعات الإسلام ، فالصلاة : منها ما هو فرض ، ومنها ما هو مندوب ، فالأول يمثل الحد الأدنى والثانى يدخل فى معانى المستوى الأعلى ، وفيه قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد مسلم يصلى لله تعالى فى كل يوم اثنتى عشرة ركعة تطوعاً غير الفريضة إلا بنى الله له بيتا فى الجنة » . وإنفاق المال فى سبيل الله : فرضه الزكاة ، وهى الحد الأدنى المطلوب من المسلم ، وتطوعه الصدقة ، وهى المستوى الأمثل رغب الله المسلمين فى بلوغه بقوله : « ما تنفقوا من خير

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٤

يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ، والـكلام : منه الـكذب ، حرام يجب تركه ويدخل فى الحد الأدنى لخلق المسلم ، والثرثرة وكثرة الـكلام بما لا ينفع ولا يفيد مكروه وإن لم يـكن فيه باطل ، يكرهه الله المسـلم الـكامل ، جاء فى الحديث الشريف « إن الله يكره لـكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال » .

● مراعاة سنة التدرج :

والمنهج القرآنى يسلك بالنفس البشرية سبيل التـدريج، لا يفاجئها بأوامره فى التحليل والتحريم . فالفطرة الإنسانية بطبيعتها لا تقبل التغيير، وكل منهج يأخذ الناس بأوامر فورية متطرفة ويتخطى الفطرة المتزنة الخطى محكوم عليه بالفشل فلا بد لـكل نظام راسخ المبادىء والأصول أن يخطو فى كل ناحية من نواحى الحيـاة باتزان تام وتدرج تصمد له الفطرة وتستجيب له،فلا يعتسف أمراً ولا يتعجل غاية ولا هدفاً .. فالمنهج القرآنى وهو يقود الانسان فى طريق الـكمال الصاعد إلى الله يأخذ فى الاعتبار فطرة هذا الإنسان وطاقاته واستعداداته ، وقوته وضعفه ، وحالاته المتغيرة التى تعتريه ، فيسير هينا لينا مع الفطرة ، يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة، لا يعتسف منها أمراً ولا يتعجل منها غاية أو هدفاً ..

وخير أسوة لنا فى ذلك هو رسول الله ﷺ ، الذى لم يصل إلى ماوصل إليه دفعة واحدة ..

ـ فقد بدأ بالدعوة والتبليغ ، يعرض على النـاس تصورات الإسلام ومبادئه العقائدية والخلقية .

ـ ثم أخذ يربى من قبلوا منه هذه الدعوة ، وانضووا تحت لوائها على حب الصلاح والتقوى ويكون منهم جماعة اصطبغت حياتها بالصبغة الإسلامية

الكاملة ، لا يشوبها شائبة من شوائب الجاهلية وأرجاسها .

ـ فلما أن اكتملت الجماعة وبلغت حداً خاصاً معلوماً، تقدم ـ عليه السلام. خطوة أخرى فأقام فى المدينة المنورة المجتمع المسلم والدولة المسلمة وفق مبادىء الاسلام ودستوره، ولم يكن من غاية لهذه الدولة إلا أن تعلو كلمة الله ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وهذه السنة الإسلامية فى رعاية التدرج ، ينبغى أن تتبع فى سياسة الناس ، وعندما يراد تطبيق نظام الإسلام فى الحياة ، واستئناف حياة إسلامية متكاملة .

«فإذا أردنا أن نقيم (مجتمعاً إسلامياً حقيقياً) فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم ، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس ، أو مجلس قيادة أو برلمان .

« إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج ، أعنى بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية،والأخلاقية والاجتماعية (١).

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز : « لقد يكون من المفيد أن نذكر أنفسنا بطبيعة المنهج التعليمى فى القرآن حينما يكون بصدد محاربة بعض الرذائل التى تأصلت فى العرف العام والتى توارثتها الأجيال سلفاً عن خلف فى أحقاب متطاولة ، ذلك أن القرآن فى معالجته لهذه الأمراض المزمنة لا يأخذها بالعنف والمفاجأة بل يتلطف فى السير بها إلى الصلاح على مراحل متريثة متصاعدة حتى يصل إلى الغاية ، كلنا يعرف ما كان منه فى شأن الخمر

---

(١) عن كتاب الخصائص العامة للاسلام للدكتور يوسف القرضاوى ص ١٧١ .

وأنه لم يبطله بجرة قلم ، بل لم يحرمه كلياً إلا فى المرتبة الرابعة من الوحى ، أما المرحلة الأولى التى نزلت فى مكة فإنها رسمت الوجهة التى سيسير فيها التشريع وأما المراحل الثلاث التى نزلت بالمدينة فكانت أشبه بسلم ، أولى درجاته بيان مجرد آثار الخمر وأن إثمه أكبر من نفعه والمرحلة الثانية تحريم جزئى له ، والدرجة الثالثة تحريمه الكلى القاطع » .

• القرآن وواقعية الأخلاق

عندما يحدثنا القرآن عن الأخلاق الفاضلة وآثارها فى الحياة ، أو مرذول الإخلاق وما تحدثه فى المجتمعات من عواقب ، فإنه يجسد هذه الأخلاق فى شخص ، ويحركها فى قصة . فهو لا يحدثنا عن الصدق حديثا نظريا مجرداً ، يعرفنا فيه ما هو الصدق ؟ وما آثاره ؟ بل يتحرى الأثر المطلوب فى نفوس المخاطبين ، وهم عامة الناس ، فالتجريد الذهنى للفضائل لا يفهمه إلا القليل ، لذلك يعمد إلى منهج واقعى فى عرض أخلاقياته مقترنة بآثارها العملية فى الحياة مع أناس طبعوا عليها وتعاملوا بها . فعندما يريد مثلا أن يحذرنا من الدخول على الناس فى بيوتهم فى غير أوقات الزيارة ــ وبغير استئذان ــ وبدون رعاية لحرماتهم ، يذكر لنا وقائع حدثت بالفعل كان لها آثارها السيئة ، قام بها أشخاص غلاظ أجلاف لا يذكرهم القرآن بأسمائهم فى تلك المجالات النقدية رعاية لجانب التربية الربانية التى تنفر من التشهير بالناس مستهدفة تهذيب الطباع وعلاج الأمراض النفسية والعلل الاجتماعية، نجد ذلك ماثلا فى قوله سبحانه : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم »(١)

---

(١) سورة الحجرات : ٤ ــ ٥

فالآيات تعالج مشكلة أخلاقية ، هى جفوة الطبع وعدم مراعاة الظروف والأوقات والأشخاص ، إنها لم تعرض المشكلة عرضاً تجريديا ، وإنما صاغتها فى واقعة تكشف عن قبح الفعلة ، وأن أصحابها لم يحسنوا الأدب ، ولم يتخيروا الوقت ، ولم يراعوا كرامة الرسول ، لهذا صدر الحكم عليهم (أكثرهم لا يعقلون) ، وهو حكم فيه تقريع بأن ما صدر عنهم لا يصدر إلا من غير العاقلين !! ثم عقبت على فعلهم المرذول بذكر التصرف السليم (ولو أنهم صبروا .. الخ ، وهكذا تتقابل الأخلاق فى القصة القرآنية ، السلبية والإيجابية ، وتترك للمخاطبين أن يتأسوا ويقتدوا .

.. إن القرآن بهذا لا يحدثنا عن أخلاق نظرية بل عن أخلاق عملية ، تمثلت فى أشخاص ، وتحركت فى نماذج ، ليكون العرض واقعياً والتأثير إيجابيا والقدوة أعظم والدرس أبلغ وأنفع . إنه يربطنا بالصادقين لا بالصدق المجرد .. وبالأمناء والأوفياء والحافظين لحرمات الله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين[١]) ويقول سبحانه : (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)[٢]

• منهج واقعى فى التربية :

لم يقع المنهج الإسلامى فى التربية فى محاذير التربية المسيحية الكنسية ، التى كانت تستهدف عزل الفرد عن الحياة بحجة إعداده للآخرة ، وذلك بحرمانه من ضرورات الجنس والمال ، بدفعه إلى نبذ طيبات الحياة والهروب منها والانقطاع إلى الرهبنة والتنسك .

ولقد كان هذا الهدف مما أطلقوا عليه « النظرية الطبيعية للتربية » ، ومن الأسباب التى دفعت فلاسفة الغرب إلى النقيض فتجاوزوا الجانب الدينى كلية فى نظرياتهم التربوية ، ثم عادوا يدعون إلى الأخلاق منفصلة عن الدين كما بشرت بها الفلسفة المثالية ، ثم انتهوا إلى الفلسفة المادية والبرجماتية التى تهاوت فيها قيم الدين والأخلاق جميعاً .

---

(١) سورة التوبة : ١١٩ (٢) سورة الزمر . ٣٣

.. لم يقع المنهج الإسلامى للتربية فى مثل هذه للتناقضات ، فلم يكن الإسلام دعوة إلى رضا الله بإذلال النفس وتعذيب الروح وإسقاط الجسم ، جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ رأى رجلا قائماً فى الشمس فسأل عنه فقالوا : يارسول الله إنه نذر أن يقوم فى الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال عليه الصلاة والسلام : «مروه فليتكلم وليقعد وليتم صومه» فالصوم مطلوب ، ولكن الوقوف فى الشمس والصمت الدائم غير مطلوب، فالإسلام ينظر إلى الجسد على أنه مركب الروح وليس من الحكمة خرق المركب أو إضعافه ، والجسد مستقر الروح ومسكنها وليس من المصلحة تخريبه ولا من الكمال المنشود هضمه ، وأن الروح هى الأخرى لها حق الترويح والاستجمام ، فهذا حنظلة الصحابى الكريم لما رأى أنه يكون مع أسرته وأهله فى حال تغاير الحال التى يكون عليها مع النبى ﷺ ، من حيث الصفاء والشفافية والشعور بتقوى الله ومراقبته ، فرأى هذا لونا من النفاق؛ خرج يعدو فى الطريق وهو يقول عن نفسه : نافق حنظلة ، حتى انتهى إلى الرسول ﷺ ، وشرح له مايحس من اختلاف حاله عنده عن حاله فى البيت ، فأجابه الرسول بقوله : « إنكم لو بقيتم على الحال التى تكونون عليها عندى لصافحتكم للملائكة فى الطرقات ، ولكن ياحنظلة ، ساعة وساعة » .

ومع أن الإسلام لايقر بأن أحداً يولد ملوثاً بالخطيئة ، كما هو الحال فى النظرة الكنسية إلى الإنسان ، نراه يعول كثيراً على أثر البيئة بعامة والبيئة الأسرية بخاصة فى التربية ، فهى تحمل مسئولية تشكيل عقيدة الطفل واتجاهه الأولى إلى الدين « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » رواه البخارى .. وأبواه يحملان تبعة توجيهه وحسن تربيته ، قال الله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » .

الخاصية السادسة :

التقدم والتطور

« الحركة فى إطار ثابت حول محور ثابت »

جاء القرآن الكريم يوجه العقول والأبصار إلى عالم الحس والواقع ، ويربط بين الفكر وبين ما فى الكون من مظاهر وآيات (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شىء حى ، أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا ، وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون) (١) .

.. جاء المنهج القرآنى دعوة إلى عالم الحس والتجربة ، وإبعاداً للفكر الإنسانى عن منهج التجريد النظرى الذى لا يدعو إلى تأمل وتفكر ، ولا يؤدى إلى كشف ، ولا يحقق رسالة فى الأرض ، ولا يعدو أن يكون رياضة ذهنية ليس بينه وبين واقع الحياة ومطالبها صلة ، ولكن ـ للأسف ـ انخدع بعض علماء المسلمين وفلاسفتهم بمنهج الفكر اليونانى ، وحاولوا فهم القرآن على ضوء هذه الفلسفة ، فانحرفوا عن نهج القرآن ، ولم يحققوا فى الحياة إلا الخلافات والفرق والمذاهب ، وجاءت آثارهم بعيدة كل البعد عن روح القرآن ، ولكن جمهور العلماء المسلمين أدرك ما بين منهج القرآن وبين

---

(١) الآيات من ٣٠ إلى ٣٣ فى سورة الأنبياء ـ رتقا : متشابكين ـ ففتقناهما : فصلناهما ـ رواسى : جبالا ثابتات ـ تميد : تضطرب ـ فجاجاً : طرقاً .

الفلسفة اليونانية من خلاف ، فسار علمهم على أساس النظر والحس والتجربة ، وارتبط بواقع الحياة والأحياء ، فكان الأساس الذى قامت عليه الحضارة الإسلامية ، وكان هو الأساس الذى قام عليه العلم التجريبى الحديث .

جاء القرآن ليطلق العقل من إساره ، وليضع خاتمة عهد طفولة الإدراك البشرى ، وليبدأ عهد الرشد والنضج العقلى ، فكان فتحاً جديداً فى تاريخ الفكر الإنسانى وثورة على التقليد والجمود الذى لا يقوم على علم ولا يستند إلى دليل وطريقة القرآن فى ذلك تقوم على مبدأين :

الأول : تحرير العقل ووضع المنهج الصحيح للنظر العقلى لكى لا تتبدد الطاقه العقلية فى غير مجالها .

الثانى : تدبر سنن الكون وقوانينه وتأمل ما فيها من دقة وارتباط .

- المبدأ الاول: حرر الإسلام العقل ليعمل فى الكون المحسوس، وليجول فى آفاق الوجود لا تحول بينه وبين اتصاله بالوجود كله وصاية كاهن يحتكر للمعرفة ، ولا تحول بينه وبين ربه وساطة سادن يعمى على الناس عقائدهم وعباداتهم ، يحيط العقيدة السمحة بكثير من الغموض والأسرار حتى يكون لهم على نفوس الناس سلطان ويكون لهم فى الحيـــاة عمل ، يحلون الرموز ويكشفون عن الأسرار ، فلا يتوب مذنب ولا يتعبد عاد ولا يدعو إنسان أو يتصل بخالقه أو يفارق الدنيا إلا على يد كاهن أو سادن.

ومن ثم ثار القرآن على الشرك والكهانة والوساطة فقضى على جميع مظاهر العبودية لغير الله ، وحرر العقول وطالبها بالتفكر والتدبر، وأشاع فيها اليقظة والنور ، وجعل الصلة مباشرة بين العبد وخالقه ، لا تحتاج إلى وساطة أو كهانة ، فالله سبحانه قريب مستجيب له : (وإذا سألك عبادى عنى

فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون (١)

وكانت الرسالات السابقة تعتمد فى الإقناع على الخوارق الحسية تصعق قدرة الناس وتسكت شكوكهم ، فجاء الإسلام بمنهج جديد فى الفكر يتفق مع ما يراد للبشرية من اكتمال ورشد ، منهج العقل الذى لا يعتمد على قسر أو معجزة ، طليق من كل قيد أو إكراه ، وإن كانت الخوارق من مؤيدات الرسالات السابقة باعتبارها رسالات مرحلية محدودة الزمن والإطار ، فإن القرآن هو معجزة الإسلام الخالدة جاء خطاباً أخيراً للبشرية ، وهو كلمات الله الباقية لكافة الخلق حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، فلا غرو أن كان للعقل وللعلم فيه مكان الرعاية والتبجيل ، فليس هناك بعد محمد ﷺ من رسول يأتيها بالخوارق التى ترغمها على الإيمان والتصديق ، وليس من سبيل بعد ذلك للوصول إلى الحق والإيمان إلا التفكير (قل : إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .) (٢) . وليس من سبيل إلا أن يحل الدليل محل الخارقة ، ومما يكشف عن عمق هذه الدعوة إلى إطلاق الفكر هذا الحوار بين النبي ﷺ وبين الناس كما يرويه القرآن الكريم: (وقالوا لن نؤمن لك ، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . .) فيرفض النبي هذا التحدى ويقرر لهم حقيقة الموقف فى تواضع وأمانة موضوعية بقوله :

---

(١) سورة البقرة : ١٨٦ (٢) سورة سبأ : ٤٦

(.. قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ ! !) (١) .

ولعل من ثمرات هذه للمكانة الخاصة التى وضع فيها الإسلام العلم . : تكريمه للعلماء حتى ليقول الرسول ﷺ (.. وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ولكن ورثوا هذا العلم) ، وحتى يقرن الله تعالى العلماء بنفسه وبالملائكة فى الإقرار بوحدانيته والاطمئنان إلى عدالته فيقول : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم (٢).

لهذا حارب الإسلام نزعة التقليد والاتباع الأعمى لأنها تهدد منطق العلم وتطمس نور العقل الذى يعول عليه فى تثبيت عقائده وآدابه ، كما أمر بالدعوة إلى عقيدته ومبادئه عن طريق مخاطبة العقول فى محاورة جادة مخلصة يبتغى فيها وجه الحق دون تعصب أو هوى : « وجادلهم بالتى هى أحسن » ..

وبناء على ماتقدم نجد القرآن قد أشاد بالعقل ، واحترم أحكامه فيما يدخل تحت سلطانه ومحاكماته ، وهو حين يلفت نظر الإنسان إلى الحياة وأسرارها ، ويطلب منه أن يتأمل فى نفسه وفيما حوله تأمل باحث مفكر ، ويكره له الانقياد والتقليد الأعمى ، إنما يعلن القرآن بذلك ثقته بالعقل واحترامه له ، وإحلاله محلاً عظيماً فى استفادة الإنسان من هذه العوامل كلها ..

ونظر العقل إلى ظواهر الحياة يقرر حقيقة واضحة : هى أن الإنسان مهما اكتشف من أسرار الحياة ، فلن يحيط بها كلها فى عصر واحد، وستظل

---

(١) سورة الإسراء : ٩٠ - ٩٣ (٢) سورة آل عمران : ١٨

تتكشف للناس شيئا بعد شيء ، وهذا يستتبع أن الحياة فى تطور مستمر وكشف عن المجهول متتابع ..

هذا ، وإذا كان الإسلام قد دعا الإنسان أن لا يقنع بما علم وأن يتابع بحوثه فى مكنونات الكون وقوانين مادته ، فقد دعاه كذلك أن يعتقد أن هناك علم فوق علمه « وفوق كل ذى علم عليم » ، ذلك أن العلم الإنسانى لا يتعدى كونه محاولة بشرية لتفسير الظواهر الكونية المحيطة بالإنسان ، والاستفادة بها فى عمارة الأرض، وإذن فليس فى وسع العقل أن يصل إلى جوهر الأشياء لأنه لا يستطيع أن يصف سوى مظهرها وأطراد تأثيرها ، ومن هنا فلا يمكن لاستنتاجاته وكشوفه أن تمثل الحقيقة المطلقة، فالعلم البشرى محكوم بأحاسيس الإنسان المحدودة وبامكانات العقل وطاقاته ، التى لا تجعل من استنتاجاته شيئاً لا يعدو ما يقع فى مجال المادة ، كما أن جميع هذه الاستنتاجات محدودة كذلك بوضعه على كوكبه الأرضى فى زمان ومكان معين ، ومن هنا تأتى استنتاجاته كلها نسبية، الأمر الذى لا يصح معه أن يفتن الإنسان بعقله، إذ استطاع أن يميز بين الأشياء ، ويدرك خصائصها ، ويستنبط فوائدها ، ويشكل صوراً جديدة من «المادة» التى وجد نفسه محاطاً بها على ظهر الأرض أو فى السماوات. وفى العصور الحديثة خاصة زادت فتنة الإنسان بعقله ،حين رأى المخترعات التى ينتجها ، والكشوف التى يقع عليها ، وبلغت الفتنة قمتها بانطلاق الطاقة الذرية وانطلاق الصواريخ ، وكانت هذه الفتنة على حساب طاقة الروح . . الطاقة التى تتصل بالله وتتصل بالغيب.

فالعلوم التجريبية هى فى حقيقتها معارف جزئية زادها ضيق التخصص يوماً بعد يوم تحديداً ، والعلم الجزئى ليس فى مقدوره أن يجيب عن تساؤلات الإنسان المطلقة فيما وراء المادة والحياة الدنيا ، وهذا يؤكد حاجة الإنسان فى

هذه المسائل الغيبية التى خرجت عن مجال طاقة العقل البشرى ومدركاته إلى علم أكبر من علمه ، وبالتالى يؤكد على ضرورة الوحى والرسالة السماوية لكى لا يعمل العقل فى غير مجاله واختصاصه ، ولكى لا يغرق فى بحور الغيب التى لا يملك وسائل السبح فيها فتتبدد قواه وطاقاته . إنها الروح المهتدية بنور الله هى التى تملك هذا .

ومن هنا حرص المنهج القرآنى على صون الطاقة العقلية أن تتشتت وتتبدد وراء الغيبيات ، فعمل على توجيه العقل ليعمل بكل طاقته فى مجاله من أجل صلاح الإنسان وتمكينه من القيام بدور الاستخلاف عن الله فى الأرض . يوجه قواه العقلية إلى تدبر حكمة الله فى الخلق ، وأنه سبحانه خلق السماوات والأرض « بالحق » . . يوجهها إلى حكمة التشريع وأنها إقامة العدل والحق بين الناس فى الأرض ، ويوجهها إلى طريقة إقامة المجتمع الصالح على أساس الطاعة لله ولرسوله . ثم يوجهها إلى استخلاص الطاقة المادية وتذليلها لخدمة الإنسان ، وقد وجه روحه من قبل إلى الارتباط بالله وخشيته وتقواه . . ومن ثم يعمل العقل البشرى فى استخلاص هذه الطاقة غير مفتون بها ، ولا شاعر بأنها خلاصة الحياة وجوهرها الأوحد ، فينتفع بثمارها وهو مالك لأمره منها غير مستعبد لها ولا منجرف فى طريقها : وتلك نقطة حاسمة فيما بين الإسلام وغيره من النظم والعقائد والمذاهب الوضعية التى انسلخت من التوجيه الدينى .

ففى أوربا التى يسيطر عليها العلم المنقطع عن الله ، والمادة المنقطعة عن الروح ، أحدث التقدم المادى الضخم انقلابا خطراً فى كيان الإنسان ، انقلاباً أدى به إلى أن يكون آلة حيوانية تعمل كالآلات ، بعد أن توغل شبح الآلة الضخمة فى أعماق حسه ، وصارت هى القوة القاهرة التى تملى عليه إرادتها ، وتصرف حياته كما تريد . . ونبذ الناس هناك الأخلاق جانبا بحجة أنهم

« تقدميون » وفتنهم العلم فاستغلوه فى سبيل الشر والتخريب والتدمير .

وهذه كلها من نتائج انقطاع الصلة بين الدين والعلم وبين الإنسان والله.

المبدأ الثانى : تدبر سنن الكون : أرشد القرآن الإنسان إلى أن الكون محكوم بقوانين وسنن توجه حركته، وأن قدرة الله فى كمالها وإطلاقها لا تسقط عمل هذه القوانين، ولا تعطل سير هذه السنن. ذلك أن الله سبحانه يجرى أمره من خلال سنن وقوانين من خلقه وتقديره، ومعنى أنها سنن أن الأصل فيها أن تكون ثابتة مطوردة حتى يمكن أن يعتمد الناس على ثباتها فى حياتهم وفى تقديرهم لأمورهم « فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » (١) .

ولولا ثبات هذه السنن وتلك النواميس ، لما كان لتأمل العقل من قيمة .. ولما كان لتدبره من عبرة ، وإذا اقتضت مشيئة الخالق أن تتغير هذه السنن لنقض ما يحصله العقل .

ويعود الله سبحانه وتعالى رسله وأنبيائه وأتباعهم من المؤمنين أن يكونوا أحرص الناس على التوافق مع هذه السنن والنواميس ، فهو يبتلى رسوله ﷺ بتكذيب الناس . . ولا يتدخل بالمشيئة المباشرة ليعفيه من أعباء الجهاد فى سبيل دعوته .. وإنما يذكره بقانون الحياة ، وسنة الصراع بين الحق والباطل « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين » (٢) ثم يؤكد لرسوله أنه لا مهرب من عمل هذه السنن فيقول له : « وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين (٣) » .

---

(١) سورة فاطر : ٤٣ (٢) سورة الأنعام : ٣٤

(٣) سورة الأنعام : ٣٥

وكان طبيعيا أن يسلك المؤمنون مع نبيهم مدارج هذه السنة الإلهية وأن يلقوا فى سبيل دعوتهم مايلقاه أصحاب الدعوات «إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »(١) .

ويكشف الله تعالى بعد ذلك عن حكمة هذا الأسلوب ، مبيناً علاقة المشيئة الإلهية بقوانين المجتمع فيقول سبحانه : « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض »(٢).

وتعيش الجماعة المؤمنة مع رسول الله ﷺ فى ظلال هذا المنهج العلمى السليم حتى إذا غفلت عنه ردها فى حزم إلى سبيل المؤمنين .. يروى أن موت ابراهيم ابن النبى ﷺ قد حدث فى يوم خسفت فيه الشمس ، فقال بعض الناس : إن الشمس قد خسفت لموت إبراهيم ، فقال النبى ﷺ : إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته » .

هذا ويوجه القرآن الكريم الطاقة العقلية إلى النظر فى أحوال الأمم والشعوب على مدار التاريخ : « قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » (٣) .. دعوة تتكرر فى كثير من آيات القرآن ، تلح على الناس أن ينظروا فى تاريخ من قبلهم، ويدرسوا عوامل الفناء والبقاء فى المجتمعات دراسة واعية متفتحة متبصرة معتبرة.

والقرآن يوجه القلب البشرى أن يفتح بصيرته على عوامل التطور الحقيقية فى المجتمعات ، ويستخدم طاقته الواعية فى تدبرها والبحث فى

---

(١) سورة الأحزاب : ١٠-١١ (٢) سورة محمد : ٤

(٣) سورة آل عمران : ١٣٧-١٣٨

أسبابها ونتائجها ، بما يعرض عليه من الأمثلة التاريخية المتعددة التي تحققت فيها سنة الله الخالدة : سنة التمكين للمؤمنين ـ حين يؤمنون الإيمان الحق :ـ والتدمير على الكافرين ولو استكبروا بباطلهم وعتوا في الأرض مفسدين. سنة دائمة لاتتغير . . النصر للإيمان ، والخذلان للكفر، وإن كان الظاهر في لحظة من اللحظات أن الواقع هو النقيض[١].

إن تاريخ الأمم وحياة المجتمعات في نظر الإسلام ـ وهو كذلك في واقع الأمر ـ ليس أطواراً متعاقبة بغير معنى ، ولا هدف ولاغاية ولا نظام معروف . إنها تتبع سنة معينة . « سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » . سنة الله التي تعمل بما أودعه الله في الإنسان من طاقات واستعدادات ، وما أعطاه من قدرة على الاختيار بين أحد طريقين « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها »[١] .

« إنهما طريقان لاثالث لهما : الهدى أو الضلال الاهتداء بما أنزل الله على عباده من منهج ، وما وجههم من توجيه ، أو الانحراف عن طريق الله الواضح المبين .. الهدى يتبعه الخير والبركة والتمكين في الأرض . والضلال يتبعه الفساد والضعف والانحلال والفناء ، ولو ظل الباطل يقاوم ويعاند ، ولو ظل متماسكا فترة من الوقت يبهر الأنظار .

« وليس للبشرية في تاريخها كله سوى أحد هذين الطورين المتغايرين .. مهما بدا في الظاهر من « تطور » وتغير وانتقال .

---

(١) عن كتاب « منهج التربية الإسلامية » للأستاذ محمد قطب / فصل تربية العقل .

(٢) سورة الشمس : ٧ـ١٠

وليست «الأطوار» التي يرسمها التفسير المادي للتاريخ إلا أطوار الحضارة المادية في الأرض ولكنها ليست أطوار التاريخ ، ولا أطوار الإنسان. فقد كان في الناس في مختلف المجتمعات الإنسان المهتدي والإنسان الضال في كل عصر من عصور التاريخ ، الذي لم يقيده شيء من الأطوار المادية بهدى أو ضلال ولم يرسم له التقدم المادي طريقاً معينة يتحتم عليه السير فيها ، ولا كانت لهذا التقدم في ذاته دلالة معينة في خط سير البشرية . وأوضح الأمثلة على ذلك هذا العصر الذي نعيش فيه .. العصر الذي وصل فيه التقدم العلمي والمادي إلى الذروة ، ووصلت الإنسانية إلى الحضيض من التقاتل الوحشي والتخاصم الذي يقطع أواصر الإنسانية ويجعلها تعيش في رعب وخوف من الدمار ، كما وصلت إلى الحضيض في تصورها لأهداف الحياة وغاية الوجود الإنساني وحصرها في اللذة والمتاع ، وانحطاطها ـ تبعاً لهذا التصور ـ إلى أحط درجات الانحلال الخلقي والفوضى الجنسية التي يعف عنها الحيوان . ولكن برغم هذا الضلال والانحطاط ، فما زال في الناس الإنسان المهتدي الظاهر على الحق يدعوهم إلى منهج الحق والأمن والعفاف والتقى .

* كيف يواجه الاسلام بنصوصه الثابتة حركة المجتمع ؟

وإذا كان الكون كله في حركة ، وإذا كانت الشمس والقمر دائبين » ، وإذا كان من آيات الله أنك «ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب» .. وإذا كانت حياة الإنسان نفسها حركة وتطوراً « وخلقناكم أطواراً » ، فقد كان من الطبيعي أن يعالج الإسلام المجتمع على أنه هيكل متطور بتطور مكوناته المادية والبشرية وبتدافع القوى المختلفة القائمة فيه وهو تدافع يشير إليه قوله تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» وتحكمه سنة جارية تنتقل بها السيطرة والتمكين من فريق إلى آخر « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » .

.. عندما يقرر الإسلام حقيقة تطور الإنسان والمجتمع يفتح الباب

فكريا وعمليا أمام سؤال ذى بال وهو : كيف يتأتى لنصوص الإسلام أن تلاق حركة المجتمع المتطور المتغير .. وأين يذهب بقوله تعالى : « لا مبدل لكلمات الله » وقوله تعالى : « اليوم أكملت لك دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » ..؟؟

جاءت شريعة الإسلام ملائمة للفطرة الإنسانية ، فجمعت بين عنصرى الثبات والتطور .. !! بهذه المزية يستطيع المجتمع المسلم أن يعيش ويستمر ويرتقى ، ثابتا على أصوله وقيمه وغاياته متطورا فى معارفه وأساليبه وأدواته .

« فبالثبات ، يستعصى هذا المجتمع على عوامل الانهيار والفناء ، أو الذوبان فى المجتمعات الأخرى .. بالثبات يستقر التشريع وتتبادل الثقة وتبنى المعاملات والعلاقات على دعائم مكينة ، وأسس راسخة ، لا تعصف بها الأهواء والتقلبات السياسية والاجتماعية ما بين يوم وآخر . وبالمرونة ، يستطيع هذا المجتمع أن يكيف نفسه وعلاقاته حسب تغير الزمن ، وتغير أوضاع الحياة ، دون أن يفقد خصائصه ومقوماته الذاتية .

« ويتجلى عنصر الثبات فى شريعة الإسلام فى « المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع » من كتاب الله وسنة الرسول ، فالقرآن هو الأصل والدستور والسنة هى التفسير النظرى والبيان العملى للقرآن وكلاهما مصدر إلهى معصوم ، لا يسع مسلما أن يعرض عنه (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول)(١)

« وتتجلى المرونة ومواجهة التطور الاجتماعى فى « المصادر الاجتهادية » ، مثل الاجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة وأقوال الصحابة ..

---

(١) سورة البقرة : ٥٤

وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد ، وطرائق الاستنباط ، وبذلك تنقسم أحكام الشريعة إلى قسمين بارزين :

● قسم يمثل الثبات والخلود ● وقسم يمثل المرونة والتطور

يقول عنهما ابن القيم : « الأحكام نوعان . .

١ ـ نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها ، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة، ولا اجتهاد الأئمة ، كوجوب الواجبات، وتحريم المحرمات، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

٢ ـ النوع الثانى، ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زمانا ومكانا وحالا ، كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها ، فإن الشارع ينوع فيها حسب المصلحة

فنجد الثبات يتمثل فى الأسس العقائدية التى قام عليها بناء الإسلام: وهى الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وفى الأركان العملية الخمسة : وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لم استطاع إليه سبيلا .

كما نجد أن الثبات متمثلا فى المحرمات اليقينية : من السحر وقتل النفس بغير حق والزنى وأكل الربا وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات والتولى يوم الزحف والغصب والسرقة والغيبة والنميمة وغيرها مما ثبت بقطعى القرآن والسنة .

وفى أمهات الفضائل من الصدق والأمانة والعفة والصبر والوفاء بالعهد والحياء وغيرها من مكارم الأخلاق، التى اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان.

« وفى شرائع الإسلام القطعية فى شئون الزواج والطلاق والميراث والحدود والقصاص، ونحوها من نظم الإسلام التى ثبتت بنصوص قطعية الدلالة

فهذه الأمور ثابتة ، تزول الجبال ولا تزول ، نزل بها القرآن وتواترت بها الأحاديث وأجمعت عليها الأمة ، فليس من حق حاكم أو هيئة أن يلغي أو أو يعطل حكما من أحكامها، لأنها كليات الدين وقواعده وأسسه كما قال الشاطبي في الموافقات : « كلية أبدية ، وضعت عليها الدنيا . وبها قامت مصالحها في الخلق، حسبما بيّن ذلك الاستقراء ، وعلى وفاق ذلك جاءت الشريعة أيضاً ، فذلك الحكم الكلي باق إلى أن يرث الله الأرض وما عليها » .

وما عدا ذلك ، فيتمثل فيه عنصر المرونة والتطور : وهو ما يتعلق بجزئيات الأحكام ، تركت للاجتهاد رحمة بالأمة ، وتيسيراً وتوسعة عليها ، وبهذا تجد أمامها مجالا رحباً مرناً، تتحرك فيه بيسر وسهولة دون أن تشعر بالإثم في دينها أو الحرج دنياها .

وقد اقتضت حكمة الله في التشريعات المتعلقة بأمور متغيرة في الحياة البشرية ، وهي سياسة الحكم والمال.. اقتضت حكمته تعالى أن يجيء التشريع فيها بالأسس والمبادىء دون التفصيلات والأشكال ، لأن أية تفصيلات وأية أشكال ستكون موقوتة بفترة معينة ، بينما الأسس والمبادىء هي الإطار الذي ينبغي أن تسير الأمور في حدوده ، متجددة بتجدد كل عصر ودرجته من العلم ، ودرجته من التفاعل مع الكون المادي ، وصورة المجتمع الذي يعيش فيه، ملتزمة مع ذلك بهذا الإطار العام لا تخالفه ولا تخرج عنه ففي سياسة الحكم مثلا ورد أساسان شاملان هما العدل والشورى:«وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » (١) « وأمرهم شورى بينهم » (٢) ولكنه لم يبين أي طريقة تكون عليها الشورى. أهي مجمع من رؤساء القبائل والعشائر؟ أم مجلس منتخب أو معين. أم مجلسان.. لأن هذه صور متغيرة بتغير صورة المجتمع

---

(١) سورة النساء : ٥٨ (٢) سورة الشورى : ٣٨

وإمكانياته وجاء فى سياسة المال: « كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم » فقرر كراهية حصر المال فى يد فئة قليلة يتداولونه بينهم وبقية الأمة محرومة منه أما طريقة اشتراك الأمة فى الخير المشترك فقد تركها لكل جيل يصوغها فى الصورة التى تلائم ظروفه وعلمه وإمكانياته ، بحيث لا يخرج على تلك القاعدة الكبيرة ، فلا يلجأ مثلا إلى الإقطاع أو الرأسمالية كما فعلت أوربا ، ولا يلجأ لنزع الملكية جميعاً كما صنعت الشيوعية

فهنالك « ثبات » فى مقومات هذا الدين : عقائده وشرائعه وحدوده وقيمه لا تتغير ولا تتطور ، حينما تتغير ظواهر الحياة الواقعية وأشكال الأوضاع العملية . . فهذا التغير فى ظواهر الحياة وأشكال الأوضاع ، يظل محكوماً بالمقومات الأساسية والقيم الثابتة لهذا الدين . ولا يقتضى هذا « تجميد » حركة الفكر والحياة ، ولكنه يقتضى السماح لها بالحركة - بل دفعها إلى الحركة - ولكن فى هذا الإطار الثابت وحول هذا المحور الثابت.

فهذا الدين الذى يرفض كل ابتداع فيما يتعلق بالعبادات، وصور التقرب إلى الله تعالى ، لأن الأصل فى شعائر العبادة التوقيف ، فلا يعبد الله إلا بما شرعه وأذن به، لا بما تستحسنه العقول، وتجرى عليه الأهواء، لقول رسول الله ﷺ : « من أحدث فى ديننا ما ليس منه فهو رد » ، لأن هذا هو أصل التحريف والتزييف فى الأديان . هذا الدين الذى يرفض الابتداع فى أمور العبادات، هو نفسه الذى يشجع الاختراع والابتكار فى أمور الدنيا، مثل وسائل المواصلات التى يشير إليها قوله تعالى بعد ذكره للخيل والبغال والحمير (. . ويخلق ما لا تعلمون) ، ومثل أدوات الحرب التى تدخل فى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة)، وسائر الصناعات الحربية والمدنية التى تشير إليها الآية الكريمة: (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس).

لهذا رأينا رسول الله ﷺ ، يحفر الخندق حول المدينـــة في غزوة الأحزاب، ويستخدم المنجنيق في غزوة الطائف، ويحث على الانتاج الحربي حتى يجعل صانع السهم كالمجاهد الرامي به في استحقاق المثوبة، ويحذر الأمة أن تكتفي بالزرع وتتبع أذناب البقر ، كما رأيناه يتنازل عن رأيه إلى رأي الصحابة فيما يرى أنهم أعلم به من أمور الحياة ، التي لم ينزل بها الوحي ليعلمها الناس ، وإنما تركت لعقولهم وتجاربهم . .

وأظهر مثل لذلك قصة (تأبير النخل وتلقيحه) حيث كان ذلك من عادة أهل المدينة ، وهم أهل نخل وزرع ، فسألهم النبي ﷺ عن صنيعهم فأخبروه به ، فقال : ما أراه يصلح . نبلغهم قوله عليه السلام وظنوه وحيا وتشريعاً ، وتركوا التلقيح ، فلم يصلح التمر ، فلما علم بذلك النبي ﷺ قال : إنما أنا بشر ، إذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر « وفي رواية » إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذوني بالظن ، أنتم أعلم بأمر دنياكم ـ رواه مسلم.

● موقف المجتمع المسلم من المجتمعات المخالفة له :

مما سبق نستطيع أن نتبين طبيعة المجتمع المسلم ، إذ يجمع بين فضائل الثبات وحسنات المرونة والتطور . إذ يجمع بين الثبات الذي يمنحه الاستقرار فلا يتخلى عن مبادئه ولا يتحول عن أصوله وبين المرونة التي يواجه بها سير الزمن وسنة التطور .

فهو بإزاء المجتمعات الأخرى المخالفة له في العقيدة والوجهة والمبدأ ، لا يذوب فيها ، ولا يتبع أهواءها ، ولا يقلدها ويتشبه بها فيما هو من خصائصها ، لكي لا يفقد أصالته وشخصيته المتميزة . فالأمة المسلمة وقد بوأها الله مكان الاستاذية للبشرية كلها ، يرفض الله لها التبعية واقتفاء آثار غيرها من الأمم شبرا بشبر وذراعاً بذراع .

ومع هذا فهى أمة مفتوحة على غيرها من الأمم ، لها أن تقتبس منها وتنتفع بما لديها ، من معارف وخبرات ومهارات لا تضر بكيانهـا المادى والمعنوى، لأن العلم الخالص وما يتفرع عنه من مكتشفات وأجهزة وأدوات ومخترعات ، لا جنسية له ولا وطن له.

فعنصر الثبات يتجلى هنا فى رفض المجتمع المسلم للعقائد والمبادىء والأفكار والقيم والشعارات التى تقوم عليها المجتمعات غير المسلمة وتميزها لأن مصدرها غير مصدره، ووجهتها غير وجهته، وسبلها غير صراطه، فهو مجتمع متميز فى المصدر والوجهة والمنهج بل فى السمة والشعار أيضا .

ولهذا حرص الرسول ﷺ على تميز المسلمين فى كل شئونهم عن مخالفيهم من المشركين واليهود والنصارى فرفض البوق والناقوس للإعلام بالصلاة واختار الأذان ووردت عبارة (خالفوهم) فى أحاديث كثيرة تحض المسلمين على مخالفة غيرهم فى أمور كثيرة ، مما يدل على أن تميز المجتمع المسلم أمر مقصود، ولشيخ الإسلام ابن تيمية كتاب قيم عالج فيه هذا الموضوع ، أسماه (اقتضاء الصراط المستقيم فى مخالفة أصحاب الجحيم).

وجاء القرآن الكريم يحذر الرسول صلوات الله عليه من اتباع أهواء الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين أو التأثر بدسائسهم ، فيفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه، فقال تعالى: (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس الفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون)(١).

وهذا هو موقف الفرد المسلم والمجتمع المسلم من أحكام الكفار ، إنه

---

(١) سورة المائدة : ٤٩ - ٥٠

يرفضها رفضاً حاسماً ولا يقبل إلا أحكام الله ، لأن من لم يقبل حكم الله سقط فى حكم الجاهلية ولا ثالث لهما .

إن شعار المسلم إزاء كل ما يعرض عليه من مبادىء وأفكار ومذاهب هو هذه الكلمة الموجزة : (إن كان فيها ما فى الإسلام فقد أغنانا الله بالإسلام . وإن كان فيها ما يخالف الإسلام، فنحن لا نبيع ديننا بملك المشرق والمغرب، وفى مقابل هذا الثبات نجد مرونة وسماحة فى الناحية العملية والتطبيقية فى الحياة ، كما يتصل بالطرائق والأساليب لا بالمبادىء والأهداف.

فإذا كان لدى مجتمع غير مسلم نظـام حسن فى تعبئـة الجيوش ، أو فى ترقية الصناعة أو الزراعة ، أو فى تخطيط المدن والقرى أو فى حفظ الصحة العامة ومقاومة الأوبئة ، أو فى تسخير القوى الكونية بسلطان العلم لمصلحة الإنسان، أو نحو ذلك من كل ما يتعلق بالجانب العلمى (التكنولوجى) والإبداع المادى ، والتنظيم العلمى ، فالإسلام يرحب به ، بشرط ألا يصطدم بأحـكام الإسلام وقد جاء الحديث «الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها) رواه الترمذى وابن ماجه .

فقد رأينا الرسول ﷺ يأخـذ برأى سلمان الفـارسى فى حفر الخندق حول المدينة ليحميها فى غزوة الاحزاب من المشركين ، وهذا من أساليب الفرس الدفاعية ، ولم يقل الرسول : هذا من أساليب المجوس لا نأخذ به .

وهؤلاء صحابة رسول الله ـ رضى الله عنهم ـ يقتبسون بعض التنظيمات الإدارية والمالية الصالحة من الفرس أو الروم أو غيرهم ، ولم يجدوا بذلك بأساً، مادام يحقق لهم مصلحة، ولا يصادم نصاً ولا قاعدة كما فى نظام الخراج، وهو نظام فارسى الأصل ، ونظام الديوان هو نظام رومانى الأصل .

هذه صورة المجتمع المسلم ، فهو فى نماء وتقدم فى حالة جمعه بين الثبات

على مبادئه وأصوله والمرونة والتطور الذى يواجه به حركة العلم وكشوفه والتغير فى أشكال الحياة وأساليبها ، ولا يصبح عرضة لأخطار الانحطاط والتأخر إلا نتيجة لأحد أمرين :

الأول : أن يجمد ما من شأنه التغير والتطور والحركة ، فتصاب الحياة بالعقم والجمود ، وهذا ما حدث فى عصور الانحطاط والشرود عن هدى الإسلام الصحيح فرأينا كيف توقف الاجتهاد فى الفقه وتوقف الابداع فى العلم، والأصالة فى الأدب، والابتكار فى الصناعة، والافتنان فى الحرب وغيرها وضربت الحياة بالجمود والتقليد فى كل شىء وأصبح المثل السائر الذى يعبر عن الاتجاه السائد « ما ترك الأول للآخر شيئا » و « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

على حين أخذت المجتمعات الكافرة التى اقتبست من المسلمين مناهج العلم التجريبى وثمرات حضاراتهم . . أخذت تستيقظ وتنهض وتتطور، ثم تنمو وتتقدم فى الكشف والاختراع ، ثم ترحف غازية مستعمرة ، والمسلمون فى غمرة ساهون .

الثانى : أن يخضع للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار كما نرى ونسمع فى عصرنا هذا، أن فئة من ذرارى المسلمين ووكلاء حضارة الغرب المادى المنحل ، يريدون خلع الأمة من جذورها الإسلامية، وعزلها عن تراثها . وأصولها كلها باسم التطور . . يريدون أن يفتحوا النوافذ كلها للإلحاد فى العقيدة ، والانسلاخ من الشريعة ، والتحلل من الفضيلة .

كل ذلك باسم هذا الصنم الجديد « التطور » ، وتحت تأثير هذه الوثنة يريدون أن يطوروا الدين نفسه ، لكى يلائم ما يريدون استيراده من مناهج الغرب ، من عقائد وأفكار ، وقيم وموازين وأنظمة وتقاليد ومثل وأخلاق .

وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تنقلب على عقبيها وأن تنتكس في الجاهلية، لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت الذى يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا ، ويرجعون إليه إذا انحرفوا .

أما أن يصبح الدين خاضعا لتقلبات الحياة وظروفها ، فإنه بذلك يفقد وظيفته فى حياة الانسان .

إن الاصلاح الحقيقى : أن نتفهم جيداً ما يجب أن يتطور من شئون الحياة فنعمل على تطويره وتحسينه ، بمنطق الحكماء الشجعان ، لا الأغرار المقلدين . كما نعرف ما يجب أن يبقى راسياً من القيم ثابتاً راسخا ، القيم والأفكار والعقائد والأخلاق والآداب والشرائع التى تزول الجبال الشم ولا تزول .(١)

● حقيقة التقدم والتخلف :

المجتمع الذى ينشئه الإسلام ، هو المجتمع الذى يرتقى بالإنسان إلى كمالاته..

ذلك أنه حين تكون « إنسانية » الإنسان هى القيمة العليا فى مجتمع ، وتكون الخصائص « الإنسانية » فيه هى موضع التكريم والاعتبار يكون هذا المجتمع المتحضر . . وأما حين تكون «المادة» فى أية صورة هى القيمة العليا ، سواء فى صورة « النظرية » كما فى التفسير الماركسى للتاريخ أو فى صورة « الإنتاج المادى » كما فى أمريكا وسائر المجتمعات التى تعتبر الانتاج المادى قيمة عليا تهدر فى سبيلها القيم والخصائص الإنسانية . . إن هذا المجتمع يكون مجتمعاً متخلفاً .

إن المجتمع الإسلامى - كما عرفنا - لا يحتقر المادة ، لا فى صورة النظرية باعتبارها هى التى يتألف منها هذا الكون الذى نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر

(١) عن كتاب : الخصائص العامة للاسلام ، للدكتور القرضاوى

فيه أيضاً ، ولا فى صورة الانتاج المادى ، فالانتاج من مقومات الخلافة عن الله فى الأرض ، ولـكنه فقط لا يعتبرها هى القيمة العليا التى تهدر فى سبيلها خصـائص « الإنسان » ومقوماته ، وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته، وتهدر فيها قاعدة الأسرة ومقوماتها ، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته ... إلى آخر ماتهدره هذه المجتمعات الجاهلية من القيم العليـــا والفضائل والحرمات لتحقق الوفرة فى الإنتاج المادى .

وحين تكون « القيم الإنسانية » التى تقوم عليها إنسانية الإنسان ، هى السائدة فى مجتمع يكون هذا المجتمع بحق مجتمعاً متقدماً متحضراً . والقيم الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيما « متطورة» (١) متغيرة متبدلة لا تستقر على حال ولا ترجع إلى أصل ، كما يزعم التفسير المادى للتاريخ وكما تزعم « الاشتراكية العلمية » . . القيم الإنسانية ليست مسألة غامضة مائعة ، فهى القيم والأخلاق التى تنمى فى الإنسان جوانبه

---

(١) استغلت فكرة التطور اقبح استغلال لمحاربة الفضائل والأخلاق ، وباسم التقدم والتطور لمحاربة الإسلام وتشريعه ونظمه ومثله العليا ، واستعيرت كلمة الرجعية التى نشأت بعد الثـورة الفرنسية لوصف حركة المناوئين لها ، لمحاربة الدين والأخلاق بوجه عام والإسلام بوجه خاص . إن نشر فكرة التطور فى مجال الحياة الاجتماعية لتحطيمها والعقائد لتهديمها عمل من أعمال اليهود فى أوربا وأمريكا ، وهدفهم من ذلك أن لا يبقى شيء ثابت فى الحياة مطلقا وبذلك تتقوض الفضائل والحقائق الدينية الكبرى ، وأهمها الإيمان بالله وبالنبوات وبتعاليمها الأساسية ليبقى اليهود وحدهم مسيطرين على العالم وليكون غيرهم فى قلق دائم وثورة عارمة لا تبقى ولا تذر وهبوط من درك إلى درك فى مهـــاوى الانحطاط والرذيلة

الإنسانية ، التي ينفرد بها دون الحيوان ، والتي تغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويفرده عن الحيوان ، وليست هي القيم والأخلاق التي تنمي فيه وتغلب الجوانب التي يشترك فيها مع الحيوان .

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل وحاسم و « ثابت » لا يقبل عملية التمييع المستمرة التي يحـــاولها « التطوريون » و « الاشتراكيون » .

عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وعرفها هو الذي يحدد القيم الأخلاقية ، إنما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان ثابت .. عندئذ لا تـكون هناك قيم وأخلاق « زراعية » وأخرى « صناعية » ولا قيم وأخلاق رأسمالية وأخرى « اشتراكية » ولا قيم وأخلاق برجوازية » وأخرى « برولوتارية » ، ولا تكون هناك أخلاق من صنع البيئة ومستوى المعيشة وطبيعة المرحلة .. إلى آخر هذه التغيرات السطحية والشكلية .. إننا نقول وبكل وضوح أن هناك - من وراء ذلك كله - قيم وأخلاق « إنسانية » وقيم وأخلاق « حيوانية » إذا صح هـذا التعبير ، أو بالمصطلح الإسلامي : قيم وأخلاق « إسلامية » وقيم وأخلاق « جاهلية » .

إن الإسلام يقرر قيمه وأخلاقه ، التي تنمي في الإنسان الجـوانب التي تميزه عن الحيوان ، ويمضي في إنشائها وتثبيتها وصيانتها في كل المجتمعات التي يهيمن عليها سـواء أكانت هذه المجتمعات في طور الزراعة أم في طور الصناعة ، وسواء أكانت مجتمعات بدوية تعيش على الرعي أو مجتمعات حضرية مستقرة ، وسواء أكانت هذه المجتمعات فقيرة أو غنية .. إنه يرتقي صعداً بالخصائص الإنسانية ويحرسها من النكسة إلى الحيوانية .. لأن الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي من الدرك الحيواني إلى المرتفع الإنساني ،

فإذا انتكس هذا الخط مع حضارة المادة، فلن يكون ذلك حضارة أو تقدم إنما هو التخلف أو هو « الجاهلية » .

وحين تكون « الأسرة » هى قاعدة المجتمع ، وتقوم على أساس « التخصص » بين الزوجين . . وحين تكون رعاية الجيل الناشىء هى أهم وظائف الأسرة ، حين يكون ذلك يكون معه التحضر والتقدم ، ذلك أن الأسرة على هذا النحو ـ فى ظل المنهج الإسلامى ـ تكون هى البيئة التى تنشأ فيها القيم والأخلاق الإنسانية ممثلة فى الجيل الناشىء ، والتى يستحيل أن تنشأ فى وحدة أخرى غير وحدة الأسرة ، فأما حين تكون العلاقات الجنسية « الحرة » كما يسمونها والنسل « غير الشرعى » هى قاعدة المجتمع. حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفى فى الأسرة . . حين تصبح وظيفة المرأة هى الزينة والغواية والفتنة . . وحين تتخلى المرأه عن وظيفتها الأساسية فى رعاية الجيل الجديد وتؤثر هى ـ أو يؤثر لها المجتمع ـ أن تكون مضيفة فى فندق أو سفينة أو طائرة . . حين تنفق طاقاتها فى « الانتاج المادى » ولا تنفقها فى صناعة « صناعة الإنسان » لأن الانتاج المادى يومئذ أغلى وأكرم من « الانتاج الإنسانى »، عندئذ يكون هذا هو « التخلف الحضارى » بالقياس الإنسانى .. أو تكون هى « الجاهلية » بالمصطلح الإسلامى.

وقضية الأسرة والعلاقات بين الجنسين قضية هامة فى تحديد صفة المجتمع متخلف أم متحضر ، جاهلى أم إسلامى . . والمجتمعات التى تسود فيها القيم والأخلاق والنزعات الحيوانية فى هذه العلاقة لا يمكن أن تكون مجتمعات متحضرة مهما تبلغ من التفوق الصناعى والاقتصادى والعلمى، إن هذا المقياس لا يخطىء فى قياس مدى التقدم « الإنسانى ».

والمجتمعات الجاهلية الحديثة يضطرب فيها المفهوم الأخلاقى بحيث يتخلى عن كل ماله علاقة بالتميز « الإنسانى » عن الطابع « الحيوانى » ففى هـذه المجتمعات لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية، ولا حتى العلاقات الجنسية الشاذة رذيلة أخلاقية.. إن المفهوم الإخلاقى ينحصر عندهم فى المعاملات الاقتصادية والسياسية فى حدود مصلحة الدولة على أساس من مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة».

والكتاب والصحفيون والروائيون هنا وهناك يقولون لها للفتيات والزوجات إن الاتصالات الزوجية «الحرة» ليست رذائل أخلاقية . . الرذيلة الأخلاقية أن يخدع الفتى رفيقته أو تخدع الفتاة رفيقها ولا تخلص له الود ، بل الرذيلة أن تحافظ الزوجة على عفتها إذا كانت شهـوة الحب لزوجهـا قد خمـدت ، والفضيلة أن تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة ! ! . . عشرات من القصص هذا محورها ومئات من التوجيهات الإخبارية والرسوم الكاريكاتيرية والنكت والفكاهات هذه إيحاءاتها .

مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة غير متحضرة ، من وجهـة نظر « الإنسان » وبمقياس خط التقدم « الإنسانى » . .

إن خط التقدم الإنسانى يسير فى اتجاه « الضبط » للنزوات الحيوانيـة وحصرها فى نطاق « الأسرة » على أساس « الواجب» لتؤدى بذلك «وظيفة إنسانية» ليست اللذة غايتها وإنما هى إعداد جيل إنسانى يخلف الجيل الحاضر فى ميراث الحضارة « الإنسانية » التى يميزها بروز الخصـائص الإنسانية . . ولا يمكن إعداد جيل يترقى فى خصائص الإنسان إلا فى محضن أسرة محوطة بضمانات الأمن والاستقرار العـاطفى ، وقائمـة على أساس الواجب الذى لا يتأرجح مع الانفعالات الطارئة، وفى المجتمع الذى تنشئه تلك التوجيهات والايحاءات الخبيثة التى ينحسر فيها المفهوم الأخلاقى عن كل آداب الجنس

لا يمكن أن يقوم ذلك المحضن الإنسانى .

من أجل ذلك كله تكون القيم والأخلاق والاتجاهات والضمانات الإسلامية هى اللائقة بالإنسان ويكون الإسلام هو «الحضارة» ويكون المجتمع الإسلامى هو المجتمع «المتحضر المتقدم» . . بذلك المقياس الثابت الذى لا يتميع أو لا «يتطور» .

لقد كان الإسلام ينشىء الحضارة فى أواسط أفريقية بين العراة .. لأنه بمجرد وجوده هناك تكسى الأجساد العارية ويدخل الناس فى حضارة اللباس التى يتضمنها التوجيه الإسلامى المباشر ويبدأ الناس فى الخروج كذلك من الخمول البليد إلى نشاط العمل الموجه باستغلال كنوز الكون المادى . ويمرون كذلك من طور القبيلة أو العشيرة الى طور الأمة . وينقلون من عبادة الطواغيت المنعزلة إلى عبادة رب العالمين .. فما هو التقدم ، وما هى الحضارة إن لم تكن هى هذا ؟! .. «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة» .

● وبعد :

إن التقدم الحقيقى ، هو انتصار المبادىء ، وانتصار القيم الإنسانية الرفيعة ورفع رايتها عالية خفاقة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

والمتقدمون المنتصرون ، هم المطبقون للحق حرفاً حرفاً وعملاً وعملاً .. إنهم هم الذين يصدرون المناهج والأفكار ولا يستوردون الثياب .. إنهم هم «الأمة الوسط» التى اختارها الله لتقوم الاعوجاج وتحول دون الانحلال والانحراف .

وحين يصل الإنسان إلى وضع كل سلوك بشرى فى موضعه الصحيح من الكون والحياة على أساس من المنهج الربانى ، فقد بدأ يتقدم ، أما دون هذا فلا .. وما ذلك إلا لأن العقيدة هى التى تحكم المادة ، وهى نفسها التى تحكم الأخلاق ، وأخلاق الناس هى التى تصنع أزياءهم كما تصنع منطلقاتهم

العلمية والعملية .

إن تصورات العلم الحديث للكون والحياة والإنسان قد صبغت الحياة بصبغة مادية قاسية فجعلتها صراعاً مسعوراً بين الأفراد والطبقات والدول، فهذه مآسي الاستعمار والرجل الغربي من نتائج ذلك الصراع المسعور، فلكم قاست وتقاسي شعوب، وأزهقت وتزهق أرواح، وسفكت وتسفك دماء في غمرات ذلك الاستعمار وما يثيره من نيران الحروب والصراعات التي لا تهدأ .

« ولقد يظن - بادي الرأي - أن تصورات العلم الحديث للكون والحياة والإنسان لا يمكن أن تكون مسئولة عن كل تلك الفواجع الرهيبة ، ولكن الحقيقة أن تلك التصورات المنحرفة هي التي كيفت الحضارة الغربية ، وهي التي صنعت الفنون والآداب ، وهي التي حددت غايات الحياة وهي التي أعطت لدول الغرب حق الاستعمار والعدوان ، وأعطت للساسة مبررات الغدر والنفاق ، فأصبح العالم في ظل هذه التصورات المنحرفة غابة تسودها شريعة المخلب والناب ، وأصبحت الحياة شهوة عارمة لا ترتوي ، وجوعة في الأرواح وشقاء في الأنفس لا تعرف سكينة ولا طمأنينة ولا قراراً .

لقد استطاع العلم الحديث أن يحقق للبشرية تقدماً مادياً لا شك فيه ، إنتاجا في المصانع ، ومتاعاً في الحياة ، ولكنه عجز عن توفير السكينة للنفوس أو إشاعة الود والرحمة في الأسرة أو إرساء التعاطف والتكامل في المجتمع .

والذين تبهرهم مظاهر الترف والتقدم في الغرب ، إنما ينظرون إلى زينة الحياة الدنيا .. ينظرون إلى مظاهر الحياة دون جوهرها لا يتعمقون أغوار النفوس ولا يبصرون الشقاء والتعاسة الروحية التي تعانيها تلك

المجتمعات . ويكفى أن أغنى الأمم فى الغرب وأعلاها مستوى معيشة ، دلت الإحصاءات على أنها أكثر بلاد العالم تعاسة وشقاء ، ففيهـا أكبر نسبة فى العالم من أمراض الصرع والجنون ، وأعلى نسبة فى تعاطى المخدرات ، وأضخم نسبة فى انحرافات الشباب وحوادث الانتحار .

لقد فقدت الحضارات الغربية مقومات البقـــاء والاستمرار ، يقول الفيلسوف الألمانى شبنجلر فى كتابه « انهيار الغرب » : (إن الحضـارة الغربية طغت فيها المادية على الروح ، وهذه بداية النهاية لها ، رغم ماتخدع به البصر من التقدم العمرانى والمادى وما مرحلة الحضارة الحالية إلا غمرة المدنية المضللة ببهرجها الذى يستر فقرها الروحى ، فهى سائرة بخطى واسعة إلى الفناء المحتوم الذى أصاب الحضارات السابقة) .

إن وسائل الإنتاج المادى والتفوق العلمى والانتصار العسكرى ليست هى بأى حال من الأحوال دليل التقدم ، فـكم من انتصارات عسكرية ، لم تقدم لمن حققوها الانتصار الحضارى الشامل والتقدم فى مضمار التفوق على العدو المغلوب ، لأن هذا العدو كان ذا عقيدة أقوى وأخلاق أقوم من عقيدة وأخلاق الذين انتصروا عليه بالقتال وحده ، فخضع لهم فى ميدان القتال ، حتى تسلط عليهم بعد أن أخضعهم لسلطانه ، ثم دارت رحى حروب أخرى بين الفريقين ، فإذا الفريق المهزوم فى الحرب ، هو الفريق المنتصر فى شتى ميادين العقيدة والأخلاق والفكر والمعرفة والوجود الحضارى .

وأوضح مثل لذلك ماحدث حين انتصر التتر علينا نحن العرب المسلمين فى ميدان الحرب ، واقتلعوا عاصمة الخلافة العباسية فى بغداد ، ثم أخـذ الإسلام يضرب سرادقه حول هؤلاء الوثنيين الذين اقتلعوا حصون أوربا حينذاك ، وفعلوا مثل ذلك ببلاد المسلمين ، فلم يكن أمرهم مع المسلمين كما كان أمرهم مع الأوربيين ، أى لم يكن انتصارهم العسكرى هو انتصارهم

الشامل الحاسم على المسلمين ، وإذا كان الانتصار العسكرى هو جولة دخلوا بعدها فى جولات حضارية بين الحق المطلق المتمثل بالفكرة الإسلامية والباطل المتمثل بالفكرة الوثنية عادت بالغالبين بالسيف مغلوبين بقوة الفكر والخلق والحضارة وإن لم تتوفر لأصحابها القوة المادية .

إنه استعلاء أمم الغرب فى مجالات الانتاج المادى ومنتجاتها المادية دون أن يتزودوا بمنهج الحق فى الاستمتاع بها وصرفها فى مصارفها الحقيقية لاتغنى هذه الأمم فتيلا فى تخلفها الناتج من بعدها عن نور القرآن ، إذ هم واقعون فى متاهات الضلال والضياع ، مالم يكتمل لحضارتهم البعد الروحى الذى لن يجدوه فى غير المنهج القرآنى .

بينما الأمة التى تحمل القرآن لا يعيبها التأخر فى مجالات الانتاج المادى ، بقدر مايعيبها التأخر فى أن تكون كما هى فى الحقيقة ، أمة وسطاً أى حاملة رسالة ومبلغة أمانة ، تصل من الجنس البشرى ماانقطع به من عبادة المال والشهوة وأنانية العنصرية البغيضة .

إن منهج الله وحده ، هو الذى ضمن للحياة الإنسانية التقدم لا التأخر ، إذا هى اتصلت بحقيقة القرآن وتمثلت أحكامه سلوكا وعملا وارتفعت إلى مستوى رسالته الخالدة .

إن عالمنا المعاصر فى واقع أمره ينقسم إلى طائفتين يقتسمان معاً خطين متناقضين من التخلف الذى ينقصه التقدم من طرفين متناقضين أيضاً ، فالتخلف عام شامل وإن اختلفت أسبابه ومسبباته ..

● فهناك طائفة تملك إنتاجاً مادياً متراكما ، لم يلتق ببعده الأخلاقى .

● وهناك طائفة تمتلك الحقيقة الواحدة الجامعة ، هى حقيقة القرآن العظيم الذى تقبض عليه أيدينا نحن المسلمين ، دون يبلغ من نفوسنا مبلغ الوعى ومن سلوكنا مبلغ العمل القادر على تبليغ الحقيقة الوحيدة فى الأرض فى سائر الأرض لسائر البشر ، فلسنا نحن المتخلفين لبعدنا عن التفوق فى مضمار الانتاج المادى المعاصر ، ولكننا المتخلفون لعدم تمثلنا الحقيقة المثلى وهى بأيدينا ، فضلا عن تبليغها للناس كافـــة ، وفى هذه الريادة الفكرية والأخلاقيـــة انتصارنا ، بالذين يسمعون صوتنا ويؤمنون بحقيقتنا على المعاندين المبغضين .

وحيث نفعل ذلك ونكف عن استيراد « الثوب العارى والفكر العارى » نقوى على حفظ أرضنا وطرد عدونا منها أو إلزامه بالحياة فيها تحت رايتنا وفى نور مبادئنا التى تخرجه من ظلماته إلى نورنا .

هذا هو تقدمنا لمن شاء منا أن يتقدم ، ولمن يريد حقاً أن يتقدم .

الخاصية السابعة

التكافل والعدل

إذا كان المنهج القرآنى يهتم بالفرد على أنه فى ذاته كائن جدير بالاحترام والتقدير والتكريم بنفخة الروح العلوية التى رفعته عن مستوى المخلوقات الأخرى ، فمنى بعقله وضميره ، وهيأ له أسباب الحياة الحرة العزيزة . . فالإنسان يتصل بربه فرداً ، ومسئوليته فى اليوم الآخر فردية ، وهذا يعنى أن كل إنسان مسئول أمام الله عن أقواله وأفعاله ، مؤاخذ بما يلفظ أو يفعل مسئول عن جوارحه : سمعه وبصره ، يده وأذنه ولسانه وقلبه وغيرها ، مسئول عن أسرته وأفراد عائلته أن يهديهم إلى الصواب كمسئوليته عن نفسه

« كل نفس بمـــا كسبت رهينة » (١) « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » (٢) :

ولا يعنى ذلك أن المنهج القرآنى يدفـــع الفرد إلى الاستقلال بذاته والانعزال عن الجماعة ، فالصلة الشخصية الفردية بالله ، هى الرباط الحى الذى يربط الفرد بالجماعة ، فهى التى تلين قلب الإنسان لأخيه فيحبه ويمنحه من نفسه ويفنى فيه ، والقرآن بتوجيهاته الدائمة يعمل على غرس روح التعاون والإيثار فى النفس وطبيعة الإسلام نفسها تقتضى وجود جماعة متكافلة تقوم بالتكاليف الجماعية . .

فالمنهج القرآنى منهج جماعى يهدف إلى تكوين جماعة متميزة ، تحمل مبادئه وتعمل على تبليغها والجهاد فى سبيل تأمينها ، وكان الرسول ﷺ حريصا على أن يربى أصحابه تربية جماعية ، وعلى الرغم من أن ظروف مكة لم تسمح بأى مظهر جماعى ، فقد كان المؤمنون جماعة لها شخصيتها المتميزة وكذلك كان المهاجرون الذين هاجروا إلى الحبشة جماعة لها طابعها وأميرها. ولمـا تمت الهجرة إلى المدينة أقام الرسول ﷺ مجتمعه الجديد ، بعد أن توفرت له كل مقومات المجتمع ومظاهره ، بالعبادة والأخوة والتشريع والدولة والجهاد .

وعندما فرض القرآن الهجرة إلى المدينة ليجنب الجماعة المؤمنة الجاهلية المتمثلة بالمجتمع المـكى حينذاك بضغوطه ورواسبه ، كان ذلك توجيها لأثر المجتمع فى العمل التربوى بعامة والتنشئة الاجتماعية بخاصة .

وفرائض الإسلام وواجباته جميعـــاً تربى الفرد ليـكون لبنة فى بناء المجتمع وعضوا فى جماعة المؤمنين .

....

(١) سورة المدثر : ٣٨ (٢) سورة القيامة : ١٤ ــ ١٥

لقد بدأ الإسلام بناء المجتمع فى ضمائر الأفراد ووجداناتهم ، فهناك فى أعماق الروح غرس بذرة الحب والرحمة . الحب الإنسانى الخالص ، والرحمة الإنسانية المبرأة . لقد رد الناس إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة وأيقظ فى شعورهم شعور النسب والقربى ، وذكرهم أخوتهم فى الله ، وفى المنشأ والمصير ، حتى إذا رقت جوانحهم بهذه المشاعر كانوا أقرب إلى التعاون وأدنى إلى الإخاء . « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منهـا زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليـكم رقيباً » (١) « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وفى ظل الحب والرحمـة دعا الناس إلى الإيثار ، وإلى التضحية بمـا هو عزيز على النفوس فى سبيل إسعاد الآخرين . فلابد للتكافل من قوم يؤثرون على أنفسهم ، ويضحون بالغالى والعزيز عليهم ، فالمجتمع فيه الأغنياء والمحرومون وإذا لم يؤثر الأغنياء على أنفسهم ، وإذا لم يضحوا بمـا يملـكون لم يقم التكافل ، ولم يتم التعاون .

ولقد رسم القرآن الـكريم صورة جميلة للإيثار فى نفوس أهل المدينة الذين استقبلوا المهاجرين فآووهم وشاركوهم مالهم وديارهم فى رحابة صدر وسماحة نفس . « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، لا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٢) .

وكل ما يبذل منه المسلم من مال أو جهد لتحقيق التكافل إنما هو قرض

---

(١) سورة النساء : ١ (٢) سورة الحشر : ٩

لله لا يضيع ، وأن الكف عن بذله تهلكة فى الدنيا والآخرة ، فأطمعه فى الثواب ، وحذره من العقاب ، وهما وسيلتان من وسائل التربية للضمير ، من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ، وله أجر كريم » . «وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١) .

وجاء حث القرآن الكريم للجماعة المؤمنة على التكافل لا فى دائرة المال فقط ، بل فى كل شأن من شئون الحياة ، وناط هذا بضمائرها ، وملأ هذه الضمائر بخشية الله وتقواه ، والتقوى فى النفس هى أقوى عوامل التربية الشعورية وأعمقها ، قال تعالى : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » . (٢)

ولم يقف المنهج القرآنى عند مجرد استجاشة المشاعر الوجدانية ، وهو يحاول التربية الخلقية ، بل عمد إلى تكوين عادات وآداب اجتماعية ، تعاون على التآخى وعلى التعاون والتكافل فى محيط الحياة العملية .

ومن هذه الآداب والعادات الاجتماعية التى ربى المنهج القرآنى المسلمين عليها حسن القول ولطف الحديث وإفشاء السلام : « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن » (٣) . « أدفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (٤) . . « وإذا حييتم بتحية ، فحيوا بأحسن منها أو ردوها » (٥) .

ومنها احترام الآخرين ، وحسن الظن بهم ، وحفظ غيبتهم ، وتجنب اغتيابهم ، واتقاء الله فيهم « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم ، عسى

(١) سورة البقرة : ١٩٥
(٢) سورة آل عمران : ١٠٤
(٣) سورة الاسراء : ٥٣
(٤) سورة فصلت : ٣٤
(٥) سورة النساء : ٨٦

أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب. بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان . ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون. يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم» (١)

وهكذا سار الإسلام فى تهذيب المشاعر الإنسانية ، وتكوين الآداب والعادات الاجتماعية ، التى يمكن أن يلتقى الناس على أساسها، وأن يتعاونوا فى يسر ، ويتكافلوا فى طواعية . لأن أسباب هذا التكافل نابعة من ضمائرهم ، منبثقة من مشاعرهم، وليست مفروضة عليهم فرضاً من خارجهم بحكم القانون

إن أية محاولة للتربية الخلقية ، ينبغى أن تقوم أساساً على ربط النفس الإنسانية بأفق أعلى من الذات والمصلحة القريبة . أفق يستعذب التضحية فى سبيله ، ويستسهل الصعب فى الارتقاء إليه ، فماذا يكون هذا الأفق العالى ؟

لقد يرى البعض أن يكون هو العزة القومية ، ولقد يرى بعضهم أن يكون هو الأخوة الإنسانية ، وكلاهما أفق يمكن أن يرفع مشاعر الفرد عن أفق المنفعة القريبة واللذة الحاضرة ، فيقبل تكاليف التكافل عن رضا وطواعية مادام ذلك يعود عليه بالتقدير والتكريم العاجل من قومه أو من هيئة ترفع شعار الأخوة الانسانية ، أما إذا آثرنا ربط ضمير الفرد بأفق أعلى من هذه الآفاق جميعاً . . إذا آثرنا ربطه بالله خالق الأوطان وخالق الإنسان، جاء بذله ابتغاء مرضاة الله ، ولو لم يشعر به وطن ولم يكرمه إنسان . . إذا آثرنا أن يكون الحب فى الله هو الذى يجمع القلوب ويلف الأيدى والسواعد ، عندئذ تتحقق الصورة المشرقة التى رسمها رسول الله ﷺ وهو يقول: « إن من عباد

---

(١) سورة الحجرات : ١١ - ١٢

الله لأناساً ماهم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة من الله تعالى قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله بينهم على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها . فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » .

ويؤصل النبي ﷺ هذه الحقيقة ويؤكدها ، فيجعل تعامل المؤمن تعاملا مباشراً مع الله ، الناس فى هذا التعامل صور ظاهرة أما حقيقته فهو تعامل مباشر مع الله ولله تعالى . . فيقول : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة . يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال : أما علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟ .. يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يارب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ . . يا ابن آدم ، استقيتك فلم تسقنى ، قال : يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقيتك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندى ؟ » .

إن ارتباط الضمير الإنسانى بالله ، هو الأساس الأول فى أى تربية خلقية ناجحة عميقة الجذور . ويقتضى ـ كما سبق بيانه فى بداية هذا الفصل ـ أن نتخذ عقيدة التوحيد قاعدة أساسية للتربية الفردية أو الاجتماعية فى سبيل قيام مجتمع متكافل : وهذا الأساس لا يحقق لنا مصلحة اجتماعية فحسب ، ولا مصلحة قومية فحسب ، بل كذلك يحقق غاية إنسانية أبعد من أن تتسم بالرغبة فى إرضاء الله وحده والتضحية بالغالى والرخيص ابتغاء وجهه الكريم .

وحين نقيم هذا الأساس الأول ، حين نربط الفرد بربه ، ونربط سلوكه بتقوى الله ورجائه ، حينئذ سيسهل علينا أن نغرس فى هذا الضمير كافة المشاعر التى يقوم عليها التكافل والتماسك الاجتماعى ، وأن نقود الفرد إلى سلوك اجتماعى يؤدى إلى تلك الغاية ، فإذا جاء التشريع بعد ذلك ليقيم الأساس العملى للتكافل ، وجد طريقه إلى النفس البشرية مفتوحا ، وطريقه فى الحياة الواقعية ممهداً .

أما الوسائل العملية فى محاولة التربية الخلقية فهى كثيرة ، ولكنها كلها ينبغى أن ترجع إلى ذلك الأساس الأول .

إن هذه الوسائل يجب أن تتجه إلى تكوين عادات اجتماعية إسلامية ، عن طريق الإيحاء والقدوة والسلوك العملى ، فالعادة ضرورية لتثبيت الاتجاه الشعورى ، وكثيراً ماتكون هذه هى الوسيلة المضمونة لتحقيق هدف التربية الخلقية .

والمنهج القرآنى عندما يلجأ إلى « العادة » كوسيلة لتحويل المشاعر الوجدانية الكريمة نحو الآخرين إلى اتجاهات ثابتة ، يحافظ على حيوية هذه المشاعر الوجدانية ، ويحرص على يقظتها وحضورها مع الاستجابة العملية وذلك باستحضار النية دائما فى كل عمل من أعمال التعاطف الإنسانى لقول الرسول الكريم « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى امرأة ينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته الى ما هاجر إليه » .

قاعدة العدل

يدعو الإسلام أهله أن يكونوا أمناء على تحقيق العدل فى الأرض كلها ومنع الجور، ورد الطغيان تحقيقاً لأمر الله فحيثما كان ظلم وكان بغى فالمسلمون منتدبون لدفعه ورفعه، دون نظر الى من وقع منه الظلم والبغى أو من وقع عليه الظلم والبغى، فى أى صورة، وتحت أى شعار وعنوان سواء أكان ظلم فرد لفرد، أو ظلم فرد لجماعة، أم ظلم جماعة لفرد، أم ظلم جماعة لجماعة، كله سواء، لأن الناس كلهم سواء

فشرط الله على الأمة المسلمة حين ينصرها الله، ويمكن لها فى الأرض وتتولى قيادة البشرية، أن تقوم بفريضة العدل، فهو تمكين مشروط بهذا الشرط، ونصر ملازم لانتصار الحق وحماية العدل، فإذا قصرت فى هذه الفريضة وأخلت بهذا الشرط، فقد فقدت مقوما رئيسيا فى تمكينها وقيادتها بل فقدت مقومات وجودها. وذلك أن العدل نظام كل شىء، فإن أقيم أمر الدنيا بعدل قامت، ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم «ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم» فالباغى يصرع فى الدنيا وإن كان مغفوراً له مرحوما فى الآخرة.(١)

فكما أن المنهج القرآنى حريص فى عمله على إقامة المجتمع المسلم على قاعدة التكافل.. نجده فى نفس الوقت حريصا على إمداده بالمبادىء التى تكفل تماسكه واطمئنان أفراده، فأمر بالعدل الذى يضمن لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل لا تميل مع الهوى ولا تتأثر بالود

---

(١) يراجع تفصيل هذا المعنى فى كتابى «السياسة الشرعية» و «الحسبة لشيخ الاسلام ابن تيمية

والبغض ، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب ، والغنى والفقر ، والقوة والضعف ، فليس أخطر على المجتمعات من أن يحتكم الناس فيها إلى شريعة الهوى وأن يكون الحيف والجور هو قاعدة التعامل بين أفرادها.

خطوات التربية :

ومنهج القرآن الكريم فى إرساء قواعد العدل فى المجتمع منهج تربوى، يربى الأمة على الإيمان بالعدل إيمانا يجعله فى قلب المؤمن فى مستوى العقيدة .

فالعدل أولا هو شريعة الكون وأساس نظامه : « والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » (١) .

وبهذا يجعل العدل فى المجتمع جزءاً لا ينفصل عن العدل الذى يقوم عليه نظام الكون .

ورسالات السماء جميعاً كان هدفها إقامة العدل بين الناس : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » (٢)

يقول الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه « إعلام الموقعين » : (إن الله تعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذى قامت به الأرض والسماوات ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان فثم شرع الله ودينه . .

(إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل

---

(١) سورة الرحمن: ٧ ـ ٩

(٢) سورة الحديد: ٢٥

مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ،ورحمته بين خلقه ، وظله فى أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى وصدق رسوله ﷺ أتم دلالة وصدقها) .

والعدل ، إحدى قيم الإسلام التى تنبع أساساً من الإيمان ، وقيم الإسلام كما جاء بها القرآن الكريم ليست أخلاقاً مفردة أو مجردة ،ولا آداباً للسلوك متغيرة أو متطورة إنما هى قيم ثابتة موحدة تنبع من العقيدة وترتفع فى ضمير المؤمن إلى مستوى الإيمان . ففى صحيح مسلم عن سفيان بن عبدالله الثقفى قال : « قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً غيرك قال :«قل آمنت بالله ثم استقم » ، والاستقامة خلق وسلوك يجمع الإيمان والعمل الصالح ، وهو استقامة كل ما يخالج نفس المسلم وما يصدر عنه من أقوال وأعمال ،ولهذا فسرت « الاستقامة» على أنها ثبات جميع الطاقات والنزعات على حدودها بالأمر والنهى أخذاً من قوله تعالى : « فاستقم كما أمرت » . وهذه الاستقامة يجمعها خلق العدالة .

ومن هنا كانت النظرة إلى العدل كقيمة مجردة فى معزل عن الإيمان بعيداً عن مهج الحركة فى إقامة المجتمع ، خطأ منهجياً فى ميزان القرآن الكريم وفى ميزان السيرة ، فقيم الحياة فى القرآن وفى السنة تنبع أساساً من العقيدة وترتبط بها برباط وثيق ، فالإيمان هو الباعث الأساسى لخلق المسلم، والدافع الحقيقى لسلوكه ، والرقيب القائم على ضميره ، وهو بعد ذلك الضمان الأكيد لسلامة تطبيق التشريع فى واقع الحياة.

جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درست (محيت) ليس عندهما بينة ، فقال : إنكم تختصمون إلى وإنما

أنا بشر ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، وإنما أقضى بينكم بما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار ، يأتى بها انتظاماً فى عنقه يوم القيامة .. فبكى الرجلان ، وقال كل منهما : حقى لأخى ، فقال رسول الله ﷺ : أما إذ قلتما فاذهبا فاقتسما ثم ليحلل كل منكما صاحبه .

والعدالة عندما تصبح حالة راسخة فى نفس المسلم وعادة تسير أعمال صاحبها على مقتضاها بصفة مطردة تمنع من قامت به من اقتراف الكبائر .

وكمال العدالة لا يتم إلا إذا اجتمعت لصاحبها خصلة المروءة ، وهى استكمال صفات الرجولة الكاملة ، وخير تفسير لها أن لا تفعل فى سرك ما تستحى أن تفعله جهراً ، وفسرها الفقهاء بأنها تجنب ما فى فعله خسة تغض من فاعله وتذمه عند الناس . وقد جمع بين العدالة والمروءة حديث يقول : « من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءتهم وظهرت عدالته ووجبت أخوته »

والإنصاف من النفس من أجل مظاهر الخلق الكريم وأدلها على رسوخ محبة العدل فى الضمير . والإنصاف هو إعطاء حق الغير طوعاً ، يقال أنصف : إذا أعطى حقاً عليه طوعاً « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » (١) ، وهو داخل فى عموم قول الرسول ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه لا ما يحب لنفسه » و « والكيس من دان نفسه » ، أى حكم عليها وحده وحاسبها وبين لنفسه تقصيرها .

وقد فسر القاضى ابن العربى العدل فى قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل

---

(١) سورة المائدة : ٨

والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »، فوضعه فى مستويات تبدأ من داخل النفس لتنتهى كقاعدة للتعامل بين الناس فى المجتمع .. يقول :

« العدل بين العبد وبين ربه : إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر .

« وأما العدل بينه وبين نفسه : فمنعها مما فيه هلاكها، قال تعالى : « ونهى النفس عن الهوى » وعزوف الأطماع عن الاتباع، ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى .

« وأما العدل بينه وبين الخلق : فبذل النصيحة، وترك الخيانة فيما قل وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا فى سر ولا فى علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى .. (١)

« إن الله عز وجل أراد أن تنشأ العفة من داخل النفس أولا، فينصرف الإنسان عن المعاصى وهو فى خلوته لا يطلع عليه أحد من الناس، ويشعر بأن ربه معه أينما كان مطلع على أعماله، لا تخفى عليه خافية . .

« وإحياء روح الإنسان وضميره وتزكية نفسه، وتطهير قلبه واجب أول فى الإسلام، عليه أكثر المعول فى أن يسلك الإنسان سلوكاً حسناً فى الجماعة التى يعيش فيها (٢)

وقد يبدو أن هناك أناساً ليسوا مؤمنين يتمسكون بالفضيلة ويتحلون

---

(١) عن تفسير القرطبى : الجزء العاشر ص ١٦٦ ط/ القومية :

(٢) تراجع «مجموعة الآسلام والداعية» لفضيلة المرشد العام حسن الهضيبى ـ نشر دار الأنصار القاهرة .

بكريم الأخلاق، ويلتزمون فى الحياة سلوكاً حميداً ، وقد يكون فى ذلك بعض الحق ، ولكنه ليس كل الحق ، فأولئك إن وجدوا فهم قلة نادرة ، ولو أنهم كانوا مؤمنين لسمت أخلاقهم فوق ذلك درجات ، ذلك فى الأفراد ، أما الأمم فإن المجتمعات الظاهرة فى التقدم المدنى والصناعى يصبح الخلق فيها آدابا للسلوك كنوع من تنظيم الحياة ، فنرى دولا تعدل وتصدق فيما بينها ، ولكنها تظلم وتكذب مع غيرها من الشعوب ، وكم سمعنا بالحرية والعدل فى فرنسا ، وبالصدق والأمانة فى بريطانيا ، ورعاية حقوق الإنسان فى أمريكا، ثم رأينا بأعيننا ولمسنا بأيدينا مدى خروج هذه الدول على تلك الأخلاق مع من وقع فى براثن استعمارهم من الشعوب.. إن الخلق حين لا ينبع من العقيدة ولا يرتبط بها يتبع الهوى حتماً ويخضع للمصلحة العاجلة ويتلون بتلون الظروف والأحداث، أما أخلاق القرآن فلها وازع العقيدة وضوابط الإيمان.

فأين – لولا الإيمان – من يعدل فى الرضا والغضب وفى الحب والبغض، وأين – لولا الإيمان – من يفى للقريب والبعيد والعدو والصديق، وأين – لولا الإيمان – من يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة.

فى فتح خيبر جاء رجل من زعماء يهود إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد ، ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟! فغضب النبي ﷺ ونادى للصلاة ، فاجتمع المسلمون وصلى بهم ثم قام فقال : « أيحسب أحدكم متكئا على أريكته أن الله لم يحرم شيئاً إلا ما فى القرآن؟ ألا إنى والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء أنها لمثل القرآن ، ألا إنه لا يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ولا أكل ثمارهم ».

وتم العهد بين المسلمين ويهود خيبر على أن يبقوا فى أرضهم ويؤدوا نصف ثمارها ، وذهب عبدالله بن رواحه ليتسلم منهم نصف الثمار، فأرادوا أن يرشوه

ليقلل من نصيب المسلمين فقال: تطعمونى السحت ؟! والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ، يعنى رسول الله ﷺ ولأنتم أبغض الناس إلى . ولا يحملنى بغضى إياكم على أن لا أعدل فيكم. فقالت يهود: بهذا قامت السماوات والأرض ..

على هذا العدل قام المجتمع الإسلامى الأول ، عرف كل فرد فيه قدره وأحس بمسئوليته وحاسب نفسه ، وراقب الله فى أعماله وأحب للناس ما يحبه لنفسه وكره لهم يكرهه لها . وكانت قيادته أشد إحساساً بالمسئولية وتقديرا للتبعة ونفوراً من الظلم وشعورا بالمساواة ، فهذا رسول الله ﷺ فى نهاية حياته وفى مرض وفاته يقوم فى الناس ليعلنها عدالة مطلقة تنبع من داخل النفس لتعم بخيرها الجماعة كلها، فيقول: « .. من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضى فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالا فهذا مالى فليستقد منه ، لا يقولن رجل إنى أخشى الشحناء من قبل رسول الله ﷺ ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتى ولا من شأنى ألا وإن أحبكم إلى من أخذ حقاً كان له أو حللنى فلقيت الله وأنا طيب النفس فقام إليه رجل فقال : يارسول الله إن لى عندك ثلاثة دراهم . قال : أما إنا لا نكذب قائلا ولا نستحلفه فيم صارت لك عندى ؟ قال: تذكر يوم مر بك مسكين فأمرتنى أن أدفعها إليه ، فقال . ادفعها إليه يافضل »

وحينما حاول الإسلام أن يحقق العدل فى المجتمع ، ارتفع به عن أن يكون عدلا اقتصادياً محدوداً ، وأن يكون التكليف وحده هو الذى يكفله ، فجعله عدلا إنسانياً شاملا ، وأقامه على ركنين قويين : الضمير البشرى من داخل النفس والتكليف القانونى فى محيط المجتمع وزاوج بين هذه القوة وتلك ، مثيراً فى الوجدان الإنسانى أعمق انفعالاته ، غير غافل عن ضعف الإنسان وحاجته إلى الوازع الخارجى كما يقول الخليفة الراشد

سيدنا عثمان بن عفان « يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن .

لقد أولى الإسلام ثقته بالضمير البشرى بعد تهذيبه ، فأقامه حارساً على التشريعات ينفذها ويرعاها ، وجعل تنفيذ الكثير منها فى ضمانه ، وفى الوقت نفسه لم يدع هذا الضمير لذاته ، وهو يدعوه للسمو فوق ما يوجبه التشريع والتكليف . . لقد أقام عليه رقيباً من خشية الله ، يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » (١)

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية : أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أى بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم فى الله لومة لائم ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين فيه . . اشهد الحق ولو عاد ضرر الشهادة عليك : وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك فأن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً من كل أمر يضيق عليه . وقوله : « أو الوالدين والأقربين » أى وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم فإن الحق حاكم على كل أحد وقوله : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » أى لا ترعاه لغناه ولا تشفق عليه لفقره ، فالله يتولاهما ، بل هو أولى بهما منك ، وأعلم بما فيه صلاحهما وقوله : « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » أى فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل فى أموركم وشئونكم ، بل الزموا العدل على كل حال » .

---

(١) سورة النساء : ١٣٥

وجاء التصريح القرآني جلياً واضحاً في نهى المسلم عن الوقوع في الظلم تدفعه إلى ذلك مشاعر الكراهية والعداوة : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » (١) .

وهذا التكليف شاق في تطبيقه على النفس البشرية ، لا يحس مشقته إلا من ذاق مرارته ، ولقد تعرض المسلمون لتجربة التطبيق التربوية وهم منصرفون من الحديبية ، إذ سنحت لهم فرصة الانتقام من بعض مشركي مكة ، وحدث بعض المسلمين بعضهم بعضاً في هذا الانتقام ، فردهم الله تعالى إلى الحقيقة التي كادوا ينحرفون عنها . . وهم ميزان الله بين الناس رباهم في حجر رسوله على القيمة الثابتة ، قيمة العدل الخالص المطلق الذي لا يتأثر ببغض ولا عداء ، فنزل قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » (٢) .

وجاء في حديث قدسي يرويه الرسول الكريم عن الله عز وجل يقول : « ياعبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا »

ولقد كانت العصبية الجاهلية هي الأصل عند مشركي العرب ، الذي تنبثق منه القيم ، والأساس التي يقوم عليه السلوك ، فكانت شريعتها في قولهم : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » . وهي شريعة العصبية الصارخة التي لا تعرف حقاً ولا عدلا ، فجاء النبي ﷺ فعدلها وجعلها من شريعة الاسلام ، ومن موازين العدل ، ومن أسباب حمايته في المجتمع فقال : «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » .. قيل يارسول الله ، هذه نصرته مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً؟ قال : « تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه » رواه البخاري

---

(١) سورة المائدة : ٨ (٢) سورة المائدة : ٢

وحين اتهمت المرأة المخزومية بالسرقة ، حاول قومها أن يتلمسوا لها «واسطة» لإعفائها من إقامة الحد عليها خشية العار ، لأنهم - أى بنى مخزوم - فى الندوة من قريش ، فقالوا نكلم حب رسول الله ﷺ أسامة بن زيد ليكلمه ، فلما توسط أسامة ، غضب الرسول ، وقال : « ويحك يا أسامة ، أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟! » .. وخطب فى الناس فى المسجد فقال : « إنما أهلك الذين كانوا من قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها - رواه البخارى[1] .

الشريعة . . وقواعد التكافل والعدل

● حرية التملك :

يقرر الإسلام حق الملكية الفردية للمال بوسائل التملك المشروعة ..

وإنما يقرر الإسلام حق الملكية الفردية ليحقق العدل بين الجهد والجزاء ، فوق أنه بذلك يساير الفطرة ويلبى الميول الأصيلة فى النفس البشرية ، تلك الميول التى يحسب لها المنهج الإسلامى كل حساب فى إقامة نظام المجتمع ، فوق ما يحقق من العزة والكرامة والاستقلال ونمو الشخصية بحيث يصلحون أن يكونوا أمناء على هذا الدين ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويحاسبون السلطة الحاكمة وينصحونها ، دون خوف من انقطاع أرزاقهم لو كانت تحت سطوتها وفى يديها!

والعدل يقتضى أن يلبى النظام أشواق الفرد ويرضى ميوله - فى الحدود

---

(١) عن كتاب « قيم الحياة فى القرآن الكريم » للأستاذ محمد شديد (بتصرف)

التى لاتضر الجماعة ـ جزاء ما بذل هذا الفرد من طاقته وجهده وعرق جبينه وكدح فكره وكد أعصابه ، فالعدل أكبر قواعد الإسلام يعم خيره الفرد والجماعة على السواء ..

وإذا كان الإسلام قد أعطى الإنسان حرية التملك من الطريق الذى شرعه له ، ولم يلجأ إلى تحديد التملك بالكم كما تفعل الاشتراكيات ، وإنما حددها بالكيف بأن بيّن الأسلوب المشروع للتملك عن طريق العمل والإرث ، وإعطاء الدولة من أموالها للرعية ، والعقود الناقلة للملكية كالبيع والهبة ، وانتقال المال من فرد إلى فرد من غير مقابل كالوصية .. الخ

هذا وقد حرم الإسلام التملك من طريق غير مشروع ، كالقمار « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون »(١) . والربا مهما كانت نسبته ومهما كان شكله أو مسمياته وأنواعه فهو حرام لايجوز التملك عن طريقه ، قال تعالى : « أحل الله البيع وحرم الربا »(٢) ويقول الرسول ﷺ : « الربا ثلاثة وسبعون بابا أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه ، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم » رواه البخارى . والغبن الفاحش وهو الخداع فى البيع بأن يبيع الشىء بأكثر مما يساوى أو بأقل مما يساوى حرام ، قال عليه السلام : « إذا بايعت فقل لاخلابة » متفق عليه والخلابة الخداع ، والتدليس فى البيع بأن يكتم البائع العيب الذى فى السلعة على المشترى مع علمه به ، أو يغطى العيب عنده بما يوهم المشترى أن السلعة سليمة من العيوب أو يعرض السلعة بإظهار أنها حسنة كلها ، وهذا كله حرام ، قال عليه السلام : « من غش فليس منا » و« البيعتان

---

(١) سورة المائدة : ٩٠-٩١ (٢) سورة البقرة : ٢٧٥

بالخيار مالم يتفرقا ، فإن تفرقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

وحرم الإسلام كذلك أكل السحت من المال ، قال ﷺ : « لا يدخل الجنة لحم نبت من السحت ومن نبت من السحت كانت النار أولى به » . ومن السحت أن يبيع ماحرمه الله كالخنزير والخمر ، وتعاطى الرشوة .

وحرم كذلك الاحتكار مطلقاً : « المحتكر ملعون والجالب مرزوق » فالاحتكار وسيلة غير مشروعة للكسب فى أى نوع من أنواع الطعام والأشياء من غير فرق بين قوت وغيره ، كاليا أو غير كالى لأن معنى الاحتكار عام ، والأحاديث النبوية جاءت مطلقة ، وما ورد مخصصاً فلبيان بعض أنواع مايحتكر فيه ، لمصلحة الجماعة .

فإذا حدد الإسلام وسائل الكسب الحلال ، وبين وسائل الكسب الحرام ، وتقيد المسلم بهذا ، تبين لنا أن التفاوت فى الثروات يقل ، والاستغلال يمتنع ، فالمنهج الإسلامى فى التملك حل عدل بين الشيوعية التى تمنعه مطلقاً والرأسمالية التى تبيحه من أى طريق كان .

وقد قيد الإسلام كل أشكال التعامل بالتراضى ، إذ أنه الركن الأول لجميع المبادلات والأصل فيه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم »(١) .. كما قيد الإسلام التملك بعدم الاعتداء على مال الغير وأخذه من مالكه بغير حق وأن لا يكون فيه إضرار بالآخرين .

فالإسلام وهو يقرر حق الملكية الفردية ، يقرر فى الوقت نفسه أن

---

(١) سورة النساء : ٢٩

الفرد أشبه شيء بالوكيل فى هذا المال عن الجماعة ، وأن حيازته له إنما هى وظيفة أكثر منه امتلاكا ، وأن المال فى عمومه إنما هو أصلا حق للجماعة والجماعة مستخلفة فيه عن الله الذى لا مالك لشيء سواه ، والملكية الفردية تنشأ من بذل الفرد جهداً خاصا لحيازة شيء معين من هذه الملكية العامة التى استخلف الله فيها جنس الإنسان .

● فريضة الزكاة

الزكاة هى الركن الاجتماعى البارز من أركان الإسلام ..

والزكاة تعنى الطهارة والنماء ، فهى طهارة للنفس بأداء الحق المفروض ، وطهارة لها من فطرة الشح وغريزة حب الذات ، وهى طهارة للمال بأداء حقه وصيرورته بعد ذلك حلالا . .

والزكاة حق الجماعة عند الفرد لتضمن لطوائف منها الكفاية حينـا وشيئاً من المتاع بعد الكفاف حيناً آخر .. ذلك أن الإسلام يكره للناس الفقر والحاجة ، ويكره أن تكون الفوارق بين أفراد الأمة بحيث تعيش منها جماعة فى الترف وتعيش أخرى فى الشظف والحرمان ، والأمة التى تكون على هذه الحال تفقد صفة الإيمان لقول الرسول ﷺ « أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً ، فقد برئت منهم ذمة الله » (١) و« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيـــه ما يحب لنفسه » .. يكره الإســـلام هذه الفوارق لما وراءها من أحقاد أضغان تحطم أركان المجتمع ؛ ولمـا فيها من أثرة وجشع وقسوة تفسد النفس والضمير ، ولما قد تؤدى بالمحتاجين : إما إلى السرقة والغصب ، وإما إلى الذل وبيع الشرف والكرامة . وكلها منحدرات

---

(١) رواه أحمد فى المسند

يتجافى الإسلام بالجماعة عنها .

ويكره الإسلام أن يكون المال دولة بين الأغنياء فى الأمة ، وألا تجد الكثرة ماتنفق . لأن ذلك ينتهى إلى تجميد الحياة والعمل والانتاج فى الأمة .

لهذه المعانى جميعاً شرع الله الزكاة ، وجعلها فريضة ،وحقاً لمستحقيها، لا تفضلا من مخرجيها ، فالمال مال الله وملكية البشر له ملكية خلفاء لا أصلاء، فما يعطونهم هذا المال من ملكهم ، ولكنهم يعطونهم من مال الله وهم فيه وسطاء ، قال تعالى : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (١) وقال : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم» (٢) .

أما المستحقون فهم كما حددتهم الآية الكريمة فى سورة التوبة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » .

١ـ الفقراء : وهم الذين يملكون أقل من النصاب ،ويقدر بعشرين مثقالا تقدر بحسب القوة الشرائية للعملة ، والإسلام يريدأن ينال الناس كفايتهم ليتحقق لهم العيش الكريم .

٢ ـ والمساكين : وهم الذين لايملكون شيئاً، وهم بطبيعة الحال أجدر بالعطاء من الفقراء ، وجاء ذكر الفقراء قبلهم فى الآية يرمى إلى أن وجود شىء قليل للفقراء لايكفى فكأنهم كالمساكين ، لأن هدف الإسلام ليس مجرد الكفاف الضرورى ، ولكن شىء فوق الكفاف .

٣ ـ والعاملين عليها : وهم القائمون على جمعها ، يعطون جزاء العمل .

٤ ـ والمؤلفة قلوبهم : وهم من كانوا قد دخلوا فى الإسلام حديثاً ،

---

(١) سورة الحديد:٧ (٢) سورة النور ٣٣

لتقوية قلوبهم واجتذاب من عداهم، ولكن هذا المصرف قد أقفل بعد أن أعز الله الإسلام عقب حروب الردة فى خلافة الصديق .

٥ ـ وفى الرقاب : وهم الأرقاء المكاتبون يستردون حريتهم نظير قدر من المال متفق عليه مع مالكيهم تيسيرا لهم لينالوا حريتهم .

٦ ـ والغارمين : وهم الذين استغرق الدين ثروتهم ، على ألا يكون هذا الدين بسبب إنفاق فى معصية أو معيشة مترفة ؛ وإعطاء هؤلاء حصة من الزكاة لسداد ديونهم ، فيه إعانة لهم على الحياة العزيزة فى ظل المجتمع الإسلامى ، وفيه تخليص لنفوسهم من عذاب الدين وهمومه .

٧ ـ وفى سبيل الله وهو مصرف عام تحدده الظروف ، ومنه تجهيز المجاهدين ، وعلاج المرضى وتعليم العاجزين عن التعليم ، وسائر ما تختص به مصلحة للمجتمع المسلم ، والتصرف فى هذا الباب يتسع لكل عمل اجتماعى فى مختلف البيئات والظروف.

٨ ـ وابن السبيل : وهو المنقطع عن ماله الذى لا يجد ماينفق ، كالمهاجرين فى وقت الحروب والغارات والاضطهاد ، الذين تركوا أموالهم فى مواطنهم ولا سبيل لهم إلى هذه الأموال .

والاسلام لا يعطى هذه الطوائف حقها فى الزكاة إلا بعد أن تستنفد وسائلها الخاصة فى الكسب ، فالمنهج الاسلامى حريص على الكرامة الإنسانية لذلك حث على الاستغناء عن طريق العمل ؛ وجعل من واجب جماعة المسلمين أن تهىء العمل لكل فرد فيها ، فقد جاء سائل إلى النبى ﷺ يستجديه ، فأعطاه درهما وأمره أن يشترى به حبلاً ليحتطب به فيعيش من عمل يده ، وقال : « لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه » .

إن الزكاة هي قاعدة المجتمع المتكافل المتضامن الذي لا يحتاج إلى ضمانات النظام الربوي في أي جانب من جوانب حياته .

وقد بهتت صورة الزكاة ، في حسنا وحس الأجيال التعيسة التي لم تشهد تطبيقاً لنظام الإسلام ، الذي يقوم على أساس الإيمان والتربية الإيمانية والأخلاق الإيمانية ، فيصوغ النفس البشرية صياغة نظيفة ، ويجعل الزكاة قاعدة هذا النظام التي تدفع الحياة إلى النماء والاقتصاد إلى الارتقاء عن طريق الجهد الفردي ، والتعاون الخالص ، في مقابل نظام الجاهلية الذي يقوم على القاعدة المادية الربوية ، والفردية والأثرة التي تحكم ضمائر الناس .

.. لقد بهتت صورة الزكاة حتى أصبحت أجيالنا تحسبها إحساناً فردياً هزيلاً ، لا ينهض على أساسه نظام عصري ، فكم هي ضخمة حصيلة الزكاة وهي تتناول اثنين ونصفا في المائة من رؤوس الأموال ويؤديها الناس الذين يربيهم الإسلام تربية خاصة بالتوجيه والتشريع ، وتجعلها الدولة المسلمة حقاً مفروضاً ، لا إحساناً فردياً ، وتكفل بها كل من تقصر به وسائله الخاصة من الجماعة المسلمة ، حيث يشعر كل فرد أن حياته وحياة أولاده مكفولة في كل حاله ، وحيث يقضى على الغارم المدين دينه من حصيلة الزكاة (١) .

● **الميراث :**

جاءت الآية ١١ من سورة النساء تفصل أحكام الإرث وتبين نصيب كل وارث من الأصول والفروع . وقد أكملت أحكام الإرث بالآية ١٢ من السورة نفسها ، وبالآية ١٧٦ وهي آخر آية من السورة .

---

(١) يراجع بتوسع كتاب « العدالة الاجتماعية في الإسلام » للأستاذ سيد قطب .

ـ وقد فصل سبحانه نصيب الفروع من أصلهم بقوله تعالى: « يوصيكم الله فى أولادكم.. »

ـ وفصل نصيب الأبوين من ولدهما بقوله تعالى « ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك .. »

ـ وفصل نصيب أحد الزوجين من الآخر بقوله تعالى : « ولكم نصف ماترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد . »

ـ وفصل نصيب الإخوة والأخوات لأم بقوله تعالى : « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت .. »

ـ وفصل نصيب الإخوة والأخوات الأشقاء أو لأب بقوله تعالى : « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة» إن أمرؤ هلك . »(١)

وقد أفاض الفقهاء فى ترتيب المستحقين للتركة بعد الديون والوصايا ، وفى بيان أحوال أصحاب الفروض على التفصيل ، وفى الإرث بالتعصيب وإرث ذوى الأرحام .. إلى آخر هذه الأحكام .

ويلاحظ فى نظام الإرث فى شريعة الإسلام ، أنه يحقق :

● العدل فى الجهد والجزاء

جاءت شريعة الله فى الميراث ، لتجعله ـ فى الأصل ـ حقاً لذوى القربى حسب مراتبهم وأنصبتهم كما بينتها آيات القرآن الكريم والسنة المطهرة . . وذلك تمشياً مع نظرية الإسلام فى التكافل والعدل بين أفراد الأسرة الواحدة، وفى التكافل الإنسانى العام . وحسب قاعدة الغنم بالغرم .. فالقريب مكلف إعالة قريبه إذا احتاج ، والتضامن معه فى دفع الديات عند القتل والتعويض عند الجرح ، فعدل إذن أن يرثه إن ترك مالا ـ بحسب درجة قرابته وتكليفه ، والإسلام نظام متكامل متناسق ويبدو تكامله وتناسقه

(١) الكلالة : من لا ولد له ولا والد

واضحاً فى توزيع الحقوق والواجبات .

إن قاعدة هذا النظام هى التكافل والعدل . . ولكى يقوم هذا التكافل على أسس وطيدة راعى أن يقوم على أساس الميول الفطرية الثابتة فى النفس البشرية ، وهذه الميول التى لم يخلقها الله عبثاً فى الفطرة ، إنما خلقها لتؤدى دوراً فى الحياة الإنسانية.

ولما كانت روابط الأسرة ـ القريبة والبعيدة ـ روابط فطرية حقيقية ، لم يصطنعها جيل من الأجيال ولا مجتمع من المجتمعات، فقد جعل الإسلام التكافل فى محيط الأسرة هو حجر الأساس فى بناء التكافل الإسلامى العام . وجعل الإرث مظهراً من مظاهر ذلك التكافل فى محيط الأسره ،فوق ماله من وظائف أخرى فى النظام الاقتصادى والاجتماعى العام.

فشعور الفرد بأن جهده الشخصى سيعود أثره على ذوى قرابته ـ وبخاصة ذريته ـ يحفزه إلى مضاعفة الجهد ، فيكون نتاجه للجماعه عن طريق غير مباشر ، لأن الإسلام لا يقيم الفواصل بين الفرد والجماعة ، فكل ما يملك الفرد هو فى النهاية ملك للجماعة كلها عندما تحتاج .

ثم إن العلاقة بين المورث ـ وبخاصة الذرية ـ ليست مقصورة على المال، فإذا نحن قطعنا وراثة المال ، فما نحن بمستطيعين أن نقطع الوشائج الأخرى والوراثات الأخرى بينهما .

إن الوالدين والأجداد والأقرباء عامة ، لا يورثون أبناءهم وأحفادهم وأقاربهم المال وحده، إنما يورثونهم كذلك الاستعدادات الخيرة والشريرة ، والاستعدادات الوراثية للصحة والمرض، والانحراف والاستقامة ، والحسن والقبح ، والذكاء والغباء .. الخ : وهذه الصفات تلاحق الوارثين وتؤثر فى حياتهم ، ولا تتركهم أبداً ، فمن العدل إذن أن يورثوهم المال..

من أجل هذه الواقعيات الفطرية والعملية فى الحياة البشرية ومن أجل غيرها وهو كثير من المصالح الاجتماعية شرع الله قاعدة الإرث .

● كفالة حق المرأة :يقول تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » ، فكانوا فى الجاهلية لا يورثون البنات ولا الصبية - فى الغالب - إلا التافه القليل ، لأن الجاهلية كانت تنظر الى الأفراد حسب قيمتهم العملية فى الحرب والانتاج ، أما الأسلام فجاء بمنهجه الربانى، ينظر الى «الانسان» أولا حسب قيمته الانسانية ، وهى القيمة الأساسية التى لا تفارقه فى حال من الأحوال ! فقرر أن النساء كالرجال لكل منهم نصيب مفروض فى تركه من مات من والديهم وأقاربهم قليلها وكثيرها.

هذا وقد نهى الله فى هذه السورة عن كثير من مظاهر العسف الواقع على المرأة فى الجاهلية قال تعالى : «لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولاتعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » وقال تعالى «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة » .

وإذا كان الله قد جعل «للذكر مثل حظ الأنثيين»فليس الأمر أمر محاباة لجنس على حساب جنس ، إنما الأمر أمر توازن وعدل بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى فى التكوين العائلى ، وفى النظام الاجتماعي الإسلامي: فالرجل يتزوج إمرأة ويكلف بإعالتها وإعالة أبنائها منه فى كل حالة ، وهى معه وهى مطلقة منه . أما هى فإما أن تقوم بنفسها فقط ، وإما أن يقوم بها رجل قبل الزواج وبعده سواء ، وليست مكلفة نفقة للزوج ولا للابناء فى أى حال . . فالرجل مكلف -على الأقل- ضعف أعباء المرأة فى التكوين العائلى وفى النظام الاجتماعى الإسلامى . ومن ثم يبدو العدل، كما يبدو التناسق

بين الغنم والغرم فى التوزيع الحكيم ، ويبـــدو كل كلام فى هذا التوزيع جهالة من ناحية وسوء أدب مع الله من ناحية أخـرى ، وزعزعة للنظـام الاجتماعى والأسرى لا تستقيم معها حياة !

ولا ريب بعد ذلك فى أن هذا التوزيع الحكيم ـ وما اشتمل عليه من حساب دقيق يلفت الأنظار الى ما يربى عليه الإسلام أبنـاءه من تحرٍ للعدل وتجويد للعلم حتى يتحقق هذا التوزيع لذلك اشتهر من بين المسلمين من تخصص في الأنصبة والمواريث ، بما توفر فيهم من عقليات رياضية. وفقهية ولا يخفى أن نزول الوحى بآيات تتناول الحساب والأرقام ويتوالى فيهـا فيها ذكر النسب والكسور ، وتضمين هذا كتابا يتعبد المسلمون بتلاوته، من الدلائل الكبرى على شمول هذا الدين للعقل والعدل والواقع وإتاحته المسلم نظرة بصيرة وأفقاً واسعاً ونفساً سوية مطمئنة فى تعامل مع طيبات الحياة وواقع الأحداث . .

• الوصية :

عن سعد بن أبى وقاص أنه كان مريضا فعاده النبي ﷺ، فقال يارسول الله : أأوصى بكل مالى ؟ قال : لا . قال أأوصى بالثلثين ؟ قال : لا . قال أأوصى بالنصف ؟ قال : لا . قال: أأوصى بالثلث ؟ فقال النبى ﷺ: الثلث والثلث كثير ، إنك إن تدع ورثتك أغنيـــاء خير من أن تدعهم يتكففون الناس . وفى هذا وفاء بالحق الخاص : حق الأسرة كوحدة اجتماعية تقوم على التعاون والتكافل ، وفى الوقت نفسه وفاء بالحق العام : بما لا يحيف بأحد الحقين ، إذ أن النفع المرجو من وراء كليهما عائد على الناحية الأخرى

ويشترط ألا يكون الموصى له وارثاً للموصى للحديث: «لا وصية لوارث إلا إذا أجازها الورثة » وعللوا ذلك بأن إيثار بعض الورثة على بعض فيه

تحايل على زيادة النصيب الذى فرض الله له بما يطفف نصيب الغير، وهذا يتنافى مع العدل أولا ، ويهدد سلامة وحدة الأسرة بما يجره من أحقاد ثانيا .

وهناك نوع من الرعاية تدخل فى نطاق الشريعة نص عليها القانون المصرى للاطفال الذين يموت أحد أبويهم فى حياة أبيه أو أمه، وذلك أنه لوحظ أن الأطفال الذين يموت أبوهم فى حياة أبويه يحرمون من ميراث جديهم، فيكونون فى حال ضعف وحاجة الى المال بينما أعمامهم وأخوالهم فى حال يسر واضح بما آل إليهم من مال أحد أجدادهم، وقد كان الأب أو أو الأم بتوجيه أهل الخير من المتصلين بالأسرة يعطى أولاد ابنه المتوفى قدرا من ماله يكون قريبامما كان يستحق أبوهم وقد يمتنع الكثيرون من ذلك فأوجب لهم القانون المصرى الوصية بمقدار ما يرثه المتوفى بشرط ألا يزيد من الثلث استنادا إلى رأى لبعض الفقهاء والأصل القرآنى الذى يقول : «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين »

* * *

هكذا كان التكافل والعدل وحسن التعامل من قوام الحياة الاجتماعية التى جاء بها الاسلام الحنيف فماذا فعلت المطامع والأهواء والنظم الأرضية المادية التى طلعت بها أوربا على الناس يوم أن انتهت إليها وإلى حكماء صهيون قيادة البشرية؟

لقد بدلت نعمة الله كفراً، وأحلت التنافر والتخاصم محل هذا التكافل والتعاون فى البيوت إنهمت، المرأة أنها إن عاشت فى كنف الرجل وفى وفاق معه فقدت شخصيتها وقضت على حريتها ، فثارت المرأة على هذا الذى لا يمكن عقلا وعملا أن تسعد بغيره ، والتمست سعادتها فى المعامل والمصانع ،

والملاهى والمفاتن ، وتمثلت الرجل عدوا يغتصب حقوقها ويعتدى على كيانها ، فتمردت عليه حليلا يرعى حقها ، ويؤدى واجبه نحوها ، ولكنها لم تستغن عنه . فأسلمت نفسها إليه خليلا يعبث بها وتعبث به .

« وبدلت نعمة الله كفرا ، وأحلت التنافر والتخاصم محل هذا التكافل والتعاون فى الشعوب والمجتمعات ، فأمدت للغنى فى أسباب الجشع والطمع والثروة والمتع ، ثم أفهمت الفقير أنه مظلوم مهضوم وأن الغنى يمتص دمه ويثرى على حساب مجهوده ، فأشعلت بذلك نيران الحرب بين الطبقات ؛ وغذتها بما وضعت وأنشأت من نظم وتشريعات أو قوانين ونقابات ، تنتصر للفقراء إذا اشتعلت ثورتهم ، وتمالىء الأغنياء إذا عظمت رشوتهم ، وتتذبذب بين هؤلاء وأولئك إذا أظلمت السبل واختلطت المسالك ، حتى ينتهى الأمر إلى ثورات جامحة ونفوس طامحة تعصف بالنظم والأوضاع جميعا » .

« وبدلت نعمة الله كفراً وأحلت التنافر والتخاصم ، محل هذا التكافل والتعاون فى الدول والحكومات ، فافترضت الحكومة حزباً يلتمس لنفسه المغانم ، ويسوق إلى مناصريه ومؤيديه المنافع كما يجر على معارضيه المغارم ، وأقامت من الأمة قسماً آخر ينظر إلى الحكومة نظر الطير إلى الصائد ، لا نظر الجندى إلى القائد ، ويرى كل ما يصدر عنها بعين الساخط الناقد لا الناصح المساعد ، ويتربص بها الدوائر تطلعاً إلى كرسى الحكم وحرصاً على ما يدره من فائدة وغنم ، واعتبرت هذا الوضع الفاسد أساساً الديمقراطية ، ومظهراً للحرية وما هو إلا قضـــاء على الوحدة وتمزيق الكلمة .

* * *

« فيا أيها الذين تحاولون أن تقيموا عالم الغد ، حذار أن تقيموه على هذه الأسس الواهية ، فتزل قدم بعد ثبوتها ، ويأتى الله بنيانكم من القواعد ، فيخر عليكم السقف من فوقكم فتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله . . ولكن هلموا إلى هدى الله ووحى السماء ، ففيه النور والضياء والسعادة والشفاء »(١)

(قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم) .

---

(١) من كلمات الامام الشهيد حسن البنا ، فى كتاب « منبر الجمعة » نشر دار الدعوة بالاسكندرية .

الخاصية الثامنة :

التميز

ثمرة التربية القرآنية

من أخص خصائص التربية القرآنية ، أنها تؤصل روح التميز التام للأمة المسلمة فى القول والعمل وكل نواحى السلوك .. تميزاً يبتعد بها عن كل تشبه بغيرها من الأمم المخالفة لها فى العقيدة والخلق والاتجاه ، فى كل شأن يمس وجودها المتفرد وأوضاعها الاجتماعية وطابع شخصيتها العامة ..

إن الشعور بالتميز يصون فى الأمة مقومات وجودها ، ويقيم لها كياناً راسخاً صلباً ، لايعتريه تصدع ، أو ينفذ إليه ضعف أو خلل ، مادام هذا الشعور مستنداً إلى الحق ، منبثقاً من جوهر العقيدة وأصولها الثابتة ، متصلا بالشريعة وأحكامها بأوثق صلة ..

والشعور بالتميز ، فى آثاره الفكرية والنفسية ، يؤصل ويعمق ماينبغى أن يكون عليه المسلم من كراهية للكفر والشرك ونفور منه ، وتباعد عن طريقه المنحرف وسيره الشاذ وأهدافه الهابطة ..

- فالمسلم الحق يتميز بعلوه .. سنداً ومصدراً ، فمن الله يتلقى ، وإليه سبحانه يرجع ، وعلى منهجه يسير .

- والمسلم الحق يتميز بعلوه .. إدراكا وتصوراً لحقيقة الوجود .

والمسلم الحق يتميز بعلوه .. تصوراً للقيم والموازين التى توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص .

- والمسلم الحق يتميز بعلوه .. ضميراً وشعوراً ، وخلقاً وسلوكا .

تميز المسلم فى أهدافه وغاياته :

إن الهدف الأخير للتربية القرآنية ، هو إعطاء الجماعة المسلمة خصائص الأمة المستخلفة ، وشخصيتها المستقلة ، المستقلة بقبلتها ، وبشرائعها المصدقة لشرائع الديانات السماوية قبلها والمهيمنة عليها ، وبمنهجها الجامع الشامل المتميز كذلك .. وقبل كل شىء بتصورها الخاص للوجود والحياة ، ولحقيقة ارتباطاتها بربها ، ولوظيفتها فى الأرض ، وماتقتضيه هذه الوظيفة من تكاليف فى النفس والمال ، وفى الشعور والسلوك ، ومن بذل وتضحية ، وتهيؤ للطاعة المطلقة للقيادة الإلهية ، الممثلة فى تعليمات القرآن الكريم ، وتوجيهات النبى ﷺ ، وتلقى ذلك كله بالاستسلام والرضى ، وبالثقة واليقين .

إن المسلم الحق ، إنسان متميز تميزاً تاماً عن غيره فى كل شىء ، فهو متميز منذ البداية فى عقائده وعبادته ومناهج حياته ، وفى هدفه النهائى وهدفه القريب .

فإذا كان هدف غير المسلم هو الحياة الدنيا ، فى لهوها ولعبها ، وزينتها وتفاخرها وتكاثرها ، وذهبها وفضتها ومتاعها ، فإن هدف المسلم النهائى هو الآخرة وهو من الدنيا على حذر .

وإذا كان هدف غير المسلم فى الحياة الدنيا من عمله الاجتماعى أو السياسى أو الإصلاحى ـ فى زعمه ـ هو تحقيق تقدم مادى ، أو تعميم شهوة ، فإن الهدف العام للمسلم فى عمله العام ، إقامة دولة الإسلام وحمايتها حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله .

يقول الإمام البنا رحمه الله : (إن القرآن حدد غايات الحياة ومقاصد الناس فيها ، فبين أن قوماً همهم من الحياة الأكل والمتعة ، فقال تبارك وتعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى

لهم » وبين أن قوماً آخرين مهمتهم الزينة والعرض الزائل ، فقال تبارك وتعالى : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » . وبين أن قوماً آخرين شأنهم فى الحياة إيقاد الفتن وإحياء الشرور والمفاسد أولئك الذين قال الله فيهم : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد » .. تلك مقاصد الناس فى الحياة نزه الله المؤمنين عنها وبرأهم منها وكلفهم مهمة أرقى ، وألقى على عاتقهم واجباً أسمى ، ذلك الواجب هو : هداية البشر إلى الحق ، وإرشاد الناس جميعاً إلى الخير ، وإنارة العالم كله بشمس الإسلام ، فذلك قوله تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » .

ومعنى هذا أن القرآن الكريم يقيم المسلمين أوصياء على البشرية القاصرة ، ويعطيهم حق الهيمنة والسيادة على الدنيا لخدمة هذه الوصاية النبيلة ، وإذن فذلك من شأننا لا من شأن الغرب ولمدنية الإسلام لا لمدنية المادة .

ثم بين الله تبارك وتعالى أن المؤمن فى سبيل هذه الغاية قد باع نفسه وماله فليس له فيها شىء ، وإنما هى وقف على نجاح هذه الدعوة وإيصالها إلى قلوب الناس وذلك قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . ومن ذلك نرى أن المسلم يجعل دنياه وقفاً على

دعوته ليكسب آخرته جزاء تضحيته ..)(١)

هذه هى الصورة المتميزة للانسان المسلم ، يطالعنا بها القرآن الكريم كثمرة لمنهجه فى التربية .. إنها صورة الإنسان الربانى ، الذى يعيش فى رباط دائم وجهاد مستمر مع نفسه ومع الناس حتى يستقيم الجميع على منهج الحق ..

• فهو فى جهاد مع النفس .. يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق ، يجاهدها للعمل بالهدى ودين الحق ، يجاهدها للدعوة إلى الهدى وتعليمه لمن لا يعلمه وتربيته عليه ، ويجاهدها للصبر على مشاق الدعوة إلى الله والصبر على أذى الخلق وهو يقوم بمهام الدعوة .

• وهو فى جهاد مع الشيطان .. يجاهده على دفع ما يلقى إلى الإنسان من الشبهات والشكوك القادحة فى الإيمان حتى لا يصل المؤمن إلى اليقين الذى تنتج عنه الاستقامة الكاملة على منهج الله ، يجاهده لدفع ما يزينه للمؤمن من أنواع الأعمال المنحرفة ليقع فيها ويبوء بإثمها ، ويكون هذا الجهاد بالصبر على الاستقامة على منهج الله ، وعدم الانحراف إلى غيره .

• وهو فى جهاد مع الظلمة ، وأصحاب البدع والمنكرات فى المجتمع الإسلامى لتقويمهم .

• وهو فى جهاد مع الكفار والمنافقين : لهدايتهم ، ويكون بالقلب واللسان والمال والنفس (٢) .

• • •

---

(١) رسالة : « إلى أى شىء ندعو الناس » . للامام حسن البنا .

(٢) زاد المعاد : للامام ابن القيم - جـ ٢ ص ٣٩ وما بعدها (بتصرف) .

تميز المسلم فى طريقه :

والمسلم عندما يتميز فى أهدافه القريبة والبعيدة ، فالطريق الذى يسكن لتحقيق هذه الأهداف طريق متميز مستقل ، أرشده الله عز وجل إلى هذه الحقيقة فى سورة الفاتحة ، أول سور القرآن التى يكررها فى صلاته سبع عشر مرة فى كل يوم وليلة على الحد الأدنى : « إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

فطريق المسلم المتميز ، هو طريق الأنبياء والمرسلين ، ولا يرضى أن يسلك طريق غيرهم ، سواء كانوا أهل كتاب يهودا أو نصارى أو أهل الملل والفلسفات والمذاهب والأديان الكافرة الأخرى .

إن طريق المسلم هو طريق الله الذى دل عليه كل نبى لله وكل رسول ، ووضحه كاملا خاتم الرسل محمد ﷺ : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » .

سأل رجل سيدنا عبد الله بن مسعود : ما الصراط المستقيم ؟ قال : تركنا محمد فى أدناه وطرفه فى الجنة وعن يمينه جواد[1] - طرق - وثم رجال يدعون من مر بهم ، فمن أخذ فى تلك الجواد - الطرق - انتهت به إلى النار ، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة ثم قرأ « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل ، فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »

وعن النواس بن سمعان قال ؛ قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى

---

(١) جواد (جمع) ومفردها : جادة ، أى السبيل أو الطريق .

ضرب مثلا صراطاً مستقيما على كتفى الصراط داران ـ وفى روايةسوران ـ لهما أبواب مفتحة وعلى الأبواب ستور ، وداع يدعو على رأس الصراط ، وداع يدعو فوقه« والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

فالأبواب التى على كتفى الصراط حدود الله ، فلا يقع أحد فى حدود الله تعالى حتى يكشف الستر ، والذى يدعو من فوقه واعظ ربه » ـ أخرجه الترمذى .

وفسره رزين فى حديث رواه عن ابن مسعود :

ـ أن الصراط هو : الإسلام .

ـ وأن الأبواب : محارم الله .

ـ والستور : حدود الله .

ـ والداعى على رأس الصراط : القرآن .

ـ والداعى فوقه : واعظ الله فى قلب كل مؤمن .

∴ فهذا طريق متميز ، لا يشبه طريقاً ولا يشبهه طريق : طريق الله المستقيم .

مخالفة الكفرة والمشركين :

إن تقليدالمسلمين ـ سواء كان فردياً أم جماعياً ـ لطريقة حياة المشركين والكفرة ، لهو بلا ريب من أقوى الأسباب التى أدت إلى ضعفهم وانحلال شخصيتهم، لهذا جاء نهى الله قاطعاً للمسلمين عن التشبه بالكافرين فى كل مايصدر عنهم من قول أو عمل ، لأن من تشبه بقوم فهو منهم،وكيف يتشبه المسلمون بهؤلاء الأعداء ؟! من الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، وهم ينطوون فى صدورهم على أشد العداوة والبغضاء ،

ولا يضمرون للمسلمين إلا الحقد والضغينة، ويكرهون ـ حسداً واستكباراً وتعصباً ـ أن يختارهم الله لحمل رسالة الحق والخير والسداد، وأن يعدهم لقيادة البشرية وتحريرها وإخراجها من جور الأديان إلى عدل الإسلام ..

إن أصل كل شر حاق بالمسلمين، وما أدى بهم إلى الانسلاخ عن دين الله وشرائعه وظهور الكفر والمعاصي فيهم، وانفصام عرى الإسلام في مجتمعاتهم عروة عروة .. إن أصل هذا الشر كله بسبب تشبههم بالكافرين وتبعيتهم لهم في العقائد والنظم والشرائع. وهو الأمر الذي حذرنا الله تعالى منه، وحذرنا منه الرسول الكريم حتى لا تذوب الشخصية الاجتماعية للأمة المسلمة في غيرها من الأمم، ولا يفقد الفرد المسلم تميزه.

يقول تعالى في سورة «البقرة: ولن ترضى عنك اليهود والنصارى حتى تتبع ملتهم، قل: إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم، ما لك من ولي ولا نصير». وهكذا يضعنا المولى جلا وعلا وجهاً لوجه أمام الهدف الحقيقي لأهل الكتاب من اليهود والنصارى .. إنه تحويل المسلمين عن دينهم إلى دين أهل الكتاب ولن يرضوا عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى يتبع ملتهم، وإلا فهي الحرب والكيد والدس إلى النهاية!

«إنها العقيدة الدائمة التي نرى مصداقها في كل زمان ومكان .. إنها هي العقيدة. هذه حقيقة المعركة التي يشنها اليهود والنصارى في كل أرض وفي كل وقت ضد الجماعة المسلمة .. قد يتخاصمان فيما بينهما، وقد تتخاصم طوائف الملة الواحدة فيما بينها، ولكنها تلتقي دائما في المعركة ضد الاسلام والمسلمين. إنها معركة العقيدة في صميمها وحقيقتها. ولكن المعسكرين العريقين في العداوة للاسلام والمسلمين يلونانها بألوان شتى، ويرفعان عليها أعلاما شتى، في خبث ومكر وتورية إنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم

وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة . ومن ثم استدار الأعـــداء العريقون فغيروا أعلام المعركة . . لم يعلنوها حربا باسم العقيـــدة ـ على حقيقتها ـ خوفا من حماسة العقيدة وجيشـانها . إنما أعلنوها باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية . . وما إليهـا وألقوا فى روع المخدوعين الغافلين منا أن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها ! ولا يجوز رفع رايتها ولا خوض المعركة باسمها . فهـــذه سمة المتخلفين المتعصبين ! ذلك كى يأمنوا جيشان العقيدة وحماستها . وبينما هم فى قرارة نفوسهم . الصهيونية العالمية بإضافة الشيوعية العالمية جميعـاً يخوضون المعركة فى فلسطين وغيرها من أوطان المسلمين . يخوضونها أولا وقبل كل شىء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها طويلا فأدمتهم جميعا . صخرة العقيدة !

ومن باب الحض على مخالفة الكفرة والمشركين ما جاء فى حادث تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام قوله تعـالى فى سورة البقرة أيضا: «ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك . وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن أتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذاً من الظالمين ، الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ، الحق من ربك ، فلا تـكونن من الممترين ، ولـكل وجهة هو موليهـا ، فاستبقوا الخيرات ، أينما تـكونوا يأت بكم الله جميعا ، إن الله على كل شىء قدير ، ومتى خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث مـا كنتم فولوا وجوهكم شطره، لئلا يكون للناس عليكم حجة .»

قال غير واحد من السلف : معناه لئلا يحتج اليهود عليكم بالموافقة فى

القبلة ، فيقولوا قد وافقونا فى قبلتنا ، فيوشك أن يوافقونا فى ديننا ، فقطع الله بمخالفتهم فى القبلة هذه الحجة . .

فبين سبحانه أن من حكمة نسخ القبلة وتغييرها : مخالفة الكافرين فى قبلتهم ، ليكون ذلك أقطع لما يطمعون فيه من الباطل ، ومعلوم أن هذا المعنى ثابت فى كل مخالفة وموافقة ، فإن الكافر إذا اتبع فى شيء من أمره كان له من الحجة مثل ما كان من اليهود من الحجة فى أمر القبلة .

ويعلق صاحب ظلال القرآن رحمه الله على حادث تحويل القبلة بقوله : « ولم يكن بد من تمييز المكان الذى يتجه إليه المسلم بالصلاة والعبادة وتخصيصه كى يتميز هو ويتخصص بتصوره ومنهجه واتجاهه . . فهذا التميز تلبية للشعور بالامتياز والتفرد ، كما أنه بدوره ينشىء شعوراً بالامتياز والتفرد .

« ومن هنا كذلك كان النهى عن التشبه بمن دون المسلمين فى خصائصهم ، التى هى تعبير ظاهر عن مشاعر باطنة كالنهى عن طريقتهم فى الشعور والسلوك سواء ولم يكن هذا تعصباً ولا تمسكا بمجرد شكليات . وإنما كان نظرة أعمق إلى ماوراء الشكليات . كان نظرة إلى البواعث الكامنة وراء الأشكال الظاهرة وهذه البواعث هى التى تفرق قوما عن قوم ، وعقلية عن عقلية ، وتصوراً عن تصور ، وضميراً عن ضمير ، وخلقا عن خلق ، واتجاها فى الحياة كلها عن اتجاه .

يقول ﷺ فيما يرويه البخارى : « لاتقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون ـ الأمم ـ قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع » فقيل يارسول الله : كفارس والروم ؟ فقال : ومن الناس إلا أولئك ؟! . وفى حديث أبى سعيد

الخدري عن الرسول عليه السلام أنه قال : « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى ولو دخلوا جحر ضب خرب لتبعتموهم قلنا : يارسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن غيرهم ؟! » .

وجحر الضب كناية عن العادات المخربة لسعادات الشعوب والأفراد . وقد اختلف الجواب بحسب المقام ، فحيث قيل : فارس والروم ، كان هناك قرينة تدل على أن الأمر يتعلق بنظم الحكم والسياسة والاجتماع . وحيث قيل : اليهود والنصارى ؟ كان هناك قرينة على تعلق الأمر بما هو من قبيل الديانات والعبادات[1] .

وقد أفاض شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فى كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، فى حقيقة التميز ومعناه ، مبيناً أن سبيل المسلم فى تميزه هو بمخالفة الكفار والمشركين ،وأن هذه المخالفة ضرورة للمسلم وحاجة إلى هداية الصراط المستقيم . محذراً من الانحراف إلى طريق المغضوب عليهم أو الضالين . وأوضح أثر التميز فى نفس المسلم وسلوكه وأحواله كلها ، مشيراً إلى ماتورثه المشابهة والمشاركة من تناسب وتماثل بين المتشابهين يقود إلى الموافقة فى الأخلاق والأعمال .

قال : « ثم إن الصراط المستقيم ، هى أمور باطنــة فى القلب : من اعتقادات وإرادات وأمور ظاهرة وغير ذلك من أقوال وأفعال قد تكون عبادات ، وقد تكون أيضاً عادات : فى الطعام واللباس والنكاح ، والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وغير ذلك .

وهذه الأمور الباطنة والظاهرة بينهما ـ ولا بد ـ ارتباط ومناسبة، فإن ما

(١) المرأة فى التصور الاسلامى : للأستاذ عبد المتعال الجبرى .

مايقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أموراً ظاهرة ، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعوراً وأحوالاً .

وقد بعث الله عبده ورسوله محمدا ﷺ بالحكمة التى هى سنته ، وهى الشرعة والمنهاج الذى شرعه له .

فكان من هذه الحكمة ، أن شرع له من الأعمال والأقوال مايباين سبيل المغضوب عليهم والضالين ، وأمر بمخالفتهم فى الهدى الظاهر ؛ وإن لم يظهر لكثير من الخلق فى ذلك مفسدة ، لأمور :

ـ منها ، أن المشاركة فى الهدى الظاهر ، تورث تناسباً وتشاكلا بين المتشابهين يقود إلى الموافقة فى الأخلاق والأعمال . وهذا أمر محسوس ، فإن اللابس لثياب أهل العلم ـ مثلا ـ يجد من نفسه نوع انضمام إليهم ، واللابس لثياب الجند المقاتلة ـ مثلا ـ يجد فى نفسه تخلقاً بأخلاقهم ، ويصير طبعه مقتضياً لذلك إلا أن يمنعه من ذلك مانع .

ـ ومنها ، أن المخالفة فى الهدى الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب ، وأسباب الضلال ، والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان ، وتحقق ماقطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين ، وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام الذى هو الإسلام ـ لست أعنى مجرد التوسم به ظاهرا أو باطنا بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة ـ كان إحساسه بمفارقة اليهود والنصارى باطنا وظاهراً أتم ، وبعده عن أخلاقهم الموجودة فى بعض المسلمين أشد .

ـ ومنها ، أن مشاركتهم فى الهدى الظاهر ، توجب الاختلاط الظاهر حتى يرتفع التمييز ظاهرا بين المهديين المرضيين ، وبين المغضوب عليهم والضالين إلى غير ذلك من الأسباب الحكمية .

هذا إذا لم يكن ذلك الهدى الظاهر إلا مباحاً محضاً ، لو تجرد عن مشابهتهم ، فأما إن كان من موجبات كفرهم ، فإنه يكون شعبة من شعب الكفر ، فموافقتهم فيه موافقة في نوع من أنواع ضلالهم ومعاصيهم .

.. فهذا أصل ينبغي أن يتفطن له . «والله أعلم» (١) .

وإن المسلمين الذين اختصهم الله برحمته ومن عليهم بفضله العظيم ، فكانوا حملة الأمانة الإلهية ، والأمة الوسط الشهداء على الناس .. مدعوون دائماً ، إلى أن يلتزموا المنهج الإسلامي الكامل في العقيدة والفكر ، والقول والعمل ، والاجتماع والأخلاق ، وكل شأن من شئون الحياة . مدعوون بحكم هذا المنهج أن يعتصموا بحبل الله ، ويتبعوا هداه ، ويعتزوا بشخصيتهم الإسلامية الفريدة التي بها سادوا ، وبها يسودون . وهذا هو ما تؤكده التربية القرآنية في بناء الإنسان المسلم ، وغرسه في ضميره ، وجعله محور حركته واتجاهه ، حتى تكون صياغته وفق مفاهيم الإسلام وتقاليده ، صياغة فريدة تتسم بالتميز التام الذي لا سبيل إليه إلا بالاعتصام بهدي الله ، والسير على صراطه المستقيم ، ومجانبة سبل المغضوب عليهم والضالين أصحاب الجحيم .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم : لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٢٢-٢٤ / ط السنة المحمدية

الباب الأول

الأسرة المسلمة

بين البناء والهدم

- الأسرة فى القرآن الكريم
- الخطة الصهيونية الصليبية ، وتدمير الأسرة
- الأسرة المسلمة على مفترق طريقين

الفصل الأول

الأسرة في القرآن الكريم

أصل الأسرة ومكانتها فى الإسلام

من المسلم به أن الأسرة هى الخلية الحيوية الأساسية التى يتكون منها جسم المجتمع البشرى ، إذا صلحت صلح المجتمع كله وإذا فسدت فسد المجتمع كله .. بل هى الأمة الصغيرة ، منها تعلم النوع الإنسانى أفضل أخلاقه الاجتماعية ، فلا أمة حيث لا أسرة ، بل لا آدمية حيث لا أسرة .

وتستمد الأسرة أهميتها وعلو شأنها من أنها هى البيئة الاجتماعية الأولى والوحيدة التى تستقبل الإنسان منذ ولادته وتستمر معه مدى حياته ، تعاصر انتقاله من مرحلة إلى مرحلة ، بل لا يوجد نظام اجتماعى آخر يحدد مصير النوع الإنسانى كله كما تحدده الأسرة .

ولا يوجد نظام أولى الأسرة بالعناية والرعاية مثل نظام الإسلام ، فشملها بتوجيهاته التربوية وحدد لها من قواعده التشريعية ، مايكفل قيامها على أسس سليمة ، ويرفع مستواها ، ويوثق أواصر العلاقات بين أفرادها ، ويدعم كيانها ، ويؤمن حياتها . ذلك أن الأسرة فى المنهج الإسلامى هى القاعدة الركينة التى تقوم عليها الجماعة المسلمة ، ويقوم عليها المجتمع الإسلامى ، فاستحقت أن يحيطها القرآن برعاية ملحوظة ، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهدا كبيرا ، تراه ماثلا بإحاطة وتفصيل فى صور شتى من صحائفه ، يربطها بالله وتقواه فى كل آية ، ويمدها بالإشعاعات الروحية والتنظيمات القانونية والضمانات التشريعية فى كل حالة من حالاتها .

« إن النظام الاجتماعى الإسلامى نظام أسرة، بما أنه نظام ربانى للإنسان ملحوظ فيه كل خصائص الفطرة الإنسانية وحاجاتها ومقوماتها ..

● ينبثق نظام الأسرة فى الإسلام من معين الفطرة وأصل الخلقة ، وقاعدة التكوين الأولى للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافة ، تبدو هذه النظرة فى قوله تعالى : « من كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » ومن قوله سبحانه : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

● ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان ، فتذكر النفس الأولى التى كان منها الزوجان (آدم وحواء) ، ثم الذرية ، ثم البشرية جميعاً ، كما تبينه الآية الأولى من سورة النساء : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » وآية سورة الحجرات : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » ؛ وكان الله قادرا على أن يخلق الملايين من الأفراد الإنسانيين دفعة واحدة . ولكن قدره جرى بهذا لحكمة كامنة فى وظيفة الأسرة الضخمة فى حياة هذا المخلوق .

● ثم تكشف عن جاذبية الفطرة بين الجنسين ، لا لتجمع بين مطلق الذكران . ومطلق الإناث فى شيوعية حيوانية ، ولكن لتتجه إلى إقامة الأسر والبيوت ، إذ يقول تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » ، ويقول : « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » ، ويقول : « نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر

المؤمنين » ويقول سبحانه : « والله جعل لكم من بيوتكم سكنا » .

« فهي الفطرة تعمل . وهي الأسرة تلبي هذه الفطرة العميقة في أصل الكون وفي بنية الإنسان . ومن ثم كان نظام الأسرة في الإسلام هو النظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني . بل من أصل تكوين الأشياء كلها في الكون ، على طريقة الإسلام في ربط النظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله ، ومن بينه هذا الإنسان .

وهي الفطرة التي تسكت الأصوات المنكرة لدارسي علم الاجتماع المادي ونظرياته اليهودية ، التي تشيع أن الأسرة نظام من وضع المجتمع وليست شيئا من طبائع البشر ولا أصلا من أصول الإنسانية ، وأنها ككل نظام اجتماعي تخضع للمؤثرات الاجتماعية ، فتنمو أو تضعف مادام هذا النظام من صنع ما يسمونه « العقل الجمعي » فهو رهن بمشيئته ، فيبقيه أو يزيله إن أراد . وما ذلك إلا تبرير يلبس ثوب العلم لمسالك الخطيئة والانتكاس بالإنسانية إلى الفوضى الجنسية ، التي تعيشها حضارة الغرب المادي المنحل ، التي جنت على الأسرة جناية كبرى .

إن الأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الطفولة الناشئة ورعايتها، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها ، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل ، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة ، وعلى هديه وتوجيهه تتفتح للحياة ، وتفسر معنى الحياة الإنسانية وأهدافها ، وتعرف كيف تتعامل مع الأحياء . ذلك أن طفل النوع الإنساني هو أطول الأحياء طفولة ؛ تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى . فرحلة الطفولة هي فترة إعداد وتدريب للدور المطلوب من كل حي في مستقبل حياته ، ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة ، ودوره في الأرض هو أضخم

دور ، « إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وحملها الانسان .. » ، فهى أمانة الاستخلاف . ودور المبتلى الممتحن بهذه الأمانة ، تقتضى أن تمتد طفولته فترة أطول ، ليحسن إعداده وتدريبه للمستقبل ، ومن ثم كانت حاجته لملازمة أبويه أشد من حاجة أى طفل لنوع من الأحياء الأخرى . وكانت الأسرة المستقرة الهادفة ألزم للنظام الإنسانى ، وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره فى هذه الحياة .

وقد أثبتت التجارب العملية أن أى مؤسسة أخرى غير مؤسسة الأسرة لاتعوض عنها ، ولا تقوم مقامها ، ولكن الماديون يجادلون ، فيزعمون أن لاضرورة للأسرة ، وأن نشأة الطفل فى محضن صناعى تساوى نشأته بين أبويه ، بل يزيدون فيتحدثون عن التلقيح الصناعى . وعن إمكان صنع الأطفال بعيدا عن الأسرة وأعبائها الثقال ! بل إن النظام الماركسى يحبذ نشأة الأطفال جميعاً شرعيين وغير شرعيين فى المحاضن الجماعية .. حتى لايكون لهم ولاء نحو آبائهم وأمهاتهم وأسرهم ، فلا يذكرون إلا الدولة والحزب !!

هذا إلى مافرضته الثورة الصناعية والنظم الاقتصادية فى الحضارة المادية الغربية من تشغيل النساء ، فأصابت الأسرة فى صميمها ، بغياب الأم عن أطفالها ، واعتمادها على المحاضن فى رعايتهم ويتحول البيت إلى شىء أشبه بالفندق يأوى إليه أفراد الأسرة بعد عملهم الشاق فى المصانع ..

ولكن الفطرة الإنسانية لاتقبل الزور ، بل لابد أن تفضح الأنظمة الخادعة التى تحاول أن تغير خلق الله وأن تشقى البشرية من حيث توهمها السعادة ، فدور الحضانة والمدارس الداخلية التى يشرف عليها موظفون

تعينهم الدولة فى النظام الماركسى وتؤجرهم للمؤسسات الاستثمارية فى النظام الرأسمالى ، لا تعنى فى بناء الإنسان إلا بنمو العظم واللحم ، فكيف تصبح هذه الدور قادرة على أن تعوض للطفل مايحرمه من حياة الأسرة بما فيها من جو روحى ، وقد قامت على أسس مادية نفعية خلت من أية نسمة خلقية وروحية ؟! هـذا وكيف يتوفر لكل طفل من العناية فى المحاضن بالقدر الذى يؤديه نظام الأسرة التى تشرف فيه الأم بكل حنانها على طفلها، فى الوقت الذى تشرف فيه الحاضنة الواحدة على عدة أطفال ؟! .. الجواب : عند الأوضاع الأليمة فى المجتمعات المادية المناهضة لمنهج الله ، والمصادمة للفطرة تشهد بما أصاب الناشئة من انحراف فى السلوك نتيجة ما امتلأت نفوسهم من عقد واضطرابات ، كانت سبباً فى انتشـار ظاهرة الخنفسة والهيبية وتعاطى المخدرات وتورط الشباب هناك فى الجريمة والإباحية وفقدان الثقة بالمثل والأخلاق حتى أصبحوا يفـاخرون بمعاداة المجتمع والقانون »

وأعجب العجب أن انحراف التصورات الجاهلية ينتهى بناس من جلدتنا يتسمون بأسماء المسلمين إلى أن يعتبروا نظام العمل للمرأة تقدما وتحررا وانطلاقا من الرجعية ، بدوافع مركب النقص وميول الهوى ونزعات الانحلال والتقليد لهذا النظام الملعون الذى يضحى بالصحة النفسية لأغلى ذخيرة على وجه الأرض .. الأطفال .. رصيد المستقبل البشرى .

ومن ثم نجد النظام الإسلامى ، الذى أراد الله به أن يدخل المسلمون فى السلم ، وأن يستروحوا فى ظله بالسلام الشامل .. يقوم على أساس الأسرة ، ويبذل لها من العناية مع ما يتلاءم ودورها الخطير .. ومن ثم نجد فى سور شتى من القرآن الكريم تنظيمات قرآنية للجوانب والمقومات التى يقوم عليها هذا النظام .

خصائص التنظيم القرآنى للأسرة

نزلت آيات القرآن الكريم فيما نزلت بنظام متكامل للأسرة ، له من الأحكام والقواعد مايرافق الفرد المسلم من المهد إلى اللحد ، بل له من التشريعات والتوجيهات مايطبق على الإنسان قبل ولادته وهو جنين إلى مابعد وفاته ، بشكل متقن منظم ، فيه إتقان الصنعة الإلهية وتنظيم العليم الحكيم..

والناظر فى القرآن وشريعته المحكمة يرى أن أحكام نظام الأسرة جاءت متميزة بخصائص على النحو الآتى :

أولا : جاءت بالتفصيل .. وقد وردت أحكام الأسرة من زواج وطلاق وميراث ووصية مفصلة غير مجملة ، ويرى الناظر فى القرآن الكريم أن الأمور التى من شأنها أن تتغير وتتبدل جاءت مجملة بمبادىء عامة وقواعد كلية . وأما الأمور من شأنها الثبات والاستقرار وعدم التغيير ، فقد جاءت أحكامها مفصلة فى القرآن الكريم وهى كل مايتعلق بمسائل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإنسان وأصله وأهدافه فى الحياة .. (١)

وهذا يدلنا على مدى اهتمام القرآن بأحكام الأسرة ، وأنه لايجوز تغييرها وتبديلها لأنها مفصلة محكمة . ولكن للأسف قد بدت بوادر فى مصر وفى بعض الأقطار الإسلامية ، تدل على تلفيق قبيح بين المفهوم الاسلامى وأحكامه للأسرة والمفهوم الأوربى المادى المنحل ، من ذلك صدور بعض قوانين للأسرة تهدف إلى إخضاع الشريعة لاتجاهات غريبة عنها مراعاة لظروف وتطورات جديدة حادثة بعامل التأثير والتقليد الغربى .

(١) يراجع تفصيل ذلك فى موضوع « التقدم والتطور » فى هذا الكتاب .

وسيراً فى طريق رسمته دوائر تعمل على هدم المجتمعات الاسلامية بتحطيم آخر حصن لها... وهو الأسرة .

ثانيا : جاءت أحكام الأسرة فى القرآن مرتبطة بالعقيدة ترابطاً عضوياً ، بل قامت على قاعدة الإيمان بالله وتقواه مما يدل على أن قداسة هذه الأحكام من قداسة أحكام العقيدة فى الله ، ونرى مصداق ذلك قول الله تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى » وقوله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم » وقوله سبحانه : « قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » وقوله جل من قائل : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » .

ولارتباط أحكام الأسرة بالعقيدة فى القرآن الكريم دليل على أن تشريعات الأسرة لابد أن تجىء ملتزمة بهذه العقيدة منبثقة عن أحكامها مستهدية بروحها احتراماً للعقيدة نفسها وللأمة التى تؤمن بهذه العقيدة .

ثالثا : وصف القرآن الكريم الزواج بأنه من آيات الله ودلائل عظمته ، فقال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها .. » ، فيجب أن يكون هذا العقد بعيداً عن عبث العابثين ليحقق تلك الأهداف السامية من المودة والرحمة ، والسكن النفسى بين الزوجين فى الأسرة المسلمة ونواة المجتمع ، فلا تفرض على الأمة المسلمة تشريعات أسرية خارجة تؤلب أحد الزوجين على الآخر وتحرض على نشوز الزوجة ، لتقلب أوضاع البيت لتجعل منه حلبة صراع بدلا من أن يكون مثابة أمن وحب وتراحم ، ومجال تعاون وتعاضد وتكافل .

رابعا : جاء تقرير القـــرآن حاسما فى أن الزوجة كالزوج فى الحقوق والواجبات إلا ما جاء النص على خلاف ذلك لأن الأصل المساواة « ولهن مثل الذى عليهن » ، فالإنسان يتكون من الذكر والأنثى شـأن كل الكائنات فإن كان الخالق تبارك وتعالى قد جعل لكل من المرأة والرجل طبيعة تتفق من ناحية، وتختلف من ناحية أخرى، إلا أن الإنسانية واحدة فى كليهما، فالتفكير والعقل واحد فى كليهما، والغرائز كغريزة الجنس والنوع والتدين واحدة فى كليهما ، والحاجات العضوية كحاجة الانسان الى الطعام والهواء واحدة عندهما ، ولكن ما يتعلق بالوظيفة الجسمية عند كل منهما فيه اختلاف كبير ، فقد هيئت المرأة برحم لتحمل وتلد ، وثديين للرضاعة كما زودت بميول فطرية لأن تقوم بالشئون المتعلقة بالبيت والأطفال .

وهذا الاختلاف فى الطبيعة النفسية والجسمية تقتضى أن تجىء قوانين الأسرة متنـــاسبة مع هذا الاختلاف ، وذلك لأن خلقة المرأة تتقاضاها أن تلزم البيت فهى فى أحوالها إما فى حالة طمث أو حامـل أو فى حالة ولادة وإرضاع، وهى فى جميع أحوالها قائمة على شئون زوجها وأولادها

ومن هنا نرى أن الإسلام حين نزلت آياته ، قد نظر إلى المرأة والرجل بحسب الطبيعة التى خلقا بها وشرع من التعاليم والأحكام التى توافق طبيعة كل منهما دون تمييز بين ذكر وأنثى ولا تفضيل لأحد الجنسين على الآخر . فقرر الاسلام وحدة الأصل والمنشأ، فالرجل والمرأة من أصل واحد ومنشأ واحد «وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة» وشرع المساواة بين الجنسين فيما هو من خصائص الإنسانية فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض» وقال تعالى : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن»

وقال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » ولم يقل كرمنا الرجال والذكور .

وكل خطاب وجه للزوج وكانت العلة مشتركة فيه يعتبر خطابا للزوجة فقال تعالى « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » وقول الرسول ﷺ « خياركم خياركم لنسائكم ». الخطاب للأزواج ولكنه يشمل الزوجات أيضا لأن العلة هى حرص الشارع على عدم الفراق والمعاشرة بالمعروف، وهذا ينطبق على كل من الزوجين ، وقوله ﷺ للمغيرة بن شعبة الذى خطب دون أن يرى خطيبته : « انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » خطاب للرجال ولكن العلة مشتركة فيجب على المرأة أيضا أن ترى خطيبها ، لأنه قد يخطب شخص دون أن يرى خطيبته ، لأن الألفة والمحبة تنتج عن معرفة كل منهما بالآخر ضمن حدود الشرع ودون مخالفة لأوامره يكون من الزوجة كما يكون من الزوج . وهكذا نجد المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة إلا ماجاء النص بتخصيصه .

خامسا : لا يعتمد الإسلام على العقوبة وسلطان القانون فى إنشاء مجتمعه النظيف الركين ، إنما يعتمد قبل كل شىء على الوقاية من الوقوع فى الإثم والخطيئة . وهو لا يكبت الدوافع الفطرية، ولكن ينظمها ويهىء لها الجو النظيف الخالى من المثيرات التى يصطنعها الذين يتبعون الشهوات . ذلك أن الفكرة السائدة فى المنهج القرآنى للتربية فى هذه الناحية، هى تضييق فرص الغواية ، وابعاد عوامل الفتنة ، وسد جميع السبل والنوافذ على أسباب التهييج والإثارة مع إزالة العوائق دون الاشباع الطبيعى بوسائله النظيفة المشروعة . . بالزواج والإحصان .

والإسلام عندما يعتمد على التشريع فى إرساء قواعد الأسره ومجتمعه

الإنسانى ، فإنه يعتمد فى المقام الأول على استجاشة الضمير الذى اعتنى به تربية وتهذيباً ، بهذه الوسيلة المزدوجة نجح فى حماية الأسرة من كل عوامل التفكك والتصدع

١ ـ فمن أسباب الوقاية ، التى اتخذها القرآن، الحيلولة دون الاستثارة وتهييج الشهوات قوله تعالى فى سورة النور « قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات : يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن، أو آبائهن ... » إلى آخر الآية .

٢ ـ ومن أسباب الوقاية للأسرة وحمايتها . وحتى لا يصبح المحضن الصالح للناشئة لا ضرورة له والحياة الزوجية نافلة قوله تعالى: «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » . . تحذير قرآنى من مجرد مقاربة الزنا ، وهى مبالغة فى التحرز ، لأن الزنا تدفع إليه شهوة عنيفة فالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لايكون هناك ضمان.

«ومن ثم يأخذ الاسلام الطريق على أسبابه الدافعة ، توقيا للوقوع فيه فهو يكره الاختلاط فى غير ضرورة، ويحرم الخلوة، وينهى عن التبرج بالزينة ويحض على الزواج لمن استطاع ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع ، ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالاة فى المهور وينفى الخوف من العيلة والاملاق بسبب الأولاد . ويحض على مساعدة من يبتغون الزواج ليحصنوا أنفسهم ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع ، وعلى رمى المحصنات الغافلات دون برهان .. إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج (١) كل ذلك

---

(١) فى ظلال القرآن : المجلد الرابع ص ٢٢٢٤

ليحفظ الأسرة المسلمة من التردى والانحلال .

٣ـ ومن أمثلة تشريعات الإسلام الوقائية والعلاجية لحماية الأسرة أن يصيبها التصدع قوله تعالى: «واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » فالمنهج الإسلامى لا ينتظر حتى يقع النشوز بالفعل، وتعلن راية العصيان، وتسقط مهابة القوامة ، وتنقسم الأسرة إلى معسكرين متصارعين ، فالعلاج حين ينتهى الأمر إلى هذا الوضع قلما يجدى فلابد من المبادرة فى علاج مبادىء النشوز قبل استفحاله ، لأن مآله إلى فساد هذه المؤسسة ، وذلك باتخاذ إجراءات تأديبية متدرجة فى علاج علامات النشوز فى بوادره الأولى ، يقوم بها الزوج لا للانتقام، ولا للإهانة ، ولا للتعذيب، ولكن للاصلاح وتوقى التصدع .

والإسلام الذى عالج حالة النشوز من ناحية الزوجة ، لا يغفل عن علاج حالة النشوز والإعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج فتهدد أمن المرأة وكرامتها ، وأمن الأسرة ، يقول تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما ، والصلح خير» فإذا خشيت المرأة أن تنتهى جفوة وأن تؤدى بها هذه الجفوة من الزوج إلى الطلاق - وهو أبغض الحلال إلى الله - أو إلى الإعراض فيتركها كالمعلقة فليس هناك حرج أن تتنازل لزوجها عن شىء من فرائضها إذا رأت هى أن هذا خير لها وأكرم من طلاقها وإبقاء على الرابطة العائلية .

ويقول الله تبارك وتعالى فى سورة البقرة فى التعقيب على حكم التعريض بخطبة النساء أثناء العدة : « واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه » يجىء هذا التعقيب فى آية تحرم مواعدة رجل لامرأة فى عدتها قبل انقضاء

عدتها ، لما فيه من مجانبة لأدب النفس ، ومخالسة لذكرى الزوج ، وقلة استحياء من الله الذى جعل المدة فاصلا بين عهدين من الحياة ، لتبقى القلوب خالصة نقية ، ثم هو الربط بين التشريع وخشية الله المطلع على السرائر وما يحيك فى الصدور ، ولكن فى هذا الربط ضمانة أخيرة لتنفيذ الشريع ..

٥ ـ هذا إلى جانب ما أوصى به القرآن بالعفو والصفح « وإن تعفو أقرب للتقوى ، ولا تنسوا الفضل بينكم » ، والحض على الصبر وحسن المعاملة « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » يقول الرسول ﷺ : « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها خلقاً آخر ، لايفرك : لا يبغض .

اهداف الأسرة القرآنية

الإنسان وحياته منذ النشأة الأولى فى أحشاء أمه وحتى النشأة الثانية فى يوم الحشر ، هو هدف كل رسول وهدف كل شرائع الله .. من أجل تنظيم حياته كان المنهج الإلهى ، كى لا يضل ولا يشقى فى رحلته على الأرض ..

ومن أجل صياغة الشخصية الإنسانية ، صياغة ربانية ، بذل المنهج القرآنى جهده الطويل فى قيام الأسرة على أساس وطيد ركين ، فمن هذا الحصن ، ومن هذه المثابة تخرج الشخصية المسلمة بدورها العظيم على العالمين بالهدى والنور ..

من خلال مؤسسة الأسرة عندما تقوم على تقوى من الله ورضوان ، يخرج الإنسان المجاهد فى سبيل الله بما تبعثه هذه المثابة فى نفسه من طمأنينة فى الشدائد ، وصبر على المكاره ، وثقة فى النصر .

لقد شاءت حكمة الله ، قبل أن يبعث محمداً ﷺ ، هادياً ومبشراً ونذيراً ، أن يهيء له البيت الكريم الذى يأوى إليه ، والزوجة الوفية التى فى كنفها وجد الراحة من كل تعب ، والعون فى كل شدة ، والتى بلغت ثقتها فيه وفى منزلته عند الله ، ومعرفتها بقدره العظيم ، أنه ما كاد يهرع إليها حين عاد إليها ، من غار حراء ليقص عليها ما وقع له ، من خطاب جبريل إليه ، حتى قالت مهدئة لروعه ، ومثبتة لفؤاده : « كلا . . أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر » . لقد شاءت إرادة الله ذلك بالنسبة للرسول الكريم ، وهو الإنسان الكامل والصورة المثلى للأسوة الحسنة كما يجب أن تحتذى ، لكى تقرر لنا مدى الدور الذى تقوم به الأسرة فى النظام الإسلامى ، وما تحققه من أهداف ومطالب فردية واجتماعية فى عملية البناء النفسى والعقلى والجسمى للأمة

١ ـ الاستمتاع

فى البيت وفى نطاق العلائق الزوجية يجد الفرد ـ ذكراً وأنثى ـ المنظم الطبيعى لانطلاق الشهوة ، بالطريقة التى تحول دون دمار الجسم وعذاب اللهفة الدائمة ، وتمنح الفرد السوى نصيباً معقولاً من المتعة الجسدية ، ينتهى إلى الرضا والارتواء . .

وهكذا كان الإسلام أدرى بالطبيعة البشرية وأحكم فى معالجتها ، حين أباح للناس نشاطهم الحيوى المشروع . وحين تحرم التعاليم الكنسية أن يحسوا بأية شهوة ، فينشأ الكبت والاضطراب النفسى أو الانحلال والفوضى الجنسية ، نرى الإسلام صريحاً فى الاعتراف بالطبيعة البشرية لا يستقذر الدافع الجنسى ، فأباح للناس شهوة الجنس والاستمتاع بطيبات

الحياة بدعوة قوية صريحة « قل من حرم زينة الله ، التى أخرج لعبـــاده والطيبات من الرزق » . وشدد فى نــكيره على دعاة الرهبنة بقوله تعــالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم .. »

وهذا رسول الله ﷺ يقطع على المسلمين كل طريق إلى الرهبانية فى حادثة امرأة عثمان بن مظعون عندما جاءته ﷺ تشكو زوجها ، فى أنه لم لم يرفع عنها ثوباً منذ كذا و كذا ، ويحضر الزوج ليقول له الرســول : « ما بالك يا عثمان ؟ قال : إنى تركته لله ، لكى أتخلى للعبادة ، فقال ﷺ : أقسمت عليك ، إلا رجعت فواقعت أهلك » فقال : يا رسول الله ، إنى صائم ، فقال ﷺ : أفطر . . أفطر » .

وحض الإسلام على الزواج صريح ، فى قول الرسول ﷺ : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج . . » وذهب بعض الفقهاء فى شرح هذا الحديث أن الأمر بالزواج على سبيل الوجوب ، وذهب البعض الآخر فوضعه فى مرتبة الفرض .

٢ ـ السكن النفسى

فى جـو الأسرة ، يجـد الزوجان كل فى رحاب الآخر ، مشاعر الألفة والحنان والود والتعاطف . . مشاعر لا يجدها كل منهما فى مكان آخر ، ولا يجدها الرجل - كاملة - عند الرجل ولا المرأة عند المرأة ، إلا فى حالات الشذوذ .

والسكن النفسى والمودة والرحمة التى يشعر بها الإنسان إزاء زوجه تعتبر من المطالب النفسية التى لا يستغنى الإنسان عنها ولا يجدها فى غير الزواج ، إنه سكن لا يغنى عنه سكن آخر ، فهو سكن روح إلى روح من جنسه ، فتصبح الروحان روحاً واحدة ، ويصبح القلبان قلباً واحداً .

والمودة التى يعنيها قوله تعالى : « . . وجعل بينكم مودة ورحمة » ،

ليست من نوع المودة بين الآباء والأبناء ، ولا من نوع المودة التى توجد بين الأصدقاء ، و كذلك الرحمة الخاصة بين الزوجين غيرها بين الناس الآخرين ، إنها سر من أسرار الله ، ومن يتزوج ليجمع الروح بالروح ، لا الجسد بالجسد ، ومن يتزوج ممن يكون قلبها من نوع قلبه طهراً ونظافة وروحها من نوع روحه شفافية ، يتزوجها باسم الله وغايته إتمام أمر الله وتحقيق حكمته وآياته ، ومن هنا قال بعض الدارسين للنفس الإنسانية ، إن الاتصال غير الشرعى اتصال ناقص . ذلك أن هذه المشاعر اللطيفة النابعة من أعماق النفس ، لا تجد منطلقها إلا فى جو هادىء مستقر ، لا يكفله مكان غير الأسرة ، ولا تكفله علاقة غير العلاقة الزوجية .

٣ ـ إشباع مطالب الوالدية :

وفى كنف الأسرة وفى رحابها القدسى يتحقق للفرد مطلب من مطالبه الملحة ، ذلك هو مطلب الوالدية ، والحاجة إلى الخلف والذرية .

إن إنجاب الأطفال شهوة عند الرجل والمرأة ، لم ينج منها أحد فى القديم أو الحديث إن لدى الرجل فراغ فى نفسه وحياته لا يملؤه إلا صبحة طفل ، ونسل يمد من عمره القصير على الأرض ، وحبذا لو كان هذا النسل صالحاً ليكون امتداداً حقيقيا لعمله الذى يجزى به يوم الحساب ، فكل امرىء ينقطع عمله إلا من ثلاث ، منهم الولد الصالح الذى يدعو له . وللمرأة من غير طفل شقية بائسة ، فالطفل جزء منها . : جزء من جسدها تحمله وتغذيه من دمائها ، ثم من لبنها وهو خلاصة دمها وجزء من كيانها النفسى ، تشعر أنها معطلة أو ناقصة أو عاجزة إذا لم تأت بنسل … .

فالولد هبة الله للإنسان استجابة لنداء الوالدية وهتافها : « وزكريا إذ نادى ربه : رب لا تذرنى فردا، وأنت خير الوارثين. فاستجبنا له ووهبنا له

يحيى » . . هذه النعمة والهبة الإلهيـة ، تتقاضى الإنسان عرفانا بفضل الله ومنته ، فيحمده على جميل عطائه : « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق » .

٤ ـ تربية الاطفال

وإذا كان الإنسان يحب أن يكون له نسلا ، فعليه أن يوفر لهم أسباب التربية والنماء ، وحيث أن الطفل الإنسانى أكثر الأطفال حاجة إلى الرعاية لأمد طويل ، وكلما تقدم الإنسان فى سلم الحضارة زادت وظائفه وتنوعت أعماله ومجالات نشاطه ، كلما استتبع ذلك حاجة أطفاله إلى فترة أطول لتعلم هذه الوظائف والأعمال والمران عليها . . وهى مسئولية الآباء حتى يشب أولادهم عن الطوق ويخرجوا إلى الحياة رجالا عاملين نافعين . .

والأسرة هى البيئة الوحيدة التى يمكن فيهـا تنشئة الأطفال مسلمين صالحين ، وهى المجال الفريد لغرس عواطف الحب لله والرسول والمسلمين مع عواطف الرحمـة وللودة والتعاون ، من هذه اللبنات الصالحة يقوم المجتمع المسلم المتكافل الذى تقوم علاقاته على الحب والإيثار . الحب الذى تزول معه كل عوامل الشحناء والصراع .

هذه التربية حق للأولاد على آبائهم ، يقول الرسول ﷺ : حق الولد على والده أن يحسن اسمه ، ويعلمه الكتابة ، ويزوجه إذا أدرك ، ويعلمه الكتاب ـ أى القرآن ـ » ويقول : « ما نحل والد ولداً ـ أى أعطاه ووهبه ـ أفضل من أدب حسن » ويقول : « لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدق بصاع» .

وقد أجمعت خبرات الناس ودلت تجارب العلماء على ما للتربية فى الأسرة من أثر عميق وخطير يتضاءل دونه أثر أية منظمة اجتماعية أخرى فى تعيين

الشخصية وتشكيلها خاصة خـلال مرحلة الطفولة المبكرة ، أى السنوات الخمس أو الست الأولى من حياة الفرد . وذلك لأسباب عدة أن الطفل فى هذه المرحلة لا يـكون خاضعاً لتأثير جماعة غير أسرته ، ولأنه يـكون فيها سهل التأثر ، سهل التشكل ، شديد القابلية للإيحاء والتعلم ، قليل الخبرة ، عاجزاً ضعيف الإرادة قليل الحيلـة ، فى حاجة دائمة إلى من يعوله ويرعى حاجاته العضوية والنفسية المختلفة ، ولأن عملية التطبيع فيها تكون مركزة فعالة . إذا عرفنا هذا قدرنا ما يمكن أن يـكون لهذه المرحلة من أثر بالغ فى تشكيل شخصية الطفل وتوجيهها إلى الخير أو إلى الشر ، إلى الصحة أو المرض . فـكما أن الأسابيع الأولى من حياة الجنين فترة حاسمة فى تـكوينه الجسمى إن اضطرب النمو فيهـا خرج الوليد مسخاً ، وكما أن الوليد إن لم يزود بالغذاء الـكافى فى الأسابيع الثلاثة الأولى بعد ولادته شب ناقص النمو الجسمى والعقلى حتى إن زودناه طول العمر بكافة المواد الغذائيـة ؛ كذلك السنوات الأولى من حياة الطفل فترة حاسمة خطيرة فى تـكوين شخصيته . وتتلخص خطورتها فى أن ما يغرس أثناءها من معتقدات وعادات واتجاهات وعواطف يصعب أو يستعصى تغييره أو استئصاله فيما بعد . ومن ثم يبقى أثره ملازماً للفرد فى عهد الـكبر .

ونظن أن هذه الحقيقة لا تغيب عن العاملين لاستئناف الحياة الإسلامية والمربين والدعاة إلى قيام المجتمع المسلم من جديد . فإن كانت أبواب الفوضى والانحلال والالحاد ، قد انفتحت على مصراعيهـــا من مؤسسات التربية والإعلام والتوجيه العلمانية اللادينية ، وأزالت عن مجتمعاتنا صبغتهـــا الإسلامية الأصيلة وزعزعت الثقة فى أحقية النظام الإسلامى فى الهيمنة على الحياة ، فالآمال كلها معقودة على إمكانات الأسرة فى التغيير إذا قدرت حق

التقدير وأخذت مأخذ الجد .

٥ ـ تحقيق تماسك المجتمع :

إذا كان الإسلام يهدف إلى قيام مجتمع قوى متماسك، فإن الأسرة فى تحقيق هذا الهدف دور عظيم لمـــا يترتب على تـكوينها من قيام علائق جديدة بطريق النسب والمصاهرة « وهو الذى خلق من الماء بشراً ، فجعله نسباً وصهراً » فالإنسان فى ابتداء أمره نطفة يتخلق منهـا الجنين ، فوله نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأخوات وقرابات ، إنها القدرة الخالقة المدبرة « وكان ربك قديراً » .

وإذا كان المنهج الإسلامي يعتبر المسلمين أمة واحـدة لا يحول بينهم وبين دينهم الوحدة حائل من لون أو جنس أو لغة ويبذل فى سبيل تجسيد هـذه الوحـدة كل الوسائل ، فإنه يتخذ من الحض على التزاوج من غير الأقارب وسيلة، يتحقق بها ما لا يتحقق بزواج ذوى القربى ، الذين لهم صلة الرحم ، ما يـكفى لتعلو اهم وتضامنهم ، فى حين أن الزواج من الغرائب ينشىء علائق حميمة وصلات جديدة لم تـكن قائمة من قبل بين العائلات . ولعل من الحكمة فى تحريم الزواج من المحارم ، أن علاقة الزواج جعلت لتوسيع نطاق الأسرة وامتداد الروابط الحميمة إلى ما وراء رابطة القرابة .

ولعل من الحـكمة فى تعدد أزواج الرسول ﷺ ، هو توثيق عرى الود والحب فى المجتمع المسلم بالمصاهرة .

وقد حذى أصحاب النبى ﷺ حذوه ، فارتبطوا فيما بينهم بروابط النسب والمصاهرة ، فكان ذلك من أسباب تماسكهم وتساندهم وتآلفهم ، فغدوا كما أراد لهم الله ورسوله : كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضاً . . أو كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر

فليس البيت مجرد بيئة لتكوين العظم واللحم وتنمية الثقافة والذكاء ، ولكنه كذلك بيئة لتربية الفضائل الاجتماعية ، فبين جدرانه الأربعة يتطبع جميع أفراده كباراً وصغاراً على المبدأ القرآني : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » .

إن تحطيم الأسرة لا يعني في مخططات الهدم أكثر من أن تلقى في مهب الريح جميع الأسس الخلقية والروحية التي تقوم عليها حياة المجتمع المسلم .

٦ ــ وقاية المجتمع من السقوط والانحلال :

الدافع الجنسي من أقوى الدوافع البشرية وأعمقها أثراً في حياة الإنسان وجاءت أصالته في الكيان البشري لحكمة سامية أرادها الخالق ، وهدف يتعلق باستمرار الحياة وبقاء النوع .

والإسلام يقر للانسان حقه في تلبية مطالب هذا الدافع ، ولا يقره في كبته ، أو يوحي إليه باستقذاره . ولكن ليس هناك غير طريق واحد يرتضيه الإسلام في تصريف الطاقة الجنسية ، هو الزواج العلني ، الذي تتخصص فية امرأة بعينها لرجل بعينه ، ويتم به الإحصان ، وهو الحفظ والصيانة . إن الارتباط بين الجنسين على قاعدة الأسرة ، هو النظام الوحيد الذي يتفق مع فطرة « الإنسان » وحاجاته الحقيقية ، الناشئة عن كونه إنساناً ، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية فإذا كانت غاية للميل الجنسي في الحيوان تنتهي عند تحقيق الاتصال الجنسي والتناسل والإكثار فإنها في الإنسان لاتنتهي هنا ، إنما هو وسيلة إلى هدف أبعد هو الارتباط الدائم بين الرجل والمرأة لتحقيق أهداف المجتمع الإنساني [1] . . إنه الزواج والاتصال الجنسي المشروع ، هو الوسيلة المثلى التي تجد عن طريقها

---

(١) يراجع بتوسع كتاب « السلام العالمي والإسلام » للأستاذ سيد قطب .

غريزة الجنس طريقها فى نطاق الأسرة النظيف ما تنشده من إشباع وارتواء، فى توازن لا يخل بسلام المجتمع ولا يزعزع بناءه الإنسانى الأخلاق .

إنهما نوعان للعلاقات بين الجنسين ، الأول : يقوم على قاعدة الأسرة ، وهو النكاح على شريعة الإسلام ، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو بنته ، فيصدقها ثم ينكحها ، إنه الإحصان الذى ينص القرآن على طلبه ويريده الله فهو إحصان . . هو حفظ وصيانة .. هو حماية ووقاية ، والثانى : وهو الذى ينص القرآن على نفيه ، سواء منه المخادنة والبغاء . . إنه اللذة العابرة، والنزوة العارضة عن طريق المسافحة يشترك فيها الرجل والمرأة يريقان ماءهما فى السفح الواطىء ! فلا يحصنهما من الدنس ، ولا يحصن الذرية من التلف ، ولا يحصن البيت من الدمار والمجتمع من الخراب .

إنهما نوعين من الحياة يحددهما القرآن فى كلمتين اثنتين : « محصنين غير مسافحين»، ليبلغ غايته من تحسين الإحصان .. النوع الذى يرتضيه فى الحياة ، وليصل إلى هدفه من تبشيع الزنا بكل أشكاله . النوع الذى ينكره فى الحياة .

إن ضبط الغريزة الجنسية وتنظيمها فى نطاق الأسرة ، لا يعنى كبتها ، فالضبط تنظيم الطاقة ، والكبت إنكار لها . وكل قوة ان لم تضبط ذهبت هباء أو كانت أداة للتخريب .

وقد ميز الله أهل الإيمان بضبط الغريزة وتوجيهها الوجهة الفطرية الصالحة ، وأشار القرآن إلى أن مسلك الفوضى إنما هو انحلال وعدوان خطير يدمر المجتمع ويبث الوهن فى أنحائه ، وذلك فى قوله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » .. فهى

طهارة الروح والبيت والجماعة ، ووقاية النفس والأسرة ، والمجتمع ، بحفظ الفروج من دنس المباشرة فى غير حلال ، وحفظ القلوب من التطلع إلى غير حلال ، وحفظ الجماعة من انطلاق الشهوات فيها بغير حساب ومن فساد البيوت فيها والأنساب . فالجماعة التى تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة معرضة للخلل والفساد ، لأنه لا أمن فيها للبيت ولا حرمة فيها للأسرة ، والبيت هو الوحدة الأولى فى بناء الجماعة ، إذ هو المحضن الذى تنشأ فيه الطفولة وتدرج ولا بد له من الأمن والاستقرار والطهارة ، ليصلح محضنا ومدرجا ، وليعيش الوالدان مطمئنا كلاهما للآخر ، و يزهم على ذلك المحضن ، ومن فيه من أطفال !

والجماعة التى تنطلق فيها الشهوات بغير حساب جماعة قذرة هابطة فى سلم البشرية ، فالمقياس الذى لا يخطىء للارتقاء البشرى هو تحكم الإرادة الإنسانية وغلبتها ، وتنظيم الدوافع الفطرية فى صورة مثمرة نظيفة ، لا يخجل الأطفال معها من الطريقة التى جاءوا بها إلى هذا العالم . » (١)

ولذلك يبين الرسول ﷺ أن سلامة المجتمع المسلم وقوته وتماسكه ، مرهونة بابتعاده عن الفاحشة ونجاته من أوبئتها فيقول : « لا تزال أمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب » ويقول : « اتقوا الزنا فإن فيه ست خصال ، ثلاث فى الدنيا وثلاث فى الآخرة ، فأما التى فى الدنيا : فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما التى فى الآخرة : فيوجب السخطة وسوء الحساب والخلود فى النار » ويقول : « ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط ، إلا أصابهم الطاعون والأوباء التى فى أسلافهم » .

---

(١) ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٥ ـ ط / الشروق

إن الحياة العائلية المستقرة رمز ناطق للمجتمع السليم ، ولن يتم القضاء على الأسرة دون أن يكون لذلك أسوأ الأثر. فكم من الحضارات قد اندثرت حين تحلل فيها نظام الأسرة، فلقد اعتبرت الحياة الزوجية عند اليونانيين القدماء أمراً تافهاً ، فكان اللقاء بين الرجل المرأة لإشباع غريزة الجنس أمرا عابراً وكانت النتيجة أن تحطمت حضـارتهم ، وكذلك سقط الرومان من قمة مجدهم عندما أغفلوا العناية بحياتهم المنزلية واعتبروا الحياة فرصة للمتـاع وإشباع الشهوات . وهذه نذر سقوط حضارة الغرب الحديثة :

كشفت نشرة إحصـائية لهيئة الأمم عام ١٩٥٩ عن مدى عمق الهاوية التى تنحدر إليها المجتمعات الغربية كنتيجة مبـاشرة لتفكك الأسرة. . تقول النشرة إن العـالم الغربي يواجه الآن مشكلة الحرام أكثر من الحـلال ، فى شأن المواليد . إن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ٦٠ ./ ، وأما فى بعض البلاد ، مثل «بناما» فقد جاوزت ٧٥ ./ ، أى أنه من كل أربعة مواليد ثلاثة عن طريق الحرام . .

وجاء فى تقرير لمنظمة الصحة العالمية (عن جريدة الأهرام فى ٨/١/١٩٧١) أن الزيادة فى الإصابة بالأمراض السرية فى الولايات المتحـــدة والدول الاسكندنافية وبريطانيا ، قد خرجت عن نطـاق السيطرة عليهما ، وأن الإصابة بالسيلان فى الولايات المتحدة قد وصلت إلى حد الوباء ..»

وقد أدى تحلل الأسرة فى المجتمع الأمريكى أن أصبح لا يصلح للجندية ستة من كل سبعة ممن هم فى سن التجنيد، وسنة الله لا تتخلف.

وعندما اكتسح الألمان فرنسا فى الحرب العالمية الثانية فى بضع أيام، لم يتردد رئيس فرنسا فى ذلك الحين فى مصارحة أبناء وطنه قائلا : « لقد جاءت الهزيمة من الانحلال، فدمرت روح الشهوات ما شيدته روح التضحية . إنه لا سبيل لإخراج فرنسا من كبوتها وإقالة عثرتها إلا بإقامة صرح الأسرة

من جديد وتقوية أواصرها ، وتقـديس تقاليدها وأنظمتها » .. وهيهات!!

ورغم توالى صيحات الخبراء والمصلحين فى الغرب فإن النذر كلها تشير إلى أن هذه الحضارة قد دخلت فى مرحلة الأفول نتيجة لاتباع الشهوات ، والنفور من تبعات الزواج ، والتبرم بالحياة العائلية ، والاستهتار بروابط الزوجية ، الذى دمر فى المرأة ـ هناك ـ عاطفة الأمومة الفطرية ، فأصبحت لاهم لها إلا اللذة تحصل عليها وقتما شاءت وكيفما شاءت بعيداً عن قاعدة الأسرة ، ولا تذهب إلا ومعها تدابير منع الحمل ، وإن تم حمل فعيادات الاجهاض تعمل ٢٤ ساعة .

.. ورغم هذه الصيحات فإن جرائم الأحداث فى ازدياد مستمر بلغ حداً خطيراً . يقول تقرير للأمم المتحدة (عن الأهرام فى ٢٠ /٨ /١٩٦٩) « إن نسبة الانحراف بين الأحداث فى الولايات المتحدة التى تتمتع بأعلى مستوى من الرفاهية ، أعلا منها بكثير فى بريطانيا .. إن نسبة الزيادة فى الانحراف مخيفة جداً وأن ٧٠٪ من المجرمين يبدأون عهد الإجرام ما بين الرابعة عشرة والثانية والعشرين، ويشمل انحرافهم كل النواحى بما فى ذلك تداول المخدرات والشذوذ الجنسى .

يقول ألفريد ديننج : « إن أكثرية المجرمين الأطفال غير البالغين تخرج من أنقاض أسر محطمة » .

* * *

من هنا ندرك مدى الجريمة التى يزاولها دعاة الانحلال والأجهزة الدنسة ، المسخرة لتوهين روابط الأسرة عندنا ، والتصغير من شأن الرباط الزوجى ، وتشويهه وتحقيره ، للإعلاء من شأن الارتباطات القائمة على مجرد الهوى

المتقلب ، والعاطفة الهائمة ، والنزوة الجامحة . وتمجيد هذه الارتباطات ، بقدر الحط من الرباط الزوجي .

فالمشكلة بيننا وبين هؤلاء الدعاة وهذه الأجهزة ، « أننا نخاطبهم بالعقول ، وهم يتكلمون بالشهوات ، إن عقولهم لا تنكر ما نقول ، ولكن شهواتهم هي التي تنكره ، إن ما يعرفونه عن التاريخ يؤيد أقوالنا ، وما يعرفونه عن مجون الحضارة يوافق أهواءهم . نحن مع العقل وهم مع الهوى ، نحن مع المبادىء العلمية والأخلاقية التي يقرون بها ، وهم مع الرغبات والأهواء التي يخضعون لها ، والعقل يبني الدولة من حيث يخربها الهوى »،(١)

لقد كان الحسم والزجر في عقوبة الفوضى في سلوك الغريزة ، ضرورة اجتماعية لحماية الجماعة وحماية الفرد ذاته ، وقد كان على الأمة الإسلامية أن تستمسك بشريعتها وأن تتبع نهج الإسلام في الحفاظ على كيان المجتمع . ولكن المؤسف أننا نبذنا أحكام الشريعة واستبدلنا بها قوانين وضعية جيء بها إلينا من قوانين دول الغرب الذي لا يؤمن بعفة ولا إحصان .

وليت دعاة الانحلال والفوضى الجنسية يتركون لداعي العقل يغلب دواعي الهوى والمصالح الشخصية ، ليكون له الحكم في المقارنة بين عقوبة الزنا في الشريعة الإسلامية وعقوبتها في القوانين الوضعية ، ليظهر لهم أن قانون الشريعة حكيماً وحاسماً ، لأنه من تقدير الخبير البصير ، المحيط بنوازع الإنسان ، العليم بما يصلحه وما يفسده ، وأن القانون الوضعي في عقوبة الزنا

---

(١) عن كتاب « هكذا علمتني الحياة » ، للمرحوم الدكتور مصطفى السباعي ص ١٠٧

يدلل الزناة لأنه تعبير عن روح الإنسان الغربى الذى لا يستقذر هذه الفعلة، فكانت العواقب فى مجتمعات الغرب كما ألمحنا وخيمة، وها هى مجتمعاتنا الإسلامية قد أصابها شر كبير من جراء التساهل الفاحش فى تكييف جريمة الزنا نتيجة الأخذ بهذا القانون ..

إن الإسلام حين يشدد فى عقوبة جريمة الزنا، إنما يهدف بذلك إلى دفع خطر يهدد الحياة الاجتماعية بالدمار والفناء، يقول القانونى الكبير الأستاذ عبد القادر عودة: «تعاقب الشريعة الإسلامية على الزنا باعتباره ماساً بكيان الجماعة وسلامتها، إذ أنه اعتداء شديد على نظام الأسرة، والأسرة هى الأساس الأول الذى تقوم عليه الجماعة، ولأن إباحة الزنا إشاعة للفاحشة وهذا يؤدى إلى هدم الأسرة ثم إلى فساد المجتمع وانحلاله، والشريعة تحرص أشد الحرص على بقاء الجماعة متماسكة قوية.

أما العقوبة فى القوانين الوضعية فأسبابها أن الزنا من الأمور الشخصية التى تمس علاقاتها الأفراد ولا تمس صوالح الجماعة، فلا معنى للعقوبة عليه ما دام عن تراض، إلا إذا كان أحد الطرفين زوجا، ففى هذه الحالة يعاقب على الفعل صيانة لحرمة الزوجية !!

ولعل ما حدث فى أوربا والبلاد الغربية عامة، يؤيد نظرية الشريعة، فقد تحللت الجماعات الأوربية وتصدعت وحدتها وذهب ريحها، وما لذلك من سبب إلا شيوع الفاحشة والفساد الخلقى والإباحية التى لا تعرف حداً تنتهى عنده.

وما أشاع الفاحشة وأفسد الأخلاق ونشر الإباحية، إلا إباحة الزنا وترك الأفراد لشهواتهم واعتبار الزنا من الأمور الشخصية التى لا تمس صالح الجماعة.

ولعل أشد ماتواجهه البلاد غير الإسلامية اليوم من أزمات اجتماعية وسياسية يرجع إلى إباحة الفاحشة، فقد قل النسل فى بعض البلاد قلة ظاهرة تنذر بفناء هذه الدول أو توقف نموها ، وترجع قلة النسل أولا وأخيراً إلى امتناع الكثيرين عن الزواج ، وإلى العقم الذى انتشر بين الأزواج .

ولا يمتنع الرجل عن الزواج إلا لأنه يستطيع أن ينال من المرأة مايشاء فى غير حاجة إلى الزواج ولأنه لايثق فى أن المرأة ستكون له وحده بعد الزواج ، وقد اعتاد أن يجدها مشاعا بينه وبين الغير قبل الزواج .

والمرأة التى كانت أمنيتها الأولى الزواج ، ووظيفتها التى خلقت من أجلها إدارة البيت وتربية الأولاد ، هذه المـــرأة أصبحت فى كثير من الأحوال تنفر من الزواج، ولا ترضى أن تستأسر لرجل تنال ماعنده، وتثقل نفسها بالقيود والأغلال .

وقد أدى شيوع الزنا إلى مقاومة الحمل من جهة ، وانتشار الأمراض السرية من جهة أخرى ، وإذا كانت مقاومة الحمل تؤدى فى كثير من الأحوال إلى عقم النساء ، فإن انتشار الأمراض السرية يؤدى فى الغالب إلى عقم الرجال والنساء على السواء .

وكانت المرأة تعيش فى كنف الرجل فى ظل الزواج ، فلما أضرب الرجال عن الزواج كان لابد للمرأة من أن تعيش ، فاضطرت إلى مزاحمة الرجل فى ميدان العمل لتنال قوتها ، فأدى هذا إلى تفشى البطالة وشيوع المبادىء الهدامة ، وألقى بشعوب أوربا فى بحر لجى يزخر بالفوضى والاضطراب .

ويستطيع الإنسان أن يرتب على هذه المفاســد الاجتماعية نتائجها الخطيرة ، دون أن يخطيء الحساب ، ولو تدبر هذه النتائج القائلون بأن الزنا علاقة شخصية لعلموا أن الزنا من أخطر الجرائم الاجتماعية ، وأن مصلحة الجماعة تقتضى تحريمه فى كل الصور ، والمعاقبة عليه أشد العقاب ،

وعلى هذا الأساس حرمت الشريعة الإسلامية الزنا لتتجنب الوصول إلى تلك النتائج المخيفة ، وقررت أشد العقوبات للزناة ، حتى اعتبرت من يزنى بعد إحصانه غير صالح للبقاء ، لأنه مثل سيء ، وليس للمثل السيء فى الشريعة حق البقاء »[1] .

المــرأة

أساس البيت

إن خطورة شأن المرأة فى الاجتماع الإنسانى ، أمر تواضع عليه البشر أياً كانت حالته فى سلم الحضارة لأنه أمر من أمور البداهة ، وحـكم من أحكام الفطرة ، جاءت الشرائع السماوية مع كل نبى ورسول لتأصيله وتحديد اتجاهه ومساره الصحيح الذى يليق بالإنسان وغاياته فى الوجود . ولكنها الأهواء والشهوات والشيطان ، هى التى تذهب بنور العقل وتطمس بداهاته ، وتنحرف بدواعى الفطرة ، وتضل الإنسان عن سبيل الله ، فيرتـكس فى الحمأة الوبيلة والبهيمية المهينة ، وتجعل منه مسخا وقد خلقه الله فى أحسن تقويم . وفى النهاية تضطرب النظم وتسقط الحضارات .

فالمرأة فى بداهات العقل ودواعى الحياة الإنسانية الصحيحة هى الأساس الأول فى بناء البيت ، وهى ربتـه ، والفلك الأسرى كله هى محوره . فى رحابه يعود الرجل ليجد هدوء أعصابه وراحة نفسه وسكينة قلبه ، ومن بين حناياها وضلوعها وأحشائها يخرج الوليد ، وتحت جناحها يشب .. إنها قوام البيت : زوجة وأماً ، ومحوره : منها وإليها يعود الجميع ، فلا قوام

---

(١) الأستاذ الشهيد عبد القادر عودة : « التشريع الجنائى الإسلامى » جـ ١ ص ٣٤٧ .

لبيت بدون المرأة . وهذه هى مكانة المرأة فى نظام الإسلام ، قدرها وأعظم قدرها ..

ـ « المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ،

ـ « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » .

ـ « النساء شقائق الرجال » .

ـ « « استوصوا بالنساء خيراً » .

ـ « .. أمك ثم أمك ثم أمك، ثم أبوك».

كلمات من نور جاء مع فجر الإسلام ليقشع الظلام الذى عاشت فيه المرأة فى الجاهلية كلها ، جاءت لتسمع الدنيا أنه لاظلم اليوم .

١ ـ فقد كانت المرأة فى أول شريعة وضعية دونت فى عهد حمورابى ، تحسب فى عداد الماشية المملوكة حتى أن من قتل بنتاً لرجل ، كان عليه أن يسلم بنته ـ لوالد البنت المقتولة ـ حتى يقتلها أو يتملكها، وفى هذا تعد المرأة من عداد الملكية شيئاً يحافظ عليه (١) .

٢ ـ كما أنه لم يكن للمرأة فى شريعة مانو فى الهند حق الاستقلال عن أبيها أو زوجها أو ولدها ، فإذا انقطع هؤلاء جميعاً ، وجب أن تنتمى إلى رجل من أقارب زوجهـــا فى النسب ، ولم تستقل بأمر نفسها فى حال من الأحوال ، وهى قاصرة طيلة أيام حياتها ، لم يكن لها الحق فى الحيـاة بعد موت زوجها بل وجب أن تموت يوم يموت زوجها ، وأن تحرق معه وهى حية على موقد واحد ، وبطل هذا بعد القرن السابع عشر على كره من أصحاب الشعائر الدينية (٢) .

(١) فضيلة الشيخ مصطفى السباعى : المرأة بين الفقه والقانون ص ١٨

(٢) المصدر السابق ص ١٨

٣ ـ وعند اليونان الأقدمين كانت محرومة من الثقافة ، لا تسهم في الحياة العامة بقليل ولا كثير ، وكانت محتقرة ، حتى سموها رجسا من عمل الشيطان ، وهي مسلوبة الحرية والمكانة في كل ما يرجع إلى الحقوق الشرعية ، فهم لا يعتبرونها إنسانا بل حيوانا يباع ويشترى ، كما يباع أي حيوان آخر ويشترى ، وعلى هذا يسلبونها أهلية التصرف ولا يرون أنها تصلح لشيء سوى خدمة البيت واستيلاد الأطفال (١) .

٤ ـ وعند الرومان تظل البنت خاضعة لرب الأسرة مادام حيا ، وكانت سلطته عليها سلطة ملك لا حماية تشمل البيع والنفي والتعذيب والقتل ، فكان رب الأسرة هو الذي يقوم بتزويجها دون إرادتها ، وكان مالكا لأموالها ليس لها حق التصرف فيها ، ولا يؤثر في ذلك بلوغها ولا زواجها لكن في عهد جوستنيان انتقلت السلطة من الأب إلى الزوج ، وتحولت في عهد الازدهار العلمي للقانون الروماني إلى سلطة حماية ، ومع ذلك ظلت المرأة قاصرة الأهلية . وكان شعارهم الذي تداولوه إبان حضارتهم « أن قيد المرأة لا ينزع ، ونيرها لا يخلع »(٢) .

٥ ـ وكان للمرأة في الحضارة المصرية القديمة حظ من الكرامة يجيز لها الجلوس على العرش ويبوئها مكان الرعاية في الأسرة ، ولكن الأمة المصرية كانت من الأمم التي عاشت فيها عقيدة الخطيئة بعد الميلاد ، وشاع فيها من اعتقاد الخطيئة الأبدية أن المرأة هي علة تلك الخطيئة وخليفة الشيطان وشرك الغواية والرذيلة ولا نجاة للروح إلا بالنجاة من أوهاقها وحبائلها .

---

(١) السباعي : المرأة بين الفقه والقانون ص ١٣

(٢) المصدر السابق ص ١٣

٦ — وعند اليهود: كانت البنت تخرج من ميراث أبيها إذا كان له عقب من الذكور إلا ما كان يتبرع به لها أبوها في حياته، ففي الإصحاح الثاني والأربعين من سفر أيوب «ولم توجد نساء جميلات كنساء أيوب في كل الأرض، وأعطاهن ميراثاً بين إخوتهن».

وحين تحرم البنت من الميراث لوجود أخ ذكر لها يثبت لها على أخيها النفقة والمهر عند الزواج، إذا كان الأب قد ترك عقاراً، فيعطيها من العقار، وإلا لم يعطها شيئاً، ولو ترك الأب القناطير المقنطرة من الأموال المنقولة. والبنت التي يؤول إليها الميراث عند عدم وجود الأخ الذكر، لا يحق لها أن تنقل ميراثها إلى غير سبطها.. واليهود يعتبرون المرأة لعنة لأنها أغوت آدم، وقد جاء في التوراة: «المرأة أمر من الموت، وأن الصالح أمام الله ينجو منها، رجلا واحداً بين ألف وجدت، أما امرأة فبين كل أولئك لم أجد».

٧ — أما المسيحيون، فقد اعتبروا المرأة مسئولة عن انتشار الفواحش والمنكرات وكل ما آل إليه المجتمع من انحلال خلقي شنيع، وقرروا أن الزواج دنس يجب الابتعاد عنه، وأن المرأة باب الشيطان، وأنها يجب أن تستحي من جمالها، لأنه سلاح إبليس للفتنة والإغواء، فقد قال القديس سوستام: إنها شر لا بد منه، وآفة مرغوب فيها، وخطر على الأسرة والبيت ومحبوبة فتاكة، ومصيبة مطلية مموهة، وقد أثرت هذه الآراء كلها في أمم الغرب التي دخلت المسيحية، ففي فرنسا عقد سنة ٥٨٦ اجتماع في بعض ولاياتها، دار فيه البحث عن المرأة: أتعد إنساناً أم غير إنسان؟ وكان ختام البحث أن قرر المجتمع أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل.

وفي انجلترا كان النساء طبقا للقانون الانجليزي العام حوالي سنة ١٨٥٠

غير معدودات من المواطنين ، ولم يكن لها حقوق شخصية ، ولا حق لهن في تملك ملابسهن ، ولا في الأموال التي يكسبنها بعرق الجبين . ومن الطريف أن نـــذكر أن القانون الانجليزي حتى عام ١٩٠٥ كان يبيح للرجل أن يبيع زوجته .

ولما قامت الثورة الفرنسية (نهاية القرن الثامن عشر) وأعلنت حقوق الإنسان في الحرية والإخاء والمساواة ، لم تشمل المرأة بنصيب من حقوق الإنسان هذه في قوانينها . فقد جاء النص في القانون المـدني الفرنسي أن القاصرين هم الصبي والمرأة ، واستمر ذلك حتى عام ١٩٣٨ حيث عدلت هذه النصوص لمصلحة المرأة ، ولا تزال بعض القيود على تصرفات المرأة المتزوجة فلا يجوز أن تهب أو تتصرف في مالها إلا بعد موافقة الزوج موافقة خطية منه ، إذ أن الزواج عندهم قائم على دمج شخصيتها بشخصية زوجها ، ونظن أن هـذا النظام ، إن هو إلا آثار من الرق المدني الذي كان سائداً في أيام الرومان ، والذي تصبح فيه المرأة رقيقاً للرجل ، يتصرف في مالها كما يشاء ، والدليل على هـذا الرق ، أن المرأة بعد الزواج تنفصل باسمها وكنيتهـــا عن أسرتها .

٨ — أما عند العرب في الجاهلية ، كانت المرأة ممتهنة في كثير من أحوالها فقد كانت العرب لا تورث النساء ، وكان الرجل من خوف العار أو الفقر يئد بنته ، ويستكثر عليها النفقة التي لا يستكثرها على الجارية المملوكة والحيوان النافع ، وكل قيمتها بين الذين يستحيونها ولا يقتلونها في طفولتها ، أنهـا حصة من الميراث ، تنقل من الآباء إلى الأبناء ، وتبـاع وترهن في قضاء المنافع ، وسداد الديون ، وليس لها على زوجها أي حق ، وليس للطلاق حد معين ، ولا لتعدد الزوجات عدد محدود ، ولم يـكن عندهم نظام يمنع

تمكين الزوج من النكاية بها ، كما لم يكن لهـا حق فى اختيار زوجها . وكل ما كانت تعتز به المرأة العربية فى تلك العصور على أخواتها فى العالم كله . حماية الرجل لها ، والدفاع عن شرفها ، والثأر لامتهان كرامتها .

ثم جاء الإسلام بشريعة العدل(١) ليقرر للعالم كله قديمه وحديثه ، أن للمرأة كرامة ولها عرض ولها مال ، كما أن للرجل كرامته وعرضه وماله ، فلا يجوز إهدار كرامتها ، ولا انتقاص عرضها ولا منعهـا من تصرفهـا بمالها ، قال تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم » وقال تعالى : فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » وقال « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » ومنع الإسلام خدش كرامتها وعرضها مهما كانت الدوافع واعتبر ذلك قذفاً يستحق فاعله أن يجلد ثمانين جلدة إذا كان باللسان « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ، وأولئك هم الفاسقون » وإذا اغتصب عرضها بالزنا يجلد مائة جلدة أو يرجم إن كان ثيباً ، وإذا اتهم الزوج امرأته ولم يستطع أن يثبت ذلك فيشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الصادقين ، وتنفى عن نفسهـا التهمة صيانة لشرفها وعرضها وحرصاً على كرامتها أن تشهد أربع شهادات بالله أنه لمن الكاذبين ، والخامسة للرجل أن لعنة الله عليه إن كان كاذباً ، والخامسة للمرأة أن غضب الله عليها إن كان صادقاً ، فأى تكريم المرأة بعد هذا !

ومتى كانت المرأة فى أى بيئة من بيئات الدنيا أو عالم من عوالم القانون والتشريع فى هذا المستوى من التكريم ، حقوقهـا غير منقوصة فى مالهـا وأهليتها فى التصرف فيه كاملة . سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة ، مالها لها ، لا يملك أبوها ولا أخوها ولا زوجها أن يتصرف فيه أو يأخذه منها .

(١) تراجع خاصية التكافل والعدل فى هذا الكتاب .

هى حرة التصرف ولا تجبر على الإنفاق على البيت مع الزوج إلا برضاها ، فحق الملكية لها حق مشروع شرعه الإسلام منذ ألف وأربعمائة عام . وهو أمر لا تتمتع به المرأة الغربية حتى الآن ، فمثلا لا يحق لها أن تتصرف فى أموالها إذا كانت زوجة ، إلا بإذن زوجها ، فذمتها فى القانون الفرنسى (مثلا) غير منفصلة عن ذمة الزوج ، وقد عدل هذا القانون مؤخرا بحيث سوغ المرأة أن تودع أموالها باسمها .

والمرأة المسلمة تستطيع أن تقوم بكل ما تريد فى مالها ، تبيع وتشترى وتؤجر وتستأجر وتوكل من تشاء وتقوم بجميع العقود شريطة أن يتم ذلك فى طاعة الله لا فى معصيته ، فإذا تبرجت وتخلعت منعها الشرع من ذلك . .

لقد عنى الإسلام بالمرأة منذ ساعة ولادتها ، حيث كانت تستقبل بالنفور والمقت والاشمئزاز والتشاؤم : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » فجعل ولادة المرأة تفاؤلا وخيراً وبشرى قال ﷺ . « علامة يمن المرأة تبكيرها ببنت » وقال : « من كانت له ابنة ، فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها أدخله الله بها الجنة » فغير الله مفهوم الجاهلية نحو البنت من النظرة الحقيرة إلى النظرة الإنسانية الخيرة الطيبة ، واعتبر تبكير الأم بالبنت يمنا وبركة .

وأعطاها الإسلام وهى بكر مالم يكن له مثال قبله ولا بعده ، جعل لها أن تختار زوجها كما يختارها زوجها وأن تبدى الرأى فيه ، وهى صاحبة الكلمة الأخيرة ، فليس من حق ولى أمرها سواء كان أباها أو أخاها أو أمها أن يجبرها على زواج من لا ترغبه ، فقد ورد فى الحديث الشريف : « أن البكر تستأمر فتستحى فتسكت ، إذ بها سكاتها » ويقول الإمام ابن القيم فى كتابة زاد المعاد : (إن البالغة العاقلة الرشيدة لا يتصرف

أبوها فى أقل شىء من ملكها إلا برضاها ، ولا يجبرها على إخراج اليسير منة بدون رضاها ؟ فكيف يجوز أن يسرقها ويخرج بضعها منها بغير رضاها إلى من يريده هو ، وهى من أكره الناس، وهو من أبغض شىء إليها ، ومع هذا فينكحها إياه بغير رضاها إلى من يريد ويجعلها أسيرة عنده، كما قال عليه السلام : « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوان عندكم » ، ومعلوم أن إخراج مالها كله بغير رضاها أسهل عليها من تزويجها بمن لا تختاره بغير رضاها)

وقد رتب الإســـلام تبعاً لهذه الأهلية الكاملة للمرأة ، مسئوليتها فى تكاليف العبادة : من صلاة وصوم وزكاة وحج، ولم يضع عنها شىء منها إلا ما يتعارض مع طبيعتها كإباحة الإفطار حينما تـكون حائضاً أو نفساء أو حاملا ، وإسقاط الصلاة عنها عندما تكون نفساء أو حائضا ، وفرض عليهـا الزكاة فى مالها مثلما أوجبه فى مال الرجل، وجعل الحج فرضاً عليها كما فرضه على الرجل ، وأباح لها الجهاد فى وقت النفير العام تسقى الماء وتمرض الجرحى، ولم يلزمها به فى الأحوال العادية لأن مهمتها التى هيأها الله لها هى القيام على شئون الزوج المنزلية ورعاية الطفل ، تربية وتسقيه من روح الإسلام وتعلمه أن يكون جندياً من جنود لله ، وتلقنه الغاية من وجوده ، وتنشئه على مرضـاة الله . وهذه المهمة هى أسمى مهمة يقوم بها بشر ، ويحملها إنسان، ومن تكريم الله للمرأة أن جعلها من نصيبها . . وهل هناك مهمة أعظم من بناء الأجيال مهمة؟!..ورتب الله عليها فى هذه المسئوليات حسن الثواب فى الجنة إن هى أحسنت ، وسوء العذاب فى النار إن هى أساءت . .

والمنهج القرآنى فى التربية يضرب لنا مثلين : امرأة أســاءت فمصيرها النـار ، وامرأة أحسنت فكانت جائزتها الجنة : « ضرب الله مثلا للذين كفروا ، امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبـدين من عبادنا صـالحين

فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين . . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله، ونجنى من القوم الظالمين».

وإذا كان الله فى منهجه قد رفع شأن المرأه وأعلا منزلتها وجعل لها من الحق مثل ما عليها باعتبارها كائن إنسانى، فلها فى حدود طبيعتها أن تمارس الحق الإلهى الذى منحها إياه فى جو من الطهر والإيمان واستقامة على أحكام الشريعة ، ولا تكون كامرأة نوح خائنة لمبادىء دينها وتقاليد أمتها الإسلامية . . نقول هذا لأن المرأة اليوم إنما ادعت من حقوقها ما يمكنها من الخروج على آداب الإسلام ، انطلاقاً وتقليد للغرب المتحرر من كل القيم الأخلاقية ، مما يؤدى إلى هدم الأسرة وزلزلة بنيانها ، ومما يعود بالعواقب الوخيمة على المجتمع .

وهنا يتبادر سؤال عن صورة المرأة المسلمة كما أرادها الله ؟ ! . . ندع الإجابة للإمام الشهيد حسن البنا كما جاءت فى مجلة « المنار » بالجزئين الثامن والعاشر سنة ١٣٥٩ هـ ، فى فترة رئاسته لتحرير هذه المجلة الغراء بعد وفاة صاحبها السيد رشيد رضا رضى الله عنهما .

المرأة المسلمة

بقلم الامام الشهيد حسن البنا

كتب إلى كاتب فاضل يطلب أن أكتب عن المرأة وموقفها من الرجل وموقف الرجل منها ، ورأى الإسلام فى ذلك وحث الناس على التمسك به والنزول على حكمه .

لست أجهل أهمية الكتابة فى موضوع كهذا ، ولا أهمية انتظام شأن المرأة فى الأمة ، فالمرأة نصف الشعب ، بل هى النصف الذى يؤثر فى حياته أبلغ التأثير ، لأنه المدرسة الأولى التى تكوّن الأجيال وتصوغ الناشئة ، وعلى الصورة التى يتلقاها الطفل من أمة يتوقف مصير الشعب واتجاه الأمة ، وهى بعد ذلك المؤثر الأول فى حياة الشباب والرجال على السواء.

لست أجهل كل هـذا ، ولم يهمله الإسلام الحنيف وهو الذى جاء نوراً وهدى للناس ينظم لهم شئون الحياة على أدق النظم وأفضل القواعد والنواميس. أجل لم يهمل الإسلام كل هذا ، ولم يدع الناس يهيمون فيه فى كل واد ، بل بين لهم الأمر بيانا لا يدع زيادة لمستزيد :

وليس المهم فى الحقيقة أن تعرف رأى الاسلام فى المرأة والرجل ، وعلاقتهما وواجب كل منهما نحو الآخر ، فذلك أمر يكاد يكون معروفا لكل الناس . ولكن المهم أن نسأل أنفسنا هل نحن مستعدون للنزول على حكم الاسلام ؟ .

الواقع أن هـذه البلاد وغيرها من البلاد الإسلامية تتغشاها موجة ثائرة قاسية من حب التقليد الأوربى والانغماس فيه إلى الأذقان .

ولا يكفى بعض الناس أن ينغمسوا هذا الانغماس فى التقليد ، بل هم يحاولون أن يخدعوا أنفسهم بأن يديروا أحكام الإسلام وفق هذه الأدواء الغربية والنظم الأوربية ، ويستغلوا سماحة هـذا الدين ومرونة أحكامه استغلالا سيئا يخرجها عن صورتها الإسلامية إخراجا كاملا ، ويجعلها نظما أخرى لا تتصل به بحال من الأحوال ، ويهملون روح التشريع الاسلامى وكثيرا من النصوص التى لا تتفق مع أهوائهم.

هذا خطر مضاعف فى الحقيقة فهم لم يكفهم أن يخالفوا حتى جاءوا

يتلمسون المخارج القانونية لهذه المخالفة ، ويصبغونها بصبغة الحل والجواز حتى لا يتوبوا منها ولا يقلعوا عنها يوما من الأيام .

فالمهم الآن أن ننظر إلى الأحكام الإسلامية نظرا خاليا من الهوى وأن نعد أنفسنا ونهيئها لقبول أوامر الله تعالى ونواهيه وبخاصة فى هـذا الأمر الذى يعتبر أساسيا وحيويا فى نهضتنا الحاضرة .

وعلى هذا الأساس لا بأس بأن نذكر الناس بما عرفوا ، وبما يجب أن يعرفوا أحكام الإسلام فى هذه الناحية .

أولا : الاسلام يرفع قيمة المرأة ويجعلها شريكة الرجل فى الحقوق والواجبات :

وهذه قضية مفروغ منها تقريبا ، فالإسلام قد أعلى منزلة المرأة ورفع قيمتها واعتبرها أختا للرجل وشريكة له فى حياته ، هى منه وهو منها ، بعضكم من بعض ، وقد اعترف الاسلام للمرأة بحقوقها الشخصية كاملة وبحقوقها المدنية كاملة كذلك ، وبحقوقها السياسية كاملة أيضا ، وعاملها على أنها إنسان كامل الانسانية له حق وعليه واجب يشكر إذا أدى واجباته ويجب أن تصل إليه حقوقه والقرآن والأحاديث فياضة بالنصوص التى تؤكد هذا المعنى وتوضحه .

ثانيا : التفريق بين الرجل والمرأة ، فى الحقوق إنما جاء تبعا للفوارق الطبيعية التى لا مناص منها بين الرجل والمرأة وتبعا لاختلاف المهمة التى يقوم بها كل منهما وصيانة للحقوق الممنوحة لكليهما :

وقد يقـال إن الإسـلام فرق بين الرجل والمرأة فى كثير من الظروف والأحوال ولم يسو بينهما تسوية كاملة ، وذلك صحيح . ولكن من جانب آخر يجب أن يلاحظ أنه إن انتقص من حق المرأة شيئا فى ناحية فإنه قد عوضها خيرا منه فى ناحية أخرى . أو يكون هذا الانتقاص لفائدتها وخيرها قبل أن يكون لشىء آخر . وهل يستطيع أحد كائنا من كان أن يدعى أن

تكوين المرأة الجسمانى والروحى كتكوين الرجل سواء بسواء وهل يستطيع أحد كائنا من كان أن يدعى أن الدور الذى تقوم به المرأة فى الحياة هو الدور الذى يجب أن يقوم به الرجل ما دمنا نؤمن بأن هنا كأمومة وأبوة.

أعتقد أن التكوينين مختلفان وأن المهمتين مختلفتان كذلك وأن هذا الاختلاف لا بد أن يستتبع اختلافا فى نظم فى الحياة المتصلة بكل منهما، وهذا هو سر ما جاء فى الاسلام من فوارق بين الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات

ثالثا : بين المرأة والرجل تجاذب فطرى قوى هو الأساس الأول للعلاقة بينهما ، وأن الغاية منه قبل أن تكون المتعة وما إليها هى التعاون على حفظ النوع واحتمال متاعب الحياة :

وقد أشار الاسلام إلى هذا الميل النفسانى وزكاه وصرفه عن المعنى الحيوانى أجمل الصرف إلى معنى روحى يعظم غايته ويوضح المقصود منه ويسمو به عن صورة الاستمتاع البحث إلى صورة التعاون التام ولنسمع قول الله تبارك وتعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

• • •

هذه هى الأصول التى رعاها الاسلام وقررها فى نظرته إلى المرأة، وعلى أساسها جاء تشريعه الحكيم كافلا للتعاون التام بين الجنسين بحيث يستفيد كل منهما من الآخر ويعينه على شئون الحياة

والكلام عن المرأة فى المجتمع فى نظر الاسلام يتلخص فى هذه النقط :

أولا : يرى الاسلام وجوب تهذيب خلق المرأة وتربيتها على الفضائل والكمالات النفسانية منذ النشأة ويحث الآباء وأولياء أمور الفتيات على هذا ويعدهم عليه الثواب الجزيل من الله ويتوعدهم بالعقوبة إن قصروا . وفى الآية الكريمة « يا ايها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون

ما يؤمرون» .

وفى الحديث الصحيح «كلكم راع ومسئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته» أخرجه الشيخان من حديث عبدالله بن عمر ، وعن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : «ما من مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة» رواه ابن ماجه بإسناد صحيح وابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: «من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن فله الجنة» رواه الترمذى واللفظ له وأبو داود إلا أنه قال (فأدبهن وأحسن إليهن وزوجهن فله الجنة) .

ومن حسن التأديب أن يعلمهن ما لا غنى لهن عنه من لوازم مهمتهن كالقراءة والكتابة والحساب والدين وتاريخ السلف الصالح رجالا ونساء وتدبير المنزل والشئون الصحية ومبادئ التربية وسياسة الأطفال وكل ما تحتاج إليه الأم فى تنظيم بيتها ورعاية أطفالها ، وفى حديث البخارى رضى الله عنه «نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين» وكان كثير من نساء السلف على جانب عظيم من العلم والفضل والفقه فى فى دين الله تبارك وتعالى .

أما المقالات فى غير ذلك من العلوم التى لاحاجة للمرأة بها فعبث لاطائل تحته ، فليست المرأة فى حاجة إليه وخير لها ان تصرف وقتها فى النافع المفيد .

ليست المرأة فى حاجة إلى التبحر فى اللغات المختلفة .

وليست فى حاجة إلى الدراسات الفنية الخاصة ، فستعلم عن قريب أن المرأة للمنزل أولا وأخيرا .

وليست المرأة فى حاجة للتبحر فى دراسة الحقوق والقوانين ، وحسبها أن تعلم من ذلك ما يحتاج إليه عامة الناس .

كان أبو العلاء المعرى يوصى بالنساء فيقول :

علموهن الغزل والنسج والرد ن(١) وخلو كتابة وقراءة

فصلاة الفتاة بالحمد والإخلا ص تجزىء عن يونس وبراءة

ونحن لا نريد أن نقف عند هذا الحد(٢)، ولا نريد مايريد أولئك المغالون المفرطون فى تحميل المرأة ما لاحاجة به من أنواع الدراسات ، ولكننا نقول علموا المرأة ما هى فى حاجة إليه بحكم مهمتها ووظيفتها التى خلقها الله لها : تدبير المنزل ورعاية الطفل.

ثانيا : التفريق بين المرأة وبين الرجل :

يرى الإسلام فى الاختلاط بين الرجل والمرأة خطراً محققاً ، فهو يباعد بينهما إلا بالزواج.

سيقول دعاة الاختلاط إن فى ذلك حرمانا للجنسين من الإجتماع وحلاوة الأنس التى يجدها كل منهما فى سكونه للآخر ، والتى توجد شعورا يستتبع كثيرا من الآداب الاجتماعية من الرقة وحسن المعاشرة ولطف الحديث ودماثة الطباع . . إلخ وسيقولون إن هذه المباعدة بين الجنسين ستجعل كلا منهما مشوقا أبدا إلى الآخر ، ولكن الاتصال بينهما يقلل من هذا الشأن ويجعله أمرا عاديا فى النفوس (وأحب شىء للإنسان ما منعا) ، وما ملكته اليد زهدته النفس .

(١) حياكة الملابس

(٢) يقصد الحد الذى وقف عنده أبو العلاء فى تعليم الفتاة

هكذا يقولون ويفتتن بقولهم كثير من الشبان ، ولا سيما وهى فكر توافق أهواء النفوس ، وتساير شهواتها ، ونحن نقول لهؤلاء : مع أننا لا نسلم بما ذكرتم فى الأمر الأول ، نقول لكم إن ما يعقب لذة الاجتماع وحلاوة الأنس من ضياع الأعراض ، وخبث الطوايا وفساد النفوس ، وتهدم البيوت ، وشقاء الأسر ، وبلاء الجريمة ، وما يستلزمه هذا الاختلاط من طراوة فى الأخلاق ولين فى الرجولة لا يقف عند حد الرقة ، بل هو يتجاوز ذلك إلى حد الخنوثة والرخاوة ، وكل ذلك ملموس لا يمارى فيه إلا مكابر .

كل هذه الآثار السيئة التى تترتب على الاختلاط تربو ألف مرة على ما ينتظر منه من فوائد ، وإذا تعارضت المصلحة والمفسدة فدرء المفسدة أولى ، ولا سيما إذا كانت المصلحة لا تعد شيئاً بجانب هذا الفساد .

أما الأمر الثانى فغير صحيح ، وإنما يزيد الاختلاط قوة الميل ، وقديماً قيل : إن الطعام يقوى شهوة النهم ، والرجل يعيش مع امرأته دهراً ، ويجد الميل إليها يتجدد فى نفسه ، فما باله لا تكون صلته بها مذهبة لميله إليها ، والمرأة التى تخالط الرجال تتفنن فى إبداء ضروب زينتها ، ولا يرضيها إلا أن تثير فى نفوسهم الإعجاب بها ، وهذا أيضا أثر اقتصادى من أسوأ الآثار التى يعقبها الاختلاط ، وهو الإسراف فى الزينة والتبرج المؤدى إلى الإفلاس والخراب والفقر .

لهذا نحن نصرح بأن المجتمع الإسلامى مجتمع يكره الاختلاط ، للرجال فيه مجتمعاتهم وللنساء مجتمعاتهم ، ولقد أباح الإسلام للمرأة شهود العيد وحضور الجماعة والخروج فى القتال عند الضرورة الماسة ، ولكنه وقف عند هذا الحد ، واشترط له شروطا شديدة : من البعد عن كل مظاهر الزينة ، ومن ستر الجسم

ومن إحاطة الثياب به ، فلا تصف ولا تشف ، ومن عدم الخلوة بأجنبي مهما تكن الظروف وهكذا

إن من أكبر الكبائر فى الإسلام أن يخلو الرجل بامرأة ليست بذات محرم له ، ولقد أخذ الإسلام السبيل على الجنسين فى هذا الاختلاط أخذاً قوياً محكما .

- فالستر فى الملابس أدب من آدابه .
- وتحريم الخلوة بالأجنبي حكم من أحكامه.
- وغض الطرف واجب من واجباته
- والعكوف فى المنازل للمرأة حتى فى الصلاة شعيرة من شعائره .
- والبعد عن الإغراء بالقول والإشارة وكل مظاهر الزينة ، وبخاصة عند الخروج حد من حدوده .

كل ذلك إنما يراد به أن يسلم الرجل من فتنة المرأة وهى أحب الفتن إلى نفسه ، وأن تسلم المرأة من فتنة الرجل وهى أقرب الفتن إلى قلبها ، والآيات الكريمة والأحاديث المطهرة تنطق بذلك .

يقول الله تبارك وتعالى فى سورة النور : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن ، إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو آبائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون »

وفى سورة الأحزاب : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين».

إلى آيات أخر كثيرة .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يعنى عن ربه عز وجل : «النظرة : سهم مسموم من سهام إبليس من تركها مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه » . رواه الطبرانى والحاكم من حديث حذيفة.

وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ، أو ليكسفن الله وجوهكم » . رواه الطبرانى .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مامن صباح إلا وملكان يناديان : ويل الرجال من النساء ، وويل للنساء من الرجال » . رواه ابن ماجه والحاكم .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء ، فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحم ؟ قال الحم الموت » رواه البخارى ومسلم والترمذى ، والمراد بدخول الأحماء على المرأة الخلوة بها . كما قال رسول الله ﷺ : « لا يخلو رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أن رسول ﷺ قال : « لا يخلو أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم » رواه البخارى ومسلم .

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لا تحل

له » . رواه الطبراني والبيهقي ورجال الطبراني ثقاة من رجال الصحيح ، كذا قال الحافظ المنذري .

وروى عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إياك والخلوة بالنساء ، والذي نفسي بيده ما خلا رجل بامرأة إلا دخل الشيطان بينهما ، ولأن يزحم رجل خنزيراً متلطخاً بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكبيه منكب امرأة لا تحل له » . رواه الطبراني .

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : كل عين زانية والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا » وكذا يعني : زانية . رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، ورواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما ، ولفظهم : قال النبي ﷺ : « أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية وكل عين زانية » : أي كل عين نظرت إليها نظرة إعجاب واستحسان .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال » . رواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبراني . وعنه : أن امرأة مرت على رسول الله ﷺ متقلدة قوساً ، فقال : « لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال ، والمتشبهين من الرجال بالنساء »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل » . رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « لعن الله الواشمات والمستوشمات

والمتنمصات [1] والمتفلجات [2] للحسن المغيرات خلق الله فقالت له امرأة فى ذلك ، فقال : ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ ، وهو فى كتاب الله ، قال الله تعالى: « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه والنسائى .

وعن عائشة رضى الله عنها أن جارية من الأنصار تزوجت ، وأنها مرضت فتمعط [3] شعرها ، فأرادوا أن يصلوها ، فسألوا النبى ﷺ فقال : « لعن الله الواصلة والمستوصلة ، وفى رواية : « أن امرأة من الأنصار زوجت ابنتها فتمعط شعر رأسها ، فجاءت إلى النبى ﷺ ، فذكرت ذلك له وقالت ، إن زوجها أمرنى أن أصل شعرها ، فقال لا ، إنه قد لعن الموصولات » رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفراً يكون ثلاثة أيام فصاعدا إلا ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو محرم منها » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه . وفى رواية للبخارى ومسلم : « لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم منها أو زوجها » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ،

---

(١) المتنمصات : النامصات شعورهن للزينة .
(٢) المتفلجات : البارداث أسنانهن للتجميل .
(٣) تمعط شعرها : سقط .

ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنـة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » . رواه مسلم وغيره .

وعن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال : « يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشـار إلى وجهه وكفيه » رواه أبو داود وقال هذا مرسل ، وخالد بن دريك لم يدرك عائشة .

وعن أم حميد امرأة أبى حميد الساعدى رضى الله عنهما أنها جاءت إلى النبي ﷺ فقالت يا رسـول الله : « إنى أحب الصلاة معك » قال : « قد علمت أنك تحبين الصـــلاة معى ، وصـلاتك فى بيتك خير من صلاتك فى حجرتك ، وصلاتك فى حجرتك خير من صلاتك فى دارك ، وصـلاتك فى دارك خير من صلاتك فى مسجد قومك ، وصلاتك فى مسجد قومك خير من صلاتك فى مسجدى » فأمرت فبنى لها مسجد فى أقصى شىء من بيتها وأظلمه ، وكانت تصلى فيه حتى لقيت الله عز وجل . رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

وليس بعد هذا البيـان بيـان ، ومنه يعـلم أن ما نحن عليه ليس من الإسـلام فى شىء ؛ فهذا الاختلاط الفاشى بيننا فى المدارس والمعاهد والمجامع والمحافل العامة ، وهذا الخروج إلى الملاهى والمطاعم والحدائق ، وهذا التبذل والتبرج الذى وصل إلى حد التهتك والخلاعة ، كل هذه بضاعة أجنبية لا تمت إلى الإسـلام بأدنى صلة ، ولقد كان لها فى حياتنا الاجتماعيـة أسوأ الآثار .

يقول كثير من الناس : إن الإسلام لم يحرم على المرأة مزاولة الأعمال العامة ، وليس هناك من النصوص ما يفيد هذا ، فأتونى بنص يحرم ذلك ، ومثل هؤلاء مثل من يقول : إن ضرب الوالدين جائز ، لأن المنهى عنه فى الآية أن يقال لهما : « أف » ولا نص على الضرب .

إن الإسلام يحرم على المرأة أن تكشف عن بدنها ، وأن تخلو بغيرها وأن تخالط سواها . ويحبب إليها الصلاة فى بيتها ، ويعتبر النظرة سهما من سهام إبليس ، وينكر عليها أن تحمل قوسا متشبهة فى ذلك بالرجل ؛ أفيقال بعد هذا إن الإسلام لا ينص على حرمة مزاولة المرأة الأعمال العامة ؟!

إن الإسلام يرى للمرأة مهمة طبيعية أساسية هى المنزل والطفل، فهى كفتاة يجب أن يهيأ لمستقبلها الأسرى ، وهى كزوجة يجب أن تخلص لبيتها وزوجها ، وهى كأم يجب أن تكون لهذا الزوج ولهؤلاء الأبناء ، وأن تتفرغ لهذا البيت ؛ فهى ربته ومدبرته وملكته . ومتى فرغت المرأة من شئون بيتها لتقوم على سواه؟!

فإذا كان من الضرورات الاجتماعية مايلجىء المرأة إلى مزاولة عمل آخر غير هذه المهمة الطبيعية لها ؛ فإن منواجبها حينئذ أن تراعى هذه الشرائط التى وضعها الإسلام لإبعاد فتنة المرأة عن الرجل وفتنة الرجل عن المرأة ، ومن واجبها أن يكون عملها هذا بقدر ضرورتها ، لا أن يكون هذا نظاما عاما ، من حق كل امرأة أن تعمل على أساسه ، والكلام فى هذه الناحية أكثر من أن يحاط به ، ولا سيما فى هذا العصر « الميكانيكى » الذى أصبحت فيه مشكلة البطالة وتعطل الرجال من أعقد مشاكل المجتمعات البشرية فى كل شعب وفى كل دولة .

وللإسلام بعد ذلك آداب كريمة فى حق الزوج على زوجه ، والزوجة

على زوجها ، والوالدين على أبنائهما ، والأبنـاء على والديهم ، وما يجب أن يسود الأسرة من حب وتعاضد على الخير ، وما يجب ان تقدمه الأمـة من خدمات جلى مما لو أخذ النـاس بها لسعدوا فى الحيـــاتين ، ولفازوا بالعبادتين .



انتهى مقال الإمام الشهيد حسن البنا عن المرأة المسلمة وسنعالج ما أشار إليه فضيلته من آداب الإسلام فى قيام الأسرة المسلمة .. حقوق الزوجين كل على الآخر وواجبهما نحو أبنائهما وحقوق الوالدين على الأبناء فى الباب الثانى من هذا الكتاب وبالله التوفيق .

الفصل الثانى

الخطة الصهيونية الصليبية وتدمير الأسرة المسلمة

الخطة الصهيونية

ترى الصهيونية العالمية أن انهيار الأخلاق فى العالم وسيطرة الشهوات والغرائز الجنسية ، وحصر الناس فى دائرة الضنك والحرمان لا هم لهم إلا اللقمة من أين يجيئون بها ، أو فى دائرة الترف والحرص على جمع المال من أى سبيل وبأى وسيلة شريفة أو غير شريفة .. كل هذا يمهد لها الطريق للسيطرة وبسط النفوذ فى العالم .

لأن انهماك الناس وصرف أنظار الشعوب إلى هذه الأمور يزيدهم تعلقا بالدنيا وحب الحيـاة ، ويزيدهم خوفاً من الموت ورهبا منه ، ويشغلهم عن القيم الإنسانية العليا والمبادىء والمشاعر التى تدفعهم للحفاظ على كرامتهم وعزتهم والدفاع عن حقوقهم ومقدساتهم ، مما يسهل للحركة الصهيونية تحقيق أهدافها بأقل التكاليف والجهود فى بسط سيطرتها على شعوب العالم .

لهذا عمل اليهود على ضرب المجتمعات من الداخل بالانحلال وتقويض دعائم الأسرة بالإباحيـــة ، وكان أول رائد لهم فى العصر الحديث : هو اليهودى (فرويد) ، الذى عمل فى مجال الأخلاق ماعمله دارون وماركس فى مجالات الفـكر والدين .. فيقولون فى بروتوكولاتهم : يجب أن نعمل لانهيار الأخلاق فى كل مكان لتسهل سيطرتنا ، إن فرويد منا ، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس ، لـكى يبقى فى نظر الشباب الشىء المقدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية ، وعندئذ تنهار الأخلاق » "

فى إطار هذا المخطط عمل فرويد وجاءت نظريته النفسية لتقول : إن الغريزة الجنسية هى التى تتحكم بسلوك الفرد وتحدد جميع العلاقات ، وكبت هذه الغريزة والحد من نشاطها يؤدى إلى كبت جميع طاقات الإنسان ، وأن الدين ناشىء من الكبت ، من عقدة أوديب ، من العشق الجنسى الذى يحسه الولد نحو أمه ، من رغبة الإبن فى قتل أبيه !! .. وانتشرت هذه النظرية بين الشباب فى الغرب ، وضربت الأخلاق ، وهبطت بالإنسان إلى مستوى أقل من الحيوان . ثم تبعه اليهودى (دوركايم) بنظرياته الاجتماعية ليقول: إن الأسرة عمل صناعى ولا ضرورة لها والأصل هو شيوعية النساء ، فهدم أساس المجتمعات .

ولم تقف المؤامرة عند هذا الحد . وإنما حرصت على إخراج المرأة من بيتها إلى الطريق .

- ماركس يقول : إن المرأة يجب أن تعمل

- ودوركايم يقول : إن الزواج ليس فطرة والأسرة ليست نظام طبيعى .

- وفرويد يتلقفها فيقول لها : إنها لابد أن تحقق كيانها تحقيقا جنسيا خالصاً من القيود .

وراح شياطين اليهود ينشرون هذه النظريات النفسية والاجتماعية فى المؤسسات التعليمية والتربوية والثقافية والإعلامية ، كما عملوا على استغلال جوانب الحياة الأخرى فيعمدون إلى تشجيع الترف الذى يجلب الهلاك ويخلق الحقد بين الطبقات ويغرق المجتمعات فى الفساد والانحلال .

فقاموا بتهيئة أسباب الترف عن طريق شركاتهم المنتجة للكماليات المختلفة المتجددة فى أشكالها وألوانها لتسلب ثروات الأمم .

- كذلك يسيطر اليهود فى أوربا وأمريكا على دور الأزياء وبيوت الزينة ، وبذلك يعينون ملابس الرجال وأزياء النساء من آن لآخر فيمسخون الرجل

ويعرون المرأة . والهدف النهائي لهذه البيوت أن تجعل المرأة التي أخرجها ماركس للعمل فتنة، تشغل بال الشباب بالفتنة والإغراء ، وتحلل في قلبه وازع الإيمان والتقوى .

ـ ولم يغفل اليهود الفن بمظاهره المختلفة ووسائله المتنوعة للإفساد ، فالأغنية أصبحت دعوة صريحة إلى الفسق والفجور، والسينما، وهي مؤسسة يهودية تعمل على إفساد الأولاد والبنات بما تعرض عليهم من فتنة .

ويدير اليهود الملاهي والمراقص وبيوت الدعارة في أكثر بلدان العالم حتى تحولت المجتمعات إلى مواخير تعج بالفساد والدعارة .

ـ وتلعب النساء اليهوديات المتنكرات في جنسيات مختلفة دوراً كبيراً في إفساد الأخلاق وسلب الأموال واستغلال الزعماء السياسيين ورؤساء الدول ، فالملاحظ أن الكثير من هؤلاء الزعماء لهم زوجات أو خليلات يهوديات يطلعن على أسرارهم لخدمة المخططات اليهودية .

ـ وهم يعملون بشتى الوسائل المغرية للتشجيع على اختلاط الجنسين .

ـ ويقومون على نشر المجلات والكتب الجنسية المهيجة والقصص الغرامية المثيرة والصور العارية في أوضاع شتى . ومن المعروف أن أكبر ناشر للأدب الجنسي المكشوف في العالم رجل يهودي يعمل تحت اسم مستعار (موريس غيرودياس) واسمه الحقيقي (غورودياس بن جاك كاهان)، وأبوه من قبله كانت مهنته نفس المهنة وتوفي سنة ١٩٤٩ م ،وسلسلة كتبه تحت اسم (أولمبيا) ، والمكتبة الشهيرة التي تبرز وتروج وتبيع كتب هذا الناشر هي (برنتانو) في مدينة باريس .

لقد أشار هنري فورد في كتابه « اليهودي العالمي » ، بأن اليهود من أجل تحقيق غاياتهم ، قد سيطروا على ثلاثة أشياء : البنوك للربا ، والسينما

لتقديم مفاهيمهم المسمومة، وشركات الملابس والأزياء والمساحيق والعطور، وسواها من مستلزمات (الموضة) فكلما غيروا الأنماط (الموضة) زادوا النساء شراء وإنفاقاً، وتسربت الأموال إلى جيوب اليهود . وهم يحققون أيضاً قتل الأخلاق ويشيعون التفسخ وينشرون الشهوات، وإنما الملابس القصيرة ابتكار يهودي، فقد رفعوا أزياء النساء فوق الركبة، لتزول الحياء وتنتشر الرذيلة، ويشيع الاختلاط غير البريء بين الشبان والشابات، وتضيع طهارة الفتاة وتتهدم الأسرة وتنتشر الأمراض الجنسية، ويبتلى الأطفال وينشأ جيل ضائع موبوء مريض .

والمرأة المسلمة تسعى إلى حتفها وحتف أمتها دون أن تدرى، وقبل أن تفيق من أحلامها وأهوائها .

وابتلى العالم الإسلامى بهذه الشرور منذ أن استعمره عبيد الصيهونية من الغرب ») فالعادات والتقاليد التى جعلت للأمة الإسلامية خصائص نفسية معينة سمت بها، وأعطتها صلابه وتميزاً[1] صارعت بها كل الخطوب والنوازل .. هذه العادات أصبح وجودها فى حياة الأمة مستهدفاً لهذه التيارات الانحلالية، التى لم تدع مكاناً الآن إلا دخلتـــه من المدينة إلى القرية .

وما أصاب التقاليد، أصاب الأسرة ـ حصن المجتمع ومصنع طاقاته ـ فأخذت تعصف بها تيارات الهدم بسبب انحلال الرجل وفقدانه رجولته واستهتار المرأة وفقدانها العواطف النبيلة وصفات الأنثى الفاضلة .

واليهود يركزون على تدمير الحياة الأسرية للوصول إلى أهــــدافهم الشريرة، فقد جاء فى البروتوكول العاشر : « فإذا أوحينا إلى عقل كل فرد

(١) راجع خاصية « التميز » فى هذا الـكتاب .

فكرة أهميته الذاتية ، فسوف تدمر الحياة الأسرية بين الأميين - غير اليهود - وتفسد أهميتها التربوية» .

الواقع أن الحملات الصهيونية والصليبية عندما استطاعت الدخول إلى الأسرة المسلمة ، قد استولت على أهم معقل فى المجتمعات الإسلامية ، فبدلا من أن توجه حملاتها الإفسادية للفرد المسلم بعد أن يخرج إلى الحياة مزوداً بأسباب المناعة والحصانة التى يستمدها من تربيته الأسرية ، صار يشب على الفساد فى أسرته منذ الطفولة ويتلقن اتجاهات وتقاليد الميوعة والاستهتار من أمه وأبيه .. من أمه التى لا ترى لها قدوة إلا فى الممثلات وعارضات الأزياء والغانيات . والحقيقة التى لامراء فيها أن المرأة فى الشرق الإسلامى أصبحت رسول فساد أينما ذهبت - إلا من رحم الله - فهى فى البيت مفسدة للنشىء ، مثبطة للزوج عن الأعمال الجليلة والأهداف العالية لا يرضيها إلا أن يملأ لها (حقيبة يدها بأوراق البنكنوت) لتنفقها فى اللهو والزينة ولا يهمها بعد ذلك من أى طريق جاء هذا المال من حلال أم من حرام !! كما أصبحت لا تفهم رباطها بالزوج إلا كما تفهم البقر رباطها بفحل البقر . وهى فى المجتمع عامل إغراء وفتنة تنشر الفساد فى كل ناحية بعريها وميوعتها ، وينعكس هذا الأثر على نفوس الشباب الذى مسخ إلى عجول حيوانية فى صور آدمية تنتشر على مفارق الشوارع والحوارى فى المدينة لينهش بعيونه الجائعة أجساد الغاديات والرائحات من الكاسيات العاريات ، فانطمست بذلك فطرته وتدنست طهارته وغرق فى هذه التيارات النجسة وانصرف عن واجباته ، وأصبح لا يعى مستقبله ولا مايراد له فى غده .

ويعبر عن هذا الوضع الشائن للمرأة المسلمة اليهودى « مورو بيرجر » فى كتابه «العالم العربى المعاصر» الذى صـــدر عام ١٩٦٣ بأسلوب فرح

مستبشر لخروج النساء على الإسلام .. يقول : « .. والسلوك والأخلاق تتغير بسرعة لدرجة أن الحكومات أصبحت تراقب هذا التغير . فالتغرب قد أثر تماما بالعلاقات بين الرجال والنساء ، وهو أشد أنواع التغير هولا ، والإسلام أكثر صرامة من بقية الأديان فى تحريمه تبرج النساء وزينتهن ، إلا أن هذا التحريم يصـــاب فى كبده من سهم ملابس النساء وتحررهن المتواصل » (١) .

هذا ونسمع أن المرأة قامت لتشارك فى القضايا القومية بعقد مؤتمرات لا تختلف فى حقيقتها عن حفلات اختيار ملكات الجمال وعروض الأزياء .. فهى تروح إليها لاستعراض فتنتها وزينتها التى يستحضرها لأمثالهن من التحررات اليهودى (ماكس فاكتور) الذى يملك مصانع أدوات التجميل فى الغرب .

على أن أخطر ما ابتلينا به هو فقدان الغيرة والحساسية بقيمة الأخلاق وقيم الرجولة ، فقد كان الرجل المسلم أشد حرصا على صيانة نسائه وأعراضهن وشرفهن وحفظ عفافهن وطهرهن ، من أن يصاب بخدش أو بطعن ، أو يمس بخبث أو دنس ، أو يلحق بأذى أو ضر ، فقد كانت غيرته أصلا فى تدينه ، ودليلا على عظم كرامة المرأة عنده ، فهو الذى تربى على قول الرسول ﷺ « ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة ، مدمن خمر ، والعاق ، والديوث الذى يقر فى أهله الخبث » رواه أحمد . فأصبحنا وقد تبلدت هذه الحساسية وقتلت هذه الغيرة فينا بفعل مخططات الانحلال الصهيونى الصليبى ، وصار الأب لايبالى أن يرى ابنته كاسية عارية ، تصاحب الشباب بحجة الزمالة فى الجامعة ومعاهد التعليم ، أو العمل ، أو نوادى الرياضة ، أو على الشواطىء ، بل هو

(١) تراجع خاصية «التحرير» فى هذا الكتاب .

يصطحب زوجته وأولاده إلى السينما يشاهدون مناظر الفجور والزنا تعرض عليهم خطوة خطوة ، وهو يتكدس بجانبهم كومة من اللحم البارد لا يحركه شعور ولا تهزه غيرة ولا نخوة .

وكان الأجدر بأولى الأمر فى أمتنا أن يكونوا أكثر يقظة وانتباهاً لهذه التيارات المخربة والمخططات المدمرة التى يزجيها اليهود إلينا كسلاح فى معركتهم معنا ، لتحطيم صلابتنا، ولكنهم راحوا يحملون العبء كله كوكلاء عنهم فى تنفيذ هذه المخططات، يقومون بكل التسهيلات لإنشاء الملاهى وأندية القمار ويتسترون على بيوت الدعارة ويقدمون لها كل أسباب الحماية ، ويشجعون قيام حفلات ملكات الجمال ، والغناء والرقص ويصرفون المكافآت للراقصين والداعرين والداعرات باسم تدعيم الفنون ، وأقروا الاختلاط بين الجنسين فى دوائر العلم والعمل والأماكن العامة وأيام الأعياد المختلفة ، وحاربوا كل دعوة إلى نظافة الأمة وتطهيرها من كل الموبقات ويصدون عن سبيل الله ويقفون لكل سالك له يريد أن يتطهر .. وبذلك كانوا وكلاء عن تنفيذ هذه المخططات وفتحوا جميع النوافذ على المجتمعات الإسلامية لتدخلها كل تيارات الهدم والفساد .

جاء البروتوكول الثالث عشر من بروتوكولات صهيون يقول :
« ولكى نبعدهم - غير اليهود - عن اكتشاف سير خط جديد فى السياسة سنلهيهم بأنواع شتى من التسلية كالقمار والملاهى وإثارة العواطف ونشر منازل الدعارة ، ونقوم بالإعلان فى الصحف داعين الناس إلى الدخول فى مباريات شتى من أنواع المشروعات كالفن والرياضة وما إليها . هذه المتع الجديدة ستلهى الناس نهائياً عن المسائل التى قد تثير النزاع بيننا وبينهم ، وحالما يفقد الناس تدريجياً نعمة التفكير المستقل سنكون الوحيدين الذين

يكونون أهلا لتقديم خطوط تفكير جديدة عن طريق وسطاء لن يرتاب أحد في أنهم من أبناءنا وسنحاول أن نوجه العقل العام نحو كل نوع من النظريات المبهرجة التى يمكن أن تبدو تقدمية أو تحررية » (١) .

الخطة الصليبية

عندما انتهت الحروب الصليبية بهزيمة الصليبيين ، لم ييأس هؤلاء من العودة إلى احتلال بلاد الإسلام، فاتجهوا إلى دراسة هذه البلاد فى كل يخصها من عقيدة وعادات وأخلاق وثروات ، ليتعرفوا على مواطن القوة فيها فيضعفوها ، وإلى مواطن الضعف فيغتنموه ، ولما تم لهم الاستيلاء العسكرى والسيطرة السياسية ، كان من دوافع التبشير والاستشراق إضعاف المقاومة الروحية فى نفوسنا ، وبث الوهن والارتباك والفوضى فى أوضاعنا الاجتماعية والثقافية ، وذلك عن طريق التشكيك بفائدة ما فى أيدينا من تراث ، وما عندنا من عقيدة وأنظمة اجتماعية وأخلاقية ، فنفقد الثقة بأنفسنا ، ونرتمى فى أحضان الغرب ، ولا نرى غضاضة فى استمرار تبعيتنا له بعد جلائه العسكرى .

وتحددت رسالة التبشير بعامة ومدارس إرسالياته بخاصة فى تشويه المعتقدات الإسلامية فى نفوس المسلمين وزعزعتها والتشكيك فيها اكتفاء باضمحلال الروح الإسلامية . وذلك بعد أن أدركت الدوائر الصليبية أنه من العسير أن يرتد مسلم عن دينه ، على أثر شكاوى من المبشرين فى أحد مؤتمراتهم من إخفاقهم فى تحويل المسلمين إلى النصرانية ، حيث أنه لا يستجيب أحد من المسلمين للتبشير إلا أحد اثنين: طفل مخطوف من أهله وهو صغير فيربى على النصرانية وهو جاهل لعقيدته ، أو رجل معدم لا يجد سبيلا للعيش إلا الدخول فى النصرانية ليحصل على لقمة العيش ويظل من المشكوك فيه أنه

غير عقيدته حقيقة . ويقوم القس « صموئيل زويمر » ليعلن فى هذا المؤتمر من الهدف الحقيقى للتبشير ومدارسه ، يقول : «إن الخطباء أخطأوا أيما خطأ . وأنه ليس الهدف الحقيقى للتبشير هو إدخال المسلمين فى النصرانية، وإنما الهدف هو تحويل المسلمين عن التمسك بدينهم، وفى ذلك نكون قد نجحنا نجاحاً باهراً من طريق مدارسنا الخاصة ، وعن طريق المدارس الحكومية التى تتبع مناهجنا . »

ويذهب المبشرون ومن ورائهم الدوائر الصليبية الاستعمارية فى أهداف المدارس إلى أبعد من هذا ، إذ يرون أن المدارس ليست غاية فى ذاتها ، وأنها لا تعدو أن تكون وسائل بالغة التأثير الذى يستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة فى أوطانهم (١).

كما أدرك المبشرون أن المرأة ذات أثر عميق فى التربيـة فأولوها اهتماماً كبيراً ، فبادروا إلى إنشاء أول مدرسة تبشيرية للبنات فى بيروت عام ١٨٣٠ م، ومن ثم فتحوا مدارس كثيرة للبنات فى مصر وسورية والهند وافغانستان وجميع بلدان العالم الإسلامى التى ابتليت بالاستعمار الغربى . . وقالوا : « إن التبشير يكون أتم حبكاً فى مدارس البنات الداخلية ، لما يكون من الأحوال المواتية والفرص السانحة. إن المدرسة الداخلية تفضل المدرسة الخارجية لأنها تجعل الصلة الشخصية بالطالبات أوثق، ولأنها تنتزعهن من سلطات بيتية غير مسيحية ، ويفرح المبشرون إذا اجتمع فى مدارسهم الداخلية بنات من أسر معروفة لأن نفوذ هؤلاء يـكون حينئذ فى بيتهن أعظم . وتتكلم المبشرة « أنا ميليغان » فتقول : « فى صفوف كلية البنات فى القاهرة بنات آباؤهن باشاوات وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل

---

(١) أنظر « التبشير والاستعمار » للدكتور عمر فروخ ومصطفى الخالدى، ص٦٦ و٦٧

هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحي ، وليس ثمة طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة (١) .

وعن طريق هذه المدارس وفي إطار الخطة العامة للتبشير والاستشراق في « إضعاف مثل الإسلام وقيمه العليا من جانب ، وإثبات تفوق المثل الغربية من جانب آخر ، وإظهار أي دعوة للتمسك بالإسلام بمظهر الرجعية والتأخر » (٢) . عن طريق هذه المدارس اهتم المبشرون بما يسمونه « تحرير المرأة » ، وتخريج جيل من الفتيات المسلمات اللواتي لا يعرفن عن دينهن وتاريخهن شيئاً ، ويتعلقن بالحياة الغربية التي تفسح لهن الطريق إلى الفساد والانحلال باسم المساواة والتحرر من الرجعية .

لقد أراد المبشرون أن يخرجوا المرأة المسلمة من عقيدتها وخلقها وكرامتها ، ودعوا إلى تعليمها وفق مناهجهم التربوية الخبيثة لتصبح متحررة من الإسلام ، ولتنطلق على هواها ، فلا تكون في المستقبل الأم المسلمة التي تغرس في أطفالها غراس الإسلام والإيمان ، وتنشئهم على الولاء لدينهم ولأمتهم يضحون في سبيلهما بالنفس والمال . بهذا النوع من التربية يتحقق للمبشرين هدفهم الخطير الذي لا يفترون عن العمل لبلوغه ، وهو القضاء بشتى الأساليب على كل ما يؤدي إلى قيام جيل مسلم يحمل رسالة الإسلام من جديد .

فلم تخل مؤتمرات المبشرين فيما أصدرت من قرارات وتوجيهات من الإلحاح على تحرير المرأة المسلمة بمفاهيم التحرر عند الغرب وتعليمها لتشب وقد أشربت روح الغرب وقيمه . . جاء في كتاب الغارة على العالم

---

(١) المصدر السابق ص ٨٦ .

(٢) عن « المستشرقون : ما لهم وما عليهم » لفضيلة الدكتور مصطفى السباعي .

الإسلامى الذى صدر فى فرنسا قبل نيف وخمسين عاماً ما يؤكد ذلك جاء فى الصفحة ٤٧ « ينبغى للمبشرين أن لا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وتحرير النساء » ، وجاء فى صفحتى ٨٨ ، ٨٩ التقرير الخاص بأعمال « مؤتمر لكنو ومؤتمر القاهرة التبشيرى » ، فقد وضع مؤتمر لكنو التبشيرى الذى عقد سنة ١٩١١ م فى برنامجه عدة أمور منها :

« استنهاض الهمم لتوسيع نطاق تعليم المبشرين والتعليم النسائى » .
أما لجنة مواصلة أعمال مؤتمر القاهرة الذى عقد سنة ١٩٠٦ م فقد وضعت هى الأخرى برنامجا يحتوى على مواد منها :

« المادة السابعة : الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات » . !!

من أجل ذلك كانت هذه المحاضن الأساسية للصليبية مستحقة لما تبذله دوائر الغرب وحكوماته من امكانات بشرية ومالية وجهود فنيـة وعلميـة سخية ، فالعائد كبير والثمار ضخمـة .. وليس أكبر عندهم من ذلك حصون المسلمين من الداخل وفى مقدمتها حصن الأسرة ومعولهم فى ذلك هى المرأة التى تخلع ثوب الإسلام فى مدارس الإرساليات التبشيرية ،وتتطبع فيها على حياة العرى .. عرى الروح وعرى الجسد .

وقد وضع الكاتب الفرنسى « مسيو إيتين لامى » النقط على الحروف فى مقاله الذى نشرته مجلة « العالمين الفرنسية » منذ ثمانين عاماً ، كاشفاً عن أهداف الخطة الصليبية لهدم الإسلام بقوله : !! إن مقاومة الإسلام بالقوة لا تزيده إلا انتشاراً ، فالواسطة الفعالة لهدمه وتقويض بنيانه هى تربية بنيه فى المدارس المسيحية ، وإلقاء بذر الشك فى نفوسهم منذ الطفولة ، فتفسد عقائدهم من حيث لا يشعرون ، وإن لم يتنصر منهم أحد فإنهم

يصيرون لا مسلمين ولا مسيحيين ، وأمثال هـؤلاء يكونون بلا ارتيـاب أضر على الإسلام مما إذا اعتنقوا المسيحية وتظاهروا بها ..

« إن طريقة تربية أبناء المسلمين وإن كان لها من التأثير ما بيناه ، فإن تربية البنات فى مدارس الراهبـات أدعى لحصولنـا على حقيقـة الغرض ووصولنا إلى نفس الهدف الذى نسعى إليه ، بل أقول إن تربية البنات بهذه الكيفية هى الطريقة الوحيدة للقضاء على الإسلام بيد أهله .

ثم انتهى إلى تحديد الغاية فى تربية البنـــات فى مدارس الإرساليات بقوله : « إن التربيه المسيحية أو تربية الراهبات لبنات المسلمين توجد للإسلام داخل حصنه المنيع ـ الأسرة ـ عدوة لدودة وخصم قوى لا يقوى الرجل على قهره . لأن المسلمة التى تربيها يد مسيحية تعرف كيف تتغلب على الرجل ، ومتى تغلبت هكذا ، أصبح من السهل عليها أن تؤثر على عقيدة زوجها وحسه الإسلامى ، وتربى أولادها على غير دين أبيهم ، وفى هذه الحالة نكون قد نجحنا فى غايتنا من أن تكون المرأة المسلمة نفسها هى هادمة الإسلام » .

وعلى ضوء ما سبق ، نجد أن المخطط التبشيرى الاستعمارى فى العالم الإسلامى يتبع هذه الخطوات :

١ ـ خطوة التشكيك .. تشكيك المسلمين فى إسلامهم وصلاحيته كمنهج حياة ، والعمل على إقناعهم بأنه سبب تأخرهم وانحطاطهم ، فالغرب لم يتقدم إلا بعد أن نفض عن كاهله أعباء الدين والتزاماته ، وليس للمسلمين من سبيل إلى التقدم غير ترك دينهم والتحلل من قيمهم والسير فى الطريق الذى سلكه الغرب .

٢ ـ خطوة التذويب .. وهدفها سلخ المسلمين من أخلاقهم ومقوماتهم الشخصية ، فيذوبوا فى دوامة الحضارة الغربية ، وذلك بالعمل على دعوتهم إلى مبادىء جديدة تحل محل العقيدة .. دعوتهم إلى الشيوعية والقومية العنصرية ، والعمل بكل الطرق على تحطيم حصن الأسرة الذى يخرج الأجيال المسلمة بتأليب المرأة على الرجل باسم الحرية والمساواة ، يقول الدكتور زويمر فى كتابه ـ أشعة الشمس فى الحريم ـ « إننا قد تعلمنا أن هناك خططاً أخرى غير الهجوم المباشر على الإسلام والضرب العشوائى على الحائط الصخرى ، أصبح علينا أن نتحسس الثغرة فى الجدار ونضع البارود ، فنحن عرفنا أن الثغرة تقع فى قلوب نساء الإسلام ، فالنساء هن اللواتى يصنعن أولاد المسلمين » .

٣ ـ النتيجة .. وكانت النتيجة أن نشأ جيل من المسلمين كافر بأمته مؤمن بحضارة الغرب ، يدافع عنها ويأخذ بها منهجاً لحياته ويعتبرها حضارة تقدمية بينما يعتبر المنهج الذى يقدمه دينه وحضارة أمته حضارة رجعيـــة ، فوجد منهم من يكون الولاء لموسكو أو واشنطن أكثر من ولائه لأمته ووطنه ، كما وجد منهم من يحرص على مصلحة الشيوعى اليهودى أكثر من حرصه على أبناء وطنه وجنسه ، وهكذا نشأ فى المسلمين جيل يكفر بكل المقومات التى صانت هذه الأمة من الذوبان ، فاستغل المستعمرون أمثال هؤلاء فاتخذوا منهم صنائـــع لهم وأوصلوهم إلى أعلا المناصب(١) : وحكموا هذه البلاد من ورائهم ، وسخروهم لتنفيذ

---

(١) من المعلوم ، أنه لم يكن يتقلد المراكز الحساسة والمرموقة غير المتخرجين فى مدارس وكليات الارساليات التبشيرية بينما لم يجد خريجو المعاهد والجامعات الاسلامية الوظائف العادية .

مخططاتهم .. يقول الدكتور زويمر المبشرين : « إنكم أعددتم شباباً فى ديار المسلمين لا يعرفون الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها ، وأخرجتم المسلم من الإسلام ولم تدخلوه المسيحية ، وبالتالى جاء النشء الإسلامى طبقاً لما أراده له الاستعمار لايهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة والكسل، ولايصرف همه فى دنياه إلا فى الشهوات ، فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا تبوأ أسمى المراكز فللشهوات ، ففى سبيل الشهوات يجود بكل شىء » .

حركة تحرير المرأة

إن المتتبع للحركة المعروفة باسم « تحرير المرأة » يجد أن أصولها الفكرية البعيدة ، تعود إلى « بولس » مؤسس المسيحية التاريخية الحالية ، والتى تعتبر رسائله أقدم الوثائق المسيحية فى تاريخ الكنيسة ، إذ أنها تعد أقدم من الأناجيل الأربعة كلها ، بل إن رسائله تعتبر المادة الأساسية الأولى للأناجيل .

ذلك أن هذا اليهودى الذى أعطى لنفسه صفة الرسول ، هو الذى أوجد فى الديانة المسيحية فكرة تعارض زواج المرأة من الرجل ، وجعلها تتنافى وعبادة الرب ! !

ويعبر عن هذه الفكرة المضادة للطبيعة البشرية فى قوله فى إحدى رسائله التى تعتبر مقدسة عند الكنيسة ، وهى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ، إذ جاء فيها :

« أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا » .

أى غير متزوجين .

ولماذا يظل الإنسان غير متزوج ؟

يجيب على هذا بولس فى نفس رسالته بقوله : «إن بين الزوجة والعذراء فرقاً : » غير المتزوجة تهتم فيما للرب لتكون مقدسة جسداً وروحاً، أما المتزوجة فتهتم فيما للعالم كيف ترضى رجلها » .

ومن هنا نشأت فكرة الرهبنة فى المسيحية الحالية بين الرجال والنساء ، واعتبر الزواج فى الفكر الكنسى فى درجة الخطيئة لأنه استجابة لرغبات الجسد الدنس الخاطىء ! .

وعلى الجانب الآخر وفى الجبهة الأخرى يلتقط شياطين اليهود الآخرين هذا الخيط المتعارض وفطرة الإنسان لينسجوا منه نظرية أخرى ، تروج لفكرة الإعلاء من شأن الجنس كرد فعل على الكبت الناجم عن الأخذ بنظرية الرهبنة وفكرة الكنيسة فى الجسد وخاصة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بعد ظهور نظرية سيجموند فرويد فى الجنس .

وقد تبلورت فكرة تحرير المرأة بالذات فى عصر الثورة الفرنسية وعصر النهضة الأوربية المعروف بعصر التنوير ، وخاصة بعد نجاح الماسونية اليهودية فى القضاء على سلطان الكنيسة والإعلاء من شأن العقل باعتباره هو مصدر المعرفة الوحيد ، بعد أن فقد الإنسان الأوروبى ثقته فى الكنيسة التى كان يستمد منها قيمه العليا ومثله الأخلاقية فى الحياة الأسرية والعلاقات الاجتماعية .

وتنجح الثورة الفرنسية وتطيح بالكنيسة ، وتعلن مبادىء الحرية والإخاء والمساواة ويصبح الإيمان بالوطن والدولة هى دين الشعب الفرنسى وتحل القومية الفرنسية والديموقراطية محل العقيدة المسيحية ، وأصبح الوطن هو القيمة العليا والوحيدة التى تبذل فى سبيله النفوس والأموال ،

وتصبح فرنسا بعد ذلك دولة علمانية ليست لها عــلاقة بالكنيسة تطبيقاً لمبادىء مونتسكيو وجان جاك روسو وفولتير فى فصل الدين عن الدولة ، وظهور مايسمى بالحرية الشخصية والحرية الاقتصادية والمذاهب الفكرية الهدامة المتمردة على الله تحت اسم التقدمية العلمية ، والأفـكار المعاصرة وحرية الفرد المطلقة بلا حدود ولا ضوابط ، ومن هذه الحريات « حرية المرأة » التى أثيرت حولها ضجة مفتعلة تنادى للمرأة بتحريرها من الرجل وانطلاقها لممارسة حريتها الاجتماعية والسياسية ، وخروجها للعمل ، وكان ذلك كله كرد فعل طبيعى لقيود الـكنيسة و نظرتها المتعسفة الخاطئة للجنس والمرأة وللجسد ، الذى هو فى عرفها « وعاء الخطيئة » .

كانت كتابات فولتير الماجن بالذات تحض على الانحــلال والفوضى والشهوة ، وظهرت المرأة كهدف نهائى للبهجة والمتعة ، كما أصبحت سلاحاً رئيسياً فى تدمير المجتمعات والقضاء على أحلام الشعوب .

تحرير المرأة فى التاريخ الأوروبى

إن الفكر الغــربى حينما أراد أن يتحرر من آثار المفاهيم التى كانت مفروضة عليه فى ظل المسيحية الكنسية قد تجاوز ذلك كله تجاوزاً كبيراً من النقيض إلى النقيض ، وعجز أن يوجد التوازن فى هذا الأمر . ذلك لأن المسيحية الكنسية التاريخية كانت ومازالت تحمل بذور المعادلة الصعبة التى فرضتها اليهودية التلمودية بالاتجاه المادى البالغ الخطورة ، والذى تردت فيه البشرية من قبلها ، فجاءت المسيحية الـكنسية تدعو إلى الأخلاق وإلى تطهير النفس من الفساد فى مواجهة الانحلال والابتذال الذى كان مفروضاً على المجتمع الرومانى فبعد أن كانت المرأة فى الدولة الرومانية تستبدل أزواجاً

ثمانية فى أقل من خمس سنوات ، فتحت أبواب الأديرة للعديد من النساء وخاصة الساقطات والمومسات اللاتى أردن أن يتطهرن من فاحشة الزنا .

غير أن هذه المفاهيم لم تلبث أن خرجت عن هـذا الحـد ، فأصبحت رهبانية انعزالية تكره الحياة وتحتقر الجسد ، وأصبح الطلاق مقيداً تقييداً صارماً بل وأصبح الطلاق نفسه خطيئة مهما كانت الظروف ، وراحت الدعوة إلى الزهد وكبح الجسد وطاقاته وأصبحت المرأة لعنة أبدية .

كان هذا هو الخيط الذى تلقفته اليهودية فجاءت بالنقيض العكسى تماماً فى صورة التحرر والانحلال فظهرت الوجودية[1] البوهيمية المادية المتعطشة لشهوة الجسد وتصوراتها الحيوانية عن المتعة الجسدية ورفض رباط الزواج ، وظهور أفكار العبث واللا معقول ، وأخيراً الدعوة إلى الهيبية .

كل هذه المذاهب الفاسدة تعتبر رداً على الزهادة للمسيحية المفتعلة التى تتنافى والطبيعة البشرية ، والتى تتمثل قمتها فى عدم زواج البابا نفسه كرمز للطهارة الجسدية ، فجاءت هذه الأفكار المضادة لإسقاط النفس البشرية فى مجالات اللذة والشهوات حتى تصبح غير قادرة على الدفاع عن نفسها أو تركيز وجـودها ، وأصبحت للمرأة بجسدها سلاحاً خطيراً فى هـذه الدعوات ، وارتفعت صيحة « تحرير المرأة » ترتكز على مفاهيم مدمرة ، وإن كانت تدعى العمل على الإعلاء من قدر المرأة.

إن هذه المفاهيم المدمرة تظهر بوضوح فى التفسير النفسى والاجتماعى التى تشكله الفلسفات المعاصرة وهى تقوم أساساً على المبادىء اليهودية التالية :

١ ـ إن الأسرة ليست نظام فطرى ، ولـكن الاتصال الحر بين الرجل والمرأة هو الفطرة الطبيعية .

(١) من فلاسفة الوجودية المعاصرين جان بول سارتر وعشيقته سيمون دى بوفوار وهما يهوديان ومن كبار دعاة الاباحية والانحلال فى كتاباتهما القصصية والمسرحية .

٢ ـ إن إطلاق حريات المرأة هو الطريق الصحيح لحركتها فى المجتمع .

٣ ـ إن خروج المرأة للعمل هو العامل الأكيد فى قدرتها على امتلاك إرادتها إزاء الرجل .

٤ ـ إن المرأة على قدم المساواة مع الرجل فى كل الخصائص ، ولكن السر فى ضعفها هو الحيلولة بينها وبين حرياتها فى العصور الماضية التى منعتها من ممارسة هذه الحرية .

٥ ـ إن من حق المرأة أن تباشر رغبتها الجنسية دون الحاجة إلى الزواج أو الأولاد فإن هناك من وسائل الطب ما يمنع الحمل .

٦ ـ المرأة بهجة المجتمع ولا يتشكل المجتمع إلا باشتراكها فيه ولا تولد القصة الأدبية إلا بتحرر المرأة ، حيث تولد القضايا والمآسى العاطفية والأحداث الساخنة المثيرة .

٧ ـ إنكار الدعوات الدينية التى تدعو إلى العفاف والبكارة والبيت بحجة إفساد الحمل والولادة لجمال المرأة وجسدها .

٨ ـ عدم التفريق بين امرأة المجتمع الفاضلة وبين الغانية والراقصة ، وجعل الأخيرة نموذجاً للأزياء الحديثة وأدوات الزينة لتقلدها كل النساء .

٩ ـ إعلاء شأن العقود المدنية فى الزواج وظهور نظريات الترابط بين الرجل والمرأة بدون عقد مكتوب يوجب قيود الرجعية .

١٠ ـ ظهور عيادات الأطباء التى تعلن عن إجراء عمليات الإجهاض .

١١ ـ ظهور أندية المرأة واختلاط الرجال والنساء فى أحواض السباحة ، تحت اسم الرياضة وظهور اختلاط النساء بالرجال على شواطىء البحار بالمايوهات العارية (البكينى) والاهتمام بمسابقات جمال السيقان والصدور لانتخاب ملكات الجمال .

١٢ ـ استشراء أدب الجنس والأدب المكشوف وقصص الإباحية باعتبارها ظاهرة طبيعية في المجتمع .

١٣ ـ ظهور حق تحرر المرأة اقتصاديا ، واختيار الزوج دون الرجوع إلى أوليائها ، ودفعها للعمل والاعتماد على ماتكسبه لايجاد شخصية نسائية جديدة لها استقلالها التام لافرق بينها وبين الرجل .

١٤ ـ الدعوة إلى إيجاد فترة تجربة لاختبار الزوج قبل الزواج ويتعلق تمام الزواج بنجاح التجربة في فترة الخطوبة المفتوحة .

١٥ ـ ظهور مايسمى بصديق العائلة والقول بأن طول فترة الحياة الزوجية على رجل واحد وامرأة واحدة، تبعث على الملل ،وظهرت الدعـوة إلى تبادل الزوجات بين الأزواج للتغيير والتنويع للملل، وظهور الخليلة بجوار الحليلة[1] .

١٦ ـ أصبح لدور البغاء حقوق قانونية لدى الدولة لحمايتها علاوة على حماية المجتمع بأوضاعه وأعرافه وتقاليده .

وبعد : فإنه مما لاشك فيه أن هذه المفـاهيم الأساسية التي تقوم عليهـا فلسفة تحرير المرأة في الفكر الغربي إنما تعطي صورة لأخطر تمويه يستهدف تدمير الأسرة واستعبـاد المرأة بحجة تحريرها ، وتتكشف أهداف هـذه الفلسفات الحديثة من خلال عصر التنوير وفي ظلال الخطة الماسونية الخبيثة ومن خلال مقررات النظرية المادية أولا وأخيرا التي تقدم علاقة جديدة بين الرجل والمرأة على حساب كرامة المرأة وعفافها ، وعلى حسـاب الأسرة والبيت والأجيال القادمة [2] .

---

(١) صدر قانون في ألمانيا الغربية عام ١٩٦٣ ، يبيح تبادل الزوجات بين الأزواج في يوم معين من السنة لازاحة الملل الناتج عن عدم التغيير .

(٢) أنظر كتاب الايديولوجيات و الفلسفات المعاصرة في ضوء الاسلام للاستاذ أنور الجندي

وقد استطاعت هذه الفلسفات إيجـــاد عقلية جديدة للمرأة تصورها بصورة الشخصية المستقلة القـادرة على الحياة فى المجتمع متحررة أو متحللة من سلطة الأب والأسرة والزوج ، فقد أصبحت قادرة على الإنفـاق على نفسها وتبعا لذلك الاستقلال المادي فإنه أصبح من حقها أن تختار الأسلوب الذى ترضاه والطريق الذى تقرره لسلوكها الاجتماعى وعلاقتها بالرجل فى الحياة الإجتماعية سواء داخل الأسرة أو خارجهـــا ، كذلك فإن التقدم العلمى فى مكتشفات عقاقير وأساليب منع الحمل وأدوات الإجهاض وتيسير الحصول عليها قد مهدت الطريق أمام كل الرغبات فى ظل مناعة طبية مقررة مشروعة تعيد البكارة والعذرية وتحول فى نفس الوقت دون حدوث الحمل.

وفى انحلال المرأة مافيه من آثار لها نتائجها فى صرف الرجل عن الزواج أو تراخيه فى تكوين الأسرة أو استمرارها بعد تكوينهـا ، ونجىء قوانين الأسرة والأحوال الشخصية فى بعض البلاد الإسلامية لتكون فى خدمة هذه الاتجاهات وتشجيعا لها من خلال النصوص الجديدة التى أدخلت على البيئة الإسلامية لدفع المرأة إلى التمرد والتحلل والنشوز فى حماية هذه القوانين ، مما يؤدى فى النهاية إلى إسقـــاط قوامة الرجل وفقدانه هيبته داخل الأسرة . فتدب الفوضى فى أركان البيت فلا ينـال الكبير حقه فى التوقير والاحترام ولا يستطيع الصغير أن يجد لدى الكبير نسمة الحب والحنان والرحمة التى تهدو بها روح الكبير طالما اشتعلت النيران فى قلبه .

وتنهى هذه العجـالة فى قضية تحرير المرأة فى الغرب بتقرير هام لأحد المفكرين الغربيين المعروفين، وهو وول ديورانت .. يقول فى كتابه مباهج الفلسفة « نحن غارقون فى تيـار من التغيير سيحملنا بلا ريب إلى نهـايات محتومة لاحيلة لنا فى اجتيازها ، وأى شىء قد يحدث مع هذا الفيضـان

الجارف من العادات والتقاليد والنظم لا حيلة لنا فى صدها ، فالآن وقد أخذ البيت فى مدننا الكبرى فى الاختفاء وفقد الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهـامة ، وأن زواج المتعة سيظفر منا بتأييد أكثر وأكثر ، حيث لايكون النســل مقصورا على رجل بعينه ، وسيزداد الزواج الحر ويصبح مباحا أو غير مباح ، وستحث المرأة الرجل بعد تقليده فى كل شىء على التجربة قبل الزواج، وسينمو الطلاق ثم يصاغ الزواج بأسره فى صورة جديدة أكثر مرونة وأكثر تسيبا وسيصبح ضبط الحمل أمراً شائعا فى كل طبقة ويصبح أمر الحمل أمرا عارضاً فى حياة كل إمرأة »

حركة تحرير المرأة فى مصر

إننا إذا ماتتبعنا ما يسمى بحركة تحرير المرأة فى مصر، نجد أن الأصول الأولى لهذه الحركة إنما تمتد جذورها إلى عهد محمد على باشـا والى مصر وبالذات إلى فترة مابعد الثورة الفرنسية، التى كانت أفكارها الماسونية اليهودية تنتشر إلى العالم كله انتشار النـار فى الهشيم ، وهذا ما حدث فى مصر عندما أوفد محمد على باشا البعثات الفنية إلى فرنسا بالذات لاكتساب الخبرات الفنية والصنـاعية المتعلقة بالصنـاعات الحربية والجيش ومع حرص محمد على فى الاقتصار على الخبرات الفنية والزراعة والاقتصـاد والتنظيم الإدارى فإن الأمور قد تجاوزت الحدود التى أرادها وقدرها ودخلت الأفكار الأوروبية الجديدة التى هبت من رياح الثورة الماسونية فى فرنسـا والتى لم يقصدها محمد على ولكنها تسربت مع الخبرات والمهارات الفنية التى كان يريدها .

ذلك أن المبعوثين الذين أرسل أكثرهم إلى فرنسـا كانوا يقرأون الكتب الفرنسية ويشاهدون الحيـاة الفرنسية فى أحفل العصور بالصراع

الفكرى الذى يصحب الثورات وكانت فرنسا تعيش فى أوج انتصارات الثورة النابليونية وما صاحبها من قلق فكرى وروحى لم يبلغ نهـاية أشواطه . وقد احتل هؤلاء المبعوثين من بعد مكان الصدارة والقيادة فى مختلف الميادين السياسية والتربوية والفكرية ، وبدأوا يترجمون منذ سنة ١٨٣٠ ميلادية وينشرون كتبا فى غير ما تخصصوا فيه من فنون ، ومع المعلمين الذين استقدمهم محمد على للمدارس ، ومع الفرنسيين منهم بخاصة جاءت أفكار فولتير وروسو ومونتسكيو التى وجدت مؤلفاتهم فى مكتبة إحدى المدارس المصرية فى ١٨١٦ م .

ويتعاون العائدون من أعضاء البعثات فى مصر مع البعثة الفرنسية من أتباع سان سيمون تلك البعثة التى استخدمهـا محمد على فى العقـد الرابع من القرن التاسع عشر ، وكان تلاميذ سان سيمون متأثرين بآرائه الثورية فى تنظيم المجتمع على أساس علمى يحل فيه سلطان العقل أو رهبانية العلم — على حد تعبير سان سيمون نفسهـ محل الدين ، ذلك الفكر الذى مهد للحرية الفكرية والحرية الشخصية واستقلال الأبناء عن الآباء وتحرير المرأة من سلطة الأب والزوج واعتمادها على مواردها المالية من عملها .

وبصفة عامة فإن أعضـاء البعثات تأثروا تماما بما شـاهدوه فى المجتمع الأوربى ، ويتضـح ذلك جليـا مما كتبوه أثنـــاء إقامتهم فى أوربا أو بعد عودتهم منها .

● رفاعة الطهطاوى وريادة حركة تحرير المرأة

ونستطيع أن نلمس ذلك على سبيل المثـال فى عضو من الجيل الأول لهؤلاء المبعوثين والذى أقام فى باريس خمس سـنوات من ١٨٢٦ إلى ١٨٣١ وهو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى الذى رافق البعثة المصرية بمثابة واعظ البعثة !!

ونجد فيما كتبه هـذا الرجل آراء تظهر للمرة الأولى فى المجتمع الإسلامى وربما رواها عن حسن قصـد دون أن يسبر أغوارها البعيدة أو يتعمق فى فى حقائقها ، ولكنه على كل حال قد وضع البذور الأولى التى تعهدها من جاء بعده بالسقى والرعاية حتى نمت وضربت جذورهـا فى الأرض وأنتجت الثمرة المرة. وتبدو أهمية الطهطـاوى فى أنه قد جلب هذه البذور الغربية وألقاها فى التربة الإسلامية فى مصر .

فللمرة الأولى فى البيئة الإسلامية نجد كلاما عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى المادى الوثنى الذى شـاع فى الفكر الأوربى الحديث ، والذى يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض يراد اتخاذها وحدة وجودية يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر ليكونا معـا ذات شخصية مستقلة تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين .

ثم نرى بعـد ذلك كلاما كثيرا عن المرأة لاشك أنه من وحى الحيـاة الاجتماعية الأوربية ، مثل تعليم الفتاة وتعدد الزوجـات وتحديد الطلاق واختلاط الجنسين ، ونستطيع أن نحدد آراء الطهطـاوى ونظرته إلى المرأة من خلال إعجابه بأفكار الثورة الفرنسية ، ولكن الطهطاوى لم يفقه هذا فقد كان مثلا للانسان المسلم ومجتمعه الذى كان فى هذا الوقت فى أشد حالات الاستخذاء والضعف والغفلة بسبب ابتعاده عن عقيدته الصافية وما تعطيه من صلابة وحصانة ، لذلك كان من السهل أن يفتتن بما شـاهده فى المجتمع الفرنسى من الرخاء وشعور الفرد بكيانه واعتزازه بذاته خاصة حينما قارنه بما خلفه وراءه فى مصر من قهر الرجال وامتهان إنسانيتهم وسوقهم إلى ما يراد لهم لا إلى ما يريدون وكأنهم أنعام لا إرادة لها ومن هنا كان إعجابه الشديد بالمجتمع الفرنسى الجديد ويتضح ذلك تماما فى كل ما جاء فى كتابه الأول

« تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » والذى كتبه أثناء إقامته فى فرنسا .

وبعد عودته كتب كتابيه الخطيرين اللذين احتويا آراءه التحررية عن المرأة وقد كتبهما فى عهد الخديو إسماعيل باشا وهما: « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية » و « والمرشد الأمين للبنات والبنين » ، وهما كتابان تعليميان ألفهما لكى يوضعا بين أيدى الناشئة الذين تزايد فيهم عدد البنات .

وواقع الأمر أن الطهطاوى قد تأثر تأثرا شديدا بالمسرح الفرنسى الذى استقى منه كل أفكاره عن المرأة ، فهو معجب به أيما إعجاب وقد سمى المسرح باسمه الفرنسى كما هو الاسبيكتاكل أو التياترو .

فنراه يقول عن المسرح فى « تلخيص الإبريز » ص ١٦٦ ما يلى :

« وبالجملة فالتياترو عندهم كالمدرسة العامة يتعلم فيها العالم والجاهل » .

وفى ص ١٢٢ يلمس هذا الفكر الذى تأثر به فى شئون المرأة فنراه يتكلم على الطلاق الذى لا يتم عند الفرنسيين إلا أمام المحكمة لإقامة دعوى الزنا ، وتكلم عن عادة الفرنسيين فى اختلاط الرجال بالنساء وينفى أن يكون الاختلاط والتبرج داعياً إلى الفساد أو دليلا على التساهل فى العرض حيث يقول فى ص ٣٠٤ من نفس الكتاب « ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لا عرض لهم . . لأنهم وإن فقدوا الغيرة لكنهم مع ذلك إذا علموا شيئا مهيناً كانوا شر الناس عليهن وعلى من خانهم وعلى أنفسهم ، وإن كانت المحصنات لايخشى عليهن شيئاً ، وغاية الأمر أنهم يخطئون فى تسليم القياد للنساء»..هكذا بكل بساطة!!.

ويعود فيؤكد فى ص ٣٠٥ أن السفور والاختلاط بين الجنسين ليس

داعياً للفساد ، وأن مرد الأمر كله إلى التربية ، فيقول : « إن نوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن ، بل منشأ ذلك إلى التربية الجيدة والخسيسة ، والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك فى المحبة والالتئام بين الزوجين ».

ويدافع الطهطاوى عن الرقص ، ومراقصة الرجال للنساء حين وصفه « محال الرقص المسمى : البال » فيقول فى ص ١٦٨ من تلخيص الإبريز : « إن الرقص عندهم فن من الفنون .. فهو نظير المصارعة فى موازنة الأعضاء .. وما كل راقص يقدر على دقائق الحركات ... ويتعلق بالرقص كل الناس فى فرنسا ، وكأنه نوع من العياقة والشلبنة ـ كلمتان عاميتان بمعنى الأناقة والفتوة ـ لا الفسق ، فلذلك كان الرقص دائماً غير خارج عن قوانين الحياء ، بخلاف الرقص فى مصر فإنه من خصوصيات النساء لتهييج الشهوات ، أما فى باريس فإنه قط مخصوص لايشتم منه رائحة العهر أبداً» !!!

ويشيد الطهطاوى فى مقدمة كتابه « المرشد الآمين للبنات والبنين » بفضل الخديوى إسماعيل فى التسوية بين البنات والبنين فى التعليم بقوله : « فقد سوى فى اكتساب المعارف بين الفريقين ، ولم يجعل العلم كالإرث للذكر مثل حظ الأنثيين ، فهذه سوق المعارف المشتركة قد قامت ، وتاريخ العوارف للجنسين استقامت ، وليل جهل النساء جلاه فجر المعارف وفجر تمتعهن باللطائف والطرائف ».

ويذهب إلى أبعد من ذلك فى ص ١٦٦ فيجعل من مزايا التعليم أنه : « يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال ، على قدر قوتها وطاقتها ـ فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فإن فراغ أيديهن

عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة » ، ويتكلم فى موضع آخر من الكتاب عن تعدد الزوجات؛ ويدافع عن الزوجة الواحدة ويورد أقوالا للحكماء وقصصاً تحبذ الاقتصار على زوجة واحدة (١)

ومن ذلك كله نرى أن الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى قد أثار قضية تحرير المرأة فى مصر لأول مرة فى القرن التاسع عشر ، وقد أثارها فى أكثر النواحى التى أصبحت بعد ذلك مثاراً للجدل والمناقشة فى هذه الأيام، ومن هنا نلحظ اهتمام الجمعيات النسائية بخاصة بالاحتفال بذكرى هذا الرجل الذى فتن بالحياة فى فرنسا ، واهتمام دعاة التغريب والماركسيين بعامة بإحياء تراث هذا الشيخ ونشره فى ثوب جديد(٢) .

• قاسم أمين

نأتى بعد ذلك إلى الشخصية الهامة الضالعة فى قضية تحرير المرأة ، ألا وهى شخصية قاسم أمين .

ولعل خير تعريف لهذه الشخصية هو ما نشرته جريدة الجمهورية فى عددها الصادر فى ١٩٧٨/٤/٢٠ فى الذكرى السبعين لوفاته ، إذ كتبت تحت العنوان التالى ما يلى :

« تحليل شخصية قاسم أمين :

« كان أول من أنصف قاسم أمين رجلا هو صديقه سعد زغلول ، وهو

(١) عن كتاب « الاسلام والحضارة الغربية » للدكتور محمد محمد حسين .

(٢) جمع الدكتور محمد عمارة المدرس بكلية دار العلوم كل ما كتبه الطهطاوى ، ونشره باسم « الأعمال الكاملة » والدكتور عمارة معروف باتجاهه اليسارى .

أحيا ذكرى قاسم أمين حين تولى وزارة التعليم، دون أية ضجة، وذلك بافتتاح عدد من مدارس البنات.. ولما تولى سعد زغلول زعامة الشعب فى عام ١٩١٩ اشترط على السيدات اللواتى يحضرن لسماع خطبه أن يزحن النقاب عما سمح الله به من وجوههن. وكانت هذه أول مرحلة عملية للسفور..»

وتقول جريدة أخبار اليوم فى عددها الصادر فى ١٣ / ٩ / ١٩٦٩ : «إن قاسم أمين فيما بين حصوله على إجازة الحقوق سنة ١٨٨١ وبين إخراجه لكتابة تحرير المرأة سنة ١٨٨٩ كان قد مر بأحداث هادئة على عكس الأحداث الضخمة التى عاشها فى مصر - ففى خلال تلك السنوات تعرف قاسم أمين بجمال الدين الأفغانى فى باريس ومحمد عبده وسعد زغلول».

ونحن إذا ما تأملنا هذا الخبر نجد لقاء قاسم أمين بسعد زغلول وبعض الشخصيات الأخرى المعروفة بانتمائها الماسونية (١) وولائها لثقافة الغرب ونظمه وتقاليده.

---

(١) الماسونية : منظمة يهودية سرية، تعمل وفق المخططات اليهودية لهدم أديان الأمم، وأخلاقها واقتصادها، وتضم السواد لأعظم من الملوك والحكام والقضاة والأثرياء والقادة والمثقفين من مختلف الأديان. وتهدف الماسونية وكل ما يتصل بها من فروع إلى تفيذ الهدف الذى تقوم عليه اليهودية العالمية، وهى إعادة المملكة اليهودية فى فلسطين وإعادة بناء هيكل سليمان فى القدس مكان المسجد الأقصى، وقد أطلق عليها - أى الماسونية - اسم البناءون الأحرار كرمز إلى بناء هيكل سليمان.

وتعمل الماسونية تحت شعار «الحرية والإخاء والمساواة»

ومعنى الحرية فى المخطط الماسونى، أن يتحرر الناس من أديانهم، وأن =

ويتأكد لنا انتماء سعد زغلول إلى الماسونية ، بما جاء فى مجلة المصور فى عددها الخامس الصادر فى ٢٣ سبتمبر ١٩٢٧ بعد وفاته ، فقد نشرت المصور صورة الجنازة تحت عنوان : « الأمة والحكومة تشيعان الفقيد

= يرتكب الإنسان ماشاء له هواه دون رادع أو زاجر ، وأن يخالف جميع ما تأمر به الشرائع ، وأن تفعل المرأة ماشاءت من الزيغ والرجس، والفساد والتهتك والانحلال تحت ستار هذه الحرية .

أما الإخاء فيهدف به الماسون ، محاربة روح التمسك بالدين وأنه لا فرق بين يهودى ونصرانى ومسلم ومجوسى و بوذى ودهرى وملحد ، كلهم إخوان وعليهم أن يحاربوا أى استمساك بأى دين ويصمون من يلتزم مبادىء دينه بالرجعية والتعصب ، وما إقامة مجمع الأديان الثلاثة على جبل موسى فى سيناء إلا نجاح لمثل هذه المخططات .

ورفع شعار المساواة عندهم يمكنهم من العمل على إثارة الفتن والأحقاد والطبقية ، يشعلون نار الحقد والضغينة فى قلوب الفقراء ضد من وسع الله عليهم من الأغنياء ، ويحفزون الأغنياء ، على ظلم الفقراء. وتحت ستار المساواة يؤلبون النساء على الرجال لتضطرب أوضاع الأسرة وتنحل المجتمعات فى النهاية

وهناك ارتباط عضوى بين الماسونية والصهيونية ، وتتوزع الماسونية على فرعين أحدهما للصهيونية والآخر للشيوعية .

يقول الدكتور على حسن إبراهيم : « إن شيوعية فرع من فروع الصهيونية العالمية ، فهى من أعمال الصهيونية ، ويوجد ترابط وثيق بين الشيوعية العالمية والصهيونية العالمية عن طريق الماسونية الكونية الحمراء الخفية ، وعلى القادة الشيوعيين أن يخضعوا أو ينفذوا أوامر ومخططات المركز الأعلى للصهيونية العالمية ، وغاية هذه الفرقة الرجوع بواسطة اليهود المنفصلين والماسونية إلى روما التى كانت مملكة أجدادهم ونشر الإباحية المطلقة وسط جناحى النسر =

العظيم » ، وتحت الصورة مباشرة كتبت العبارة التالية : « وفد البنائين الأحرار (الماسون) فى تشييع جنازة الزعيم الكبير ، وكان رحمه الله قطباً من أقطاب الماسونية » .

= الرومانى على العالمين .

كما يقول الدكتور على حسن ابراهيم : « لقد اتفقت الماسونيتان (الملوكية والكونية الحمراء) على هدف واحد ، تقوم الماسونية الملوكية بإنشاء دولة إسرائيل فى فلسطين ثم تنطلق إلى باقى البلاد العربية وشمال أفريقيه منطلقة إلى جنوبها لإخضاعها لدولة إسرائيل لتهويدها . وتقوم الماسونية الكونية بتهويد العالم عن طريق الشيوعية حيث أنها لا تجرؤ أن تعلن عن هدفها وهو تهويد العالم خشية محاربة العالم لهم والقضاء عليهم وإفنائهم لكل اليهود لتخليص البشرية عامة من شرورهم ، فاستترت هذه الماسونية الكونية وراء النظم الشيوعية التى أنشأتها بأسلوبها البراق المحبب إلى النفوس الصغيرة والغير واعية وإلى الطبقات الفقيرة وذلك لتشييع العالم كله . ثم بعد أن يتم لها ذلك تقوم علنا وبجرأة ودون خشية بإعلان حكم اليهودية العالمية على العالم كله دون منازع أو معارض ، وتعلن تهويد العالم وتعيين أحد ذرية أسباط إسرائيل ملكا على العالم كله يديره بواسطة حكومه عالمية يهودية كأمثال ماركس وهرتزل ولينين وزنجنبل وفورد وكلهم من أقطاب الصهيونية الشيوعية الذين عملوا على هدم الناموس الدينى الطبيعى والسياسى العام لكى يبنوا أساس الاشتركية الفوضوية .

ويقول الجنرال جواد رفعت : إن الماركسية وليدة الماسونية لأن مؤسيسها كارل ماركس وانجلز هما من ماسونى الدرجة الحادية والثلاثين ، ومن منتسبى المحفل الانجليزى .

وقالت مجلة (لاتونيا) ١٨٩٤ إن الماسونية وجدت فى المبادىء الاشتراكية خير معوان لها فلا بد من معاضدتها .

=

وتزيد جريدة المقطم هذا التأكيد بما جاء فى عددها الصادر يوم الجمعة ٢٦ أغسطس ١٩٢٧ ، فقد نشرت على الصفحة الأولى مايلى : « حداد للماسونية على فقيد البلاد الأعظم .. فقدت الماسونية المصرية بفقد سعد العظيم الخالد عضدا كبيرا وفضلا كثيرا وذخرا وفيراً كانت تعتز بفضله ... وستقام حفلة جناز ماسونية للفقيد الأعظم يعلن موعدها فيما بعد . »

ودرجة سعد زغلول ورواد صالون نازلى فاضل فى التنظيم الماسونى تفسر لنا نوع الصداقة التى أنشأوها مع قاسم أمين فترة وجوده فى باريس، كما توضح لنا الخط الفكرى الذى سار فيه رائد تحرير المرأة فى مصر، هذا وإذا ما تأملنا الفترة التى عاشها قاسم أمين فى فرنسا ،وكانت من ١٨٨١ حتى ١٨٨٩ ، فإنه كسلفه رفاعه الطهطاوى قد تأثر بحياة المجتمع الفرنسى،ولكنه يتميز عن

= هذا وإن أكبر عادات الماسونية مقتبسة من معبد سليمان وإن أكثر الإشارات والرموز عبرانية ، وتستهدف الماسونية أن تحل محل الأديان ، وأن السيطرة على الشبيبة هى من أولى غايات الماسونية فهى تقول : لا بد من تربية الأطفال بعيداً عن الدين والماسونى إن لم يكن يهوديا بالولادة إلا أنه رجل متهود .

ولما جاءت تلك الحملات الضخمة التى وجهت إلى الماسونية وكشفت عن هدفها وحلت فى معظم الأقطار الإسلامية جماعاتها . فكان البديل هو جماعات أخرى تحمل أسماء مختلفة وهويات مختلفة كالروتارى والليونز وشهوديوه وبناى بريث ونادى الأسود والمهاريشى والبارتى (حلقات الرقص) ، وكلها تجمعات تستهدف تقديم أكبر قدر من المعلومات التى تنقل إلى الجهات اليهودية المعنية لتحليلها والاستفادة منها ، والواقع أنها جميعاً هى البديل للواجهة التى أصابتها ضربات كثيرة فى السنوات الأخيرة وهى(الماسونية) .

الطهطاوى بأنه عقد صداقة مع أقطاب الماسونية المصرية من رواد صالون نازلى فاضل .

وعندما نتتبع مخطط حركة تحرير المرأة فى مصر ، نجد أنها تلتقى جميعا عند مدبر : هو واحد اليهودية العالمية وعبيدها المتمثلين بالاستعمار الغربى حينذاك .

وبداية الخيط فى هذه المؤامرة ترجع إلى كتاب ظهر فى مصر سنة ١٨٨٤ لمحام مصرى مسيحى موال للكرومر وللنفوذ الاستعمارى يدعى مرقص فهمى تحت عنوان « المرأة فى الشرق » حدد فيها خطة الاستعمار فى المطالبة بتحقيق أغراض هى :

أولا : القضاء على الحجاب الإسلامى .

ثانيا : إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها .

ثالثا : تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضى .

رابعا : منع الزواج بأكثر من واحدة .

خامسا : إباحة الزواج بين المسلمات وغير المسلمين .

وهذا الخيط الذى ترجع بدايته إلى النفوذ الاستعمارى الغربى هو الذى يقودنا إلى حركة قاسم أمين وهدى شعراوى ، ذلك أنه لم تمض سنوات خمس حتى ظهر كتاب « تحرير المرأة » ، فكان ذلك خطوة على الطريق ظن البعض وما يزال يظن سلامتها ونقاءها وبعدها عن الهوى وتحررها من أى خلفية موحية .

ولكى تكتمل خيوط هذه المؤامرة ، وتتضح خلفيات هذا الحدث

الخطير ، نرجع إلى ما كتبه داود بركات رئيس تحرير الأهرام بعددهـــا الصادر فى مايو ١٩٢٨ .. يقول . « إن قاسم أمين قرأ كتاب الدوق داركير « المصريون » ، وقد تضمن هجوما على المصريين ، ورد عليه قاسم أمين بكتاب باللغة الفرنسية وفند اتهاماته ، فلما ظهر هذا الكتاب لقاسم أمين وصف بأنه لم يكن فى صف النهضة النسائية ، فقد رفع الكتاب من شـأن الحجاب وعده دليلا على كمال المرأة ، كما ندد بالداعيات إلى السفور ، وقد رأت فيه الأميرة نازلى فاضل تعريضا بها .. ، لأنه لم يكن فى نساء مصر فى ذلك الحين من يتشبه بالنساء الأوربيات غيرها ، فقد كانت الوحيدة التى تختلط بالرجال وتجالسهم فى صالونها ، الذى افتتحته لتبث منه الدعوة إلى التغريب بعامة وتحرير المرأة بخاصة ، ومن المعروف أن هذا الصالون كان يحضره سعد زغلول ومحمد عبده وجماعة من الطامحين فى زعامات سياسية فى ظل الاستعمار البريطانى ورعاية « المندوب السامى » !!

ويتابع داود بركات مقاله بقوله : « وقد أشير إلى جريدة المقطم وهى لسان الانجليز فى مصر فى ذلك الوقت ، أن تكتب ست مقالات عن الكتاب تفند أخطاء قاسم أمين فى هذا الاتجاه ، ودفاعه عن الحجاب واستنكاره اختلاط الجنسين .. ثم أوقفت الحملة بعد اتفاق الشيخ محمد عبده وسعد زغلول مع قاسم أمين على تصحيح رأيه » ..

ويقال إن اشتراك محمد عبده فى إقناع قاسم أمين للعدول عن رأيه كان على أثر وأصدر من تهديد ووعيد من هذه الأميرة ، ولكن داود بركات فى مقاله هذا يحاول إبراز دور الأستاذ الإمام وكأنه ضالع فى تحرير ونشر كتاب « تحرير المرأة » . يقول : « وقد حمل الشيخ محمد عبده(١)

---

(١) ليس لنا من تعليق على مواقف الشيخ محمد عبده غير ما كتبه العلامة =

الدعوة إلى تحرير المرأة فى دروسه فى الرواق العباسى بالأزهر حين أعلن أن الرجل والمرأة يتساويان عند الله ، وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول الكتاب أو كان له دور فى مراجعتها » . ومما أورده لطفى السيد أنه اجتمع فى جنيف عام ١٨٩٧ بالشيخ محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول ، وأن قاسم أمين أخذ يتلو عليه فقرات من كتاب « تحرير المرأة » ، وصفت بأنها تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده .

= أبو الحسن الندوى فى كتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية » . يقول : وكان الشيخ محمد عبده على ماله من حسنات فى الدفاع عن الإسلام وإصلاح مناهج التعليم وتقريب الدين إلى الجيل الجديد ، كان من رواد الدعوة للتجدد ، والدعوة إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحياة فى القرن العشرين ، والتقدير الزائد للقيم الغربية ومحاولة التطبيق بينها وبين الإسلام والحرص على تفسير الفقه الإسلامى وأحكام الشريعة تفسيراً يتناسب مع مطالب المدنية الجديدة والجيل الجديد ، يقرب فى ذلك كثيراً إلى السيد أحمد خان فى الهند ، وتتجلى هذه النزعة فى تفسيره وفى فتاواه وفى كتاباته ، وكل ماجاء بعده من دعاة التجدد اقتبس من علمه واغترف من بحره ، وقد شهد بذلك اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » يقول : « إن محمد عبده كان مؤسساً لمدرسة فكرية حديثة فى مصر ، قريبة الشبه من تلك التى أسسها السيد أحمد خان فى الهند — مؤسس جامعة عليكرة — ثم يقول . إن أهميته السياسية ترجع إلى أنه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يقدم لهم كل ما يمكن من العون والتشجيع ، فهم الحلفاء الطبيعيون للمصلح الأوربى » Modern Egypt, p. 179- 180 »

ويتكلم نيومان فى كتابه « Greet Br‚tam » عن تلاميذ محمد عبده وأتباعه فيقول : « وكان برنامجهم فوق ذلك يشجع التعاون مع الأجانب لإدخال الحضارة الغربية إلى مصر ، وهذا هو ماجعل كرومر يحصر فيهم أمله الوحيد فى قيام الوطنية المصرية ، وهذا أيضاً هو السبب فى تعيينه سعد زغلول باشا وزيراً

وكتب فارس نمر صاحب المقطم فى مقال له فى مجلة «الحديث» الحلبية عام ١٩٢٩ مشيراً إلى هذا الحادث « .. إن الشيخ محمد عبده تطوع للقيام بهذه المهمة - بقصد إيقاف مقالات الهجوم على قاسم أمين - وتحدث الشيخ محمد عبده مع الأميرة نازلى فى هذا الشأن ، واتفق محمد عبده وسعد زغلول ومحمد المويلحى وغيرهم على أن يتقدم قاسم أمين بالاعتذار إلى سمو الأميرة ، فقبلت اعتذاره ، ثم أخذ يتردد على صالونها ، وارتفع مقامها لديه ، وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة ، الذى كان الفضل فيه للأميرة نازلى ، والذى أقام الدنيا وأقعدها بعد أن كان (قاسم أمين) أكثر الناس دعوة إلى الحجاب » .

= للمعارف ») .. انتهى كلام السيد أبى الحسن الندوى .

برر الشيخ رشيد رضا فى كتابه « تاريخ الأستاذ الإمام » تعاون الشيخ محمد عبده مع الإنجليز وأذنابهم بأنه مداراة لهم ، ودافع الدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » عن الشيخ وتفاهمه مع سلطات الاحتلال بأنه كان للوقاية وللحيلولة دون استمرار تصفية الأوقاف ، ولكن ما أغنت محاولات الشيخ فى الحيلولة دون ابتلاع الحكومات الاستعمارية للأوقاف الإسلامية ، والذى بقى لنا هو فكره الذى أصبح منطلقاً لهجمات دعاة التغريب على الفكر الإسلامى الخالص ، وسلاحاً يشهره أعداء الإسلام فى وجه طلائع الحركة الإسلامية ، ومادة يستغلها دعاة تحرير المرأة فى الترويج لدعوتهم وتكريسها فى النفوس ، فقد كتب المؤلف اليسارى الدكتور محمد عمارة مؤلفاً بعنوان « الإسلام والمرأة فى رأى الشيخ محمد عبده » نشره فى خريف هذا العام ١٩٧٩ » عن دار الهلال التى ترأسها أمينة السعيد ، وفى أعقاب صدور قانون الأحوال الشخصية الجديد ، الذى يعتبر كسباً كبيراً حققته الحركة =

وقد تناول قاسم أمين فى كتابه « تحرير المرأة » أربع مسائل ، وهى الحجاب ، واشتغال المرأة بالشئون العامة وتعدد الزوجات ، والطلاق ،

= النسائية المصرية وضربة أليمة للقيم الإسلامية التى تحكم المرأة وتقوم على أساسها الأسرة ويهدف الكاتب اليسارى من نشر هذا الكتاب فى هذا الوقت إلى تقديم سند فكرى من آراء الشيخ لهذا القانون المخالف لنصوص الشريعة الإسلامية وروحها .

إن الحقيقة التى لا مراء فيها أننا التقينا بحضارة الغرب التى كانت فى أوج قوتها وعز نشاطها فى وقت أن كنا فى أحط درجات الضعف والانحطاط ، فجاء الفكر الإسلامى الحديث فى بداياته تبريرياً يحمل جراثيم الضعف والانهزامية ومركبات النقص وكل آثار الانبهار بالتقدم المادى والعلمى الذى أحرزته الحضارة الغربية .

لقد وجد وكلاء أعمال الحضارة الغربية عندنا فى آراء الشيخ محمد عبده سنداً قويا لدعوتهم بتفوق الفكر الغربى وقدسية قيمه ، ذلك أن الشيخ رأى الإسلام فى موقف المتهم ، فاتخذ طريقة الدفاع عنه والتماس العذر له وتبرير موقفه ، فجاءت آراؤه فى بعض قضايا العقيدة والسياسة والاجتماع الإسلامى متلائمة ومتواءمة مع مفاهيم الحضارة الغربية . وكان الأجدر بالشيخ أن يستخدم طاقاته الخارقة وذكاءه النادر وعلمه الفائق فى الانتصار لدينه بنقد الفكرة الغربية وكشف زيفها من الوجهتين العلمية والدينية ، ومعارضة قيمها ومفاهيمها والأسس المادية الوثنية التى قامت عليها ، وحيث أن الهجوم هو خير وسائل الدفاع ، فكان الأولى بالشيخ أن يهاجم هذه الأفكار الغازية ويواجهها بقوة وثقة المؤمن بتفرد المنهج الإسلامى وذاتيته ، فللإسلام مقاييسه الخاصة ومعاييره الذاتية ، وشريعته حاكمة على غيرها من شرائع البشر لا محكومة ، لأنها الحق المنزل من عند الله ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . هذه كلمة لا بد من قولها ولا خير فينا إن لم نقلها .. تقبل الله منا أحسن ما نعمل وتجاوز عن سيئاتنا .

وذهب فى كل مسألة من هذه المسائل إلى مايتوائم ويتلاءم مع الحضارة الغربية وفلسفتها ، زاعما أن ذلك هو مايعنيه الإسلام .

ويتجلى أثر الثقافة الغربية والخضوع للحضارة الغربية ، وقيمها أوضح فى الكتاب الثانى « المرأة الجديدة » ، ذلك أن قاسم أمين التزم فيه بالمنهج الغربى الحديث الذى يرفض كل المسلمات والعقائد السابقة سواء ما كان منها عن طريق الدين ، وما جاء من غير طريقه ، ولا يقبل إلا مايقوم عليه دليل تجريبى أو واقعى على حسب المنهج الذى يسلكه باحثو الاجتماع الأوربيون الملاحدة ، وهو مايسمونه بالمنهج العلمى ·

ودعا قاسم أمين فى آخر هذا الكتاب دعوة صريحة إلى تقليد الحضارة الغربية وأساليبها ، فيقول بعد أن ذكر إعجاب المسلمين والمصريين الشديد بالماضى : «هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر إلى علاجه» وليس له دواء إلا أننا نربى أولادنا على أن يتعرفوا شئون المدنية الغربية ، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها ، إذا أتى ذلك الحين ـ ونرجو أن لايكون بعيداً ـ انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعة سطوع الشمس ، وعرفنا قيمة التمدن الغربى ، وتيقنا أنه من المستحيل أن يتم إصلاح ما فى أحوالنا ، إذا لم يكن مؤسسا على العلوم العصرية الحديثة ، وإن أحوال الإنسان مهما اختلفت ، وسواء كانت مادية أو أدبية خاضعة لسلطة العلم ، لهذا نرى أن الأمم المتمدنة على اختلافها فى الجنس واللغة والوطن والدين متشابهة تشابها عظيما (!!) ، فى شكل حكوماتها وإدارتها ومحاكمها ونظام عائلتها وطرق تربيتها ، ولغاتها ، وكتابتها ، ومبانيها ، وطرقها ، بل فى كثير من العادات البسيطة كالملبس

والتحية والأكل ، هذا هو الذى جعلنا (نضرب الأمثال بالأوربيين) ونشيد بتقليدهم ، وحملنا على أن نستلفت الأنظار إلى المرأة الأوربية » !!!

وكان من الطبيعى أن يحدث نشر كتابى « قاسم أمين » وما أعلن لأول مرة من أفكار تدعو إلى خروج المرأة المسلمة على تعاليم الإسلام ضجة أعظم وأخطر لصدورهما من مسلم فى منصب مستشار فى الدولة ، كان له سابقة التصدى لهجوم أعداء الإسلام .. وكانت هذه الضجة شاملة لجميع الأوساط الإسلامية والوطنية .

فمن الجدير بالذكر أن الزعيم الوطنى مصطفى كامل قد ربط بين هذه الحركة وبين الاستعمار ، فكشف خلفياتها ودوافعها الاستعمارية ، وسارع إلى مقاومة هذه الحركة الخائنة وتحذير الأمة منها ، فعقد اجتماعا على أثر صدور كتاب تحرير المرأة لفضح اللعبة قال فيه: «..ولكل أمة مدنية خاصة بها ، فلا يليق أن نكون قردة مقلدين للأجانب تقليدا أعمى ، بل يجب أن نحافظ على الحسن من أخلاقنا ، ولا نأخذ من الغرب إلا فضائله ، فالحجاب فى الشرق عصمة وأى عصمة ، فحافظوا عليه فى نسائكم وبناتكم وعلموهن التعليم السليم الصحيح ، وإن أساس التربية التى بدونه تكون ضعيفة ركيكة غير نافعة هو تعليم الدين » . كما جعل من صفحات مجلة « اللواء » التى كان يصدرها الحزب الوطنى حربا على هذه الدعوة العميلة ، فكان مما كتبه فى كشف صلتها بالاستعمار مانصه : (وهذا .. وقد انتشر خبر الكتاب « تحرير المرأة » فى جهات من الهند ، واهتم الانجليز بترجمته وبث قضاياه ، وإذاعة مسائله ، اهتماما عظيما لما وراء العمل به من فائدة لهم .. وعلم به من سلطان مالديفى ، وبلغه فى هذه الأيام خبر كتاب «المرأة الجديدة» ، الذى أخرجه أخيرا قاسم أمين ليدهم به أمر كتابه

الأول ويفتح به آفاقا جديدا لتحلل المسلمين من دينهم وأخلاقهم ، ولما سئل السلطان المذكور عن رأيه في هذه الاتجاهات قال : « أما تعليم النساء المسلمات ، فقد أصبح من المسائل الحيوية للاسلام والمسلمين ،ولكنه لو مال عن طريق الشريعة الغراء إلى خطة مدنية الغرب الغبراء كان معولا لهدم أركان الإسلام وفأسا لفتح القبور لأبنائه ودسهم فيها وهم أحياء ، أما رفع الحجاب فلا أرضاه لنسائي وبلادي ، وأما المرأة وحق طلاق زوجها فدعوة لاتصدر من معترف بقول الله في كتابه : « الرجال قوامون على النساء » فنسأل الله السلامة ») .

هذا ومما ينبغي ذكره أن قاسم أمين عدل عن رأيه في عام ١٩٠٦ ، بعد أن تبين له أنه ضل الطريق ، في حديث له إلى صحيفة « الظاهر » التي كان يصدرها محمد أبو شادي المحامي ، أعلن فيه رجوعه عن رأيه، كما أعلن فيه أنه كان مخطئا في الدعوة إلى تحرير المرأة .. فهل يكون لدى دعاة تحرير المرأة من الشجاعة في إعلان هذا التحول ؟! حيث قد اعترف قاسم أمين نفسه بعد ذلك بأنه أدرك خطر هذه الدعوة بما اختبره من أخلاق الناس .

ومعنى كلام قاسم أمين هذا الذي نشره قبل وفاته بعام ونصف ، أنه قد اكتشف بعد سبع سنوات من دعوته ـ التي جاءت استدراجا واسترضاء لنفوذ نازلي ـ أنها لم تكن قائمة على أسس صحيحة ، وهي الدعوة إلى تربية الخلق والإيمان بالله ، وأنها لم تكن على طريق الحق . . أو ربما أن قاسم قد رأى بعد أن تغيرت الظروف بزوال كرومر وانطفاء نفوذ نازلي فاضل (ربيبة كرومر) أن يتخفف من هذه التبعة . . وربما كان لبعض التجارب أثرها في نفسه ، فيما يروى أن صديقا عزيزا زاره ذات مرة فلما فتح له الباب قال : جئت هذه المرة من أجل التحدث مع زوجك !! فدهش قاسم ، كيف يطلب مقابلة زوجته ومحادثتها . . فقال له صديقه : ألست تدعو إلى ذلك ؟!

إذن لماذا لا تقبل التجربة مع نفسك ؟ ! فأطرق قاسم أمين صامتاً . . . ومما يذكر أن السيدة زوجة قاسم أمين كتبت منذ سنوات تعلن أن دعوة زوجها كانت خطيرة وأنها لم تكن قائمة على أساس صحيح . (١)

ويعلق الأستاذ محمد فريد وجدى على دعوة قاسم أمين بقوله : « إن دعوة قاسم أمين قد أحدثت تدهوراً مريعاً فى الآداب العامة ، وأحدثت انتشاراً مريعاً فى مبدأ العزوبة وأصبحت ساحات المحاكم غاصة بقضايا هتك الأعراض وهرب الشابات من دور أهلهن » .

تلك هى خلفيات قاسم أمين الذى دفع لإصدار كتاب «تحرير المرأة» عن طريق الاستعماريين ووكلاء الغزو الحضارى الأوربى وعملائه من رواد صالون نازلى ، ثم عدوله عن أفكاره فى هذا الكتاب الذى جاء مخالفاً كلية لدفاعه عن الحجاب أساساً عندما تصدى « للورد دار كير » ، وهناك من يرى أن قاسم أمين مات مهموماً حزيناً على ما فرط منه فى هذا الأمر ، خاصة إذا عرفنا أنه توفى فى ريعان شبابه وهو فى الثالثة والأربعين من عمره ، وله كلمات تكشف عن هذا المعنى عندما قال : « إذا كنت قد شعرت فى هذه الحيـــاة بشىء من السعادة ففى الأوقات التى قضيتها فى بيتى مع زوجتى وأولادى »(٢) ، فهذه كلمات تبين أنه كان يفتقد السعادة خارج منزله لما كان يدور حوله من همسات .

* * *

وبموت قاسم أمين لم تهدأ هـذه الدعوة إلى تدمير المرأة إلا قليلا . . فكيف يهدأ للمستعمر البريطانى بال والخطة لم تصل بعد إلى أهدافها ، وإن مات قاسم أمين فهنـاك على الساحة السياسية من يستأنف الدور ، وهناك

(١) عن مجلة الاعتصام عدد رمضان سنة ١٣٩٩ هـ

(٢) عن جريدة «الأخبار» فى ١٣/٥/١٩٧٨ .

حزب الأمة وزعاماته السياسية المعروفة بعمالتها للإنجليز من أمثال فتحى زغلول عضو محكمة دنشواى والهلباوى جلادها وسفاحها ، وهناك وكلاء الحضارة الغربية المنضوين تحت لواء هذا الحزب من أمثال لطفى السيد، وليس أجدر من لطفى السيد من يحمل مهمة استمرار الدعوة إلى خروج النساء باسم التحرير ..

واستأنف أستاذ جيل التغريب المهمة بكتاباته على صفحات «الجريدة» لسان حزب الأمة .. وأستاذ هذا الجيل أو لطفى السيد هو أول من تحدى مشاعر الشعب المسلم فى مصر بإدخال الفتيات لأول مرة طالبات فى الجامعة مختلطات بالطلاب، وهو أول من تحدى مشاعر الأساتذة المصريين والطلاب بدخول الطالبات سافرات ، وقد أعلن عن ريادته هذه لاختلاط الجنسين فى الجامعة بكل جرأة بقوله : « . . ويتصل خطأ الجماهير فى فهم رسالة الجامعة، مسألة قبول الفتيات المصريات طالبات فى الجامعة، وهى مسألة قليلة الأنصار فى الرأى العام (!!)، وفى هذا المقام يسرنى أن أؤكد لكم أنى لم أتعرض إلى جزئية من الجزئيات تجعلنى أندم ولو وقتياً على ما شرعته الجامعة من هذه الخطة (!!) من غير أن نستفتى العرف العام » !!

وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى واعتقلت السلطات الاستعمارية الأحرار وكتمت أنفاس كل صوت يدعو إلى الاستقلال والاستمساك بعرى الإسلام، وخلت الساحة فانتهز دعاة الانحلال ورواد الحركة النسائية الفرصة، فأصدروا مجلة باسم « السفور » يديرها الصحفى عبد الحميد حمدى ، وأخذت هذه المجلة على عاتقها مهمة الدعوة إلى خروج النساء على التقاليد والآداب الإسلامية وخلع الحجاب والحشمة .

وحتى قيام ثورة سنه ١٩١٩ ، كانت هذه الدعوة إلى تحرير المرأة فى نطاق محدود، فمازالت المرأة المسلمة فى مصر تتمسك بعفتها، فبرغم تزيين الفجرة

لها الخروج فى المظاهرات ، فلم تستجب لهذه الدعوة غير ٣٠٠ امرأة من بيوت مصرية لها قابليتها فى التشبه بنساء الغرب .

فعندما صحبت صفية زغلول زوجها سعد زغلول فى باريس لحضور مؤتمر الصلح سنة ١٩٢٠ لعرض القضية المصرية .. وقد مكثت صفية ترتدى الحجاب إلى أن عادت مع سعد زغلول إلى مصر بعد عودته من منفاه ، وعلى ظهر الباخرة التى نقلتهما إلى الإسكندرية وجد سعد البحر وقد امتلأ بألوف المخدوعين يستقبلونه بالقوارب .. وقال سعد لصفية : ارفعى الحجاب ! وتدخل على الشمسى وواصف بطرس من أعضاء الوفد وعارضا فى ذلك . قال سعد زغلول : المرأة خرجت إلى الثورة بالبرقع ومن حقها أن ترفع حجابها اليوم .. ورفعت صفية زغلول الحجاب ثم وقفت إحدى صنائع الاستعمار تخطب فى القاهرة فى احتفال الشعب المخدوع بقدوم الزعيم وقد وضعت على وجهها البرقع ، وبعد انتهاء الخطاب تقدم (الزعيم ! !) وطلب منها رفع الحجاب .. وعندئذ رفعت الحاضرات الحجاب .

● من بيوت العمالة ، خرجت زعامات الحركة النسائية المصرية :

وفى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ اتسع نطاق حركة تحرير المرأة فى مصر ، وتسلمت قيادتها هدى شعراوى .. فإذا وضعت صفية زغلول تحت علم الزعامة التى انعقدت لزوجها ، فتحت أى علم يضع الاستعمار هدى شعراوى وقد رفع العلم السياسى بصفة نهائية لصفية زغلول ؟ .. الأدوار موزعة ، فليكن الاتحاد النسائى وعبء تشكيله ونشاطاته فى عقد المؤتمرات المحلية وحضور المؤتمرات الدولية لترويج الدعوة إلى خروج المرأة من نصيب هدى شعراوى ..

فمن هى هذه المرأة التى حملت هذه المهمة ؟

هى إبنة محمد سلطان باشا ، الذى خان الثورة العرابيـة ، وطعن حركة المقـاومة لجيش الاحتلال البريطانى فى زحفه على القاهرة ، فقام بتخذيل الأمة فى صد هذا الغزو ، بل كان يدعوها إلى تقديم العون والمساعدة له . وكانت جائزته عشرة آلاف جنيه ذهبية من خزينة مصر قدمها له الخديو ، والإنعام عليه من الإنجليز بنيشان « سان ميشيل » ونيشان « سان جورج » الذى يلقب حامله بلقب « سير » ، كل ذلك اعترافا له من بريطانيا والخديو الخائن بما قدم لهما من صنيع !!

وهدى شعراوى ، هى زوجة على شعراوى باشا ابن عمتها ورفيق سعد زغلول وعبد العزيز فهمى باشا أصدقاء الإنجليز ، ورفيقة صفية زغلول إبنة مصطفى فهمى الذى حكم مصر بالحديد والنار ثلاثة عشر عاماً فى أوائل عهد الاستعمار البريطانى .

ومن المعروف أن هدى شعراوى كانت على ثقافة فرنسية أوربية أهلتها لقيادة الحركة النسائية المصرية بعد تكريسها فى المؤتمر النسائى الدولى فى روما الذى عقد سنة ١٩٢٣ ، حضرته مع سيزا نبراوى ، وفى أعقاب عودتها من هذا المؤتمر خلعت الحجاب ونشطت فى تكوين الاتحاد النسائى المصرى ، الذى يحمـل فى رأس لائحته منع تعدد الزوجات وتقييد الطلاق وإلغاء بيت الطاعة .

وهى المرأة التى قالت فى مذكراتها عن أول مظاهرة نظمتها معلنة عن شخصيتها المتمردة .. قالت : « وبينما كنت أتأهب لمغادرة منزلى للاشتراك فى المظاهرة سألنى زوجى إلى أين سأذهب ، فتركته وانصرفت لألحق بالسيدات اللائى كن فى انتظارى » !!

هذه هي المرأة التي تبوأت مكانة عالية في الحركة النسائية العالمية فأصبحت وكيلة الاتحاد النسائي الدولي ، بعد أن تلقفتها جماعات تحرير المرأة المنتشرة في دول أوربا وخاصة في باريس وبرلين وبروكسل ، التابعة للمحافل الماسونية ومنظمات الصهيونية العالمية ، التي يدبرها شياطين اليهود من وراء ستار ، مستهدفين وفق مخططاتهم التلمودية إحداث ضجة حول ما يسمى بحقوق المرأة السياسية واشتراكها في المجالس النيابية والوزارية ، ومساواتها بالرجل لضرب شبكات العلاقات الاجتماعية في المجتمع المصري المسلم ودفعه إلى طريق الانهيار.

هذه هي المرأة التي صنعت منها محافل الصهيونية والصليبية الدولية زعيمة لأخطر حركة في بلادنا تهدد سلام المجتمع وأمن البيت . .

هذه هي المرأة التي أبت أن تنزل على أمر الله وتنسب لأبيها ، ليكون اسمها هدى سلطان وهو الأمر الذي يكرمها ويجعل لها شخصيتها ، ولكنها وهي زعيمة في اتباع الغرب وتقليد أهله والمخالفة عن أمر الله ، كيف وهي الثائرة على « الرجعية !! » لا تكون « هدى شعراوي » انتسابا للزوج كما يفعلون هناك ؟ ! .

ولما كان دعاة التخريب عندنا ووكلاء تشويه مفاهيم المرأة المسلمة وقيمها لا ينامون ، فإنهم يقيمون لهذه المرأة في كل عام حفلا لتخليد ذكراها ، والمقصود هو تخليد ما تدعو إليه من أفكار مسمومة تستهدف تدمير الأسرة المسلمة وتحطيم البيت المسلم ، وآخر ما طالبت به كبيرتهم هو تدريس تاريخها في المدارس .

* * *

• ومع هدى شعراوى وبعدها تأتى سيزا نبراوى . .

امرأة تلقت تربيتها فى فرنسا ، تجيد اللغة الفرنسية أكثر من العربية . . أشربت ثقافة الغرب ومفاهيمه الحضارية . : وأعدت هناك وزودت بعلم واسع بتشكيل الاتحادات النسائية على الأسس الاجتماعية التى كانت تقوم عليها هذه الاتحادات فى دول أوربا .

وليس هناك من وصف نصف به هذه السيدة غير ما وصفت به نفسها فى مجلة حواء عدد ٢١ / ١٢ / ١٩٥٧ تقول : « وعندما عدت من الخارج حيث عشت حتى بلغت الثامنة عشرة من عمرى ، كنت متحررة متحمسة ، ولهذا رفضت لبس البرقع ، وأصررت على لبس القبعة ، وبحكم الصداقة التى كانت بين والدتى وبين المرحومة هدى شعراوى أخذت تهدىء من ثورتى وتقنعنى بأن الظروف غير مواتية للحصول على حقـــوق للمرأة مرة واحدة ، وأن المطالبة بها فى هدوء يجنبنا ثورة الرجال الذين كانوا كل شىء فى ذاك الوقت » !!!

ومن هنا استحقت سيزا نبراوى أن تقوم بدور السكرتيرة الخاصة لهدى شعراوى وأن تكون فى مقدمة مستشاراتها ، واستحقت أن تكون رفيقة الزعيمة فى أسفارها ومؤتمراتها وجميع نواحى نشاطها ، لقد كان لوجود سيزا نبراوى مع هدى شعراوى فى تأسيس الاتحاد النسائى المصرى ضرورة لنجاح المشروع . فلربما كانت فكرة الاتحاد قد مرت بخواطر نساء مصريات من قبل ، لكن الإمكانات التى أعطتها هدى شعراوى لهذا المشروع عن طريق سيزا نبراوى كانت فوق قدراتهن جميعاً .

هذه هى المرأة التى قالت للفنان التشكيلى مصطفى نجيب عندما طلب يدها للزواج : « إنها لا تستطيع أن ترتبط بحياة يكون من حق أحد طرفيها

فقط التخلى عن التزامه فيها بالطلاق فى أى وقت يشاء » . . واقترح العريس أن تكون العصمة فى يدها وتم الزواج الذى دام أربع سنوات فقط . . ومن يومها لم تكرر التجربة مرة أخرى . . وعاشت كما تقول لابنتها وللحركة النسائية وذكرياتها مع هدى شعراوى .

* * *

وتتوالى الزعيمات ، وتأتى درية شفيق ، من الرعيل الأول لطالبات الجامعة المصرية فى أول عهدها بنظام اختلاط الجنسين الذى تبناه أستاذ الجيل لطفى السيد (١) ، ودخلت مع أستاذ جيل التغريب مشاركة فى التحدى لمشاعر الأساتذة والطلاب بإبراز فتنتها والمبالغة فى الظهور أمام الرجال والشباب فى الجامعة سافرة . . وبعد التخرج سافرت وحدها وعاشت دون محرم فى فرنسا للحصول على الدكتوراه وكل مايؤهلها لتقوم بدور المنافسة فى الحركة النسائية .

---

(١) ما أكثر الألقاب التى خلعتها الدوائر الاستعمارية على وكلائها ، فهذا « عميد للأدب العربى » ليضرب تحت ستار هذا اللقب العروبة والإسلام ، وهذا أستاذ للجيل ، ليطمس الجيل فى تراثه وعقيدته وهما أعز شىء يملكه ، لقد لقب لطفى السيد « بأستاذ الجيل » واعتبر عند الجيل الذى أثر فيه « الأدب الروحى » للأمة المصرية ، لفضله فى تأسيس القومية المصرية والنعرة الوطنية على أنقاض الجامعة الإسلامية .

وبالنظر فى نشاط فيلسوف الجيل نرى أنه دار حول ثلاثة محاور فكرية : الأول الدعوة إلى القومية المصرية ، والثانى الدعوة إلى مذهب الحريتين ، والثالث الدعوة إلى مذهب التعقيل .

وبتحليل سريع للدعوات الثلاث التى تبناها لطفى السيد من خلال =

إن للاستعمار أفانيد وألاعيب، والحركة المصرية النسائية فى ظل مجتمع مسلم تحتاج إلى حبكة درامية مثيرة تعطى آثارها المطلوبة وتحقق أهدافها فى أقصر الأوقات . . فلا بد من شخصية تقوم بدور المنافسة فى لعبة العملاء فى مجال المرأة . .

= ما كتبه تلميذه الدكتور عبد اللطيف حمزة فى الجزء السادس من سلسلة كتبه « أدب المقالة الصحفية فى مصر » فى موضوع « لطفى السيد والجريدة » نجد أن لطفى السيد كان ناقلا مخلصاً لمفاهيم الحضارة الغربية فى البيئة المصرية المسلمة.

١ ـ فبالنسبة للدعوة الأولى ، يقول دكتور حمزة : « أما فى الميدان السياسى ، فقد جاء لطفى السيد بفكرة الجامعة المصرية لتحل محل فكرة أخرى هى الجامعة الإسلامية . . . التى عاشت مصر لها ورأت فيها عزها ومجدها ، بل عز الإسلام ومجده كذلك » ص ١٢ ، ومن المعروف فى ذلك الوقت أن دولة الخلافة العثمانية كانت تحمل لواء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ووحدة الشعوب الإسلامية ، فجاء لطفى السيد بفكرة القومية كما بشرت بها الفلسفة الغربية الوثنية وكما أوحت بها المنظمات الماسونية . . جاء ليخالف ما اجتمعت عليه اتجاهات المواطنين المصريين ليخوض فى تركيا وليعلن الحرب عليها متضامنا مع القوى الاستعمارية الغربية المتآمرة على تفتيت دولة الخلافة ، هذا فى الوقت الذى يجثم فيه العدو البريطانى على صدر مصر مخضعاً كل شىء فيها لأمره ونهيه ، عاملا فيها بسلاح التفرقة تحت مبدئه المعروف « فرق تسد » ، ووقف الفيلسوف مناوئاً للزعيم الوطنى المسلم مصطفى كامل فى موقفه ضد الاحتلال وما كان يرمى إليه بإحراج انجلترا دولياً لأن مصر بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ كانت داخلة فى نطاق دولة الخلافة العثمانية وكانت هذه سياسة حكيمة ، ولكن « أستاذ الجيل » لم يرض هذه السياسة وذهب يشنع عليها بدعوى القومية المصرية ، ليقدم =

هـــدى شعراوى ، تقوم بتشكيل الاتحـاد النسائى وتتبنى أسلوب التدرج فى الخطوات .

• • وثانية ، تقوم بتشكيل « الحـزب النسائى » وتقوم بالتجديد فى وسائل الإغراء والإفساد .

• • وثالثة ، تشكل حزب « بنت النيل » وتقوم بدور للتشـدد المغامر فى استنقاذ المرأة من الرجل واسترداد الحقوق المهضومة الخ . . فمن هى هذه الشخصية التى تستطيع القيام بهذا الدور ؟ ليس غير درية شفيق .

= للاستعمار أكبر فائدة بفصل مصر عن مصدر القوة الوحيد الذى تستمده من نسبها الإسلامى وعلاقتها بدولة الخلافة .

٢ — وبالنسبة إلى « مذهب الحريتين » ، نرى أن الفيلسوف يدعو إلى حرية التعليم والقضاء والخطابة والصحافة ، ولكن فى ظل الاستعباد والاستعمار ، فهو المسئول عن صحيفة « الجريدة » التى أنشئت برأس مال مختلط من مسيو فلان والخواجة أندراوس ومن أحمد فتحى زغلول قاضى محكمة دنشواى الحزينة ، وغير هؤلاء من أصحاب المصالح فى الوجود الاستعمارى الذين وصفهم كرومر بأنهم أصدقاء راضيين عن الاحتـــلال . وإصـدار هـذه الجريدة كان إرهاصـاً لتكوين حزب الأمة لمناهضـة الشعور الوطنى فى جريدتى « اللواء » « والمؤيد » فكان بهذا أول حزب شكل بوحى الاستعمار وصنع على عينه . وبالدعوة إلى الحرية الاجتماعية كان لطفى السيد أول من أدخل نظام الاختلاط بالجامعة ، يقول فى ذلك دكتور عبد اللطيف حمزة فى ص ٧٠ من كتابه « وفى غفلة من الرجعيين والمحافظين على العرف والتقاليد قبلت الجامعة الجديدة الفتيات المصريات طالبات فيها مع الطلبة ، وحرص لطفى السيد ومؤيدوه على ألا تثار هذه المسألة فى الصحف والخطب حتى يضعوا الحكومة والرأى العام أمام الأمر الواقع » =

ففى سنة ١٩٤٩، أنشأت حزب بنت النيل، وبعد أشهر من تكوين الحزب سافرت إلى انجلترا التى كان لها فى هذا الوقت ٨٠ ألف جندى يحتلون أرض الوطن، وهناك قوبلت مقابلة رؤساء الدول وزعمائها، ورحبت بها الصحف البريطانية وألقت عليها الأضواء ونشرت لها أحاديث عديدة تبرزها فى صورة المناضلة والزعيمة الأولى فى مصر لتحرير المرأة من قيود الإسلام !! .. قيود الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات، يقول مراسل جريدة « ذى سكتشمان » فى تقديمه لأحد أحاديثها : « إنّ الأهداف المباشرة لحزب بنت النيل هى كما أوضحتها الدكتورة درية شفيق : منح المرأة حق الاقتراع وحق دخول البرلمان، والمطمح الثانى الذى تهدف الدكتورة لتحقيقه هو إلغاء تعدد

= ٣ ـ أما مذهب « التعقيل » كما جاءنا به لطفى السيد وكما يصفه تلميذه الدكتور حمزة فى ص ٣٤ من كتابه : « عندى أن القصد من حركة التعقيل، إنما هو إعادة النظر فى الإصلاح المصرى على أساس جديد هو العقل من ناحية والمنفعة الذاتية لمصر وحدها من ناحية ثانية ... ومن الحق أن يقال إن هذه الحركة إنما جاءت صدى لماتين الظاهرتين الكبيرتين فكرة الحضارة الأوربية وفكرة الجامعة الإسلامية » . وهذا كلام ينم على جهل بالتعقيل فى المنهج الإسلامى، فالعقل المسلم عقل مؤمن يستهدى فى نظره وبحثه بالوحى بخلاف التعقيل فى المنهج الغربى الذى يدين به لطفى السيد، فالعقل الأوربى وثن يعبد من دون الله، وهو عقل جهول مغرور تجاوز حدود عمله فى عالم الشهادة المادى إلى عالم الغيب وما بعد الطبيعة . . إن الدعوة إلى الفلسفة العقلية دعوة يهودية خبيثة ترمى إلى إحلال العقل محل الدين، نقلها هؤلاء المبشرون من تراث الفلسفة الغربية لهدم الإسلام. أما مسألة المنفعة الذاتية لمصر من وراء هذه الدعوة فالواقع يكذبها، فلم تجن مصر طوال قرن استغرقته الأنظمة التى قامت فيها على أساس هذه الدعوة وحلولها المستوردة إلا الضعف والفقر والتمزق والذل .

الزوجات وإدخال قوانين الطلاق الأوربية فى مصر » وتقول : « إن الطلاق فى مصر بوضعه الحالى أمر يسير جداً فالزوج المسلم له الحق فى أن يطلق زوجته بمجرد قوله أنت طالق أما فيما يتعلق بتعدد الزوجات، فإنه لا يزال دائماً بين الطبقات الفقيرة » .

وفى أعقاب قيام الحـــزب فوجىء المراقبون بظهور الثراء على السيدة وحزبها ، كما طلعت على الناس بثلاث مجلات تطبع فى حجم كبير وعلى ورق فاخر اثنتان منها باللغة العربية والثالثة باللغة الفرنسية عدا المطابع والسيارات الفخمة . . وبالتقصى عن مصـــدر هذه الموارد ، اكتشف من أسباب استقالة إحدى عضوات هذا الحزب أن السفارة الانجليزية والسفارة الأمريكية تمدان الحزب بألفين من الجنيهـــات سنويا ، بخلاف الورق المصقول وغيره فضلا عن المشورة والتوجيه .

هذا وتجىء منطلقات هذه المرأة المشبوهة بتحريض استعمارى ومن خلال المؤسسات الاستعمارية ، ففى سنة ١٩٥٠ انطلقت بمظاهرة من قاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية ذات التاريخ العريق فى التبشير ، قوامها بضع عشرات من الفتيات المتفرنجات الكاسيات العاريات وبعض الشبان من أصدقاء الحزب ! ! متجهة نحو البرلمان بهتافات تطالب بالحقوق المهضـومة ! ! وعلى أثر هـذه المظاهرة أبرقت إليها جمعية سانت جيمس الإنجليزية تهنئتها على اتجاهها الجديد نحو المظاهرات وتعلن تأييدها لها حتى تنال المرأة المصرية على يديها الحقوق السياســية ، تحت قبة البرلمان وفوق كرسى الوزارة . . وكيف لا تؤيدهـا هذه الجمعيـة وهى تقوم بخدمة المستعمر الإنجليزى فى اشـغال الرأى العام عن قضية الاستقلال ! !.

وقد أثبتت الحـــوادث فوق ذلك أن هذه الحركة النسائية المصرية لم يقف تواطؤها مع الاستعمار الغربي عند حد تشيعه في مصر والشرق فحسب بل إننا لا نغالي اذا قلنا عنها أنها كانت تسخر لتثبيت دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وقد إتضح ذلك بجلاء حين اشتركت المندوبة المصرية في المؤتمر النسائي الدولي في استوكهلم عاصمة السويد وجاء ضمن قراراته الاستعمارية قرار يقضي بمطـالبة وزير داخلية السويد بإنزال أشد العقوبات على مسيو « إنبرابر » الصحفي السويدي المعروف، لمواصلته أعمال الدعاية ضد الصهاينة في السويد . وقد كتب مسيو « إنبرابر » على أثر ذلك إلى الجامعة العربية والحكومة المصرية، يستنكر موقف مندوبات مصر في ذلك المؤتمر لموافقتهن على هذا القرار (١)

. . هذه هي درية شفيق التي قامت بدور المغامر في الحركة المزعومة، التي اتخذت في حياتها الطابع الدرامي المثير، وانتهت دراميا حيث ماتت في حادث أليم .

* * *

. وهناك في جبهات تخريبية أخرى تلميذة طه حسين أمينة السعيد رئيسة تحرير مجلة حواء، التي تحرض نساءنا على النشوز وفتياتنا على الانحلال . . وهي التي جعلت الفسق والبغاء الرسمي في شارع الهرم نوعا من كرم الضيافة عندنا في ردها على القذافي عندما ندد بمخازي شارع الهرم في أحد مواقفه العنترية من خلال ندوة عقدت بالقاهرة طالب فيها بنظافة شـــارع الهرم وإغلاق محال الدعارة السياحية وعلب الليل . . وهي التي تهاجم بكل قحة الحجاب الإسلامي في مجلتها، وتقول إنه كفن كأكفان الموتى . . .

---

(١) عن « الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار والصهيونية العالمية » ، للاستاذ محمد فهمي عبد الوهاب « بتصرف » ـ دار الاعتصام .

وتأتى أمينة السعيد ومعها رئيسة النور والأمل سماد صبرى التى رفضت الزواج لتعيش هكذا ممسوخة الفطرة بحجة أن الزواج معوق لرسالتها ولكنه نشوز فى الطبع لا يجعلها أهلا لدور الزوجة والأم الحقيقى .

وفى مواكب الرذيلة صحفيات ومذيعات ومعلمات وطبيبات من أمثال نوال السعداوى الكاتبة الماركسية ، وفاطمة السعيد ومى شاهين وسميحة طاهر وغيرهن صفوف وصفوف ممن رباهن الغرب الاستعمارى الصليبى فى حجره ومحاضنه وممن هن فى دور الإعداد والتكوين ليخلفهن فى مهام التدمير فى مجالات الإعلام والتربية والخدمات الإجتماعية .

● وحققت حركة تحرير المرأة فى مصر

كل أهدافها وزيادة . .

جاءت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م وكانت طليعة للثورات التى قلبت الأوضاع فى المنطقة العربية والإسلامية ، ورحب بها كل الساخطين على على الأوضاع الفاسدة ، وعقد بها الناس أكبر الآمال ، وكان فى إمكانها أن تعيد إلى مصر مكانتها بين العالم العربى ، ومكان التوجيه والثقة والاحترام فى العالم الإسلامى ، بما تنتهجه فى الحياة من مناهج وإجراءات توافق طبيعة الشعب المصرى المسلم وما يكنه فى صدره من عواطف إسلامية جياشة ،

وطبيعة الأمة العربية التى لم يكتب الله لها النهوض والخلود إلا بهذا الدين وتوافق طبيعة الأمة الاسلامية التى لا تنشط ولا تتوحد إلا بدعوة الإسلام وتوافق طبيعة العصر الحائر الذى يبحث عن مخلص بعد أن أفلست جميع الأنظمه العالمية بهدمها لكل خير وسعادة تنشدها الإنسانية ، وينتظر من شعب مسلم أن يقدم له المنهج الربانى الذى ينتج عند التطبيق الصحيح فرداً محرراً مكرما فى كل جوانب حياته ومجتمعا مكرما متكافلا سعيداً .

ولكن الذى حدث أن هذه الثورة تبنت فكرة مستقلة وفلسفة قائمة بذاتها وخطة كاملة مصممة تصميمـا دقيقاً لتطور المجتمع المصرى والمجتمع العربى بالتبعية تطويراً قومياً مادياً ، حتى يصبح مجتمعاً عصرياً يستخلص لنفسه علاقات اجتماعية جديدة تقوم عليها قيم أخلاقية جديدة وتعبر عنها ثقافة وطنية لاتقوم على أصول الإسلام وشريعته . والذى يتصفح الميثـاق الوطنى الذى أصدره عبد الناصر فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية فى يوم ٣١ مايو سنة ١٩٦٢ م يجد أنه يتكلم عن الأديان كأى إشتراكى مادى لا ينظر إلى الأديان إلا كقيمة مادية ثورية فى التاريخ البشرى ، وكأنه لا يؤمن بالآخرة والحقائق الغيبية وإلى قيمة العقيدة الدينية والثواب الأخروى « إن رسالات السماء كلها فى جوهرها كانت ثورات إنسانية ، استهدفت شرف الإنسان وسعادته ، وإن واجب المفكرين الدينيين الأكبر هو الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته »(١) .. وينظر إلى المجتمع وأفراده وحقوقهم نظرة لا تتقيد بالتشريعات الإسلامية والحدود التى بينها الله تعالى للانسان ، وإنما تقوم على نفس الأسس التى تقوم عليها المجتمعات الغربية والتفكير العصرى ، فالمرأة فى نظره «تتساوى بالرجل ، ولا بد أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة لتستطيع أن تشارك الرجل بعمل وإيجابية فى الحياة » (٢) !!

وبوحى من هذه الفلسفة المادية العلمانية وعلى أساسها اتخذت إجراءات وخطوات حاسمـة لتطوير المجتمع المصرى وتطوير العقلية المصرية شجعت على الإشادة بالفرعونية كقومية وحضارة وتراث ، ولم تعد كلمة فرعون تثير فى النفوس الكراهية والاحتقار ومعانى اللعنة والعار التى ألحقها به القرآن الكريم وأطلق العنان للصحافة وكل وسائل الإعلام من سينما وإذاعة وتليفزيون

---

(١) (٢) الميثاق ، الباب السابع

أن تستهزىء بالدين وشعائره ومقدساته وتنتهك الحرمات ، وتنشر فى المجتمع الخلاعة والاستهتار والميوعة ، ولم يزدها التأميم إلا خبالا وإسرافا فى نشر الصور العارية الخليعة ، والروايات الماجنة والقصص الغرامية والأغانى الفاجرة والتركيز على الحوادث المثيرة للغريزة الجنسية وأقيمت مهرجانات للرقص والغناء ، وبذلت العطايا والجوائز للراقصات والمغنيات باسم تشجيع الفنون ، كل ذلك حتى يتطور المجتمع وتتطور العقلية المصرية وتأخذ اللون المادى والطابع الغربى الإنحلالى .

واتخذت لتطوير المجتمع خطوات إيجابية أخرى تنزع عنه الصبغة الإسلامية فطور الأزهر ومسخت رسالته وتحول من جامعة إسلامية تخرج علماء فى أصول الدين والشريعة إلى جامعة عصرية ليس للإسلام وعلومه فيها إلا حصة كحصة الدين فى المدارس العصرية التى وضع مناهجها دنلوب القسيس الانجليزى . وألغيت المحاكم الشرعية والقضاء الشرعى . وزج بالدعاة إلى الله فى غياهب السجون والمعتقلات وطوردوا وشردوا وعلقوا على المشانق وحوربت أسرهم وأطفالهم بالإرهاب والتجويع ، بلا ذنب ولا جريرة إلا أنهم دعوا إلى تطهير المجتمع ونظافته . .

وفى ظل هذه الظروف واتت أصحاب الدعوة إلى تحرير المرأة الفرصة فتوسعت لها قاعدة التعليم المختلط فشملت المدارس الاعدادية والثانوية بعد أن كانت قاصرة على التعليم الجامعى ، وأصبح من حق المرأة فى مصر التصويت فى الانتخابات والترشيح لعضوية المجالس النيابية والشعبية والجلوس على كرسى الوزارة وصدرت القوانين التى تؤكد هذه الحقوق وتلتها قوانين أخرى :

- قانون بفرض ثلاثين نائبة على الأقل فى مجلس الشعب
- قانون بفرض خمسة وعشرين فى المائة من النساء على الأقل فى عضوية

جميع المجالس الشعبية والمحلية

ـ قانون يجعل الانتخاب والتصويت إجباريا على كل أنثى تبلغ الثامنة عشرة من عمرها، مع كونهما ليسا بالإجبار على الرجل !.

ـ قانون تعديل أحكام قانون الأحوال الشخصية .

إن اشتراك المرأة فى الحكم فى أى صورة من الصور ، مخالف للشريعة الإسلامية تماما ، وهو بدعة مستوردة من الخارج عملت الثورة على اتباعها وتقليدها ، غير عابئة بأحكام الشريعة الغراء التى نصت على أنه « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة »

اشتراك المرأة فى الوزارة ، وفى مجلس الشعب ، والمجالس المحلية ، والمجالس الشعبية ، هو اشتراك فعلى فى الحكم والولاية ، وهو ما لا يرضاه الله ورسوله ولم تكفنا هذه المخالفة لشريعة الله بأن أبحنا أن تكون المرأة ناخبة أو نائبة فى كل هذه المجالس ، ولكن تعدى الأمر إلى جعل الانتخاب فرضا وجبرا على كل من بلغت ثمانى عشرة سنة وتعدى الأمر إلى فرض نسبة أدنى على الأقل فى كراسى النيابة البرلمانية والمحلية والشعبية للنساء ، وهو أمر لم يحدث حتى فى الدول الماركسية الشرقية أو الغربية التى لا تتقيد بأحكام الإسلام .

وتعقب أمينة السعيد بعدم الرضا فى مجلتها «حواء» على قانون تعديل قانون الأحوال الشخصية برغم أن المرأة حصلت بهذا القانون على ما يتجاوز حدودها فتقول « إن هناك أمورا جوهرية لم يتناولها التعديل» وهى تقصد طبعا أن القانون لم يتضمن نصا صريحا بتحريم الطلاق وتعدد الزوجات اقتداء بالكاثوليكية، فهى التى قالت منذ ربع قرن فى مجلة المصور : « إنى

لاأطمئن على حقوق المرأة إلا إذا تساوت مع الرجل فى الميراث» وكتبت بعد سنوات تقول «كيف نخضع لفقهاء أربعة ولدوا فى عصر الظلام ولدينا الميثاق».

ونحن نقول للكاتبة إن القانون يحقق لها ما تتطلبه من وضع العقبات والعراقيل والمتاعب فى طريق تعدد الزوجات والطلاق والتنكيل بكل من تحدثه نفسه أن يقدم على أحد الأمرين. وأنه سيفتح الأبواب على مصاريعها لتعدد العشيقات الخليلات بدلا من تعدد الزوجات الحليلات.

كما نقول لها إن الغرب الذى تقدسينه هو مهد الدعارة والتحلل الخلقى وانحلال الأسرة وإن ما أصاب الشرق من تحلل خلقى قد هب إليه من الغرب، عن طريق الصحافة والمؤسسات التربوية الدخيلة على تقاليدنا والمعروف أن الغرب يحرم الطلاق وتعدد الزوجات وإن كان قد إتجه أخيرا فى بعض دوله لإصدار قوانين تبيح الطلاق وتعدد الزوجات.

ونقول .. برغم كل هذه الإجراءات، فإن مقومات الأمة وتقاليدها لن تهزم أبدا وإن حصون الإسلام أقوى وعين الله لها حارسة.

● وهل كان سعيهم مشكورا ؟!

إن الدعوة الى التجديد وتحرير المرأة فى إطار مفاهيم الحضارة الغربية، كما قدمها دعاة من أمثال رفاعة الطهطاوى وقاسم أمين وسعد زغلول ولطفى السيد وطه حسين وغيرهم فى جيلهم ومن سلك طريقهم فى الدعوة إلى تقليد الغرب واقتفاء مناهجه الوثنية المادية بشقيها الغربى الليبرالى والشرقى الماركسى إن هذه الدعوة كانت مخالفة للحقيقة ومصادمة للفطرة ومنافية لبديهيات العلم ومسلماته ورفضا للاسلام وشريعته، وكانت فى غاياتها البعيدة تخدم المخطط الاستعمارى الصليبى الصهيونى الشيوعى الذى يستهدف تدمير الأسرة

والمجتمع كله بواسطة إخراج المرأة من رسالتها وأمانتها .

والواقع أن أصحاب هذه الدعوة لم يكونوا مخلصين لأمتهم وتراثها الأصيل وما لديها من منهج سماوي يعلو، لا يجعل من دور المرأة فى الحياة ألعوبة من الألاعيب بل مسئولية وتبعة زوجية وأمومة ، وإن الحياء الصادق والعفة الصحيحة والطاعة العظيمة التى هى مظهر الحب، لا تتحقق إلا بتصون المرأة فلا تخالط الرجال إلا فى ضرورة ماسة وحرصها على دينها والصبر على مكاره البيت فالمرأة للبيت ثم إنشاء البيت للاسرة ثم إنشاء الأسرة للمجتمع .

وبسبب ولاء هؤلاء لثقافة الغرب وتقاليده، جاء تصويرهم لدور المرأة وشخصيتها مشوها وضالا ومثيرا للتمرد ودعوة إلى شر كثير .. حرفوا الواقع وزيفوا الفطرة وغالطوا فى الحقائق الأصيلة الثابتة مادام ذلك يوافق ما يدين به الغرب وينسجم مع أساليب الحياة هنـاك التى فتنوا بها وبلغت فتنتهم بها أن تجاوز أحدهم نسبيا الإسلامى ، وأعمته الفتنة بالغرب عن تاريخ أربعة عشرة قرنا لشعب مصر فى الاسلام لينسبها تاريخا وحضارة إلى أوربا فيقول طه حسين إن من السخف الذى ليس بعده سخف اعتبـار مصر جزءا من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية (١) » . . وعلى هذا الأساس دعا العميد المصريين الى اختيار الحضارة الغربية حضارة لهم ومشاركة الغربيين فى جميع مناهجهم ومقاييسهم وأذواقهم وأحكـامهم فطلب بصريـح العبـارة أن « نسير سيرة الأوربيين وتسلك طريقهم لنكون لهم أندادا ، ولنكون لهم شركاء فى الحضارة، خيرها وشرها ، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب » (٢) . .

---

(١) ، (٢) طه حسين: مستقبل الثقافة فى مصر ص ٤١

« وأن نشعر الأوربى بأننا نرى الأشياء كما يراها ، ونقوّم الأشياء ، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها (١) » . وإلى هـذا الحد وصلت حماسة هؤلاء الدعاة إلى تقليد الحضارة الغربية والانتساب إليها ، لندخل فيها بعد أن نخلع على أعتابها إيماننا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكل ما يقوم على هذا الإيمان من نظم شرعها لنا الله .

ولكن ، هل كان سعى هؤلاء فى إضفاء الصبغة الغربية علينا مشكورا ؟ وهل نالوا تقدير واحترام أصحاب هذه الحضارة برغم ما قدموا على أعتابهم من مراسيم الطاعة والإخلاص والولاء ؟

الإجابة عند اللورد كرومر ، الذى كان أكبر رائد إلى تغـريب مصر والعالم العربى بالتبعية ، فقد صور بنفسه هذا الجيـل المشئوم الذى تربى فى أحضان التعليم الغربى ونال أعلى درجاته العلمية من جامعاته ورجع إلى وطنه مؤمناً بسيادة الغرب وفضل حضارته وقدسية مبادئه ، فكانوا طلائعه الأولى العاملة بكل حمـاس على سلخ أمتهم من ماضيها العريق وهدم كل قواعدها وأصولها الاجتماعية لتقوم على أساس غربى ظنا منهم أن هذا هو طريق النهضة والحل الأمثل لمشكلاتنا ، فتاهوا بذلك عن اكتشاف خصائص أمتهم وفقدوا هويتهم الأصيلة ، فعموا وصموا عن أن الغرب ما يزال يعيش على تراث سلفه ، على عكس النظرة الخاطئة التى تحاول عن عمد لإيهام بلفظه لعقيدته ونبذه لتراثه والمفاصلة بينه وبين سلفه .

يقول كرومر فى شأن هؤلاء : « إن المصرى المتحرر يسبق الأوربى المتحرر فى التنور ، وحرية الفكر والحيرة ، إنه يجد نفسه فى بحر هائج لا يجد فيه سكاناً ولا ربانا لسفينته ، فلا ماضيه يضبطه ، ولا حاضره يفرض عليه الحواجز الخلقية ، إنه يشاهد أن الجمهور من مواطنيه يعتقدون أن الدين يعـارض « الإصلاحات » التى يراها جديرة كل الجدارة بالنفاذ ، إن ذلك يثير فيه السخط ، والكراهية

---

(١) الـكتاب السابق : ص ٤١

الشديدة للدين الذى يؤدى إلى مثل هذه النتيجة ، فيدوسه بقدمه وينبذه بالعراء ، إنه إذا قطع الصلة عن دينه وتعاليمه فلا يحجزه عن التورط فى المزالق الخلقية إلا مصلحته الشخصية السافرة ، مع أن الأوربى الذى يحرص على تقليده ، لا يزال متقيداً بشرائع أمته الخلقية إن المجتمع الذى يتكون من مثل هؤلاء الأفراد المتحررين فى مصر ، لا ينكر على الكذب والخديعة إنكاراً شديداً ، ولا يمنعه من ارتكاب الرذائل خوف سوء الأحدوثة فى المجتمع ، إنه إذا رفض دين آبائه ، فإنه لا يلقى عليه نظرة عابرة ، إنه لا يرفضه فحسب ، بل يرفسه ويركله برجله ، إنه يترامى فى أحضان الحضارة الغربية متعامياً عن كل حقيقة ، ويغيب عنه أن الجانب الزاهر البراق للحضارة الغربية ليس إلا الجانب الخارجى من جوانب هذه الحضارة ، إن الحقيقة أن القوة الخلقية التى تنبع من التعاليم المسيحية هى التى تضبط سفينة الحضارة الغربية وتمنعها من الاضطراب الزائد فى البحر الهائج ولما كانت هذه القوة قوة باطنية ، فإنها تتوارى فى غالب الأحيان عن أنظار المتشبهين الزائفين بأبنائها الحقيقيين ، إنه يحلف ويقول : إنه نبذ التعصب الدينى ، وأنه يحتقر تعاليم آبائه إنه يقول لزميله الأوربى : إننا أصبحنا نملك الخط الحديدى ، وقد أسسنا فى بلادنا مدارس عصرية ، وأنشأنا الجرائد والمحاكم ، ومظاهر الحياة الحديثة ، والمدنية العصرية التى تتكون منها حضارتكم ، فكيف نعتبر متخلفين عنكم وأحط شأناً منكم ، إنه يجهل أنه لا يستطيع أن يجارى زميله الغربى ويكون نداً له ، فإن المسيحى المتحضر وإن لم يكن راسخا فى دينه ، ولكنه إلى حد كبير نتاج المسيحية ، فإن لم تكن للمسيحية التى مضى عليها ألف وتسع مائة سنة، رصيده وسنده ، لم يكن قط حيث هو الآن» (١)

Cromer : Modern Egypt, vol 2 P. 232 (١)

•• ويقول فى موضع آخر : « إن المجتمع المصرى فى مرحلة الانتقال والتطور السريع ، وكانت نتيجته الطبيعية أن وجدت جماعة من أفرادهم « مسلمون » ولكنهم متجردون من العقيدة الإسلامية والخصائص الإسلامية، وإن كانوا « غربيين » فإنهم لا يحملون القوة المعنوية والثقة بأنفسهم ، وإن المصرى الذى خضع للتأثير الغربى، فإنه وإن كان يحمل الاسم الإسلامى لكنه فى الحقيقة ملحد وارتيابى ».(١)

الحصاد المر

إنه برغم صلابة الشخصية الحضارية للمجتمعات الإسلامية واستعصائها على الذوبان فى حضارة الغرب ، إلا أنه لضراوة الغزوة الحضارية الغربية وما حشدت لها من جهود وإمكانات مادية وبشرية من الداخل والخارج وما ساعدها من ركون هذه المجتمعات وتبلدها ، استطاعت الحركة الملقبة بحركة « تحرير المرأة » أن تحقق الكثير من أهدافها فى قطاعات عريضة من مجتمعاتنا . .

لقد استطاعت هذه الحركة المشئومة أن تحدث نشوها فى معالم شخصية المرأة المسلمة العفيفة المصونة ، وانقلاباً فى مفاهيمها ، حتى أصبحنا لا نستطيع التمييز بين المرأة المسلمة والمرأة الأوربية فى فكر أو خلق أو سلوك . .

كما استطاعت أن تنزع من مجتمعاتنا الكثير من سماتها الإسلامية ، فذابت الحواجز بين الفتى والفتاة فى الرحلات المزدوجة ، ومعسكرات الشباب

Ibid P. 228 -(١)

المختلطة ، ونزعت القيم والأخلاق من نفوس الأجيال الناشئة . . وراحت الأغذية السامة التي يقدمها الأدب الوجودي للنحل وأدب الجنس والفكر المادي ، حتى أصبحت الوجبة المفضلة لدى شبابنا وفتياتنا وهي الظاهرة الخطيرة التي أعلن عنها رئيس اتحاد الناشرين في بيروت بقوله : « إن الكتب الجنسية الآن من أروج الكتب في البلاد العربية ، وهي والمعاجم اللغوية لا تمنع كالكتب الأخرى » يقصد أن قيود المنع لا توضع إلا على كتب الفكر الإسلامي الجاد .

وكانت النتائج وخيمة ، فانعكس الفساد على كل مرافق حياتنا وتغلغل فيها من الجلد إلى اللحم والعظم، وتخلفنا في جميع الميادين، ولحقت بنا الهزائم السياسية والعسكرية . . فما موقف ضباط الطيران بمصر في ليلة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ عنا ببعيد ، فقد كانت هناك تنبيهات وتحذيرات من أكثر من مصدر، تومىء إلى توقع هجوم من إسرائيل في يوم ٥ يونيو ذاته، ويساعد على هذا التوقع سخونة الجو السياسي والعسكري وارتفاع حرارته إلى حد بعيد أثر المؤتمرات والتصريحات النارية ! . . وفي هذه الظروف يأبى قادة الطيران إلا أن يقيموا حفلا راقصاً يشربون فيه ويطربون ، ويتراقصون ويتمايلون ، حتى مطلع الفجر، بدلا من أن ينيبوا إلى ربهم سجداً وقياماً واستعداداً . . وكان ما كان من ضرب المطارات وتحطيم الطائرات ، والقوم يغطون في نوم عميق بعد سهرهم الطويل . وكانت النتيجة أن ضاعت القدس أولى القبلتين ، وأصبح الطريق إلى القاهرة مفتوحاً .

ولقد كشفت « نكستهم » في سنة ١٩٦٧ كثيرا من الفضائح والمخازي التي يندى لها جبين الكريم ، ويضيق بها صدر الحليم . . ومن هذه المخازي قضايا « الجواسيس » اليهود الذين تسللوا في أكثر من بلد عربي ثوري إلى مركز القيادة ، تحت أسماء إسلامية مزورة، واستطاعوا أن يعسوا ويصبحوا

ندامى ومسامرين لكثير من الشخصيات المرموقة عسكرية ومدنية ، وأن يحصلوا من ورائها على أعمق الأسرار العسكرية والسياسية ، ليطيروها إلى « إسرائيل » وهم فى أمان واطمئنان ، لأنهم فى حماية فلان ، وكنف علان، من القادة والضباط العظام !

إن قصة «إيلى كوهين» فى سورية وأضرابه فى غيرها من دول المواجهة مع إسرائيل ، مما كشف بعضه ولم يزل بعضه الآخر سراً مجهولا ، ستظل من القصص العالمية المثيرة فى تاريخ التجسس المفعم بالمغامرات . . لماذا نجح هؤلاء الجواسيس ؟

نجحوا عن طريق الفساد الخلقى ، فما وجدوه منه استغلوه ووسعوه ، وما لم يجدوه حاولوا أن يخلقوه ويغذوه إن أعظم فخين أو شبكتين للجاسوس هما ، الخمر والمرأة ! وعن طريقهما يقع فى حبائله كبار المسئولين من حملة أسرار الدولة والقوات المسلحة .

إن من شأن هذه الدعوة الخبيثة التى يروج لها دعاة تحرير المرأة الذين وضعتهم الدولة فى مراكز الصدارة فى كل مؤسسات التوجيه والإعلام . . إن من شأن هذا الجو الذى سممه هؤلاء الدعاة بإمكانياتهم هذه أن يعطى منطقا واحداً للشباب والشابات ، أن الحياة كلها لهو وفراغ وجنس وتسلية وخداع وصراع وتحريض وانتقام وغواية واصطياد وليس لهذا كله حدود ، ولا عقوبات ، هكذا تصور وسائلهم الإعلامية من صحافة وإذاعة وسينما وتليفزيون فى حوار قصصهم وأفلامهم وتمثيلياتهم ، فتعطى للشباب التحريض على أسرته وأهله ، وللفتاة الاندفاع إلى مطامعها وأهوائها ، وللزوجة أن تبحث عن طريق غير طريق البيت أو الأسرة إذا ما رأت تسهيلات الاعوجاج والانحراف . .

نشرت جريدة « أخبار اليوم » فى عددها الصادر ١٩٧٦/٢/١٤ تحقيقاً بعنوان « لماذا تنحرف الفتيات الصغيرات ؟ » يجيب صاحب التحقيق بأن الفقر أحياناً هو السبب .. « والتطلع » فى أحيان كثيرة يكون وراء الانحراف ، هكذا يقول المتخصصون فى الاجتماع .

إن شارع الشواربى بمحلاته الأنيقة ومعروضاته المغرية من الملابس المستوردة وأدوات التجميل والزينة يثير لعاب الفتيات، فإذا امتدت أيديهن إلى الجيوب ، عادت خاوية ، وغالباً ما تمتد أيد كثيرة إليهن فى هذا الوقت بالذات تشترى لهن وتأخذهن إلى الضياع !

ليس الفقر وحده هو المسئول : هكذا تقول أوراق التحقيقات مع البنات المنحرفات . إن أمام « حسين نعمان » مدير نيابة الآداب اعترافات مثيرة لبنات صغيرات ، لم تكن الحاجة والفقر وراء انحرافهن ،ولكن كانت هناك أسباب أخرى كثيرة ومثيرة :

ـ الاعتراف الأول لطالبة .. قالت إنها تمتلك سيارة بيجو وقد تعطلت فذهبت بها إلى الورشة طلب الميكانيكى مائة جنيه لإصلاحها .. وعجزت عن تدبير المبلغ وتعبت من الذهاب إلى الكلية فى المواصلات المزدحمة .. وهمست زميلتها وصديقتها الطالبة بكلية الآداب فى أذنها بالحل .. ساعة واحدة مع سائح وتحصلين على ثمن إصلاح السيارة !

وذهبت مع صديقتها إلى السائح فى الصباح .. وأسرتها تعرف أنها فى الكلية .. ونزلت وفى حقيبتها مبلغ المائة جنيه .

ـ والثانية اعترفت بأنها مخطوبة لموظف شاب أحبته .. لكنه كان محدود الدخل وعند البحث عن شقة الزوجية طلب صاحب العمارة ٨٠٠ جنيه خلو

رجل وعجز خطيبها عن الحصول على أى مبلغ . . وانحرفت هى . . لتحصل على خلو الرجل. وانسابت دموعها وهى تقول لمدير نيابة الآداب: وجمعت ٦٠٠ جنيه فى ستة أيام ولم يكن ينقصنى غير مائتين . .

ـ والثالثة . . تستأجر شقة مفروشة فى الدقى بمائة وخمسين جنيها فى الشهر .. قالت إن أسرتها فقيرة وهى تكره الفقر وتتطلع إلى الحياة المترفة .. للملابس الجاهزة من شارع الشواربى .. للطعام النظيف . . لركوب سيارة . وانحرفت !

وقدمت النيابة الطالبات إلى المحكمة بعد اعترافهن وحكمت المحكمة بحبس كل منهن بالسجن ٣ شهور مع الشغل .

ويقول مدير نيابة الآداب : ليس العامل الاقتصادى وحده هو الدافع إلى وقوع الكثيرات ، وأمامى نماذج كثيرة :

وقفت أمامى فتـاة لا يتجاوز عمرها ٢٢ سنة . . من أسرة كبيرة . . والدها كان يشغل مركزا مرموقا . . تملك ٥٠ فدانا .. عندما تم ضبطها فى شقتها مع سائح ، وجد معها خمسة آلاف جنيه ، ومجوهرات لا يقل ثمنها عن عشرة آلاف جنيه . .

وطالبة بالجامعة الأمريكية عمرها ٢٥ سنة . . زوجة وأم لطفلين . . تملك شقة خاصـة فى ميدان التحرير . . وسيارة من أحدث طراز . . تم ضبطها ومعها مبلغ كبير وتتحلى بمجوهرات ثمينة . . قالت إنها ليست فى حاجة إلى الفلوس . . إنها انحرفت لملأ فراغ وقتها . فزوجها مشغول عنها بأعماله دائما ! !

خمس طالبات صغيرات تم ضبطهن فى شقة سائح .. عاريات فى حجرة النوم . . كلهن من أسر محدودة الدخل . . يمارسن الجنس لحاجتهن إلى مصروفات نثرية لشراء سندوتشات والجلوس فى الكازينوهات . . قالت إحداهن : ومعى الفلوس لكنى لا أستطيع أن أشترى ماتتوق إليه نفسى من الملابس الجاهزة فى شارع الشواربى خشية أن تسألنى أسرتى من أين لك هذا ؟!

والأمثلة كثيرة . . ومثيرة . . ومتعددة ، إن متوسط ما يقدمه مكتب الآداب إلى النيابة والمحكمة سنويا يزيد على الألف قضية . . لطالبات . . وزوجات من أسر كبيرة وموظفات ، هذا ما يكشفه بوليس الآداب والحالات التى لم تكشف لا حصر لها ! » .

ويقول حسين نعمان مدير نيابة الآداب : من واقع تجاربى معهن وسماعى لاعترافاتهن فإن ذلك فى تقديرى يرجع إلى نقص التربية الأسرية والدينية فى الأسرة . وأحمل وســائل الأعلام . . والصحافة والإذاعة والتليفزيون نصيبها من المسئولية .

ويستطرد : إن المادة ٩ ج من القانون رقم ١٠ لسنة ١٩٦١ فيها كثير من الثغرات على سبيل المثال . . المنحرفة التى تصادق شخصا واحداً لا تحاكم . . والتى تمارس الجنس مع عدد من الأشخاص تقدم بتهمة الاعتياد على ممارسة الدعارة » .

* * *

جاء فى البروتوكول التاسع من بروتوكولات حكماء صهيون : « ولقد خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين — غير اليهود — وجعلناه فاسداً متعفنا بما علمناه من مبادئ ونظريات معروف لدينا زيفها التام ، ولكننا نحن المقنون

لها » . وجاء فى البروتوكول الثانى عشر : « الأدب والصحافة هى أعظم قوتين تعليميتين خطيرتين . ولقد نشرنا فى كل الدول الكبرى ذوات الزعامة أدباً مريضاً قذراً يقذى النفوس » . .

وإننا نحن المسلمين بعد هذا كله لنتساءل : أما آن لمواكب الفارغات والفارغين من دعاة تدمير المرأة أن يكفوا ، ويتقوا الله ؟ ! . . أما آن للمسئولين عن هذه الأمة أن يضعوها على الطريق الصحيح، وأن يكون لنا فى هذا الواقع المر الأليم عبرة ؟ !

إن هذه الأجيال التى نحن مسئولون عنها أمام الله وأمام التاريخ : أننا لم نمهد لها طريق الحق ولم ندلها على منابع الخير ، ولم نقم بناءها على أساس الإيمان هناك مسئولية توجيه الآباء والأمهات أولاً وهناك مسئولية مناهج التربية والتعليم ، وهناك مسئولية وسائل الإعلام بما تقدمه من مفاهيم غربية فاضحة تمثل مجتمعها ولا تمثلنا . . هذه الأجيال التى يجب أن تعرف التحديات الخطيرة التى تواجهها وتواجه أمتها، وذلك الخطر الأكبر الماثل فى بلادنا من صهيونية واستعمار صليبى وماركسى ، وما تحاول به كل هذه القوى الحاقدة الطامعة من احتواء أمتنا عن طريق إخراج شبابنا من دينه وقيمه وتراثه الأصيل ليصبح عاجزاً بالتحلل والإباحية والفردية والأهواء عن مقاومة مايحدق بنا من أخطار وإن مانراه الآن لينذر بالخطر وليكشف بصورة واضحة ما أضمرته بروتوكولات حكماء صهيون التى ركزت على تحلل شباب الأمة وتلويث قلبه ونفسه وتزييف عقله وتشويشه ، واحتوائه والسيطرة عليه عن طريق حرية الجنس الذى تزينه جماعات اتباع الشهوات فى

الأغنية المكشوفة ، وحوار التمثيليات الهابط ، والصورة العارية والقصة الإباحية، حتى يصير فى النهاية وقد مسخ بالحيوانية غير قادر على فهم رسالته فى بناء أمته وتفهم دورها فى هذا الوجود - كخير أمة أخرجت للناس - وتعرف حق الله عليها والتزامها التاريخى والأخلاق ، ومسئوليتها فى حساب أخروى ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله أليم .

الفصل الثالث

الأسرة المسلمة على مفترق طريقين

رأينا كيف نقلت قوى النفوذ الاستعماري بوجهيه اليهودي والصليبي إلى الحياة الاجتماعية الإسلامية مخطط الهدم المدروس لكل مقومات الأمة وجعلها لقمة سهلة لكل طامع ..

ومما لاشك فيه أن هـــذه القوى وضعت في الحركة التي استعلنت باسم « تحرير المرأة » أكبر آمالها ، فحشدت لها كل الإمـــكانات والجهود والطاقات مايكافيء الدور الخطير الذي تلعبه على الساحة الإسلامية .. ذلك أن هذه الحركة ، التي حمل لواءها رجال قطعوا صلتهم بنسبهم الإســـلامي وجعلوا من حضارة الغرب قبلة لهم ، ونســـاء كثيرات غرر بهن وظنن أنهن يستهدفن حقا مسلوبا ، هي في حقيقتها جزء هام من أجزاء مخطط التذويب والاحتواء الغربي والغزو الثقافي والاجتماعي الذي يهدف إلى إخراج المرأة من رسالتها وقيمها ودفعها لتكون معول هدم للأسرة والمجتمع ، ذلك أن الإسلام هو الذي وضع الركائز الأصيلة لتحرير المرأة ، أما هذه الحركة فقد استهدفت تفكك الأسرة وانحلال الأخلاق واستباحة العرض الإســلامي بإحداث ثغرات وتأصيل مفاهيم جـديدة تدور في إطار المفهوم الغربي العاري من أساليب العفة والقيم والحصانة ، وبالفعل تأصلت هذه المفـاهيم

الخاطئة وأصبحت فى عداد المسلمات ، التى مسخت الفطرة السليمة للمرأة وأفسدت العلاقات بين الزوج والزوجة والآباء والأبناء ، فعمت الفوضى والاضطرابات حياتنا حتى أصبحت بعيدة كل البعد عن الصورة النظيفة الآمنة المطمئنة للحياة الإسلامية ، والحق الذى لامراء فيه أن هذه الجماعات التى أخذت على عاتقها قطع كل صلة لنا بأصولنا الإسلامية لتصلنا بالغرب وأصوله، لم تكن مخلصة لهذه الأمة أو صادقة فى التماس هدف أصيل .

وقد كان لهذا الانحراف الذى تم تحت أضواء الحضارة وبريق الحرية وصيحات التكريم الزائفة للمرأة أثره البعيد فى هذه النتائج الخطيرة التى يواجهها المجتمع الإسلامى ، وهذه التحديات التى تواجه المرأة المسلمة ورسالتها فى الحياة كما رسمها المنهج الإسلامى .

ومن أجل إسقاط الأسرة طرحت فى طريق المرأة المسلمة أشواك كثيرة : منها خروجها إلى ميادين العمل العامة والتخلى عن مسئوليات البيت ، وتحريضها على النشوز وإسقاط قوامة الرجل، ودعوتها إلى تحديد النسل وضرب وظيفة الأمومة ، وتشكيكها فيما شرعه الله لها من الحجاب وعدم التبرج، وإباحة تعدد الزوجات والطلاق حلا لمشكلات الأسرة..

أولا : عمل المرأة

تدرجت الدعوة إلى تحرير المرأة من رفع الحجاب وإزالة مايسمى بالنقاب وكشف وجهها وكفيها ، وسمت رفع النقاب سفورا ثم كشفت قدميها وساقيها وذراعيها حتى وصلت فى عريها إلى الكشف عن صدرها إلى نهديها وعن ركبتيها . وربطت الدعوة إلى السفور : الحجاب «بالحريم» تبغيضا فيه، كما ربط الإلحاد العلمى : الدين « بالرجعية » تنفيراً منه .. تدرجت هذه

الدعوة الآثمة من رفع الحجاب والتعليم المشترك واختلاط الجنسين إلى دفع المرأة نحو العمل خارج المنزل .

ويلاحظ ابتداء أن المرأة فى المجتمعات الإسلامية خرجت من المنزل لتشارك الرجل وتزاحمه فى ميادين الأعمال العامة ، لمحض تقليد للمرأة الأوربية والتشبه بها ، وعن جهل منها بأنها ضحية الخطة اليهودية التى سبقت إلى تدمير المرأة والأسرة فى الغرب منذ الثورة الصناعية ، وعندما اشترى اليهود والبورجوازيون أصحاب رأس المال عمل النساء والصبيان بأبخس الأثمان فى المصانع الجديدة ، ووضعوهما فى أسوأ الظروف الاجتماعية والصحية ، التى يفرضها العمل الليلى .. وكانت تلك مقدمات تهتك النساء وجنوح الأحداث فى الغرب ، تلتها خطوات انتهت بالمرأة الغربية حتى أصبحت الآن سلعة فى سوق الرقيق الأبيض يتاجرون بجسدها وعرضها ، فرؤوس الأموال الكبيرة تشيد الفنادق والمعارض تقيم فيها المحترفات بالبغاء ، كما تعرض فى واجهاتها أبدان النساء عارية مع الأجور التى تدفع لهن ، وتقام هذه الفنادق فى مواقع مختارة ، تعرف بالتردد عليها كمواقع للهو والتسلية ، أو فى مواقع كنقاط اتصال على الحدود بين دولة وأخرى »(١) .. لقد أصبح جسد المرأة الأوربية كبائعة فى متجر أو عارضة أزياء أو ممثلة فى أفلام السينما أو سكرتيرة لرجال الأعمال أو مضيفة فى فندق أو على طائرة أو باخرة ، وفى جميع الحالات العامة والخاصة سلعة ترتبط بالمنفعة المادية(٢) التى طغت على القيم الخلقية الإنسانية هناك .

---

(١) نقلا عن كتاب «الإسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة» للدكتور محمد البهى نشر مكتبة وهبه .

(٢) من المنفعة المادية وطغيانها تنقل صحيفة News the world فى عددها الصادر ٢/٣/١٩٧٨ ، أن الممثل Maxwell Reed حاول أن يقدم=

وقد أحست المرأة الغربية بالغبن الذى وقع عليها من جراء مساواتها بالرجل فى العمل ، وأخذنا نسمع عن صيحات هناك تعبر عن هذه الأحاسيس فنسمع أجاثا كريستى أشهر كاتبه انجليزية للكتب والمسرحيات البوليسية تقول فى كتاب صدر لها أخيراً عن حياتها : « إن المرأة مغفلة ، لأن مركزها فى المجتمع يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . فنحن النساء نتصرف تصرفاً أحمق لأننا بذلنا الجهد الكبير خلال السنين الماضية للحصول على حق العمل والمساواة فى العمل مع الرجل .. والرجال ليسوا أغبياء ، فقد شجعونا على ذلك معلنين أنه لامانع مطلقا من أن تعمل الزوجة وتضاعف دخل الزوج . ومن المحزن أن أثبتنا نحن النساء أننا الجنس اللطيف الضعيف نعود اليوم لنتساوى في الجهد والعرق الذى كان من نصيب الرجل وحده » .

وإذا كانت أوضاع المجتمعات الغربية فيما بعد الحربين العالميتين سنة ١٩١٤ و ١٩٣٩ ، قد اضطرت المرأة للنزول إلى العمل فى المصانع والمتاجر والمرافق العامة بسبب نقص الرجال وحاجتها فى ظل هذه المجتمعات المادية إلى الكفالة بعد أن فقدت العائل فى الحرب ، فليس للمسئولين ولا لدعاة تحرير المرأة فى المجتمعات الإسلامية مبرر فيما اتخذ من إجراءات هناك أخرجت المرأة للعمل فى كافة الميادين ، فلا توجد عندنا ضرورة ملجئة إلى ذلك .

= زوجته الممثلة المعروفة Joan Collins لثرى عربى ، يستمتع بها ليلة واحدة نظير مبلغ ١٠٫٠٠٠ جنيه ، وذلك بعد أن تزوجها مباشرة وهى فى سن الثامنة عشرة ، وتنقل الصحيفة ذلك ضمن اعترافات الممثلة عما وقع لها من أحداث فى حياتها .

فبصرف النظر عن حصيلة الإنتاج لعمل المرأة فلا يزال لدينا زيادة فى الأيدى العاملة من الرجال الذى يعانون من بطالة صريحة ومقنعة ، تشهد بذلك أعداد العاملين الزائدة عن الحاجة فى شركات القطاع العام ومكاتب الحكومة .

لقد تعارف البشر (١) أنه لا استقرار لأوضاعهم الاجتماعية والأسرية ، إلا بتقسيم الأدوار وأعباء الحياة بين الرجل والمرأة كل على حسب طبيعته ووظيفته » وإلا تعرضت أوضاعهم للفوضى والاضطراب ، وتتجلى لنا هذه الحقيقة فى تعبير بليغ لحكيم قديم يقول : الرجل للحقل . والمرأة للمنزل ، والرجل للسيف . . والمرأة للإبرة ، والرجل العضل . والمرأة القلب ، هو يأمر . وهى تطيع ، ولولا ذلك لعمت الفوضى .

ولكن النسائيين ودعاة تحرير المرأة فى المجتمعات الإسلامية يزينون محاولة إخراج النساء من البيوت ليشاركن الرجال فى ميادين الأعمال العامة على أنها قمة التقدم والتحضر ، ويتذرعون بكل حجة : أنه لا سبيل إلى حل مشكلاتنا الاجتماعية إلا بمساواة المرأة بالرجل ، وإخراجها من ظلمات عصر الحريم إلى نور عصر المدنية ، لتشارك فى بناء المجتمع بناء عصرياً ، وما لم يتحقق ذلك فسيظل « نصف المجتمع » معطلاً مهدر الطاقات ! . . وما إلى ذلك من ادعاءات عريضة مضللة ركز عليها هؤلاء خلال تلك السنوات الطويلة على صفحات الجرائد ومن خلال الإذاعة والتليفزيون والسينما والمسرح والقصة .

وهذه الادعاءات لا يروج لها إلا غاش أو صاحب هوى أو مخدوع يهدف إلى خلق عقلية مضللة للمرأة تصور لها نفسها فى صورة المهضومة وتضعها تحت وسواس يخيل لها أنها مضطهدة ولا شفاء لها إلا بالخروج إلى

---

(١) لا عبرة بالمجتمعات المنتكسة التى يصفها الاجتماعيون .

العمل خارج المنزل لتحقق ذاتها وتؤكد شخصيتها المستقلة .. وصدقت الكثيرات هذا الضلال فأصابتهن اللعنة على أنفسهن وعلى بيوتهن .

ومن هنا وجدت المرأة المسلمة نفسها أمام تحديات خطيرة تنحرف بها عن رسالة الزوجية والأمومة، وتخرج بها عن مقتضيات الأنوثة والتزامات الدين بالقرار فى البيت وعدم التبرج « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .. ذلك لأن عمل المرأة خارج البيت يستهدف به النسائيون من دعاة تحرير المرأة :

أولا : استقلال المرأة استقلالا اقتصاديا، يجعلها قادرة على عدم الارتباط بالرجل أبا كان أم زوجا أو أخا ارتباط نفقة وكفالة(١).

---

(١) والدليل على ذلك ما تقوله إحداهن بصريح العبارة : « لا شك أن أول خطوة لتحرير المرأة هو أن تكون منتجة وعاملة فى المجتمع بشرط أن تنال عن عملها أجراً ولا تعمل بغير أجر .. إن الاستقلال الاقتصادى هو أول خطوات المرأة للتحرير، لأن استقلال المرأة اقتصاديا عن زوجها سوف يعطيها الفرصة والقوة أن ترفض إذلاله لها، وسوف يمكنها من الاعتماد على نفسها إذا طلقها أو هددها بالطلاق فالمرأة فى حاجة إلى استقلال اجتماعى عن الرجل بحيث يمكن أن تعيش وحدها بغير رجل إذا لزم الأمر ذلك. وهى فى حاجة إلى استقلال نفسى بحيث تتغلب على الأزمات التى تواجهها من الرجل بسبب خروجها عن وصايته وطاعته . وهى فى حاجة إلى استقلال فى الشخصية وثقة بالنفس لتواجه المجتمع بسبب خروجها عن النمط التقليدى لمفهوم الأنثى.

وعلى المرأة أن تدرك أنها ستدفع ثمن الحرية التى ستنتزعها لنفسها ، لكن عليها أى تدرك أيضاً أنها تدفع ثمن العبودية التى تعيشها، والأفضل =

!! فيا ! هذا الاستقلال الاقتصادى يفتح لها باب التحرر على مصراعيه بلا حدود ولا ضوابط ، فيحقق لهـا حرية الزواج بلا ولى إن رغبت فى الزواج ، وحرية الصداقة إن آثرت علاقة الصداقة على الزواج ، كما يحقق لها حرية السكن والعيش بعيدة عن نطاق الأسرة ونطاق العادات والتقـاليد التى تحد من حريتها !!

وهذان الهدفان لعمل المرأة خارج المنزل إن حققا للمرأة سنداً بعيدا

= أن تدفع الثمن وتكون حرة على أن تدفع الثمن وتكون عبدة، وعليها أن تدرك أيضا أنها لن تستطيع أن تحصل على حقوقها إلا إذا أصبحت النساء قوة اجتماعية ضـاغطة وقادرة على الضغط ، وأنها من أجل أن تكون قوة لابد أن تتحد وتتآزر مع الفئات الأخرى المضطهدة فى المجتمع » !!!

إلى هنا ختمت الدكتورة نوال السعداوى الكاتبة الماركسية ما كتبته فى كتيب لها بعنوان « قضية المرأة المصرية السياسية والجنسية» ،صورت فيها العلاقة بين الجنسين على أنها قضية بين خصمين متنافرين ، وانتهت فى رؤيتها المريضة لعلاقة الود والرحمة بين الرجل والمرأة أماً وأختاً وزوجة إلى أنها علاقة اضطهاد وعبودية .. وهذا كلام لايصـــدر إلا من إنسان ممسوخ الفطرة سقيم النفس ملتو الطبـع ، وشيطان مريد يبذر الخلاف والشقاق بين شطرى النفس البشرية لتستحيل البيوت إلى سعير وجحيم ثم إلى الخراب والدمار . وهو كلام يكشف عن أبعاد المؤامرة الخبيثة على الأسرة المسلمة ومدى ماتواجهه المرأة المسلمة من تحديات تضعها فى طريقها هذه الأقلام الرخيصة .

عن الأسرة ، فإنه سيفقدها الترابط مع أسرتها ، كما يفقد الأسرة نفسها سلطة الأبوين في توجيه الأبناء ، وبذلك تتفكك الأسرة وتتحلل إلى أفراد تتعدد اتجاهاتهم ، وتتلاشى عصبيتهم ، وعندئذ يفقد المجتمع أساسه الأصيل ، وهو الأسرة كوحدة اجتماعية صلبة .

وإذا مافقد المجتمع قوة الأسرة كان عرضة للفوضى ، وكان الشباب عرضة للضياع ، والحركات الفوضوية التي تتوالى اليوم ، موجة بعد موجة في المجتمعات الغربية ، وعلى الأخص مايسمى بينها : « بالثورة الجنسية » التي تكتسح هذه المجتمعات في الوقت الحاضر . هذه الحركات تعبر عن انهيار الأسرة بضياع سلطانها . ولولا مساندة الحضارة المادية ، وازدهار اقتصاد هذه المجتمعات عن طريق التطور التكنولوجي في صناعاتها ، لعجل هذا الانحلال بأفولها منذ حين .

والمرأة بعملها خارج البيت وما يتيحه لها ذلك من استقلال الشخصية ، يوهن من علاقتها الزوجية ويضعف من ارتباطها بزوجها وحاجتها إليه ، ويجعلها في أي لحظة ولأتفه الأسباب قادرة على هجر شئون الزوجية أو الإهمال في شئونها ، وليس المراد بشئون الزوجية : الشئون المادية وحدها ولكن قبلها الجانب النفسي والروحي وهو جانب السكنى والاطمئنان بين الزوجين . هذا إلى جانب مايزرعه خروجها واختلاطها بزملاء العمل بذور الشك والريبة •

والمرأة بخروجها للعمل وبما تكسبه من استقلال تصبح عرضة لتبلد مشاعر الأمومة وأحاسيسها اللطيفة ، فتصبح غير راغبة في أن تكون أماً وإذا اضطرت لأن تكون ذات طفل في يوم ما ، فطفلها هذا يتسبب لها في المشاكل التي تقف عقبة في تأدية واجبات العمل الخارجي ،

والقيام بواجب التنشئة السليمة وتهيئة جو الحنان له ، إذ تضطرها التزامات العمل والوظيفة إلى أن تكل أمره إلى غيرها من المرضعات والحاضنات ، فيفقد الطفل أهم ماتعطيه الأم ولا يعطى غيرها بديلا منه : العاطفة ولبن الأم والوجدان .

ولقد خرجت المرأة المسلمة إلى العمل فى السنين الأخيرة دون أن تفهم حقيقة مهمتها فى الحياة الاجتماعية أو طبيعة تكوينها البيولوجى أو دورها فى المجتمع ، ذلك أن هـذا كله لم تتعلمه مـع الأسف لأن مناهج التعليم لاتقدم للفتاة مايدلها على الطريق الصحيح أو يهديهـا إلى الحق . يقـول ألـكسيس كاريل فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » : (لقـد ارتـكب المجتمع العصرى غلطة عظيمة باستبداله تدريب المرأة بالمدرسة استبدالا تاماً ، ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة حتى ينصرفن لأعمالهن أو مطامعهن الاجتماعية أو مباذلهن أو هـوايتهن الأدبية أو الفنية أو ارتياد دور السينما ، وهكذا يضيعن أوقاتهن فى الـكسل . إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التى يتصل فيها الطفل بالـكبار فيتعلم منهن أموراً كثيرة لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجى والعقلى والعاطفى طبقاً للقوالب الموجودة فى محيطه ، إذ أنه لايتعلم إلا قليلا من الأطفال الذين فى مثل سنه .

وكل هذا يـكشف مدى التحدى الذى تواجهه المرأة المسلمة ، بخروجها من بيتها باسم العمل تحت ضغط ظـروف خلقتها دوائر الشـر والإفساد اليهودية لإقامة أنظمة اجتماعية تتحطم فى ظلها فطرة الإنسان وتضطرب حياته . . وليس هناك اضطراب يصيب حياة الإنسان أكثر من أن تتخلى المرأة عن رسالتها بالنسبة لزوجها وبيتها وأطفالها، وهى رسالة دقيقة خطيرة

تتطلب تفرغ للمرأة تفرغاً تاماً لها ، وقد سجل القرآن الكريم هـذه الرسالة في وضوح إذ يقول تعالى « وقرن في بيوتكن » . . وقر يقر ، أي ثقل واستقر . وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يبرحنها إطلاقاً ، إنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هـو الأصل في حياتهن والمقر ، وما عـداه استثناء طارئاً لايثقلن فيه ولايستقرون ، إنمـا هي لحـاجة تقضى وبقدرها . .

« فالبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى ، غير مشوهة ولا منحرفة ، ولا ملوثة ولا مكدودة في غـير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة .

« ولـكي يهيء الإسلام للبيت جوه ويهيء للفراخ الناشئة فيه رعايتها، أوجب على الرجل النفقة وجعلها فريضة كي يتاح للأم من الجهد ، ومن الوقت ، ومن هدوء البال ، ماتشرف به على هذه الفراخ الزغب، وماتهيىء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها ، فالأم المكدودة(١) بالعمل للكسب ، المرهقة بمقتضيات العمل ، المقيدة بمواعيده ، المستفرغة الطاقة فيه ، لايمكن أن تهب للبيت جوه وعطره ، ولايمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقهـا ورعايتها وبيوت الموظفات والعاملات ماتزيد على جو الفنادق والحانات ، ومايشيع فيهـا ذلك العطر الذي يشيع في البيت . . فحقيقة البيت لاتوجد إلا أن تخلقها امرأة ، وعطر البيت لايفوح إلا أن تطلقه زوجـة ، وحنان البيت لايشيع إلا أن تتولاه أم . والمرأة أو الزوجة أو الأم التي تقضى وقتها

(١) أجريت دراسات ميدانية في أوربا فأثبتت أن الطاقة النفسية والجسمانية التي تبذلها المرأة المتزوجة والأم لطفلين تعادل نفس الطاقة التي يبذلها عامل المناجم . فكيف يكون حالها إذا أضفنا إليها عبء الخروج للعمل في ميادين الأعمال العامة ؟!

فى العمل لن تطلق فى جوالبيت إلا الإرهاق والكلال والملال، ذلك أن طاقة الإنسان محدودة ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها .

إن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة ، أما أن يتطوع بها الناس استجابة لدعوات منكرة وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هى المحنة التى تصيب الأرواح والضمائر والعقول فى عصور الانتكاس والشرود والضلال (١) .

ثانيا : المساواة وإسقاط القوامة

يدعى النسائيون وأصحاب المؤامرة على غزو حصون المسلمين وإسقاط أخطر حصن فيها وهو الأسرة . . يدعون : أن الإناث يساوين الذكور فى كل مجال ويستطعن أن يقمن بما يقوم به الرجال ، ويستدلون على ذلك ببعض استدلالات معتسفة نقلوها إلينا من نظريات اجتماعية تقول إن المجتمع هو صانع الأديان والعقائد والقيم والعادات والتقاليد ، وهو صاحب السيادة على كل النظم والشرائع ، حتى ولو كان هذا المجتمع منتكساً شاردا وهو قول باطل لأن نظريتهم هذه استخلصت من ظواهر اجتماعية منحرفة فى مجتمعات شاردة منتكسة . . فمن المغالطات قولهم (إن الطبيعة البشرية سواء للرجل والمرأة ، وإن الاختلاف بين الرجل والمرأة فى بعض الوظائف الفسيولوجية لا تعنى تكبيل النساء بالقيود وإطلاق الرجال ، بل إن هناك « حقائق ! ! » تثبت تفوق المرأة بيولوجياً) .. فالعلم الصحيح وواقع الخلقة يثبت أن المرأة تختلف عن الرجل فى كل شىء : فى الصورة والسمة والأعضاء الخارجية إلى ذرات الجسم والجواهر البروتينية لخلاياها النسجية ، ومع بلوغها سن الشباب يعروها الحيض الذى تتأثر به أفعال كل أعضائها وجوارحها .

---

(١) عن كتاب « السلام العالمى والإسلام » للأستاذ سيد قطب (ببعض تصرف)

ونسوق شهادة عالم أوربى أمريكى : هو الدكتور كاريل الذى لا يجادل علماء الحضارة الحديثة فى مكانته العلمية إذ حصل على جائزة نوبل سنة ١٩١٢ لأبحاثه الطبية الفذة : « إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعليم إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . . إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض . . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحداً وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة . . والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها . والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها . وفوق كل شىء بالنسبة لجهازها العصبى . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، فأنها شأن قوانين العالم الكوكبى فليس فى الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور . فإن دورهن فى تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال . فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة (١) » .

ألا ما أبدع إشارة القرآن الكريم فى آية من آيات الخلق الكبرى وهى التفريق بين الذكر والأنثى حيث يبين أن من أعظم دلائل قدرة الخالق فى خلق الزوجين : الذكر والأنثى .

---

(١) عن كتاب « الانسان ذلك المجهول » لألكسيس كاريل - تعريب شفيق أسعد فريد ص ١١٤ .

فهما جنسان من نفس واحدة كفل لهما المنهج القرآنى حقوقاً واحدة فيما يتعلق بالأصل الانسانى العام ، ولكنه فى الوقت ذاته يفرض على كل منهما واجبات مختلفة وفق الوظيفة الخاصة فى العمران ، ووفق طاقة كل منهما ومجموعة تكاليفه ، فلا يكلف المرأة المسكينة الضعيفة مثلا أن تحمل وترضع وتربى ، وفى الوقت ذاته تعمل وتكدح وتشقى .. بينما الرجل لايشاركها الحمل والرضاع والتربية . ولا يكلف المرأة أن تهمل « صناعة الإنسان » لتشتغل « بصناعة الأشياء » . فالانسان فى منهجنا أغلى من الأشياء . ولا يجوز فيه أن تشتغل المرأة المثقفة الماهرة الحكيمة بصناعة الأشياء وإنتاجها ، وأن تستجلب لأبنائها امرأة أخرى أقل ثقافة ومهارة وحكمة ، وأرخص أجراً بالطبع لتشرف لها على « الأبناء » بينما هى تشرف على « الاشياء » !

ولكن الذين يزعمون أنهم ينصفون المرأة ويحترمونها ويحررونها (أنه إذا كانت المرأة تحمل وتلد فليس معنى ذلك أن تكون وظيفتها فى الحياة هى الحمل والولادة فقط ، فالحمل والولادة لايبطلان المرأة الحديثة عن عملها فى المجتمع ، وأن الحمل لم يكن قيداً على المرأة القديمة التى كانت تنسب أطفالها إليها ، لكن الحمل أصبح قيداً على المرأة حين امتلك الرجل الجنين)(١) !!! إنهم بذلك لايريدون أن يعترفوا بضعف المرأة الطبيعى ولا بضعفها فى فترة الحمل والولادة ويدعون أنهم يعملون لخير المرأة وإنصافها ، وكأنهم أرحم وأكثر إنصافا لها من الذى خلقها ، فقال تعالى « وحملته أمه وهنا على وهن » ، فليس أشد على المرأة من مدة الحمل ، فهو جهد على جهد وضعف على ضعف ، فلاتستطيع خلال هذه المدة أن تتحمل مشقة

---

(١) من كلام الكاتبة الشيوعية نوال السعداوى

الجهد البدنى أو العقلى لاختلال نظام جسمها كله ، فهى مريضة أو شبه مريضة طول هذه

وقد تمنى النساء قديماً أن يكون لهن حظ مما ذهب به الرجال ، فقد روى أن أم سلمة زوجة النبي ﷺ ، ومعها نسوة قالت : ليت الله كتب علينا الجهاد كما كتبه على الرجال ، فيكون لنا من الأجر مثل مالهم ، فنزل قوله سبحانه : « ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » . وروى أن أسماء بنت يزيد الأنصارية رضى الله عنها أتت النبي ﷺ وهو بين أصحابه فقالت : يارسول الله : إنى وافدة النساء إليك · إن الله بعثك بالحق للرجال وللنساء . فآمنا بك واتبعناك . وإنا معشر النساء ، محصورات قواعد بيوتكم ، وحاملات أولادكم . وأنتم معشر الرجال ، فضلتم علينا بالجمع والجماعات ، وعيادة المرضى وشهادة الجنائز ، وأفضل من ذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وإن الرجل إذا خرج حاجاً أو مرابطاً أو معتمراً ، حفظنا لكم أموالكم ، وغزلنا لكم أثوابكم ، وربينا لكم أولادكم أفنا نشارككم فى هذا الخير والأجر يارسول الله ؟ فالتفت النبي ﷺ بوجهه الكريم إلى أصحابه ثم قال : « هل سمعتم مقالة امرأة أحسن من هذا عن أمر دينها ؟ » فقالوا : يارسول الله ماظننا امرأة تهتدى إلى مثل هذا (١) . . فالتفت النبي ﷺ ثم قال : « انصرفى أيتها المرأة ، وأعلمى من خلفك من النساء : أن إطاعة الزوج ـ اعترافا بحقه بعد ذلك ، وقليل منكن من يفعله . فانصرفت وهى تهلل حتى دخلت إلى نساء قومها من العرب ، وعرضت عليهن ما قاله رسول الله ﷺ ففرحن وآمن جميعهن ، وسميت أسماء « رسول نساء العرب إلى النبي ﷺ » .

---

(١) يقصدون فهمها الدقيق لدور المرأة ووظيفتها فى المجتمع

وهكذا يقطع الإسلام التفكير فى هذا النوع المدمر من المساواة ويمنع الاشتغال به إلى حد التمنى ، لما قد يحصـــل بعضهن إلى التمرد على وظائف الأنوثة ، ويفسدن مقاصد الفطرة ، ويعارضن إرادة الله فى حكمة النسل دون أن يكون لهن من ورائه كبير عناء . . فمن كانت تريد الأجر فسبيـله ما يسرها الله له ، فقد قال سبحانه : « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن » ، دون توقف على جهـاد أو غيره ، ومن كانت تريد مجرد التشبه بالرجال ، فهو محاولة لتغيير خلق الله ، وسعى لمسخ وإبطال سنة من سنن الله فى خلقه ، فقد جاء أن رسول الله ﷺ لعن المتشبهات من النساء بالرجال ، إذ يجب أن تظل المرأة قائمة على وظائف الأنوثة ، وأن يظل الرجل رجلا قائماً بما يسره الله له ، فذلك هو منطق السنن وسبيل عمارة الكون .

فإذا انعقدت للرجل رياسة البيت ، ورياسة الحرب والجيش ، وقام بها على المرأة ، فذلك توجيـه الفطرة ، وضرورة الواقع . . وإذا انعقدت له زعامة الإصلاح الاجتماعى ، والانقلابات التاريخية ، وقيادة الجماهير ، فهو الثمرة الطبيعية لما تجمع فيه من مواريث الخبرة وسعة التجارب ، ومواهب الكفاح والقوة ، والتمرس بشئون المجتمـــع على مدى القرون والأحقاب . وإذا تقررت له الإمامة الكبرى - أى رياسة الدولة العليا - من دونها فهو تقرير يسوغه أنه رئيس البيت بحقه وصاحب لواء الحرب بحقه وزعيم الانقلابات الاصلاحية بحقه ، وما الأمامة الكبرى إلا السلطان الذى يتوج هذه الرياسات كلها ، فلا يوسد إلا لمن سبقت له الكفاءة لتلك الرياسات . وهذا ما يعنيه قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء . بما فضل الله بعضهم على بعض » . . هذا ، فالمرأة بطبيعة استعدادها للحمل والوضع والإرضاع ، وما تلقى بذلك من ضعف وألم ، تعجز عن حماية نفسها أو قومها ، ولا يكون

لديها من الطاقة ما تنهض به لرد غارة أو مدافعة عدو . فكان طبيعياً أن يقوم عليها الرجل بتلك الحماية والرعاية .

ومن هنا ألقى الإسلام فريضة الجهاد على الرجل وحده ، وأعفى المرأة منها . فالرجل بذلك قائم أو قوام على المرأة بصنوف الرعاية والحماية والمدافعة

وهذه القوامة لا تعنى القهر والحجر والاستبداد ، ولا تعنى إهدار شخصية المرأة وأهليتها ومقومات إنسانيتها . وقد أرسى الإسلام سياسة البيت بين الرجل والمرأة على أساس دقيق من العدل والمساواة والشورى ، وذلك ينفى معنى القهر والاستبداد ويوفر حرية الرأى وكمال الشخصية .

فالرجل والمرأة فى تعاون معاً على أداء رسالة الحياة ، لكل منهما نصيبه الذى يتفق مع استعداده وفطرته ، وبه حكم رسول الله ﷺ فقد جاءه على رضى الله عنه وفاطمة عليها السلام يشتكيان ما يلقيان من عناء العمل ، فجعل العمل بينهما قسمة : فاطمة لعمل البيت ، وعلى لعمل الخارج . وفى هذا الباب جاء قوله تعالى: « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وهو قول يتضمن مبادىء الإسلام فى إرساء قواعد البيت :

١ ـ العدالة : فالرجل والمرأة طرفان يتبادلان الحقوق والواجبات فى شركة الحياة الزوجية ، وليس للرجل أن يبغى على شىء من حقوقها ، وإلا كان ظالماً مبطلا لمفهوم الآية الكريمة . . وليس للمرأة أن تبغى على شىء من حقوقه ، وإلا كانت ظالمة .

٢ ـ المساواة : وهو مبدأ يقتضى توزيع الحقوق والواجبات بين الزوجين على سبيل التكافؤ ، أو المماثلة الواضحة فى قوله سبحانه : « ولهن مثل الذى عليهن » .

وهى مماثلة معنوية ، ومساواة أدبية ، إذ ليس المراد من تماثل

الحقوق والواجبات تماثلها الحسي والعيني ، إنما هو تماثل التكافؤ الذي يعود على كل منهما بما يرضيه لقاء ما قدم لصاحبه . . وفي هذا المعنى يقول عبد الله بن عباس : إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي . لقوله تعالى : «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» . وهو تطبيق دقيق ذهب فيه السلف الصالح إلى أعدل حد . . ولا شك أن الزينة التي يتزين بها الرجل غير الزينة التي تتزين بها المرأة ولكنهما تتماثلان فيما وراء الشكل والصورة من أهداف ونتائج ، إذ تعود على كل من الرجل والمرأة بما يشرح الصدر ويسر النفس . .

ثالثا : الشورى والتفاهم الذي يتم بين الزوج وزوجه في شركة الحياة بينهما ، وما يعرض لهما من شئون يومية تتعلق بأمور المعاش وتربية الأولاد ، وهو تفاهم بين شطري النفس الواحدة يقوم على الحب والتقدير والاحترام وبالحسنى دون إكراه منه أو جور منها . .

وإذا كانت رياسة الرجل المسلم لبيته لا بغي فيها ولا قهر . . فهي رياسة بحكم الفطرة والخصائص التي تجعله أقدر على القوامة وأفضل في مجالها كما أن تكليفه بالانفاق ، وهو فرع من هذه الاختصاصات تجعله أولى بهذه القوامة ، فان تدبير المعاش للاسرة ومن فيها داخل في هذه القوامة ، والاشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها . إنها قوامة لها أسبابها : من التكوين والاستعداد ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات ولها أسبابها من العدالة في التوزيع من ناحية وتكليف كل شطر في هذا التوزيع بالجانب الميسر له ، والذي هو معان عليه من الفطرة . .

وأفضلية الرجل كما يقررها المنهج الاسلامي ، وكما يقررها خالق الرجل وخالق المرأة (سبحانه) أفضلية في مكانها ، في استعداده للقوامة والدربة عليها ، والنهوض بها بأسبابها ، لأن مؤسسة الأسرة لا تسير بلا قوامة ،

كسائر المؤسسات الأقل شأناً . فالقوامة أساس مكين فى الأسرة لا تقوم بغيره ، إذ لابد لكل تجمع بشرى من إشراف ورئاسة ومسئولية . ودرجة القوامة التى أعطاها المنهج الربانى للرجل هى ركن أساسى فى بناء الأسرة يقتضيها نظام الاجتماع الانسانى ، بل إن الأبوة لها مكانتها الأصيلة ، مكانة القيادة فى سفينة الأسرة . عنه تصدر التوجيهات ليطيعها ويلتزم بها الجميع وأولهم فى ذلك الأم ، وما أصاب المجتمعات الغربية من تمزق خطير وشقاء وتعاسة إلا بسبب دخول الأم ميدان العمل مما ترتب عليه من آثار سيئة فى نفسيات الأبناء، حيث أخذت توجيهات الأب اتجاهاوأخذت توجيهات الأم اتجاها آخر وحين تخلى الرجل للمرأة عن قوامته للاسرة .

ولعل فيما كتبه « جاردنر تل أرمسترونج » فى كتيب أصدره أخيرا بعنوان Your Marriage Can Be Happy فى انهيار الأسرة الأمريكية نتيجة سقوط قوامة الرجل . . يقول : (لماذاتشعر أغلب النساء بالخيبة والشقاء ؟ . لأنهن خرجن على فطرتهن .

ولماذا يتأنث معظم الرجال ويفشلون أزواجا وآباء ؟ . . لأنهم تخلوا عن أصالتهم الفطرية، وتحولوا إلى عناصر غريبة تحاول أن تكون الزوجة والأم لا الزوج ورجل البيت .

إن المجتمعات المريضه لا تلد إلا بيوتا مريضة . تلك حقيقة ثابتة ، وسواء تغيرت المقاييس عند الناس أم لم تتغير وتطورت المجتمعات أم لم تتغير فإن القوانين التى تحكم الزواج تبقى ثابتة لا تتبدل ولا تزول . فإذا ما خرج الناس على تلك القواعد ، وتجاهلتها المجتمعات فإن عواقبها لازمة لا حدود لها .

لقد قلبت بيوتنا رأسا على عقب . رفض الرجل أن يتحمل مسؤليته

وتخلى عن القيادة فى البيت ، بينما حاولت المرأة أن تغصبه قوامته وتستولى على تلك القيادة والنتيجة بينة لا غرور فيها !!

لم يعد غريبا أن يقوم الرجل بأعمال البيت من كنس وغسل وطهى وكثير من الأعمال الأخرى التى تهم المرأة لا ريب أنه من الحق أن يكوز الرجل فى عون زوجته إذ مرضت أو فى الحالات الطارئة أو وفيما دون ذلك فإن تلك الأعمال هى واجباتها التى ينبغى أن تقوم بها.

ومن الشائع اليوم أن يمكث الرجل فى البيت لرعاية الأطفال فى تحضير للمائدة (١) ، بينما تقضى الزوجة أغلب وقتها فى عملهـا خـارج البيت أو فى نشاطات نسائية عامة وفى سبيل عالم أفضل !! »

وبعد هـذا هل بدأت المرأة تدرك ما وراء هـذا الشقاء ؟! . .

ولكن يبدو أن تجاهل تلك الحقائق ، هو القاعدة العامة حيث تحـاول المرأة أن تكون رجلا ، ويحـــاول الرجل أن يكون مدبرة البيت الطيعة . وسواء أدركت النساء « العصريات » أم لم يدركن . فإنها لجريمة شائنة بحق أزواجهن وأطفالهن أن يهجرن البيت ليعملن خارجه »

وهكذا شقيت المرأة الغربية وشعرت بالحرمان والنقص والقلق لأنها رفضت الاستجابة للفطرة وتنكرت لها ، وخرجت على قوانينها المتحكمة فى بنى الانسان ، وتحدت ميلهـــا الفطرى إلى قيام رجل يشبع فى نفسها هذا الميل .

---

(١) ألغى قانون الأسرة بالنمسا الصادر فى سنة ١٩٧٨ النص على أن الرجل رب العائلة كما تطالب المرأة هناك بأجازة وضع للزوج !! (عن الأهرام عدد ١٩٧٩/٨/٣١)

وما أصيبت الأسرة فى الغرب بأعاصير الانحلال والتفكك ، إلا يوم أن تزعزت مكانة الرجل فيها : زوجا وأبا ، فخسرت دوره فى التوجيه والرقابة والخبرة . .

إن مكان «الأب» على رأس الأسرة وقيامه بدور القيادة الحقيقية والتوجيه لكل أفرادها إنما هو مسئولية خطيرة فى استقرار الأسرة وقيامهـا كخلية سليمة فى بناء المجتمع السليم . . ومن هنا كانت محاولة النسائيين والقوى المعـــادية للاسلام والتى تعمل على هدم المجتمع الاسلامى ، ضرب موقع «الأب» والتحريض عليه عن طريق وسائل الإعلام والفكر المسموم بوصفه عدوا للزوجة والأبناء وتصويره فى صورة المالك المستبد لكى يتحرر الجميع من توجيهاته خصوصا فيما يتعلق بمستقبلهم وبث روح الاحتقار والازدراء به والسخرية منه عن طريق إظهاره فى صورة الشخص الرجعى المتخلف فى مفاهيمه وتوجيهاته ، ليعلن الجميع العصيان والتمرد عليه وتكون النتيجة انهيار الأسرة وتفككها .

« إن من أخطر التحديات العصرية ـ نتيجة عمل المرأة وخروجها ـ هو تعدد مراكز السلطة داخل الأسرة بين والدين لكل منهما وجهته وهدفه ومفاهيمه مما يوقع الأولاد فى حيرة نفسية تشتت عواطفهم وتبدد أمنهم النفسى الذى كانوا يستمدونه من «الأب» باعتباره المصدر الأساسى للسلطة

فالأب هو الذى يضع أسرته فى المجتمع ويحدد موقف أفرادها ودورهم فى البناء الاجتماعى ويظل دور الأب فى المنهج الاسلامى سليما لا تهزه التيارات الفاسدة، لأنه قائم على قيم ثابتة، ومعايير سلوكية محددة ، يؤصلها الإسلام بمنهجه التربوى حتى لا يفقـد دوره فى الضبـط الاجتماعى وتوجيه الفكر والسلوك . كما أن تعدد الأجيال داخل الأسرة المسلمة

لا يحدث صراعا كما فى المجتمعات الغربية إلا فى الأسرة التى فقدت عنصر الدين والأخلاق . . فقد وصل الأمر فى التوجيه الإسلامى إلى أن الرسول ﷺ تبرأ من الذين لا يرحمون الصغار ولا يوقرون الكبار ولا يهتمون بمكانتهم فقال : «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا »، وكان عليه السلام يعلم المسلمين سلوك هذا المنهج فى تصرفاتهم بحيث يعطى كل ذى فضل ومكانة وكبر سن ما يناسب حاله . .

ثالثا : تحديد النسل

خلق الله هذه الدنيا وخلق الناس وأمر بالزواج لتدوم الحياة ، ولم يرد للانسان أن يعيش كالبهائم،فجاء الاسلام دينا يحض على الزواج والتناسل والتكاثر ، لتدوم الأمة المسلمة وتستمر حتى تقوم الساعة ، ولتظل قادرة على القيام برسالتها . .

لهذا قرر فضل المرأة الولود على العقيم ، قال ﷺ : « سوداء ولود خير من حسناء عقيم » وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ : فقال « يارسول الله، إنى أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال، إلا أنها لا تلد،أفأتزوجها؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية، فقال له مثل ذلك، ثم أتاه الثالثة ، فقال له : تزوجوا الودود الولود: فإنى مكاثر بكم الأمم .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يقول: إنى لأتزوج المرأة وما لى فيها حاجة ، وأطؤها وما أشتهيها . قيل له : وما يحملك على ذلك ياأمير المؤمنين ؟ قال :حبى أن يخرج الله منى من يكاثر به النبى ﷺ النبيين يوم القيامة : وإنى سمعته يقول : عليكم بالأبكار ، فإنهن أعذب أفواها ، وأحسن أخلاقا ، وأنتق أرحاما ــ أى أقبل للولد ــ وإنى مكاثر بكم الأمم

يوم القيامة.

إن الإسلام يطلب القوة للمجتمع الذى يقوم على منهجه . . القوة بكل أسبابها المعنوية والمادية، ومن أسباب القـوة المادية كثرة النسل . . ولكن المنهج الإباحى الغربى الذى يدعو إليه النسائيون عندنا يهدد النسل الإنسانى بالفناء . . ، كما ينذر الحياة بعامة بالموت والوفاة ، ويهدد الوجود الاسلامى فى نسله بخاصة بالعدم والزوال .

يقول تعالى فى وصف القيادة الفاسدة التى تنذر الحياة الإنسانية بالفناء « وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ».

وقد عاشت المرأة المسلمة فى ظل هذه المفاهيم قائمة بوظيفتها مدركة لدورها فى الحيـاة الاسلامية ، كأم تهب الأمة المسلمة أعز ما تحتاج إليه فى وجودها واستمرارهـا ، وهو الثروة البشرية . . ظلت المرأة المسلمة على هذه الاستقامة إلى أن التقينا بحضارة الغرب « فوجدت نفسها محاصرة بغزو استعمارى لمفاهيمها الاسلامية يشكل تحدياً خطيراً يتزعمه النسائيون عندنا عن طريق البث الإعلامى فى الصحافة والاذاعة والتلفزيون ، وعن طريق مناهج التربية والتعليم . وتأثرت الكثيرات وخصوصا المثقفات فاصطبغت حيـاتهن بمفاهيم الحضارة المادية وملن إلى الأنانية وحب الذات والترف واللهو ومتع الحياة وزخارفها وكان ذلك على حساب فطرة الأمومة وقدرتها على العطاء والإيثار . . ومما ساعد على ذلك خروج المرأة إلى ميادين العمل العامة ، الذى دفعها إليه النسائيون ودعاة حركة تحرير المرأة فى مكر وخديعة لصرفها عن وظيفة الأمومة والتناسل ، ولضرب الأسرة كخلية وحيدة للتكاثر ومحضن أولى وأساسى فى تنشئة الأجيال المسلمة » .

ولما كانت مؤامرة تحديد النسل وأسطورة الانفجار السكانى التى يرددها الشاردون هنا، وتعمل لها الببغاوات عندنا فى إخلاص عن طريق مراكز تنظيم النسل المنتشرة فى مؤسساتنا الصحية والجمعيات النسائية، ذات أبعاد خطيرة على وجود الأمة المسلمة ، فإن كشف هذه المؤامرة وفضحها أصبح من أول واجبات العاملين للاسلام لإزالة الأشواك عن طريق نساء المسلمين ورسالتهن، ورفع غشاوات الغزو الفكرى عن قلوبهن وعقولهن .

« تكشف الاحصائيات العالمية أن العالم الآن يضم ٥ر٣ مليار نسمة ، ترتفع إلى ٧ مليارات فى نهاية القرن الحالى ، وقد زاد الجنس البشرى ٧٠٠ مليون نسمة فى السنوات العشر الأخيرة، وفى كل عام يولد بالعالم ١٢٧ مليون طفل وأن الدول النامية فى آسيا وأمريكا اللاتينية هى أكثر الدول تأثرا بهذه الزيادة، إذ أن ثلثى العالم يعيش فى هذه المناطق، وقد أصبح الوافدون يزيدون عن الراحلين فى الشهر الواحد ، بما لا يقل عن سبعة ملايين نفس ، فالعالم الآن يستقبل كل يوم ٣٠٠ ألف مليون نسمة زيادة صافية بعد الخسائر .

ولا ريب أن لنا نحن المسلمين عبرة فى دراسة هذه الأرقام، فنحن نؤمن بأن الكون كله لله وأنه سبحانه هو الخالق، وأن ظاهرة التفوق البشرى هذه ظاهرة طبيعية ، فى طريق اكتمال صورة الكون والأرض على النحو الذى أشار إليه القرآن الكريم ، لتأخذ الأرض زخرفها وزينتها. ولتخرج الأرض مذخورها من معطيات الحياة من قاع البحار ومن قلب صخور الجبال ومن جوف الأرض ، وأن المسلمين فى هذه الثلاثمئة ألف طفل يوميا أكثر من ٢١٩ ألف طفل يوميا ، وهذا يدل على أن ظاهرة التفوق هذه تمثل جيشا نا فى عالم الإسلام بما يدل على تفوق ظاهر لهذه القوة المؤمنة بالله ، بينما

نجد أن الانحسار السكانى واضح الدلالة فى عالم الغرب. إذ نجد أن سكان العالم الآن هو ٣٧٠٠ مليون نسمة وإذا سار معدل المواليد على حالته الراهنة ، فإن العدد سيتضاعف خلال ٢٦ سنة « أى فى نهاية القرن العشرين ويكون الرقم قد ارتفع إلى ٧٤٠٠ مليون نسمة ، وأن هذه الزيادة ستكون من نصيب الدول النامية فى آسيا وافريقيا أى أنه من بين ٢٢٤ طفلا يولدون فى الدقيقة الواحدة ٢٠٢ طفل فى دول العالم الاسلامى و٢٢ طفلا فى الدول المتحضرة « الغرب ».

وهذه الاحصائيات تعطينا مؤشراً واضحا للاحداث.. ذلك أن ظاهرة تقلص حجم المواليد فى عالم الغرب ، وزيادة هذا الحجم فى عالم الإسلام من الظواهر التى تزعج الرأسمالية الغربية والنفوذ الغربى المسيطر الآن فى بلاد المسلمين إزعاجا شديدا ، لأنهم يحسون بمدى الخطر الذى ينتظرهم فى السنوات القادمة،ويترصدبهم نتيجة نقص المواليد وتنازل نسبتها فى بلادهم بينما تزداد هذه النسبة وتتضاعف فى بلاد المسلمين .

ولما كانت هذه الظاهرة ستصبح بعيدة المدى فى متغيرات موازين السيطرة والنفوذ وتملك الموارد الطبيعية والطاقة وغيرها فى السنوات القادمة فإن الغرب يشن حملة شديدة عاصفة وعنيفة على هذه الزيادة المضطردة بوصفها بعيدة الأثر فى عالم الإسلام ، تحت اسم مثير هو ما يطلق عليه اسم «الانفجار السكانى» ويجند له النسائيون وعشرات الأقلام والمفكرين والساسة ، دون أن يشير إلى حقيقة الموقف وطبيعة التحول الاجتماعى والحضارى الذى يوحى بأن فساد المجتمعات الغربية وانحلالها ، قد أدى إلى نضوب منابع «الوالدية» بها نتيجة شيوع الخمر والماريجوانا والترف وانصراف المرأة الغربية عن رسالتها كلية وكراهيتها الشديدة للولادة وتربية

الأولاد ، وشيوع الزنا وتفشي ظاهرة الاتصال الجنسي خارج نطاق الأسرة بدون زواج وظاهرة اللقطاء واستعمال وسائل منع الحمل .

هذا الاضطراب الاجتماعي في المجتمعات الأوربية المرتبطة بمرحلة الانهيار في الحضارة الغربية هو مصدر انخفاض نسبة المواليد مما أدى إلى ازعاج ساسة الغرب وحكوماته ، وما يحاولونه الآن من اغراء وتشجيع للزواج والولادة بإغراءات كبيرة دون جدوى ، بينما يشنون في الناحية الأخرى حملة شديدة على الولادة المتزايدة في البلاد الإسلامية ، وينفقون ملايين كثيرة لحكومات المسلمين من أجل « تحديد النسل » وتعقيم الرجال ، والإغراء بإعطاء الحبوب واللوالب وغيرها من أجل تقليل نسبة المواليد . ولا شك أن الغرب يرى في ظاهرة التقلص في مواليده والزيادة المضطردة في نسبة مواليد المناطق التي يسميها « البلاد النامية » وخصوصاً للمناطق الإسلامية خطراً شديداً على نفوذه وعلى المقدرات التي يحصل عليها من الخامات والثروات والمواد الأولية وعلى كل مايعينه على التفوق .

ومن أجل هذا نجد هذا المجتمع الغربي لايتبنى فكرة تحديد النسل فحسب ، بل يفرضه فرضاً على عالم الإسلام بينما يعلن البابا بولس الثاني عشر رأيه صراحة في تأييد المسيحية لكثرة النسل . ويواجه المسلمون مع حملة تحديد النسل ، ذلك التحدي الخطير : تحدي الهجرة والنمو المتزايد لليهود في فلسطين ونمو الصليبية في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي ، بينما يجبر المسلمون بوسائل شتى فيها الإغراء أو التعقيم الإجباري — كما حدث لمسلمي الهند على يد أنديرا غاندي — على خفض تعدادهم ، وهنا تتكشف المؤامرة ، ويتبين أن هناك خطة مدبرة ضد المسلمين بالذات ، ذلك أن غير المسلمين يخشون تكاثر المسلمين ، ويحاولون إيقاف هذا النمو والتزايد بكل وسيلة . ومن هنا جاءت

الدعوة إلى تحديد النسل والحد من تعدد الزوجات التى يدعو إليها النسائيون فى بلادنا .

وبينما يطلب إلى المسلمين تحديد نسلهم ، تترك الصين ليتزايد سكانها بمعدل ١٤ مليونا كل سنة.

ولا شك أن تهديد العالم الإسلامى بنضوب الثروات هو أكذوبة كبرى، فإن الخطر الحقيقى فى السياسة الاستعمارية التى مزقت وحدة الوطن الإسلامى، وفقدان الأمة الإسلامية لتكاملها الاقتصادى الذى ينتج عن اتحاد أوطانها، هـذا إلى جانب سوء استخدام القوى البشرية والثروات والكنوز التى تفيض بها الأراضى البكر ، وسوء التخطيط لتطوير إنتاجى أفضل ، وبينما تنقل هذه الخامات إلى بلاد الغرب وتنهب ، ثم يعاد تصديرها لا يحصل أصحاب هذه الثروات إلا على الفتات .

يقول العلامة علال الفاسى : إن أكبر الخطر أن تدرس حركة تحديد النسل منفصلة عن سياقها السياسى والتاريخى ، فنحن لا نستطيع أن نفهمها على حقيقتها ، ولا أن نرسم لأنفسنا خطة عملية راشدة إلا داخل نطاق التحدى ، فإذا أضفنا إلى هذا: الخطط الصهيونية لإجلاء العرب عن الشرق الأوسط وتهجير أكبر عدد ممكن من اليهود إليه وخلق حركات داخل كل بلد إسلامى وعربى من الأقليات ،التى يصل بها التعصب أحيانا إلى الانفصال عن الوطن الوالد ، عرفنا أن التنقيص فى عدد المواليد لا يخدم إلا مصلحة الاستعمار والصهيونية ، كذلك فإن عدداً من علماء الطب والاجتماع والدين من جهة وعلماء الاقتصاد من جهة أخرى، يرون أن تحديد النسل خطر على قوة الدولة العددية وعلى زيادة انتاجها ويقاومون الدعوات التى سبقت فى

بلادهم والحركة التى نشأت عنها ، فكيف يمكننا نحن الذين ما زلنا فى طور التخلف وما زلنا نأمل أن يكون من شعبنا قوة مادية وإنسانية ، أن نتجه إلى معالجة ضعف الانتاج الاقتصادى بإضعاف الإخصاب الإنسانى » .

وقد اتفق الأئمة والمجتهدون على أنه لايجوز للإنسان أن ينظم تخطيطاً جماعياً على الشكل الذى تدعو إليه هذه المنظمات وبعض الحكومات ، لأن ذلك يتنافى مع مقاصد الشريعة التى جعلت من غايات الأسرة «تكثير النسل» ، فقد نصوا على أن تكاليف الشرع ترجع إلى حفظ مقاصدها الضرورية فى الخلق وهى وجوب حفظ المال والنفس والعرض والنسل والعقل ، فمحاولة المساس بواحدة من هذه الخمسة بغير حق لا يقع إلا من الظالمين .

وقد التبس على بعض المتملقين ما قاله بعض الفقهاء فى مسألة إباحة العزل ، مع أن قضية العزل هى غير قضية التخطيط العائلى لأنها مسألة تتعلق بحالات فردية اختيارية ، لا تتدخل فيها الدولة ولا تنظمها ولا تدعو إليها ولا تجعلها جزءاً من برنامجها ، يقول العلامة علال الفاسى: أما ادعاء أن التنقيص من عدد السكان ضرورى لتنفيذ التخطيطات الاقتصادية وتحقيق النمو فهو خطأ من الناحية الاقتصادية ومن الناحية الاجتماعية ، لأن المواليد لايولدون بأفواههم فقط بل يولدون بعقولهم وسواعدهم ، فهم مادة وعامل قوى فى النمو الاقتصادى وتقوية الانتاج ، وليسوا مجرد طفيليين فى المجتمع ، وإنما عجز التدبير من الحاكمين وسوء توزيع الثروة على المواطنين والتخلى عن الأقاليم الوطنية للمستعمرين هو الذى يدفع إلى هذا التفكير الكسول ، الذى يرضى بهذه التدابير غير الإنسانية ، ولا يعلم أن مقتضيات التطور الحديث يقضى بتحميل الدولة لتكاليف العائلة .

ومن جهة أخرى فقد نص الفقهاء على أن خصى للمواطن ممنوع شرعاً

بالإجماع لكونه يعوق عن الغاية المقصودة من الشارع ، كما نصوا على أن أخذ الأدوية لمنع الحمل ممنوع ، وأحسن من هذا كله قوله تعـالى في سورة الاسراء : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » وفي آية أخرى في سورة الأنعام : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم » .. وبذلك حرم الله قتل النسل بسبب فقر واقع أو خشية فقر متوقع . كما أنذر الله تعالى الذين يقتلون أولادهم مخافة الفقر ووصفهم بالسفه فقال : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله » .

فالرزق قد يسر الله طريقه وجعله مستطاعاً ، وأعطى الإنسان أدواته ، ولكن صعوبة الرزق بدأت بعد أن تدخلت أهواء الناس ومطامعهم وظهرت عمليات الاحتكار والاحتجاز، وظهرت عوامل التفرقة والاستغلال، والقوى التي تسيطر على الكثير فلا يترك للضعفاء والفقـراء ما يطعمهـم أو يقوتهم ، هذه هي الأزمة وهي ليست أزمة الرزق نفسه وإنما هي أزمـة الجشع والتسلط .

وهناك قانون الوفرة الذي يؤكد وجود ثمرات طيبات لكل من يعيش على ظهر الأرض مهما بلغ عدد هؤلاء السكان ، وذلك تقدير الله تبارك وتعـالى وما تزال هناك مدخرات كثيرة في البحار والجبال وقد أعطى الله عهده وميثاقه إلى البشر بضمان الطعام وضمان الرزق لـكل مخلوق ودابة وحشرة بحيث تطمئن النفس الإنسانية إلى عهد الله الصادق الأكيد ، فلا تـكون مثل هذه الصيحات الضالة مصدراً لزعزعة الإيمـان ، فلقد حفظ الله تعالى للانسان هذه الموارد التي لا تنضب في نفس الوقت الذي دعاه إلى السعي في الأرض والأكل من رزق الله .

ولو وضعت الموازين الحقيقية لقضية الطعام ولو روعى فى توزيعه ما أمر الله به، لأمكن للانسانية أن تتجنب الكثير من عمليات البخل والشح والأثرة، حيث ينفق بعض الأفراد فى بعض البلاد ما يوازى عشرات أضعاف بل مئات أضعاف ما ينفقه الآخرون، وما مليارات الدولارات التى هربها شاه ايران المخلوع، وما الأموال التى يهربها حكام المسلمون إلى بنوك سويسرا، وما البذخ والإسراف وسياسة الانفاق الحمقاء التى يتبعها هؤلاء الحكام والأمراء إلا شاهد على ذلك.

وهناك فى بعض البلاد المنتجة تغرق المحاصيل فى البحر أو تحرق للمحافظة على مستوى أسعار التصدير بينما يقتل الجوع الملايين، وذلك من أساليب الاستعمار الرأسمالى للسيطرة على القوى البشرية بتجويعها .. يحدث كل هذا فى دول الغرب ثم نسمع الأصوات المنكرة التى يطلقها دعاة تحرير المرأة لتحديد النسل عندنا عملا بتوجيهات سادتهم هناك !!

إن حاجة المسلمين فى الدرجة الأولى إلى التوالد والتناسل، لأن الإسلام مهدد فى معاقله الأولى ويواجه حرباً صهيونية وصليبية وماركسية استعمارية لا قبل له بها، وإن هذه الحرب ستطول، ويسقط فيها كثير من المسلمين، وإن تعبئة الأمم فى ميادين النمو الاقتصادى بوسائل العمل المنظم، تغنى عن كل تدبير مناف لطبائع الأشياء، وإن هذه المبالغ الضخمة التى تصرف فى مجال تحديد النسل وإنشاء مستشفيات التعقيم وإنتاج حبوب منع الحمل وهى تزيد عن ١٠٠ مليار من الدولارات لو انفقت فى مجال النمو الاقتصادى لجاءت بنتائج إيجابية، وعلينا أن نذكر أن من مقاصد الشريعة الرغبة فى تكثير سواد الأمة الإسلامية وقد امتن الله بالتكثير فى القرآن إذ قال: واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين،

على العـالم الإسلامى أن لا يرسم لنفسه فى مثل هذه الظروف خطة تغاير ما رسمه الحق تبارك وتعالى، وفصله رسول الله ﷺ ، وتفضى تلك الخطة إلى الانتحار القومى دون وعى بسبب محاكاته للغرب.

فتحديد النسل موضوع تمس الكيان الإسلامى فى أساسه ، ويقوض أساساً هاما من أسس قوة للمسلمين ، وهو القوة العددية .

رابعا : تعدد الزوجات

هناك مشكلات تهدد أمن الأسرة المسلمة وسلامها ، وتعرضها كحصن لحماية الأخلاق وتأمين المجتمع للدمار والفساد. إنها مشكلات من نـوع خاص لا يمكن حلها إلا عن طريق إباحة تعدد الزوجات .

- مشكلة مرض الزوجة بمرض مزمن أو إصابتها بعقم .
- زيادة عدد الإناث على عدد الذكور .
- ضعف الدافع الجنسى لدى بعض الرجال أو بروده عند بعد الزوجات

فقد يتزوج رجل بامرأة باردة أو ضعيفة لا ترويه ولا تسكن شهـوة نفسه ، وقد جاءت شريعة الإسلام بكمالها لتحول بين وقـوع الإنسـان فى الحرج ، فأباحت أن يقترن الرجل بأخرى يصرف عن طريقها طاقته الجنسية التى لم تجد إشباعا عنـد الأولى ، ولكى لا يقـــع فريسة للصراع النفسى والوساوس الشيطانية التى قد تتسبب فى سقوطه ووقوعه فى الحرام .

يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالى : «من الطباع ماتغلب عليه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة ، فيستحب لصاحبه الزيادة عن الواحدة إلى الأربع » .. وعلى هذا عدد الصحابة وقل فيهم من ليس له اثنتان .

من أجل هذا وضع الاسلام مبدأ تعـدد الزوجات ، فقـال تعـالى :

«فأنكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » فالعدل المطلوب هو العدل الظاهرى فى الحقوق والواجبات ، وهو أمر فى استطاعة البشر ، إذ يستطيع الزوج أن يعدل بين زوجاته فى المسكن والمأكل والمشرب والمبيت والقيام بواجب الزوجية كاملا . والقرآن الكريم نفسه ، هو الذى عقب على قضية العدل بنصيحة للبشر بعد أن ذكر أنهم لن يستطيعوا العدل ولو حرصوا فذكر أن العدل المطلوب هو عدم الميل المتعمد المكشوف الضار فقال : «فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى أمر العدل بين زوجاته : « اللهم إن هذا قسمى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » . . يعنى القلب (١)

لقد اشترط الإسلام لإباحة التعدد عدم الخوف من الظلم فيه ، ذلك أنه جاء والناس يعددون فى الزواج بلا حدود ولا ضوابط مما كان يلحق بالمرأة حيفاً وجوراً ، فوضع لنظام التعدد آداباً وأحكاما تحفظ للمرأة كرامتها . .

يقول الإمام أبو حامد : « ومهما كان الباعث معلوما فينبغى أن يكون العلاج بقدر العلة ، فالمراد تسكين النفس . . فينظر إليه فى الكثرة والقلة » . . ويعلق الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت على هذا الكلام بقوله : « إن

---

(١) يراجع تفسير القرطبى : جـ ٥ ص ٤٠٧ وجـ ١٤ ص ٢١٤ طبعة دار الكاتب العربى . وتفسير ابن كثير : المجلد الثانى ص ٣٨٢ طبعة دار الشعب . وأحكام القرآن للقاضى ابن العربى القسم الأول ص ٥٠٤ و ٥٠٥ طبعة عيسى الحلبى .

الغزالي يشير بهذا إلى أن التعدد لتحصين النفس أمر مرغوب فيه شرعا ، أى مع أخذ النفس بالعدل الواجب بين الزوجات ، ويشير أيضاً إلى أن الذين يعددون زوجاتهم لمجرد الانتقال من ذوق إلى ذوق ، دون حاجة إليه في تحصين النفس وعفتها من المحرم ، يعملون عملا تأباه الشريعة وعقته أدب الدين » .

والإسلام عندما أباح تعدد الزوجات ، لم يكن لصالح الرجل دون المرأة ولكن لتحقيق مصلحة الجنسين . فعاذ الله أن يكون في شريعته الكاملة محاباة لجنس على حساب جنس . فمن الخير للمرأة أن تشارك أخرى في زوجها فتجد ريا لعاطفتها ، وتحقيقا لأنوثتها ، وصونا لكرامتها . من ألا تجد رجلا قط ، أو تطلق من زوجها فتحيا محرومة من شرف الزوجية ونعمة الأمومة .

ولكن دعاة تحلل المرأة عندنا لايريدون أن يكونوا أمناء في عرض الحقائق ، فهذه زوجة عاقر تطلب من زوجها أن لا يحرم من حقه في الزواج عليها مع البقاء في عصمته وتحت رعايته ، وهذه أخرى تفضل لزوجها أن يجمع معها زوجة أخرى خير من أن يغرق في علاقات غير مشروعة مع نساء ساقطات ينفق عليهن في سخاء ويجلب لها ولأولادها الكساد وسوء الأحدوثة وهذه فتاة تفضل الزواج من رجل متزوج ناجح كامل الرجولة على شاب أعزب فيه حمق وطيش لايستطيع معه أن يتحمل مسئولية الزواج . وهؤلاء نساء بعض عرب دول البترول الأثرياء يفضلن تعدد الزوجات على تسكع أزواجهن في باريس والرباط والدار البيضاء ولندن وبيروت سادرين في متعهم الرخيصة مع عشيقاتهم اللائي يستنزفنهم ويدفعونهم إلى الضياع الذي يجلب الشقاء والتدمير الكامل . وهذه امرأة عانس محرومة في شوق إلى

نصف رجل يحقق لها أنوثتها ويروى عواطفها وتجد فى كنفه صونا لكرامتها .

وإذا كان الإسلام قد لاحظ فى إباحته للتعدد كثرة عدد الإناث بسبب الحروب ، وحاجة الأمة إلى استكمال قوتها بكثرة نسلها ، فان النسائيين عندنا يقفون دائماً فى كل ما يحقق صالح المرأة نفسها والأمة بأجمعها . . وفى الوقت الذى تطالب فيه المرأة الغربية بالتعدد ، نجد الممسوخين والممسوخات من بيننا يعملون على وضع كل الشبهات التى تنحرف بمفاهيم وأوضاع المرأة والأسرة المسلمة التى أرساها الإسلام عبر أربعة عشر قرنا من الزمان .

ولا ندرى إلى متى يظل هؤلاء الهدامون يعملون فى أمتنا بالتخريب!! فإذا كانوا يستمدون من أوربا وأمريكا أفكارهم ، فهاهى المرأة فى ألمانيا تطالب فى أعقاب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) بتعدد الزوجات بسبب ذهاب كثير من رجالهن وقودا للحرب ، ورغبة فى حماية نفسها من احتراف البغاء وما يتأدى عنه من أولاد غير شرعيين يقذفون إلى الشوارع والطرقات . وفى أعقاب عام ١٩٤٨ أوصى مؤتمر الشباب العالمى المنعقد بألمانيا بإباحة التعدد حلا لمشكلة تكاثر النساء . . وطلب الألمان حينذاك من مشيخة الأزهر بيانا مفصلا عن حكم تعدد الزوجات فى الإسلام . وقالت مجلة « لواء الاسلام » المصرية : إن كبير أساقفة انجلترا أعلن أنه لا يجد علاجاً لمنع التحلل الخلقى والانهيار العائلى ، اللذين فشيا بعد الحرب العالمية الثانية ـ إلا بإباحة تعدد الزوجات فهو على حد تعبيره ـ الذى يمنع المرأة الإنجليزية من الانهيار النفسى ، وارتكابها للجريمة والعار ، ويرد إليها الكرامة والعزة ، حيث لا تكون فراشاً لرجل إلا بكلمة الله » .

وقالت كاتبة انجليزية : لقد كثرت الشاردات من بناتنا وعم البلاء..

وإنى كامرأة ، أنظر إليهن وقلبى ينفطر حسرة ، وشفقة عليهن . وإن الدواء الشافى لذلك : أن يباح للرجل الزواج بأكثر من واحدة ، فبذلك تصبح بناتنا ربات بيوت . وإن إرغام الرجل على الاكتفاء بواحدة جعل بناتنا شوارد ، ودفعهن إلى التماس أعمال الرجال . وسوف يتفاقم الشر إن لم يبح تعدد الزوجات » . عن جريدة « لندن تريبون » ١٠/٨/١٩٤٩

وقالت كاتبة انجليزية أخرى : « الرجال يقل عددهم من النساء ، والرجل يتأخر عادة فى الزواج حتى يتم تعليمه ويحصل على عمل أو وظيفة ، بينما تصلح الفتاة للزواج فى سن مبكرة . إذن فخير للمرأة أن تشترك مع أخرى فى ظل بيت شرعى من أن تظل عانسا أو بغيا تهدر كرامتها بين أحضان الرجال العابثين » .

ويقول المستشرق (رينيه) الذى أسلم وتسمى « ناصر الدين» سنة ١٩٢٧ ، فى كتابه « أشعة خاصة بنور الإسلام » : إن الإسلام لم يتمرد على أحكام الطبيعة بل سايرها ، وعمل على تهذيبها . ولذلك لم يرض على تحريم الزواج ، فرغم تحريم الكنيسة لتعدد الزوجات،فقد اتخذ ملوك فرنسا أنفسهم أكثر من زوجة : وفى الوقت نفسه كنت الكنيسة لهم كل تعظيم واحترام ولم يحقق تحريم تعدد الزوجات فى المسيحية الغرض المقصود منه ، بل انعكست الآية عندما اصطدمت بضرورات الطبيعة ، فأسفرت عن نتائج خطيرة من الدعارة والعوانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين . ولم نجد مثل هذه الأمراض الاجتماعية فى البلاد التى طبقت فيها الشريعة الإسلامية تمام التطبيق ، وإنما انتشرت فى البلاد التى سرت إليها عدواها عن طريق المدنية الأوربية الحديثة » .

وبرغم صيحات الخطر فى الغرب ولجوء عقلائه إلى الشريعة الإسلامية يلتمسون منها حلولا لمشكلاتهم الاجتماعية فقد جاءت التعديلات الأخيرة لقانون الأحوال الشخصية فى مصر تتحايل على ما أحله الله فتجعله حراما حيث تقول المادة السادسة مكرر من هذا القانون :«ويعتبر إضرارا بالزوجة اقتران زوجها بأخرى بغير رضاها ..»

ونقول لواضعى هذا القانون ، هل أراد الله تعالى الإضرار بعباده فى فى قوله « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع» ؟ ! وهل كان رسولنا ﷺ يريد الاضرار بأمهات المؤمنين عندما نكح ما طاب له - وما أحله الله له وهو ﷺ القائل : «لا ضرر ولاضرار » ؟ !

والأعجب من ذلك أن تأتى نفس المادة فتجعل للزوجة الأولى حق طلب التفريق عن زوجها خلال سنة من تاريخ علمها بزواجه بالثانية!!

وهكذا يقول رسولنا :« من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » . ويقول هذا القانون من كانت له زوجتان فللاولى حق التفريق !! وقد صح عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقا من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة » .

والقانون بإعطائه الزوجة الأولى حق التفريق عن زوجها بسبب الزواج الثانى يجعل التعدد متعلقا بإرادة الزوجة لا بحكم الله الواحد القهار .

وإذا كانت شريعة الله المحكمة قد رفعت الحرج وأرست قاعدة عدم الضرر، قد جاء هذا القانون ليعصف بقوامة الرجل وأمن الأسرة ويضعها تحت فسلطان النساء وتقلباتهن وعدم ثباتهن الانفعالى .

- فإحساس الزوجة بأن زوجها يمكن أن يتزوج عليها دون توقف على رضاها ودون أن يكون لها حق التفريق، يجعلها تحسن معاملة الزوج خشية

أن يجرب حظه مع أخرى، أما إعطاء حق التفريق فى يدها فهو سيف مسلط على الرجل يخل بحقه فى القوامة عليها .

ـ وعندما أعطى الله تعالى للرجل حق تأديب المرأة الناشز ، ومن هذا الحق « واهجروهن فى المضاجع » أعطاه إمكانية إحسان استخدامه عن طريق التعدد الذى يجعله يطيق هذا الهجر وبخاصة إذا كانت طاقته الجنسية عنيفة .

ـ جعل الله تعالى عقوبة الزانى المحصن الرجم بالحجارة حتى الموت، ومع شدة هذه العقوبة لابد من فتح باب اطفاء الشهوة فى طريق مشروع ، وإلا فما الذى يفعله رجل مرضت زوجته مرضا طويلا يمنع الإتصال الجنسى بها ولا يريد مفارقتها ؟ أيتزوج بأخرى ليكون للاولى حق التفريق أم يتصل اتصالا غير مشروع بأخرى ، فيرجم بالحجارة حتى الموت !

ولكن يبدو أن واضع هذا القانون يعلم أن مجتمعنا لا تقام فيه حدود الله ، فجاء القانون ليفتح الباب على مصراعيه للانحلال ولتعدد العشيقات بوضعه هذا القيد على تعدد الزوجات ، لأن الرجل سداً لباب المشاكل التى تنشأ من الزوجة الأولى عند استخدامها التفريق يؤثر أن يجعل الثانية عشيقة لا زوجة . وإن كان لا يرغب فى علاقة محرمة قد يتزوجها عرفيا فيهدر بذلك حقوقها . . وخير للرجل أن يقترن بحليلة من أن يتخذ عشيقة

خامسا : الطلاق

وكما أشاع المستشرقون والمبشرون ووكلائهم عندنا من دعاة تحرير المرأة المسلمة من قيمها ودينها . . كما أشاعوا عن تعدد الزوجات أنه ضياع للمرأة واستجابة رخيصة لشهوات الرجال وأهوائهم الجنسية ، أشاعوا

كذلك باطلا أن نظام الطلاق وإباحته فى شريعة الإسلام، وجعله فى أيدى الرجال ، قسوة وظلم واستبداد بالنسبة للنساء . . وذهبوا فى ضلالهم إلى القول بضرورة إلغاء الطلاق وتحريم ما أحله الله وحققت مساعيهم بمساعدة النفوذ الاستعمارى فى بلادنا بعض المكاسب، تتمثل فى صدور بعض القوانين هنا وهناك تضع العراقيل فى تنفيذ حق الطلاق الذى جعله الله رحمة وآخر حل عندما يستحيل دوام العشرة الزوجية .

وقبل أن نمضى فى دحض هذه الشبهات وكشف باطل ما اتخذ من تعديلات قانونية ، نسائل النسائيين وسدنة الانحلال الغربى فى بلادنا : هل ما تدعونه وما وصلتم إليه بمسخ قوانين الأحوال الشخصية وسلخها من إطار الشريعة الاسلامية ، تم وضعه من خلال الواقع الإسلامى لهذه الأمة أم جاءت دعاواكم وقوانينكم لتطبق على أمة لا دين لها ولا شريعة لها ، استجابة للخطة الصهيونية الصليبية بإدخال قوانين الكفار لتحكم الأسرة المسلمة بدعوى الإصلاح والتجديد كما دخلت على أنظمتنا الاقتصادية والسياسية من قبل والتى أدت إلى الازدواج فى شخصية الأمة !!

إن منطق الإيمان الصحيح يقتضى هؤلاء أن ينزلوا على أحكام الله جميعا ولا يحيدوا عن حكم منها . أما إسلام الأسماء والمظاهر وشهادات الميلاد ، فحسب أصحابه نذير قول الله عز وجل : « ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين » .

إن الإسلام كما أعطى المرأة الحق فى اختيار زوجها ، أعطاها الخيار فى البقاء معه أو فراقه عندما تسوء العشرة بينهما ويعز التوفيق والصلح ، ولهذا شرع الطلاق لمصلحة المرأة ومصلحة الرجل على السواء ، فهو وإن جعل الطلاق فى يد الرجل لأنه أقدر على التحكم فى نفسه أثناء الغضب والخصام

ولأنه يتميز عن المرأة بصفة الثبات الأنفعالى إلا أن المرأة تملك أن تطالبه بالطلاق أو المخالعة ، كما تملك عند العقد أن تشترط لنفسها ما شاءت على ألا يكون الاشتراط مانعا لحق من حقوق الزوج المشروعة .

وقبل وقوع الطلاق بين الزوجين شرع الإسلام التحكيم: باختيار حكم من أهلها وحكم من أهله لكى يحاولا الإصلاح بينهما ، وذلك حرصا على بقاء الرابطة الزوجية، وحماية الأولاد،حتى إذا تعذر الصلح وتعسر الوفاق ورؤى أن الفراق أصلح ولا مفر من الطلاق، قرر الحكمان أو القاضى التفريق بينهما : « وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما » .

وهناك من الأسباب والأحوال التى تجعل الطلاق فى مصلحة الزوجين ، وأن كان أصلا -أبغض الحلال إلى الله - كما يقول رسولنا الكريم ، أهمها حالة الشقاق والنزاع بين الزوجين الناتجة عن اختلاف طبائعهما وتباين أخلاقهما وإصرار كل من منهما على رأيه وسلوكه مع الآخر.

ويلاحظ أن الحالات والأسباب التى تجعل الطلاق حلا مرغوبا وعلاجا مطلوبا ، هى من الأمور الواقعية التى تتعرض لها الحياة الزوجية فى مختلف المجتمعات البشرية فى كل زمان ومكان.

إن القول بضرورة إلغاء الطلاق إرتداد إلى العصور الأولى المسيحية المحرفة عند بولس ، التى قضت بعدم جواز الطلاق بل وعدم السماح للقاضى بالتطليق لأن ما جمعه الرب لا يفرقه العبد . . هذه النظم لم تستطع البقاء أمام المطالب الاجتماعية ، فأباحت الكنيسة للقاضى التطليق فى حالة الزنا من جانب الزوجة ثم توسعت فى أسباب الطلاق حتى شملت زنا الزوج أيضا أو أصبح الزوج عنيفا، أو حكم عليه بالحبس خمس سنوات أو إصابته بجنون أو اعتداء أى من الزوجين على حياة الآخر أو تعدد إيذائه .

ورغم أن للمذهب الكاثوليكي كان من أشد المذاهب المسيحية تمسكا بالزواج المؤبد الذى لا ينحل ولو بسبب الزنا ، إلى أنه خر راكعا أمام التطور الاجتماعى ، ومن هنا نجد إيطاليا ، وهى معقل هذا المذهب تبيح الطلاق لعدة أسباب منها الزنا وهجرأحد الزوجين منزل الزوجية أو اعتداء الآخر باللفظ أو الإشارة أو الإساءة بمعاملته للآخر أو رفض الزوج إعداد مسكن ملائم لزوجته (المواد ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من القانون الإيطالى) .

وفى ديسمبر سنة ١٩٧٠ عقب تعديل القانون الإيطالى والتوسع فى أسباب الطلاق بلغ عدد قضايا الطلاق فى شهر واحد مليون قضية أكثرها كان هذا العدبل من عشر سنوات .

ولا يخفى على القوم أن بعض الولايات الأمريكية اليوم تبيح الطلاق لأتفه الأسباب كإرسال الزوج للحيته أو تأخره فى العودة إلى منزله مساء .

وها هى انجلترا اخر قلعة من قلاع التزمت الكنسى تعود إلى الفطرة السليمة فى حياة الناس ، فقد نشرت مجلة الأيكونوميست الانجليزية فى عددها الصادر فى ١٩ مايو ١٩٧٨ موضوعها عن مطالب المجتمع الانجليزى رجالا ونساء بتيسير الطلاق والتوسعة فيه ، وإباحته لغير علة الزنا ، وعدم تقييده بقيود . يطلبون إباحة الزواج للمطلق ، وإباحة الزواج من مطلقة .

ولسنا فى حاجة بعد ذلك إلى التدليل على فساد نظام العقد المؤبد ، فقد أثبت التاريخ فشل هذا النظام وتمت إباحة الطلاق على الوضع المشار إليه .

أما الشرائع المسيحية التى لم تتوسع فى أسباب التطليق فيلجأ أصحابها إلى تغيير دينهم توصلا إلى الطلاق أو يهجرون منزل الزوجية وهذاما يسمى بالتفريق الجسمانى للمنصوص عليه فى المادة ١٧ من الإرادة الرسولية .

هناك يطلبون تأويل الكنيسة للتوسعة والتيسير فى الطلاق ، وتصدر قوانين تستجيب لهذه المطالب. وهنا يطلبون العدول عن نظام الإسلام للتضييق حتى المنع بقوة القانون .

هناك يطلبون عدم تقييد الطلاق بقيود ، وسبحان الله ولاحول ولاقوة إلا بالله .

ومما ينبغى ملاحظته هنا فى حديثنا الموجز عن الطلاق فى الإسلام : أن الشريعة الإسلاميه انفردت بنظام المراجعة فى الطلاق دون الشرائع الأخرى حرصا على إعادة الرباط الزوجى ، وحفاظاً على الذرية من الضياع والتشرد واستصلاحا لما فسد من بين الزوجين من مودة وسكن ويعتبر الطلاق الرجعى فى الإسلام ـ وهو المره الأولى والثانية ـ فترة اختبار للزوجين ، وفرصة تأمل ومراجعة للأخطاء والزلات ، والندم والتوبة ، ثم العودة إلى بيت الزوجية وما يظلله من مودة ورحمة وسكن وذرية .

كما ينبغى أن نلاحظ أيضا أن الإسلام جاء ليصحح وضعا خاطئاً، ويحفظ للمرأة كرامة كانت مضيعة على عهد الجاهلية الأولى،إذ كان العرب يطلقون دون حصر أو عدد ، فكان الرجل يطلق ماشاء ثم يراجع امرأته قبل أن تنقضى عدتها ضراراً لها ، حيث تظل معلقة بين طلاق ورجعة فى نهايه المدة ثم طلاق فى بداية الرجعة وهكذا . فنزل القرآن الكريم يضع لهذه الفوضى حدا ، ولهذا الظلم النازل بالنساء قيدا . « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ، وهو تأديب للرجال وتكريم للمرأة ، يشبه التأديب القرآنى للرجال أيضاعندما منعهم من إمساك النساء على كره وبغضاء وهوان وذلك فى قوله تعالى « ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا » .

ولذلك أجاز الاسلام أن تخالع المرأة الكارهة لزوجها المتضررة بالحياة

بالحياة معه المتأذية من معاشرته . . أجاز أن تخالعه بشيء من المـال يتراضيـان عليه ، كما فعلت امرأة ثابت بن قيس عندما ردت عليه حديقته التي قدمها إليها مهرا حين تزوجها ، وأقر الرسول ﷺ ذلك . وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : « إذا أرادت النساء الخلـــع ، فلا تكفروهن» أي أجيبوهن إلى ما يطلبن ، فلا تمسكوهن ضرارا لهن، وحيفا عليهن ، الأمر الذي يؤدي إلى كفرهن !

* * *

وهكذا تتجلى عدالة نظام الطلاق في الاسلام ، وحكمته البالغة حيث جعل الطلاق بيد الرجل لتمام عقله ، وامتلاكه لنفسه ، وتحكمه في عواطفه إلى جانب التزامه بمـا يترتب على ذلك من حقوق وواجبات تجـاه مطلقته وأولاده منها، كما جعل في نفس الوقت للمرأة حقا في ـالمخالعةـ إذا أحست ظلما أو هوانا في بقائها معه ، أو كرهته لخلقه أو خلقته .

سادسا : الحجاب

يبدو عند المخدوعين أن الزي الإسلامي عرض خـــارجي لا يرتبط بأعماق الإنسان ولا بجوهره، ولما كانت هناك علاقة تفاعل بين شكل الشيء ومضمونه ، وهذه قاعدة مضطردة تجري على الأشياء والإنسان . . وعليه يكون كل مظهر من حياة الانسان مرتبطا بعلاقة تفاعل وتأثير بصميم روحه فلابس الشجـاعة تبث في الرجل روح الشجـاعة ، وملابس الخنوثة تعطيـه التخنث والميوعة، وملابس العفة تبث في المرأة روح العفة ، وملابس المجون والخلاعة تصبغها بالمجون والخلاعة،وملابس الممثلين والجوكي تفقد الشبـاب طـابع الإيمان برجولته . .

ومن هنا توجهت أول ضربة قام بها النسائيون إلى حجاب المرأة المسلمة وزيها تحت ستار فلسفة خبيثة حملت اسم «تحرير المرأة» برروا بها أهدافهم فى انحلال المجتمعات الإسلامية الكامل وإضفاء الصبغة الغربية عليها فى الزى والسلوك . .

وانطلت الخدعة الكبرى على كثير من نساء المسلمين، واندفعن فى غيبة النظام الإسلامى إلى طريق الخروج على تعاليم الإسلام وشريعته فى الحشمة والحجاب ، واندفعن إلى تقليد قبيح للمرأة الغربية ، حتى لا تكاد تسير فى شارع من شوارع مدننا الآن إلا وكأنك تسير فى مدينة أوربية لا تمت إلى الوطن الإسلامى بأصل ولا تمتد إليه بنسب . . فترى النساء وقد تركن البيوت وخرجن فى تكشف مزر وتبرج مشين ، وحركات خليعة ، كاسيات عاريات ، مائلات مميلات ، وفقن فى ذلك بنساء الغرب..وترامم وقد خلعن ثياب الحياء والخجل، وكأنه لا حرام ولا حلال ، ولا حساب ولا سؤال، ولا حدود ولا قيود !!

ومما لا شك فيه أن وراء هذا الإنحراف الذى أصاب المجتمع الإسلامى ووراء هذه المؤامرة على الأزياء والزينة قوى الصهيونية التى تملك بيوت « للموضات والأزياء » مستهدفة اقتصاد المسلمين ومقدراتهم وإضعاف الأسرة المسلمة باستنزاف ميزانيتها فى الأزياء وأدوات الزينة والترف وإفساد حياتها بما تشيعه هذه الأزياء من الانحلال وتميع فى نفوس أفرادها . . فلابد من توجيه مستنير إزاء هذا الإعصار المدمر من إغراءات الموضات فى الأزياء وأدوات الزينة .

إن ملابس المرأة هى مسئولية الرجل وإن ملابس الفتاة هى مسئولية الآباء ، وعلى الآباء والأمهات حماية أبنائهم من أعاصير السموم التى تجتاح المجتمعات

الإسلامية ، ولكن كيف لفاقد الشيء أن يعطيه . كيف لهذا الجيل من الآباء أن يقدم الهدى وهو ليس مهتديا ، فلابد من رعاية لهم ممن يلون أمرهم وحماية مما يقرأون ويسمعون ليفاصلوا بين الخير والشر والحلال والحرام ، وهو الأمر الذي يضع المربين وحملة الدعوة الإسلامية رجالا ونساء أمام هذه المسئولية الخطيرة . وإذا كانت قضية الزى والحجاب قضية حيوية وذات خطر عظيم فى اتجاه المرأة المسلمة وأجيال الأمة بأسرها ، فلابد من تبديد ظلمات وشكوك النسائيين بنور القرآن فى هذه القضية . إنه إما اتباع لله ولشريعة القرآن أو اتباع لشريعة كهنة بيوت الموضات والأزياء فى الغرب.

جاء فى تفسير قوله تعالى « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » :

قال مجاهد كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال. فذلك تبرج الجاهلية

وقال قتادة: وكانت لهن مشية تكسر وتغنج . فنهى الله تعالى عن ذلك

وقال : مقاتل بن حيان : والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها . وذلك التبرج

وقال ابن كثير فى التفسير : كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء ، وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها . فأمر الله المؤمنات أن يتسترن فى هيئاتهن وأحوالهن .

هذه هى صور التبرج فى الجاهلية التى عالجها القرآن الكريم . ليطهر المجتمع الإسلامى من آثارها ويبعد عنه عوامل الفتنة ، ودواعى الغواية ويرفع آدابه وتصوراته ومشاعره وذوقه كذلك ؟ ونقول : ذوقه : فالذوق الإنسانى الذى يعجب بمفاتن الجسد العارى ، ذوق بدائى غليظ . وهو من غير شك أحط من الذوق الذى يعجب بجمال الحشمة الهادىء وما يشى به من جمال الروح، وجمال العفة وجمال المشاعر.

وهذا المقياس لا يخطىء فى معرفة ارتفاع المستوى الإنسانى وتقدمه فالحشمة جميله جمالا حقيقيا رفيعا . ولكن هذا الجمال الراقى لا يدركه

أصحاب الذوق الجاهلي الغليظ ، الذي لا يرى إلا جمال اللحم العاري ، ولا يسمع إلا هتاف اللحم الجاهر !

ويشير النص القرآني إلى تبرج الجاهلية فيوحي بأن هـذا التبرج من مخلفات الجاهلية التي يرتفع عنها من تجاوز عصر الجاهلية ، وارتفعت تصوراته ومثله ومشاعره عن تصورات الجاهلية ومثلها ومشاعرها.

والجاهلية ليست فترة معينة من الزمان . إنما هي حالة اجتماعية معينة ، ذات تصورات معينة للحياة ويمكن أن توجد هذه الحالة ، وأن يوجد هذا التصور في أي زمان وفي أي مكان ، فيكون دليلا على الجاهلية حيث كان !

وبهذا القياس نجد أننا نعيش الآن في جاهلية عمياء ، غليظة الحس ، حيوانية التصور ، هابطة في درك البشرية إلى حضيض مهين . وندرك أنه لا طهارة ولا زكاة ولا بركة في مجتمع يحيا هذه الحياة ، ولا يأخذ بوسائل التطهر والنظافة التي جعلها الله سبيل البشرية إلى التطهر من الرجس ، والتخلص من الجاهلية الأولى ، وأخذ بها ، أول من أخذ ، أهل بيت النبي ﷺ على طهارته ووضاءته ونظافته . . وصدق الله العظيم (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم . .) فللنبي ﷺ على جميع المؤمنين الولاية العامة التي تشمل رسم منهاج الحياة بحذافيرها ، ولأزواجه عليه السلام الأمومة الشعورية التي يجب أن يكون فيها لهم القدوة الصالحة والمثل الأعلى :

وقد أوحى الله إلى نبيه ﷺ أن يأمر نساءه وبناته ونساء المؤمنين عامة إذا خرجن لحاجتهن أن يغطين أجسامهن ورؤوسهن وجيوبهن – وهي فتحة الصدر من الثوب – بجلباب كاس . فيميزهن هذا الزي ويجعلهن في

مأمن من معابثة الفساق. فإن معرفتهن وحشمتهن معا تلقيان الخجل والتحرج في نفوس الذين كانوا يتبعون النساء لمعابثتهن . (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) . .

ويذكرنا قوله تعالى في سورة الأعراف : (يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) . . يذكرنا هذا النداء العلوي الجميل بنعمة الله على البشر وقد علمهم ويسر لهم ، وشرع كذلك ، اللباس الذي يستر العورات المكشوفه ، ثم يكون زينة ـ بهذا الستر ـ وجمالا ، بدل قبح العرى وشناعته ـ ولذلك يقول : « أنزلنا » أي : شرعنا لكم في التنزيل . واللباس قد يطلق على ما يواري السوءة وهو اللباس الداخلي . والرياش قد يطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمل به ، وهو ظاهر الثياب . كما يطلق الرياش على العيش الرغد والنعمة والمال . . وكلها معان متداخلة ومتلازمة : (يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا) . كذلك يذكر هنا « لباس التقوى » ويصفه بأنه « خير » : (ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله .) . . قال عبد الرحمن بن أسلم : « يتقي الله فيواري عورته، فذاك لباس التقوى».

فهناك تلازم بين شرع الله في اللباس لستر العورات والزينة وبين التقوى . . كلاهما لباس . هذا يستر عورات القلب ويزينه . وهما متلازمان. فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عرى الجسد والحياء منه . ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرى . . وأن يدعو إلى العرى . . العرى من الحياء والتقوى ، والعرى من اللباس وكشف السوءة !

إن ستر الجسد حياء ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئى - كما تزعم الأبواق المسلطة على حياء الناس وعفتهم لتدمير انسانيتهم، وفق الخطة اليهوديه البشعة التى تتضمنها مقررات حكماء صهيون - إنما هى فطرة خلقها الله فى الإنسان ثم هى شريعة أنزلها الله للبشر، وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم فى الأرض من مقدرات وأرزاق .

والله (سبحانه) يذكر بنى آدم بنعمته عليهم فى تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ! وفى تمكينهم منه بما يسر لهم من الوسائل : (لعلهم يذكرون) ..

ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء الناس وأخلاقهم والدعوة السافرة لهم إلى العرى الجسدى - باسم الزينة والحضارة والموضة ! - وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم، والتعجيل بانحلالهم، ليسهل تعبيدهم لملك صهيون ! ثم يربط بين هذا كله والخطة الموجهة للاجهاز على الجذور الباقية لهذا الدين فى صورة عواطف غامضة فى أعماق النفس ! فحتى هذه توجه لها معاول السحق، بتلك الحملة الفاجرة الداعية إلى العرى النفسى والبدنى الذى تدعو إليه أقلام وأجهزة تعمل لشياطين اليهود فى كل مكان! والزينة « الإنسانية » هى زينة الستر، بينما الزينة « الحيوانية » هى زينة العرى .. ولكن « الآدميين » فى هذا الزمان يرتدون إلى رجعية جاهلية تردهم إلى عالم البهيمة . فلا يتذكرون نعمة الله بحفظ إنسانيتهم وصيانتها !!!

وفى سورة النور يقول تعالى : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم

ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن . ولايبدين زينتهن ، إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبناء بعولتهن أو أخواتهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهم أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ، وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) .

إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف ، لاتهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ، ولاتستثار فيه دفعات اللحم والدم فى كل حين، فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى إلى سعار شهوانى لاينطفىء ولايرتوى . والنظرة الخائنة والحركة المثيرة ، والزينة المتبرجة ، والجسم العارى . . كلها لاتصنع شيئا إلا أن تهيج ذلك السعار الحيوانى المجنون ! وأن يفلت زمام الأعصاب والارادة . فإما الإفضاء الفوضوى الذى لايتقيد بقيد وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة ! وهى تكاد أن تكون عملية تعذيب ! ! !

وإحدى وسائل الإسلام إلى إنشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة ، وإبقاء الدافع الفطرى العميق بين الجنسين ، سليما ، وبقوته الطبيعية ، دون استثارة مصطنعة ، وتصريفه فى موضعه المأمون النظيف .

ولقد شاع أن النظرة المباحة ، والحديث الطليق ، والاختلاط الميسور ، والدعابة المرحة بين الجنسين ، والاطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة . .

شاع أن كل هذا تنفيس وترويح ، وإطلاق للرغبات الحبيسة ، ووقاية من الـكبت ، ومن العقد النفسية ، وتخفيف من حدة الضغط الجنسي ، وما وراءه من اندفاع غير مأمون ... شاع هذا على أثر انتشار بعض النظريات المادية ، وبخاصة نظرية فرويد ، ولـكن هذا لم يكن سوى فروض . نظرية ففي أشد البلاد إباحية وتفلتا وبعداً عن جميع القيود الإجتماعية والأخلاقية والدينية والإنسانية ، ما يكذبها وينقضها من الأساس .. في هذه البلاد التي ليس فيها قيد واحد على الـكشف الجسدي ، والاختلاط الجنسي ، بكل صوره وأشكاله ، لم ينته هـــذا كله إلى تهذيب الدوافع الجنسية وترويضها . إنما انتهى إلى سعار مجنون لايرتوي ولا يهدأ إلا ريثما يعود إلى الظمأ والاندفاع ! والأمراض النفسية والعقد التي كان مفهوما أنها لاتنشأ إلا من الحرمان ، من التلهف على الجنس الآخر المحجوب ، تشاهد هناك بوفرة ومعها الشذوذ الجنسي بـكل أنواعه .. ثمرة مباشرة للاختلاط الـكامل الذي لايقيده قيد ولايقف عند حد ، وللصداقات بين الجنسين تلك التي يباح معها كل شيء ! وللأجسام العارية في الطريق ، وللحركات المثيرة والنظرات الجاهرة ، واللفتات الموقظة . وليس هنا مجال التفصيل وعرض الحوادث والشواهد . مما يدل بوضوح على ضرورة إعادة النظر في تلك النظريات التي كـذبها الواقع المشهود .

وفي الآيتين المعروضتين هنا نماذج من تقليل فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين :

(قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم . ذلك أزكى لهم . إن الله خبير بما يصنعون) .. وغض البصر من جانب الرجال أدب نفسي ، ومحاولة للاستعلاء على الرغبة في الاطلاع على المحاسن والمفاتن في

الوجوه والأجسام . كما أن فيه إغلاقا للنافذة الأولى من نوافذ الفكرة والغواية وعاولة عملية للحيلولة دون وصول السهم المسموم ؟

يقول القرطبي في تفسيره : « البصر هو الباب الأكبر إلى القلب ، وأعمق طرق الحواس إليه ، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته ، ووجب التحذير منه ، وغضه واجب عن جميع المحرمات ، وكل مايخشى الفتنة من أجله » .

وحفظ الفرج هو الثمرة الطبيعية لغض البصر . أو هو الخطوة التالية لتحكيم الارادة ،ويقظة الرقابة والاستعلاء على الرغبة في مراحلها الأولى . ومن ثم يجمع بينهما في آية واحدة ، بوصفهما سببا ونتيجة ، أو باعتبارهما خطوتين متواليتين في عالم الضمير وعالم الواقع . كلتاهما قريب من قريب .

(ذلك أزكى لهم): فهو أطهر لمشاعرهم ، وأضمن لعدم تلوثها بالانفعالات الشهوية في غير موضعها المشروع النظيف ، وعدم ارتكاسها إلى الدرك الحيواني الهابط . وهو أطهر للجماعة وأصون لحرماتها وأعراضها ، وجوها الذي تتنفس فيه .

والله هو الذي يأخذهم بهذه الوقاية ، وهو العليم بتركيبهم النفسي وتكوينهم الفطري ، الخبير بحركات نفوسهم وبحركات جوارحهم : (إن الله خبير بما يصنعون) ..

(وقل للمؤمنات : يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن) ..

فلا يرسلن بنظراتهن الجائعة المتلصصة، أو الهاتفة المثيرة، تستثير كوامن الفتنة في صدور الرجال . ولا يبحن فروجهن إلا في حلال طيب ، يلبي داعي الفطرة في جو نظيف ، لا يخجل الأطفال الذين يجيئون عن طريقه من مواجهة المجتمع والحياة !

(ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها) . .

والزينة حلال للمرأة ، تلبية لفطرتها . فكل امرأة مولعة بأن تكون جميلة، وأن تبدو جميلة . والزينة تختلف من عصر إلى عصر، ولكن أساسها فى الفطرة واحدة هى الرغبة فى تحصيل الجمال أو استكماله، وتجليته للرجال

والاسلام لايقاوم هذه الرغبة الفطرية ولكنه ينظمها ويضبطها،ويجعلها تتبلور فى الاتجاه بها إلى رجل واحد ـ هو شريك الحياة ـ يطلع منها على ما لا يطلع أحد سواه . ويشترك معه فى الاطلاع على بعضها المحارم المذكورون فى الآية ، ممن لا يثير شهواتهم هذا الاطلاع .

فأما ما ظهر من الزينة فى الوجه واليدين ، فيجوز كشفه . لأن كشف الوجه واليدين مباح لقوله ﷺ لأسماء بنت أبى بكر: يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وأشار وجه وكفيه .

والجيب فتحة الصدر فى الثوب . والخمار غطاء الرأس والنحر والصدر ليدارى مفاتنهن ، فلا يعرضها للعيون الجائعة ، ولاحتى لنظرة الفجاءة ، والتى يتقى المتقون أن يطيلوها أو يعاودوها ، ولكنها قد تترك كيننا فى أطوائهم بعد وقوعها على تلك المفاتن لو تركت مكشوفة !

إن الله لا يريد أن يعرض القلوب للتجربة والابتلاء فى هذا النوع من البلاء .

هذا التحشم وسيلة من الوسائل الوقائية للفرد والجماعة . . ومن ثم يبيح القرآن تركه عندما يأمن الفتنة فيستثنى المحارم الذين لاتتوجه ميولهم عادة ولا تثور شهواتهم وهم :

الآباء والأبناء ، وآباء الأزواج وأبناؤهم ، والإخوة وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات . كما يستثنى النساء المؤمنات أما غير المسلمات فلا .

لأنهن قد يصفن لأزواجهن وأخواتهن ، وأبناء ملتهن مفاتن نساء المسلمين وعوراتهن لو إطلعن عليها .

ولما كانت الوقاية هي المقصودة بهذا الإجراء ، فقد مضت الآية تنهى المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المذكورة، وتهيج الشهوات الكامنة وتوقظ المشاعر النائمة ، ولو لم يكشفن فعلا عن الزينة :

(ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن) .

وإنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها . فإن الخيال لا يكون أحيانا أقوى في إثارة الشهوات من العيان وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها ، أو حليها أكثرها مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته . كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر في خيالهم أكثر ما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم - وهي حالات معروفة عند علماء الأمراض النفسية اليوم - وسماع وسوسة الحلي أو شمام شذى العطر من بعيد ، قد يثير حواس ناس كثيرين ، ويهيج أعصابهم ، ويفتنهم فتنة جارفة لا يملكون لها ردا .

والقرآن يأخذ الطريق على هذا كله ، لأن منزله هو الذي خلق وهو الذي يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

وبعد: هل الحجاب قيد ورجعية وتخلف كما يقول المخدوعون والمتملقون للمرأة ؟

لقد سئلت بعض الأخوات المحجبات عن شعورهن إزاء الحجاب والزي لإسلامي وآدابه، فجاءت الإجابة تدل على وعي وإيمان، وبرغم الحملة الضارية على عفاف المرأة المسلمة من الأقلام التي مردت على الإثم والدفاع عن الباطل فإن الخير في هذه الأمة إلى يوم القيامة.. جاءت الإجابة دامغة « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » :

قالت إحداهن : والله إن عزتنا في هذا الحجاب، ولقد شقيت كل متبرجة وسعدنا نحن به .

وقالت الثانية: إن الحجاب لا يمنعنـا من تلقى العلم فى أرقى درجـاته ، وليست هناك علاقة بين الاختلاط والعلم ولا بين السفور والعلم فهذه أكاذيب

وقالت الثالثة : سنتمسك بالحجاب إلى الأبد ، ونحن لا ننادى بالتحرر لأننا متحررات فعلا، ومصانات من يوم أن نادى محرر الإنسانية محمد رسول الله ﷺ بالإسلام وأخرج الناس من الظلمات إلى النور .(١)

على مفترق طريقين

إن مشكلة المرأة والأسرة فى المجتمعات الإسلامية ، وتوزع الأعمـال بين الرجل المرأة ومسلك كل منهما فى الأسرة وخارج الأسرة، هى فى الواقع من أكبر المشكلات التى نجابهها اليوم ، والتى تظهر فينا صفة التبعية والتقليد إلى درجة مخزية ، وهى ناحية من نواحى الحياة التى جرفنا فيها تيار جديد أفقدنا الكثير من خصائصنا الاسلامية، وصار له من الشيوع حتى كاد يشمل جميع الطبقـات وتحتاج إلى عزائم أصحـاب الدعوة الاسلامية والأمثـلة الفذة من النماذج المؤمنة للفتيات الملتزمات فى مجتمعنا اليوم التى تستمـد قوتها من إيمانهـا بحضـارة الإسلام وصحة عقيدته ومثله العليا وأحكامه الاخلاقية لتحرر من هذة التبعية الشائنة لحضارة الغرب و نظامها الاجتماعى ومفاهيمها المادية الأخلاقية . .

إن فى العالم قديمة وحديثه المتمدن منه والمتأخر نظامين للحيـاة الاجتماعيـة المتعلقة بالأسرة والمرأة والحيـاة الجنسية ، أحدهما يقوم على ضرورة حصر الحياة الجنسية والتمتع بها فى نطاق الأسرة أو الحياة الزوجية وتتفرع عن جميع العـادات المتصلة بحيـاة المرأة والرجل بحيث تؤدى إلى تلك الغاية وتنسجم معها وتعضدها، فلا إثارة للغريزة فى السوق والشارع

- عن مجلة « الدعوة عدد ٣١ سنة ١٩٧٩ »

والمجـالس والمجتمعـات ولا إثارة للغريزة عن طريق عرى المرأة وتزينهـا ولا إفساح للاختلاط والخلوات الخاصة ، وكل ذلك مقترن بآداب وأعراف وتقاليد ومعتقدات وأحكام خلقية وأحكام تشريعية .

أما النظام الآخر ، وهو رائج فى حضـارات أخرى سواء أكانت قديمة بدائية أم حديثة متمدنة فلا علاقة للحداثة والقدم ولا للتقدم المادى أو التخلف بذلك ـ ويقوم هذا النظـام على التسـاهل فى العلاقات بين الرجل والمرأة وعدم الاكتراث بحصر الحيـاة الجنسية وتحقيق متعتها وأهدافها فى نطاق الحياة الزوجية ، بل يسود الاعتقاد فى مثل هذا النظام بحرية هذه الصلات وعدم التفريق بين تحقيق الحيـاة الجنسية فى صورة حيـاة زوجية أو علاقة زنا . . نعم إن الحياة الزوجية وحيـاة الأسرة موجودة ، ولكن على أية حال توجد إذا كان أصحاب هذا النظـــام لا يغـارون أو يشعرون بالنار إذا حدثت صلات جنسية شيوعية تامة بين المتزوجين من الرجـال والنساء أو بين الشباب والفتيـات من غير المتزوجين هناك ! إن واقع البلاد الأوربية والأمريكية هو هذا كما هو معروف ومتحقق.

تلك هى الحقيقة التى لا مهرب منها فنحن بين نظامين ، وعلينا أن نختار بينهما :

١ ـ نظام الإسلام . . أو نظام العفة والزواج

٢ـ ونظام الغرب . . أو نظام الإباحية الجنسية والأسرة المفككة .

. . وعلينا كذلك أن نختار بين نتائج كل من النظامين :

في نظام الإسلام	في نظام الغرب

الرجـــــل

مسئول عن الزواج والزوجة والولد	غير مسئول عن الزواج ولا السفاح والعشيقة واللقيط.
لزوجته وأولاده	لعشيقاته وخليلاته
يثق بزوجته أنها له وحده	لا يثق بزوجته أنها له وحده
يثق بولده وأنه من نطفته	يشك أن ولده من نطفته
له الزواج بأربعة بشرط العدل	يزني بالكثير منهن بغير مسئولية
يحترم زوجته ولا يشتهي غيرها	يحقرها ويشغل عنها بغيرها
له القوامة على الأسرة	فاقد القوامة على الأسرة
يجد السكينة والمودة في بيته	في فوضى وصراع وجفاء في بيته
صحيح الجسم والنفس والخلق	مريض الجسم والنفس والخلق .

المـــــرأة

تضبط نفسها حتى تجد الزوج	حمقاء تستسلم للرجل للغرض
يعاشرها زوجها بالمعروف	يعاشرها الرجال بالمال والاحتيال
عشرتها مع زوجها دائمة مستمرة	عشرتها مع عشاقها مؤقتة
زوجة لرجل وأم لولده	زانية وأم لقيط
مسئول عنها زوجها وأقاربها	مهملة لا أحد مسئول عنها
جميع قلبها لزوجها	قلبها موزع بين العشاق
للبيت الهادىء الساكن	للشارع الصاخب والعمل المرهق
لأولادها تمنحهم عطفها	محرومة الولد أو مفصولة عنه

فى نظام الإسلام	فى نظام الغرب
يتوجها الخجل ويكللها الحياء	وقحة سفيهة ساقطة الحياء
بعيدة عن الفتنة والافتتان	تَفتِن و تُفتتن
صبابة لزوجها فقط	صبابة للجميع
محصنة الفرج عفيفة التنفس	أسيرة الشهوة والهوى
سليمة الجسم والخلق	مريضة وتنشر الوباء
ناعمة لطيفة جميلة	خشنة بارزة العروق والعضلات
تقية طيبة أبية	شقية خبيثة حقيرة
آمنة مطمئنة سعيدة	مهددة قلقة تعيسة

الـــــولد

هدية من الله مباركة وثمرة الفؤاد	مصيبة كبيرة وكارثة مريرة
منسوب لأبيه وأمه	منسوب لأمه الزانية أو غير منسوب
يثق بأبيه وأنه من صلبه	لا يثق بأبيه ويشك فيه
يقتدى بالروح ويؤثر على النفس	رخيص مصيره القتل أو المستشفى
يعيش فى أسرة منه وإليه	يعيش فى المؤسسة مع الغرباء
ينعم بعطف أمه وأبيه وأخته وأخيه	محروم حتى من الأم والأب
يزداد حباً فى حال ضعفه	فى حال ضعفه يتمنون موته
ينادى أبى أمى أخى أختى	محروم من نداء الأم والأب
موصول بالمجتمع ومحب له	مبتور عن المجتمع حاقد عليه

في نظام الإسلام	في نظام الغرب

المجتمـــع

أسرى مترابط متعاون	مفكك أنانى فردى
محفوظ الأنساب مصان الحرمات	ضائع الأنساب مهتوك الحرمات
للجسم والروح حقهما الكامل	مادى أرضى ضعيف الروح
تسوده القيم الربانية الرفيعة	تسوده الاعتبارات الوثنية الدنيئة
عبد لله وملتزم بشرعه	عبد للهوى والأهواء وطموع لذلك
لله ، لرضاه ، لرفع كلمته	للمال ، والخمـر والشهوة والشيطان
آمن على ضروريات حياته	مهدد فى ضروريات حياته وأقل

إن النتائج التى وصلت إليها البشرية والثمار المرة التى جنتها حين اتبعت نظام الإباحية والتساهل فى العلاقات بين الجنسين ، لتهتف كلها بصدق هـذا الدين ، وأنه من عند الله خالق هذا الإنسان والعليم بما يصلحه . . وهـذه شهادة الكاتبة الأمريـكية « هيلسيلن ستانسبرى » التى تخصصت فى دراسـة مشاكل الشباب تقول : « إن المجتمع العربى كامل وسليـم ، ومن الخليق به أن يتمسك بتقاليده ، التى تقيد الشاب والفتاة فى حدود المعقول . و تحتـم عدم الإباحية الموجودة عندنا فى الغرب . . هذه الإباحية التى هددت الأسرة فى أوربا وأمريكا ، فالقيود التى يفرضها المجتمع العربى صالحـة ونافعـة ، لهذا أنصح أن تتمسكوا بها . . امنعـوا الاختلاط ، بل ارجعـوا إلى عصر الحريم والحجاب فهو خير لكم من إباحية وانطلاق ومجون أوربا وأمريـكا ثم تقول : إن الإباحية هددت الأسرة وزلزلت القيم والأخلاق ، إن الفتاة الصغيرة عندنا أقل من عشرين سنة تخالط الشباب وترقص وتشرب الخمـر والسجاير وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والإباحية ، فهل بقى شىء ؟ »

.. وبعد : فهذه الشهادة من الذين أصابهم الداء فهل يفيق السكارى ؟!
وهـــل يدرك الساخرون بالأخت المسلمة أبعاد جريمتهم فى حق الأمة ؟!
وهل يقرأ من يقيم السدود أمام المحتشمات ويضعون الأشواك فى طريقها هذا الإنذار من عقلاء الغرب ؟!

إن التخلف والرجعية لن يكونا فيمن اتبع أوامر ربه وأسلم له قياد نفسه إنما يكونان فيمن هاج وماج واعتدى من يسلك طـــريق الله ومنهجه المستقيم ..

الباب الثانى

الأسرة المسلمة
كما يجب أن تكون

- أسس تكوين الأسرة المسلمة
- العلاقات الأسرية فى ضوء القرآن الكريم
- من أسرار التربية السليمة

« تمهيـــــد »

من أقوال الإمام الشهيد
حسن البنا

الاســـــلام والبيت

قيمة البيت :

إذا كان الإسلام قد أصلح القلوب ، ونظم الأوقات ، وطهر الأموال ، فإنه تعرض للبيت بالإصلاح ونفذ إليه بالتنظيم ، ورفرف عليه بالسعادة ، فجاء يرغب المسلمين فى حياة الأسرة ويحضهم على الاستقرار ، ويحببهم فى البيت ومن فيه ، ويصفه بأنه نعمة كبرى من نعم الله .

جاء سيدنا معاذ رضى الله عنه إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يوصيه ، فقال عليه الصلاة والسلام : « يا معاذ أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » .

وليسعك بيتك :

هذا المكان الطيب الآمن الذى فيه الزوجة والأبناء والأمهات والآباء ، فيه الراحة بعد التعب ، والسكون بعد الإجهاد ، وإن متاعب الحياة لتزول فى البيت المنتظم السعيد ، وإن جراح الأحـداث لتمر عليها يد المواسـاة الرحيمة فى البيت المسلم ، الذى هو عش الهناءة ومنبت الطهر ، ومكان الوفاء ومهد العطف والتراحم ، وقد تناول الإسلام تنظيم البيت بتنظيم الصـلة بين أهـله :

● الزوج :

يقول الرسول ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهل بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، فكلكم راع ومسئول عن رعيته » . فمسئولية الزوج كراع فى أهل بيته وهو مسئول عن رعيته تلقى عليه تبعات مادية وأدبية داخل البيت وخارجه .

ففى خارج البيت : السعى على كسب ما يسد احتياجات البيت عن طريق شريف حلال ، وبقدر يضمن الحياة الكريمة لمن فى البيت .

وفى داخل البيت : التوجيه والنصح ، والتقويم والإشراف الكامل بحيث يلتزم جميع من فيه تعاليم الإسلام بكل جدية وصدق ، وبهذا الالتزام وحده يسعد كل من فى البيت ، ولا تتم هذه السعادة دون القدوة الحسنة من الأب والأم ، ففاقد الشىء لا يعطيه .

● الزوجة :

يقول الله تبارك وتعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » . ويقول النبى ﷺ : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة » . فالزوجة الصالحة روح البيت ، إليها تسكن النفس ، وبها تنتظم الحياة . تقوم بتنظيم البيت ، وتربية الأبناء وتنشئتهم على الفضيلة والحق والخير ، وإن فى أمانتها استقرار الحياة وفى عنقها طمأنينة الزوج ، وفى فضيلتها نجابة الأولاد وصلاحهم ، وفى جمالها ونظافتها زينة الحياة والمتاع الحلال .

فرض عليها الإسلام من الواجبات ما لا يثقل النفس الكريمة ، ولا يبهظ

الطبيعة المعتدلة ، وسوى بينها وبين الزوج فى أمور الدين ، فهى مطالبة بسلامة العقيدة، وطهارة الذيل، وأداء الفرائض، وأبدلها خيراً من السعى والعمل خارج البيت مملكة هى أساس كل ملك ، ودعامة كل مجتمع ، « وإن المرأة التى تهز مهد الطفل بيمينها ، لتهز العالم بيسارها » ، وكفل لها من الحقوق ما خلصها من العبودية ، وانتشلها من الجور ، فهى إنسان حر كريم ، لا يهضم له حق ولا تهدر له كرامة ، وإن ما حققه الإسلام للمرأة ليزرى بهذه الأباطيل التى يتشدق بها أولئك الفسقة الذين يدسون لها السم فى الدسم ، ويلبسون الحق بالباطل

وإن هذه النداءات المغرضة الصادرة من وحوش هم أعداء المرأة فى الحقيقة ، إنها أصوات تدعو المرأة للعمل واحتمال تبعات الحياة فى الخارج فتفقد بذلك الحياء والخجل ، وهما رأس مالها ، وتتعرض عفتها وكرامتها للانهيار ، فالرجل الذى يدعو لذلك عدو للمرأة ، حليف للشيطان ، والمرأة التى تصدق ذلك وتعمل له، هى عدوة لنفسها ومنساقة وراء الشهوات.

فكرامة المرأة فى صيانتها ، وعزتها فى خدرها ، ومكانها اللائق بها والذى خلقت من أجله هو البيت ، ومهمتها الحقيقية التى هيأها الله لها هى تربية الأبناء ، وتكوين الرجال ، وما أعظمها مهمة لو فطنت لها المرأة « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله » .

ومن طاعة الله ورسوله أن تفهم المرأة مهمتها ، وتقوم بها خير قيام كما يريد الله ورسوله .

● الأبناء :

وفى البيت أبناء ، هم ثمرة الحياة ، ومعقل الآمال كفل لهم الإسلام عطف

الوالدين فى أنبل الصور ، وأقوى الحالات ، وأمر الأم أن تحسن الحضانة ، وتكمل الرعاية ، وأمر الوالد أن يحسن التربية ، وكفالة السعادة .

« دخل رجل على سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فوجد أبناءه يركبون ظهره ويلعبون معه ، فقال يا أمير المؤمنين : أنت سيد الناس ويهابك الملوك ، فكيف بك وأنت فى هذه الحال ، وإن لى عشرة من الأبنـــاء إذا دخلت البيت جلس قائمهم ، ووقف قاعدهم ، وسكت متكلمهم وكان الخليفة قد ولاه عملا فقال له رضى الله عنه : إنك غير رحيم بأبنائك، فكيف ترحم المسلمين ؟! وجرده من عمله .

هذا هو الإسلام يجعل الأبوة رحمة وعطفاً على الأبناء ، ويجعل السعى عليهم من خير أنواع الجهاد .

وكان الرسول ﷺ فى جماعة من أصحابه فأشاروا إلى شاب قوي جلد فقالوا : حبذا لو كان هذا الجلد القوى فى سبيل الله ؟ فأجاب الرسول ﷺ ما معناه : « إن كان خرج يسعى على ضعيفيه فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يقيها السؤال فهو فى سبيل الله » .

وقد فرض الإسلام على الأبناء أن يكونوا بررة طائعين لآبائهم وأمهاتهم « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، فلا تقـل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمـاً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

● **تشرد واهمال :**

وعندما ترك المسلمون العمل بينهم فى كل شىء ، أخذ البيت نصيبه من

الإهمال ، فأصبح مكاناً بغيضاً يرى الإنسان فى كل مكان إلا فيه ، ويقطع وقته فى التسكع على المقاهى ودور اللهـــو ، واستبدل المؤانسة بالزوجة والأولاد بإخوان السوء ، وزملاء الشهوات والشر ، وأصبح شريداً يعمـل على ضياع وقته ، وقد قيل : « الوقت هو الحياة » ، كذلك يعمل على ضياع ماله وترك زوجته مسهدة منكوبة مجروحة الكرامة ، وأبناءه بلا رعاية أو عطف أو رقابة ، فيتطرق الفساد إلى البيت ، وتتعرض الزوجـة للخيـانة ، ويقودها الشيطان ، وينشأ الأبناء أعضاء فاسدين ، فيكونوا جناية على الأوطان والمجتمعات .

● اساس الخير :

علينا أيها الإخوان أن نأخذ أنفسنا بالحياة الصحيحة ، وأن نبـدأ فى فى بنـاء مجتمعنا على أساس إسلامى خالص ، فنؤدى واجبنا نحـو البيت بالإخلاد إليه فى وقت الفراغ واستغلال الفرصة لإسعاد الزوجـة بالعطف وطيب العشرة ، ورعاية الأبنـاء والإشراف على تربيتهم لأن البيت الصالح هو أساس المجتمع الكامل والأمة القوية الناهضة .

حسن البنـا

الفصل الأول

أسس تكوين الأسرة المسلمة

ليس هناك فى نظام المجتمع الإسلامى غير مجال واحد يملك فيه الناس أن يلبوا دوافعهم الفطرية. فليس غير الزواج العلنى الذى تتخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه .. وهى الطريقة التى يحب الله أن يلتقى بها أفراد الجنسين لتكوين البيوت وإقامة مؤسسات الأسرة ، والمتاع بهذا الالتقاء فى نظافة وطهر وجد يليق بهذا الأمر العظيم ، صيانة للمجتمع من كل تلوث أو اختلاط فى الأنساب ، ينشأ من « شيوعية » الاتصال الجنسى ، أو ينشأ من انتشار الفاحشة.

والزواج أو النكاح الذى اختاره الإسلام وأقره : هو أن يخطب الرجل من الرجل ابنته أو أخته فيعطيها صداقاً ، ثم يتزوجها بإيجاب وقبول ، على مشهد من الناس .

وهذا هو النكاح الذى صادف أصول النبى صلى الله عليه وسلم من أبويه الى آدم عليه السلام ، ويقول فيه : « خلقت من نكاح ، ولم أخلق من سفاح ومن لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ، لم يصبنى من سفاح الجاهلية شىء »

فما عدا ذلك من الأنكحة ، هو خارج عن الوضع الفطرى الصحيح فى علاقة الرجل بالمرأة ، ويعد زنا وسفاحاً فى نظر الإسلام .

● والنكاح المشروع يجب أن تتوفر فيه ..

• العلانية والإشهار : ويستحسن أن يدعى له كبار القوم ، ويستحب من أجل ذلك قبول الدعوة لحضور وليمة الزواج .

• استئذان ولى أمر المرأة ، لحمايتها من أخطار التغرير والاندفاع وراء رغبة جامحة ، ولتكريمها وإعزازها ، ولكى تتحقق صلات النسب والمصاهرة كهدف من أهداف الزواج .

• وإتمام القبول والإيجاب منهما عن رضا واختيار بينهمـــا لايكره أحدهما أو كلاهما ، ولا يقبل من أحدهما أو كليهما رأى لم يتوفر له ظـروف الحرية الشخصية العادية .

• وإصداق للمرأة صداقاً ، لتشعر بأنها مطلوبة من الرجل ، وليست طالبة له .. صونا لكرامتها وحيائها الطبيعى ، وهو أغلى ما تملكه الأنثى .

• استصحاب نية التأبيد لا التوقيت ، لكى لا يفسد عقد الزواج ولا تدخل فيه أى شبهة من شبهات زواج المتعة أو ما يقال عنه بالزواج المنقطع الذى حرمه الإسلام حرصاً منه على استقرار الأسرة وحفظاً لكرامة المرأة وطهارتها .

هذه هى الصورة الوحيدة : النظيفة القوية العفيفة ، التى يتم بها إحصان البيت والأسرة والأطفال ، لتقوم على أساس راسخ وطيد . وما عدا ذلك من أنكحة الجاهلية طرحه الإسلام وحرمه ، لمـا تنطوى عليه من امتهان المرأة وجعلها موضـع مساومة ، واستحقـاق بالصلة الزوجية وقصرها عـلى الاستمتاع الجنسى ، وإهمال لما يأتى عن هذه الصلة من أولاد ، والغض من قيمتهم ومستقبلهم .

وقد انتهى الإسلام إلى هذه الصورة فى العلاقة بين الرجـل والمـرأة التى أقرها وجعلها الزواج المشروع فقد كانت صلة الرجل بالمرأة فى الجاهليـة فى

جانب العلاقة الجنسية على صنوف شتى (١) :

• كان منها نكاح الاستبضاع ، وهو طلب المباضعة والجماع من رجل آخر . فكان يقول الرجل لامرأته عقب طهرها من الحيض : اذهبي لفلان « المشهور بالشجاعة أو الكرم مثلا ! — واستبضعي منه ، أي اطلبي منه الجماع ، كي تنجب ولداً على وضعه وشاكلته . وكان رجلها يتجنبها حتى يظهر حملها ، ثم له بعد ذلك أن يصيبها ماشاء

والمرأة في ذلك أشبه بأنثى الحيوان ، يتخذ لها صاحبها الفحل القوى الأصيل ، حتى يكون ولدها موضع فخر بقوته ونجابته

وهذا النوع من النكاح له نظيره فى الجاهلية المعاصرة فى المجتمعات الأوربية ، وان كان هذا النظير له طابع العصر وأسلوبه ، وهو طابع العلم وأسلوب الموافقة والرضا . هناك التلقيح الصناعي : وهو أن تحقن المرأة بموافقتها وموافقة زوجها بماء رجل آخر عرف بإنجاب الأولاد ..

• وكان هناك نكاح الرهط دون العشرة : وهو أن يدخل جمع دون العشرة على المرأة فيصيبونها فى يوم ، أو ليلة مثلا وتمتنع عن الوطء حتى يتم حملها وتضع . وبعد أيام من وضعها ترسل اليهم فيحضرون ، فتذكرهم بما مضى . وتلحق الولد بمن تشاء — وهو من تحب منهم — فيقبله ويثبت النسب بينهما .

• ونكاح الكثرة : وهو أن يدخل ناس كثير على إحدى البغايا اللاتى يضعن على أبوابهن علامات لمن أرادهن فيجامعونها ، فإذا حملت ووضعت

---

(١) انظر حديث عائشة رضى الله عنها ، الذى أخرجه البخارى فى كتاب النكاح .

حضروا عندها ودعوا « القافة » ، وهم ناس لهم خبرة بإلحـــاق الأولاد بآبائهم بناء على الشبه ، فألحقوا الولد بمن أشبه منهم فيثبت النسب بينهما .

● ونكاح البدل : وكان الرجل فى الجاهلية يقـول للرجـل « أنزل عن امرأتك وأنزل عن امرأتى . والمستهدف فى هذا النكاح إشباع شهوة وليس المحافظة على علاقة إنسانية لإقامة حياة إنسانية مشتركة ووراء هذا الأمر الاستخفاف وزن بالمرأة ، مع يسر التعامل بها كسلعة .

إن نكاح البدل الذى يعتبر بدوره ظاهرة أخرى من ظواهر ارتكاس الطبيعة البشريه وانحطاطها فى جاهلية العرب ؛ يعد الآن صورة من صور الجاهلية المعاصرة فى المجتمعات الغربية : يمارسه الزوجان فى غير حرج ، وفى غير اكتراث بمسئولية الولد القادم ، وفى غير اهتمام بنسبته إلى والده فى واقـع الأمر [1] .

● وكان منها نكاح الشغار . وهو نكاح المرأة بالمرأة ، لاصداق بينهما ، هو أن ينكح الرجل امرأة فى نظير أن ينكحه وليها امرأة أخرى تحت ولايته وعندئذ يكون بضع كل منهما مقابل بضع الأخرى وكأنه عقد سلعة بأخرى ترتبط منفعة أولاهما بثانيتهما .

● وأيضاً كان منها نكاح المتعة : وهو النكاح المؤقت بمدة معلومة ، أو مجهولة كقول الرجل لرجل آخر : أزوجك فلانة شهراً من اليوم . أو حتى يحضر فلان ، بصداق قدره كذا ، فيجيبه على هذا القول . فإذا انتهى الشهر أو جاء فلان وقعت الفرقة . ولا يصح تجديد العقد قبل انقضاء الأجل ،

---

(١) نشرت جريدة News of The World عدد ١٩٦٤/٥/١٠ وعدد مارس ١٩٦٦ موضوعات عن انتشار ظاهرة نوادى تبادل الزوجات فى بعض الولايات الأمريكية .

ولو أراده الزوج وهبها ما بقى من المدة واستأنف عقداً جديداً . ونكاح المتعة من اسمه ـ متمحض للاستمتاع وقضاء حاجة الرجل الوقتية ، وليس للبناء والاستقرار .. وصور هذا النكاح متعددة فى المجتمعات الأوربيـة والأمريكية .

• وشاع أيضا قبل الإسلام نكاح الخدان والصداقة ، وكان العـــرب يقولون: ما استتر فلا بأس به وما ظهر فلا لوم. وصور هذا النكاح فى الجاهلية المعاصرة فى مجتمعات الغرب ظاهر فى الزيادة الرهيبة للطفولة غير الشرعية وقضايا الطلاق وظاهرتها المتفاقمة فى المحاكم بسبب الخيانة الزوجية وانتشار الأمراض السرية بين المراهقين والمراهقات ، وتقريرات الجهـات المسئولة عن الصحة العامة والعلاقات الاجتماعية .

وإذا ظهر لنا أن هذه الأنكحة فى الجاهلية العربية قبل الإسـلام تعبر عن استخفاف بقيمة المرأة من جانب الرجل وعن ســـوء وضعها فى المجتمع إذ ذاك ، وهو مجتمع بدائى ، فإن صور علاقـة الرجـل بالمرأة فى مجتمعات الحضـارة الغربية المعـاصرة ليست أقل دلالة على امتهان القيم الإنسانية فى الإنسان رجلا وامرأة واستخفافاً بأوضاع الأسرة واستقرارها هناك ، مما كان عليه وضع جاهلية العرب قبل الإسلام .

الزواج : أسراره وأهدافه

الزواج وفطرة الـكون

يقول تعالى: «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلـكم تذكرون» ومعنى هذا أن

« الزوجية» ضرورة أصيلة من الضرورات التى طبع الله عليها كائنات هذا الوجود، ولسنا نقصد فى هذا المقام ما يسميه علماء النفس «الغريزة الجنسية أو غريزة الوالدية » بل نقصد سرا أعمق ، وأوثق صلة بنواميس الكون العام، فإن منطق الآية الكريمة يشمل كل شىء خلقه الله من نبات،وحيوان، وإنسان ، وغير ذلك مما لا نعلمه ، والقرآن الكريم يقول : « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون» . .

فنظام « الزواج » ليس دائرة ضيقة مقصورة على الإنسان والحيوان والنبات،بل هو سنة كونية دقيقة واسعة المدى ، اتخذت مكانها فى أفراد الكائنات ، وقسمت كل نوع قسمين .. وحلت فى أحد القسمين بسر يخالف السر الذى حلت به فى القسم الآخر ، على نحو ما حلت فى السالب والموجب فى عالم الكهرباء . . فالسر الذى يحمله السالب من سنة الله ، غير السر الذى يحمله الموجب . . ولا تعطى سنة الله ثمرتها إلا إذا التقى السران ، واجتمع حمل السالب بالموجب على النحو المعروف . . . فإذا لم يجتمع السران ، ولم يلتق السالب بالموجب ، ظلت السنة معطلة ، وظل الحنين الأزلى بنازع أفراد جنس السالب إلى أفراد جنس الموجب . وظل جنس الموجب فى مثل هذا الحنين يرنو إلى الالتئام بجنس السالب . .

الزواج للفرد والمجتمع

والإسلام هو الشريعة الوحيدة التى قررت أصالة «الزوجية» بين أفراد الكائنات.. وذلك التقرير العميق يدعونا إلى عمق النظر حين نفكر فى مكان « الزوجية » من ضرورات الفرد والمجتمع .

وحين ينظر المرء فى الأوضاع العضوية التى تحدد معالم التمييز بين جسم

الرجل وجسم المرأة ، ويفكر فى وظيفة الرحم لدى الأنثى ويفكر فى غير ذلك من المعالم المميزة — يحكم بصفة قاطعة أن الخالق لم يرد بشىء من هذه الفروق الأصيلة أن يقضى الزوجان أى لذة جنسية . بل أراد ضربا من « التكاثر » يستمر به بقاء النوع البشرى للحكمة التى أرادها من خلقه .. أما اللذة الجنسية فليست من مقصود الخالق فى هذه الفروق الواضحة بحال من الأحوال... ولكن تلك اللذة أريدت ليساق بها الإنسان سوقا إلى تحقيق مراد الله الذى هو استمرار النوع البشرى . .

ولا شك أن الإنسان — ولا سيما الأنثى — يعانى فى هذه المهمة من ألوان المشقة والألم ، والضعف والمرض . ما يصرفه عنها ، بل ينفره منها ، ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المكاره بقوله : «ووصينا الانسان بوالديه احسانا ، حملته أمه كرها ، ووضعته كرها ، وحمله وفصاله ثلاثون شهراً » والانسان أنانى بطبعه ، وأدنى ما توحيه إليه هذه الأنانية هو الفرار من الألم ، فإذا خلى ونفسه بإزاء مهمته فى حفظ النوع لما فكر فيها . .. وإذا مارسها مرة كانت التجربة كافية لأن تصرفه ، وتصرف غيره عنها فاقتضت حكمة الله أن يبث فيه من حوافز الرغبة ، ما يشب خياله ، ويلهب وجدانه ، ويثيره إلى إدراكها على النحو الحيوانى المعروف ليحصل ما أراده سبحانه من بقاء النوع .. ومن هذا قرر القرآن الكريم أن الغاية من المباشرة الجنسية ليست تحصيل الشهوة بل إنجاب النسل فى قوله تعالى : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » أى ابتغوا ما كتبه الله لكم من النسل على ما قرره علماء التفسير .. فبقاء النوع هو مقصد الخالق من خلق الذكر والأنثى ، فإذا قصر الإنسان قصده على مجرد إدراك اللذة ، فقد تخلف عن مقاصد الفترة ، وحاد عما رسم له ... والمرء بخير ماساير فطرته وانتظم فى نواميس وجوده . .

التكامل الاجتماعي :

والإنسان اجتماعي . . . أو مدني بالطبع كما يقولون : فيه من الحيوان أنانيته وفرديته . وفيه من المدنية ميله إلى التجمع والاستقرار والتعاون على التطور والرقي . . وطبيعة الحيوان فيه ، تعارض طبيعة الإنسان . . انانيته المنفردة ، تعارض طبيعة التجمع . . وذلك مما جعل حياته معقدة وتاريخه حافلا بالانتقاض على أوضاع الجماعة والشذوذ عن مقتضياتها . . . وكانت محاولة التوفيق بين هذين الطرفين المتعارضين ، من أهم أهداف المصلحين والمرسلين على مراحل التاريخ ، بغية تحقيق الانسجام بين الفرد والمجتمع . . ولا شك أن أنجح المحاولات التي حاولها البشر في ذلك هي المحاولة التي هدينا بها الى نظام الأسرة على النحو الذي عهدته - وما تزال تعهده - المجتمعات المتحضرة القديمة والحديثة ، اذ هدينا للوضع الطبيعي الذي تثمر فيه فطرتنا الأصيلة ماشاء الله من ثمار طيبة للفرد والمجتمع . . والقرآن الكريم يقرر ذلك على أنه آية من آيات الله تسكن في ظلها خصائص الانسان القلقة الحائرة ، حيث تصادف بها مهادها الفطري . . ويشير في عمق وحكمة الى فضل تلك السكينة في حضانة خصائص الانسان الاجتماعية والروحية ، حيث يندرج منها مايحتاج إليه المجتمع من تراحم ، ومودة ، وإيثار ، وذلك إذ يقول سبحانه : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

فمن مدلولات الزواج أن المرء قد رسم لنفسه « مجالا خاصا» لتحقيق رغباته الجنسية . يجب أن لايتخطاه الى مجالات الآخرين . . وهو بهذا يعالج أنانيته بنفسه ، ويعود نفسه التزام حدود معينة لايتعداها تقديرا

لحرمات سواه .. ولا شك أنه بهذا يخطو خطوات سديدة موفقة نحـــو صلاحيته الاجتماعية .

ومن مدلولات الزواج أيضا أن الزوجين اذ يجتمعان على إيحـاء عميق بالتلازم . والرغبة المتبادلة فى حب وفرح ، والتعاون المشترك الذى لا يلبث ـ على الظروف المختلفة وإنجاب الأولاد ـ أن يؤازره مزيد من الود والإيثار والتراحم .. من مدلولات الزواج أن الزوجين إذ يجتمعان على هذا الإيحاء العميق وتلك المشاعر الودودة ، قد انحلت عن كل منهما عقـدة من أنانيته فاتسع بها مجال عاطفته تبعا لذلك ، وتراجع نطاقها عن حدوده الضيقة إلى ماوراءها — حتى شمل آخرين سواه — هم أبناؤه فهـــو يعاطفهم ، وهم يعاطفونه على نحو لم يعرفه من قبل ، إذ كانت عاطفته دائرة مغلقــة عليه وحده .. وتلك خطوة كبيرة تعالج أنانيته ، وتدعم وجوده الأدبى فى ميدان الصلاحية الاجتماعية .

ومن مدلولات الأسرة أيضا ، أن الرجل حين يسعى فى أفقه الاقتصادى ويوزع حصيلة سعيه على هؤلاء الأبناء — أو على هؤلاء الآخرين — أنه صار يعمل لغيره ، بعد أن كان يعمل لنفسه فحسب ، وأنه صار يؤثر غـيره على نفسه بنصيب مما معه ، بعد أن كان يجعل كل شىء لنفسه فقط .

وذلك شأو بعيد فى تكوين الذات الاجتماعية .

فحقيقة الزواج أنه اقتران إنسان بإنسانه ، اقتران جسديهما وحقيقتيهما الإنسانية .

واقتران الجسدين ثماره الأولاد ، واستمرار بقاء النوع الانسانى .

واقتران الحقيقتين ثماره أن تربو بذور الخصائص الانسانية الكامنة فى

نفس كل منهما ، وتتفتح فى الجوانح بالسكينـة والألفة ومشاعر التـواد والرحمة والتواصل وهو المعنى الذى يدخل فى مدلول قوله تعالى: « لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

فإذا كان من مهمة الإنسان فى هذه الأرض أن ينجب البنين ، فمن أكرم مهماته أن يبدع فضائل التراحم والتواد ، والتعارف ، والايثار ، والمواساة والتعاون .. وبدون أن يثمر الإنسان هذا الثمر يكون طاقة معطلة لارسالة له .. وبدون هذه الفضائل لايكون المجتمع جديرا بأى حظ .. من قداسة أو احترام .

ولا يتأتى ذلك كله على النحو الذى يتوافق مع الفطرة ، ويحمده المجتمع إلا إذا تم الزواج على النمط الذى شرعه لنا الله سبحانه .

وجوب الزواج فى الاسلام

هذا مكان الزواج من فطرة الكائنات ، ومكانه من ضرورة الانسان والمجتمع ، على مايقرره القرآن الكريم ، ولذا نرى الاسلام يجعله أصلا من أصوله الاجتماعية ، وينوه بأنه سبيل الصفوة الذين يسنون للناس سبل السلام ، ومناهج الخير والصلاح فيقول الله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أربع من سنن المرسلين .. » ويذكر أحداهن الزواج ويجعله النبى صلى الله عليه وسلم نصف الدين فى قوله : « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين » ولكل هذا دعا إليه القرآن الكريم فى مثل قوله . « وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وأمائكم » وقد فسر الإمام القرطبى ذلك بقوله . « زوجوا من لا زوج له منكم فإنه طريق التعفف »

ويدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم الشباب الى الزواج بمثل قوله : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج .. ومن لم يستطع فعليه بالصيام فإنه له وجاء » . ومعناه : من أحس ثورة الميـل الغريزى فى نفسه وكان به قدرة على تكاليف الزواج ، ومايعقبه من نفقات المعيشة فليتزوج ، والا فعليه بالصوم فإنه يكسر حدة هذا الميل ، ويعين على العفة ..

وإزاء هذه النصوص ذهب إمام ابن حزم وجماعة من علماء المسلمين الى أن الزواج فرض لازم للمسلم القادر ، فمن تركه ، أو تثاقل عنه بدون عذر فهو آثم إثم من ترك فريضة من فرائض الإسلام . وذهب فريق كبير من الأئمة والعلماء إلى أنه واجب .

الزواج كما ينظر اليه رؤساء المسيحية :

وبينما يذهب أئمة الاسلام ــ على ضوء مالديهم من نصوص ــ الى وجوب الزواج ، بل يذهب الظاهرية وفيهم داود وابن حـــزم الى أنه لازم لزوم الفريضة ، نرى بولس الرسول يقول . « إنى أريد أن يكون جميع الناس كما انا (أى بدون زواج) . أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا » وذلك لأن غير المتزوج « يهتم فيما للرب كيف يرضى الرب وأما المتزوج فيهتم فيما للعالم كيف يرضى امرأته » .. وكذلك شأن المرأة المتزوجة وغير المتزوجة ، فالأولى تهتم بالعالم وتفكر فيما يرضى زوجها ، والأخرى تهتم بالشئون الإلهية وتفكر فيما يرضى الله »

ومع ذلك لا بأس بالزواج إذا لم يستطع المرء أن يعصم نفسه من الخطيئة ولكن روحه بالزواج ستكون فى ضيق « أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة ، لكن وإن تزوجت لم تخطىء ، وإن تزوجت العذراء لم تخطىء ، ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق فى الجسد ، وأما أنا فإنى أشفق عليهم » ..

فالزواج — أصلا — غير مرغوب فيه ، لأنه يشغل عن الله ـ كما بينه بولس الرسول ـ ولكن لا بأس من مقارفته إذا خيف الوقوع فى الخطيئة .. فكان الزواج هو الإجراء الذى يختار به المرء أخف الضررين ، عند المفاضلة بين شر يخالطه بعض الخير وبين شر محض لاخير فيه ..

الامتناع من الزواج

اثم من لم يتزوج وهو قادر :

يؤخذ مما تقدم من النصوص، أن الاسلام يعتبر الزواج بالنسبة إلى الفـرد ضرورة فطرية لسكن النفس .. وبالنسبة الى المجتمع مهادا يدرج منه الحب والتراحم والإيثار .. وبالنسبة للنوع البشرى سبيلا إلى حفظه بالتناسل .. وبالنسبة إلى هؤلاء جميعا سبيلا إلى العفة والشرف والكرامة الخاصة والعامة .. ولهذا كان الامتناع منه ، امتناعا من هذه المزايا جميعا ، وخروجا على السنن الطبيعية ، والاجتماعية التى سويت فطرة المرء على مقتضاها .. وكان للمتنع عنه ـ بدون عذر ـ إنسانا جهل نفسه ورسالته ، وضل مارسم له من سنن وأهداف كريمة .. ولذلك برىء رسول الله صلى الله عليه وسـلم من هذا النمط من الناس ، فقال : « من كان موسرا لأن يتزوج ثم لم يتزوج فليس منى » .

رغبات التبتل واثرها فى الامتناع من الزواج :

ولقد وقع فى ظنون كبير من المجتمعات القديمة أن الصـلات الجنسية لاترشح صاحبها للصفاء الروحى ، والتقرب إلى الله .. ولذا التزم رجـال الدين فى تلك المجتمعات بل ـ ألزموا ـ لونا من الرياضة الروحية يتخلون به عن الدنيا ، وينقطعون به الى الله تعالى ، ومن مناهج تلك الرياضة الامتناع من الزواج ، ليأمنوا تشوش الخاطر بلذات الجسد، ولتكمل لهم فى زعمهـم

دواعي الصفاء المنشود فجاء ، الاسلام وأبطل ذلك وحرمه ، وجعل سبيل الصفاء التطهر ، هو الزواج نفسه لا الامتناع منه ، وفي ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهرا ، فليتزوج الحرائر » .

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن المسيحية السمحة حين ظهرت لم يكن في تعاليمها أن يمتنع ذوو الوظائف الدينيه من الزواج، لكن كبارهم مالبثوا أن ابتدعوه لأنفسهم، فأدخلوا به على دينهم مالم يشرع لهم المسيح عليه السلام .. ولكنهم ظلوا على ذلك في غير عزيمة ملزمة ، من شاء منهم أخذ بهذه البدعة ،ومن شاء أعفى. نفسه منها حتى كان أوائل القرن الرابع الميلادي فأصدر مجمع « الفيرا » في أسبانيا قرارا يجعل الزواج محرما على كبار رجال الدين ..

وكثر الرهبان مع الأيام ، وآووا إلى الأديرة والصوامع في أطراف العمران وفي رءوس الجبال ، يطلبون الانقطاع إلى الله ، وتصفية النفس ، والتخلص من الشهوات بالبعد عن دواعيها ومثيراتها .. وظهر الاسلام وهم على ذلك فبرىء منه لمخالفته طبيعة الانسان وأسباب العمران ، وأعلن أنه ليس من الله ، ونزل فيه قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم .. » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لارهبانية في الاسلام» وجعل ذلك محظورا على كافة المسلمين ، لايجوز أن يفارقه أحد منهم لأنه نكول عن سنة الحياة الصحيحة ، وكان عليه السلام يقول : « رهبانية أمتي الهجرة — أي هجرة الأنانية والمعاصي سعيا لخير الجماعة — والجهاد للحق والصوم والصلاة، والحج ، والعمرة » .. وقد حدث على أيام النبي صلى الله عليه وسلم أن رهطا من المسلمين أرادوا أن يطلبوا مرضاة الله بشيء من

التبتل ، فقال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبدا لا أنام .. وقال غيره : وأنا أصوم الدهر كل يوم لا أفطر .. وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا .. فعلم النبي صلى الله عليه وسلم بأمرهم ، فجاءهم وقال: « أنتم الذين تقولون كذا ، وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر .. وأصلي وأرقد .. وأتزوج النساء .. وتلك سنتي ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

عبادة اللذة .. واثرها في الامتناع من الزواج :

وإذ عرضنا حال هذا الصنف الذي يمتنع عن الزواج تحصيلا للصفاء والتطهر ، نعرض حال صنف آخر مناقض له ، يمتنع عن الزواج لأن الزواج قيد يحجزه عن التخوض فيما يشاء من اللذة المتجددة .. فقد أقبلت عوامل التطور الحديث على كثير من المجتمعات الغربية بحريات واسعة في الفكر ، والقول ، والعقيدة ، والسلوك الخاص .. وأنشأت لهم أهدافا في المـــال ، والمنفعة، واللذة الحسية ، تعارض ما كان لهم من أهداف روحية ، ومقاييس لمعاني العرض والعفة .. وصار لكل منهم حريته الواسعة في حياته الخاصة يفعل فيها مايريد ، دون رقابة من قانون ، أو تحرج من عرف .. بل يفعل مايريد بتحريض من العرف ، وعطف من المجتمـع . وكان من ذلك أن تفجرت الشهوات وسادت عبادة الحس ، وراح جنون اللذة يستبد بألباب كثير من أفراد تلك المجتمعات ، فرأوا في الزواج قيدا يحد من حرياتهم في ابتغاء مايريدون ، فنبذوا حياة الأسرة ، وركنوا الى المخالة والمخاذنة ، كلما فترت رغبة أحدهم في خليلة ، أو فترت رغبتها هي فيـه انصرف كل منهما عن صاحبه الى حيث يجد اللذة في رغبة جديدة ، وشوق أشد ..

ولاشك أن ذلك يفضي إلى قلة النسل ، أي الى تناقص عـدد السكان ،

وضعف الأمة فى مقوماتها العددية ، ومقاماتها المعنوية . . . وكما ظهرت آثاره السيئـة منذ عشرات السنين فى المجتمعـــات الأوربية وأخذت فى الازدياد والنمو والاتسـاع الذى يهددهم هناك بالدمار ، وها نحن أولاء نرى كثيرا من علمـــاء الاجتماع يدقون نواقيس الخطر ، وينذرون أممهم ـ إذ تهمل حيـاة الأسرة ـ سوء المصير بانهيـار الأخلاق، وانحلال روابط المجتمع ، وانقراض النسل، ولقد وقف المارشال بيتان غداة احتلال الألمان فرنسا فى الحرب العالمية الأخيرة ، ينادى قومه إلى الفضيلة ويعزو الهزيمة إلى هجر حياه الأسرة ، فكان مما قاله: « زنوا خطاياكم فإنها ثقيلة فى الميزان إنكم نبذتم الفضيلة ، وكل المبادىء الروحية ، ولم تريدوا أطفالا ، فهجرتم حياة الأسرة ، وانطلقتم وراء الشهوات تطلبو نهـا فى كل مكان ، فانظروا إلى أى مصير قادتكم شهواتكم » ..

وقديما كانت عبادة اللذة تسرف ببعض الأفراد ـ رجل أو امرأة ـ فى الطلاق والزواج ، فيطلق هذه ليتزوج تلك . . . ثم لا يلبث أن يطلقها ليتزوج سواها . . . وهكذا . . . ما يدفعه إلى الطلاق والزواج الانشدان لذة جديدة فى فراش جديد . . . ، فكره الاسلام أن يكون هـذا من همة المرء وأهدافه فقال عليه السلام : « تزوجوا ولا تطلقوا ، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات »

وإذا كان الاسلام يكره للإنسان أن يتخذ الزواج ـ وهو أمر مشروع ـ وسيلة لتحصيل اللذات ، فهو أشـد كرها أن تتخذ الخلائل ، والأخدان ، ونحوهن لتحصيل هذه الأغراض الجسدية التى كان من ورائهـا ما أزعج المصلحين بأوربا على النحو الذى أوردناه، وإنك لتجد هذه الكراهة الشديدة

بل هذا التحريم فى مثل قوله تعالى: « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا »

من أجل هذا وصيانة لكرامة الجنس البشرى . بصيانة تراثه الروحى ومثله الانسانية العليا . وصيانة له من الارتداد إلى حياة البداءة الحيوانية بل صيانة له من الانقراض ، سد الاسلام الحنيف كل ذرائع الفساد أمام هؤلاء الذواقين والذواقات الذين عبدوا اللذة، واتخذوها هدفهم فى الحياة وقرر لكل من يشذ فى علاقاته الجنسيـة عن النمط المشروع عقوبة رادعة ، تذهب فى بعض الحالات إلى الإعدام على صورة زاجرة تحفظ للمجتمع وقاره وتقمع فى نفوس المستهترين كل نزوات الإفك والمجون ، ناظرا فى ذلك إلى تكافؤ العقوبة مع خطورة العواقب الجسيمة المرتقبة ، لا مع جنـاية الأفراد بعضهم على أعراض بعض فحسب .

العامل الاقتصادى ... وأثره فى الامتناع من الزواج :

وكان من أثر ماجاء به التطور الحديث ـ أيضا من حرية واسعة فى السلوك والعقيدة، وأهداف فى المال والمنفعة، واتجاه حسى محض يعول على الواقع المادى ، ولا يبـالى الإيمان بالغيب أو بما وراء الحس ... كان من أثر ذلك أن فقد أكثر النـــاس إيمانهم بالله ، وفقد المقلون منهم ، أو ذوو الدخل المحدود نفحات ذلك الإيمان التى تطلع على أربابها كل آن بأن الله هو الرزاق الوهاب وأنه يداول الأيام بين الناس يسرا وعسرا ، ورخاء وشدة .. وأنه يرزق المؤمن من حيث لا يحتسب ... أى حرموا ذلك الأفق الروحى الذى كان يطـلع عليهم منه الرجاء فى الله ، فيلقى على الفقر ألوانا من الأمل ... ويكسب العيش الخشن روحا من الليونة والرضا ... ويمد العزيمة بالفـأل الطيب الذى تستقبل به مع كل يوم رزقها الجديد ... حرموا ذلك كله فاذا

هو ظلمات كثيفة دامسة ، يتهددهم منها أشباح الفقر المخيفة . . . فهل مثل هذا يقدم على زواج أويفكر فيه ؟!

إن هذا مرض نفسـانى خطير . لا يثنى صـاحبه عن الزواج فحسب ، بل يفقده الكثير من معالم إنسانيته، وأسباب صلاحيته للحياة ، فإن عزمات الأمل والتفاؤل مظهر التجاوب مع الحياة وسبيل الاسهام فى بناء الحضارة الصالحة .

وأمراض النفوس جميعا ـ فى منطق الإيمـان ومنطق الواقع ـ إن هى إلا أوهام لا تقوم على أسـاس ، ولا تمت إلى أى حقيقة بصلة . . . فالمـال كما هو مشـاهد ـ غاد ورائح ، لا يستقر فى بيئة واحدة ، بل تطوف به الأيام على مختلف البيئات والأفراد ، وفق سنن مقررة ، ومواهب يهبها الله لتهيئة أسباب المغايرة والتداول . . . وفى ذلك يقول الله تعـالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

وذلك إذا كان هو منطق الإيمـان والواقع ، فهو كذلك المنطق الذى ينبعث منه الأمل ، ولا مجال معه لأوهام التشـاؤم والتطير . . ولذا نرى القرآن الكريم يعالج عقد التوجس فى نفوس أتباعه الفقراء ، ويحرر عزائمهم من هواجس الضعف والوهم ، فيردهم إلى وعد بالغنى من الله سبحانه إذا أقدم منهم على الزواج من لا زوج له ، وذلك قوله تعـالى : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » أى زوجوا من لا زوج له منكم ، ولا تكن ظروف الفقر داعية الى تأخيره فإن الرجاء فى الله ، موشك أن يأتى بالسعة والرخاء . .

وذلك الوعد الإلهى يتخذ فى نفوس المؤمنين مكانة السنة المنجزة لا محالة لا مكانة النصيحة التى تعلق بالأمـانى رجمـا بالغيب . . . ولذا كان أبو بكر

خليفة النبي ﷺ يقول : (أنجزوا ما أمركم به الله من الزواج ، ينجز لكم ما وعدكم من الغنى) وكان عمر بن الخطاب يقول من بعده : «عجبي ممن لا يطلب الغنى فى الزواج ، وقد قال تعالى : « إن يكونوا فقــراء يغنهم الله من فضله » .

ولسنا بحاجة إلى تكرار ما أسلفناه من مضار الامتنـاع من الزواج ، ولكن الإنسان لا يملك نفسه من الإعجاب والعجب بالأسلوب الفطرى الذى يعالج به الإسلام أزمات النفوس فيقى مجتمعه شتى أزمات العقد والانحرافات ويعطينا صورة جميلة للمجتمع المؤمن الذى يحيا فى طهر وعفة ، ويعيش فيه المرء على موعد مع الغنى . إلى صورة المجتمع الذى يحيا فى دنس وتحلل ، ويعيش فيه المرء على موعد مع الفقر. لنعقد موازنة(١) بين مجتمع الإيمان، ومجتمع الشيطان، ونذكر على وحى هذه الموازنة قول الله تعـالى: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم» .

الاختيار فى الزوجية:

أسس الاختيار

تعتبر مسألة الاختيار فى الزوجية مشكلة من المشاكل المعقدة التى تواجه الشباب المسلم فى وقتنا الحاضر ، بسبب ما أصاب المجتمعات الإسلامية من انحراف ، وماطرأ على الحياة الإسلامية من عوامل نفسية وثقافية واجتماعية تتحكم فى رغبات الشباب واتجاهـاته وميوله فى عمليـة الاختيـار الزواج ابتعدت به عن هدى الإسلام فى هذه المسألة .

(١) انظر هذه الموازنة فى الصفحات ٣٣٢ ـ ٣٣٦ من هذا الكتاب.

هذا إلى جانب مايعترض الشباب من صعوبات فى طريقة الاختيار وفهم كل من الطرفين الآخر ، ومعرفة الصفات والمعايير العامة والخاصة التى تختلف من فرد إلى فرد ومن أسرة إلى أسرة .

ولما كان مستقبل الحياة الزوجية يتحدد من نقطة البدء ، ويتوقف نجاح الزواج أو فشله على الأسلوب الذى اتبع فى اختيار كل من الشريكين الآخر فهذه بعض المعايير من حصيلة العلم النافع والتجارب المفيدة لمن يريد قيام بيت الزوجية على أسس سليمة .

١ - ضرورة رؤية كل من الطرفين للاخر :

إذا كان حسن الاختيار فى الزوجية هو أول الأسس فى بناء البيت واستقرار الأسرة ، فإن رؤية كل من الطرفين المقبلين على الزواج هو الخطوة الأولى وبداية الطريق الصحيح فى جميع الاتفاقات على صورة الحياة الزوجية فى مقبل أيامها . فكيف يستطيع كل من الطرفين أن يفهم صاحبه بدون هذه الرؤية ؟ وكيف يوجد التوافق الروحى والميل القلبى بينهما إن لم يتمكن كل من الطرفين من مشاهدة شريك المستقبل ؟

لهذا أجاز الإسلام التحدث والنظر إلى ما هو ضرورى أن ينظر إليه قبل الخطبة حتى لا يفاجأ أحد الخاطبين أو كلاهما بصفة فى صاحبه ماكان ينتظرها منه أو لا يحب أن تكون فيه ، فيحدث النفور الذى ينتهى بالتفريق . كما حدث لامرأة ثابت بن قيس ، فلم تكن قد رأته قبل ليلة الزفاف وتحدثت عن سبب نفورها منه وإرادتها الافتراق عنه ، فقالت للرسول ﷺ : « رفعت جانب الخباء فى ليلة الزفاف ، فأقبل فى عدة من الرجال ، فإذا هو أشدهم سوادا ، وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها ، وبى من الجمال ما ترى ، ولست أعتب عليه يارسول الله فى خلق ودين ، ولكنى أكره الكفر فى

الإسلام ، تعني إذا لم يطلقها تخاف من الارتداد عن الإسلام حتى يفرق بينهما . فقال الرسول ﷺ لثابت : اقبل الحديقة وطلقها تطليقه .. وكان صداقها الحديقة .

فما كان سبب افتراقهما إلا عدم الرؤية ، فلو أنها قد رأته قبل ذلك لما كانت قبلت الزواج منه ، ولما حدث ما حدث ، أو كانت قبلته على ماهو عليه فلم يكن لها عذر فى طلب الافتراق .

لذا ، فعلى من يريد الزواج ويقصد من ورائه تكوين بيت إسلامى مستقر أن ينظر ويدرس فلا يغفلا سبباً من الأسباب التى يمكن أن تؤدى فى المستقبل إلى نزاع أو خلاف يهدد البيت ويزلزل كيانه ، وهذا كله ليكون بناء الأسرة على أساس متين يبقى مدى الحياة قوياً مليئاً بالسعادة والهناءة .

٢ ـ الاتفاق فى المبادىء :

ويشمل الاتفاق فى العقيدة والقيم والاتجاهات والميول والأفكار الأساسية والنظرة الى الحياة بوجه عام .

فإذا لم يكن هناك توافق فى هذة الجوانب فستصير الحياة الزوجية إلى تنافر وشقاق أو إلى نفاق يعود بعواقب وخيمة على الذرية والجيل الجديد .. فإذا افترضنا جدلا أن فتاة مؤمنة من الطلائع الجديدة تزوجت شابا عصريا. فإن مراسيم الزواج التى أجريت تكون فى نظر الأخت المسلمة ذات معنى عميق ، فهى تشعر أن ثمة ارتباط يباركه الله ، فتواجه ذلك الشعور بخشوع وإيمان . أما بالنسبة إلى الشباب ، فإن كل ذلك لا يتعدى فى نظره حدود إجراءات قانونية لعقد مدنى لا تحمل فى ثناياها أكثر من نظرته إلى إجراءات التعاقد على إنشاء شركة تحقق منفعة ، فهو لا يشعر بأدنى خشوع

أو انطباعات أخرى سوى أنه قام بإجراءات قانونية يتبعها غيره من الناس . .
وإذا استمرت الحياة الزوجية ورزق الزوجان أولاداً ، فإن الزوجة لا تعتبر وجودهم مجرد نتيجة لغريزتها البشرية ، بل إنها تبدا حينئذ فى محاولة صياغة فرد مسلم جديد ، تأمل أن يقوم فيما بعد بدور فى مطالب الأمة المسلمة وحاجتها إلى قيام مجتمع مسلم ينهض برسالتها كخير أمة أخرجت للناس أما الزوج فإن إحساسه بوجود أولئك الأولاد لا يتعدى الإحساس الذى يساور كل إنسان عادى فى حبه للحصول على نسل يرى فيه صورته ويرث ثمار أتعابه فى الحياة . . وإذا ما كبر أولئك الأولاد وأصبحوا يحتلون مراكز فى المجتمع أو الدولة ، فإن تلك المراكز فى نظر الزوجة ليست مجرد مطامع ، بل إنها واجبات ووظائف تحقق أهدافاً أسمى وأرفع ، هى واجبات الإنسان المسلم المستخلف من قبل الله بمنهج الله الذى يصلح ما أفسده المفسدون ، أما الزوج فإذا لم نقل إنه يعتبر تلك المراكز أهدافاً فى ذاتها تنتهى عندها كل آماله ، فلا أقل من أن يعتبرها متعة لا بد من العمل على بقائها والمحافظة عليها .

ومما لا شك فيه أن الاتفاق فى جميع الجزئيات والأذواق والإحساسات من الأمور المستحيلة ، إذ لا يوجد شخصان من صورة واحدة ، فلا يتفق التوأمان من خلية واحدة فى كل الأمور ، فكيف يتفق جنسان من خلايا خلايا مختلفة وعاشا فى بيئات وأجواء عائلية مختلفة . إنما المطلوب هو الاتفاق على المبادىء التى يقوم على أساسها البيت المسلم وتتوجه الحياة فيه على ضوئها وجهة إسلامية هدفها مرضاة الله وتحقيق أهداف الإنسان المسلم فى الحياة وأهداف التربية الإسلامية فى تنشئة جيل مسلم يعيد للأمة المسلمة مجدها وعزها .. إنه لابد من الاتفاق على هذه المبادىء ، لأنها تؤثر فى حياة البيت

المسلم والاختلاف فيها يؤدى يوماً إلى التفرقة ، وإن لم يؤدى إلى التفرقة فلا يكون هناك توافق وانسجام على الأقل .

وإذا لم يكن هناك توافق وتكيف وانسجام روحى ونفسى فى الحياة فلا يكون ثمة معنى للحياة بوجه عام ، وللحياة الزوجية بوجه خاص .

٣ ـ التوافق الروحى :

هناك قاعدة ندركها من معاشرتنا وعلاقاتنا بالناس، وهى أننا لا نجالس ولا نصاحب ولا نخالط من الناس إلا من نستريح إليهم روحياً ولا نختار الإخوان والأصدقاء إلا منهم . .

هذه القاعدة تنسحب على قاعدة الاختيار فى الزوجية . فالخاطب عندما يرى فتاة لأول مرة : إما أن تهفو إليها روحه وتجد مكاناً فى قلبه أو لا يحس نحوها ميلا قلبياً وامتزاجاً روحياً ،وذلك قبل أن يختبرها . وذلك مصداق قول الرسول ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

فالأرواح الطيبة تتوافق مع الأرواح الطيبة . والأرواح الخبيثة تنسجم مع الأرواح الخبيثة ، وقد قيل إن الطيور على أشكالها تقع ، وصدق الله العظيم « الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات. والطيبات للطيبين، والطيبون للطيبات » . فذلك عدل الله فى اختياره الذى ركبه فى الفطرة ، وحققه فى واقع الناس . وهو أن تلتئم النفس الخبيثة بالنفس الخبيثة ، وأن تمتزج النفس الطيبة بالنفس الطيبة . وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج ، ولقد أحبت نفس رسول الله ﷺ عائشة حباً عظيماً ، فما كان يمكن أن يحببها الله لنبيه إن لم تكن الصديقة بنت الصديق طيبة النفس زكية الروح .

فإذا تم الزواج ، فإنه لا يمكن أن ترفرف عليه روح البهجة والسرور والسعادة مالم يسبقه هذا اللقاء الروحي .

٤ ـ الاتفاق على نوع الحياة :

إذا كان الاتفاق فى المبادىء يشمل الاتفاق فى الجوانب العقلية والروحية والنفسية من الحياة ، فإن الاتفاق على نوع الحياة يشمل الاتفاق على الجوانب المادية أو الحسية من الحياة أو مظاهر الحياة بوجه عام ، فالاتفاق والاختلاف هنا يؤدى إلى ما يؤدى إليه الاتفاق والاختلاف هناك .

وتظهر الحاجة إلى هذا الاتفاق إذا كان هناك تفاوت فى مستوى المعيشة بين أسرتى الفتى والفتاة . فلو كانت الفتاة من أسرة غنية ، والفتى من أسرة رقيقة الحال ، فإن انتقال الفتاة من حياة الرغد والنعمة الواسعة إلى حياة الشظف والعيش الخشن يكون صعباً وربما لاتتحمله ، فإن تحملت هذه الحياة أياما فلا تستطيع تحملها سنين طويلة . أما إذا وافقت مبدئيا على أن تعيش مع زوجها فى السراء والضراء . ففى هذه الحالة تهيىء نفسها للتكيف معه حتى فى أسوأ الظروف ، وهذا التهيؤ والاستعداد يبعثان فيها قوة التحمل وروح المواجهة لمصاعب الحياة وجهادها . هذا وإذا حدث أنها تململت أو تبرمت فى يوم من هذه الحياة لا يكون من حقها الاعتراض على ما تجد من النفقة القليلة ، لأنها وافقت على هذا وأبدت استعدادها وقبولها من البداية .

٥ ـ معرفة كل من الطرفين الاخر معرفة جيدة:

إن معرفة كل طرف للاخر معرفة وثيقة يتوقف عليها ـ إلى حد ما ـ معرفة صورة الحياة الزوجية ومصيرها . كما تفيد هذه المعرفة فى إيجاد

استعداد لتحمل وتقبل مايقع من تصرفات من أحد الطرفين لا يرضى عنها الطرف الآخر ما دام قد عرفها وقبلها . .

ومن هنا لا يصح أن يخفى أحد الطرفين شيئا من طبيعته ومزاجه ،وما لديه من ميول ورغبات لأن الذى يخفى ما عنده ، إنما يخادع نفسه ، ففضلا عن أنه لا جدوى من إخفاء صفة ، فبعد الزواج والمعاشرة ينكشف المستور من الصفات ، فقد نجد أن ما انكشف من حقيقة بعض الصفات ليست فى طاقة التحمل للطرف الآخر ، ولا من طباعه الصبر عليها ، فيتسبب بذلك فى النفور والشقاق والاختلاف الذى قد يؤدى إلى التفرقة .

إنه قد تستقيم الحياة الزوجية مع وجود بعض الصفات التى تقع فى حدود القدرة على التحمل والصبر، الا أن هناك صفات أساسية وقيم عامة فرضها الإسلام علينا ، لا يمكن أن تستقيم الحياة لافى البيت ولا فى المجتمع بدونها مثل الصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة واحترام الحقوق والمشاعر الانسانية فكيف يعيش الانسان مع الكذاب المخادع الذى لا يرعى عهدا ولا ذمة ولا يعمل حسابا لمشاعر الآخرين ؟!

إذن فمن مفاتيح كشف حقيقة الآخر: المفتاح الخلقى، فإذا عرفنا معاملة الشخص الآخر ومدى ما يتصف به من أخلاق حميدة أو ذميمة استطعنا أن نتوقع ما تكون عليه أخلاقه معنا فى المستقبل ، فإذا عرفت أنه يكذب فى أحد مجالات حياته فلا نقترب منه ؛ لأن الذى يكذب هناك يكذب هنا أيضا، والذى يخدع الناس يخدعك أيضا والذى يسيء الى الناس يسيء إليك يوماً ما ، فمهما ربطت بينكما الروابط ، فسيء الأخلاق هنا سيء الأخلاق فى كل مكان وزمان فصاحب الخلق السيء كنافخ الكير تفوح منه رائحته الكريهة أينما ذهب وحيثما حل ، وصاحب الخلق الطيب كحامل المسك يفوح

عطره أينما كان ، ولهـذا قال الرسول ﷺ ، عندما دعى إلى مصاحبة الصالحين : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء : كحامل المسك ونافخ الكير . فحامل المسك : إما أن يحزيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ؛ ونافخ الكير : إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجـد منه ريحاً خبيثة »

٦ - الانتفاع بقانون الوراثة .

أرشد الرسول الكريم المقبلين على الزواج بالدقة فى الاختيار والتعرف على صفات الشخص والأسرة التى يريدون الزواج منها ، فقال ﷺ : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » . حتى إذا ماتبين لهم خلو الأسرة من أى ضعف وراثى جسمياً كان أو عقلياً أقدموا على الزواج وجنبوا أنفسهم وذريتهم عقابيل الصفات والأمراض الوراثية ، فالوقاية خير من العلاج .

إذ من المعلوم أن الأبناء يرثون صفات آبائهم الجسمية والعقلية ، فزواج الأشخاص الأصحاء الأذكياء يؤدى بإذن الله فى الغالب إلى إنجاب أطفال أصحاء أذكياء ، كما أن تزاوج الضعفاء والأغبياء يؤدى فى الغالب إلى أطفال ضعفاء وأغبياء .

هذا ، فضلا عن أن قوة البنية والذكاء يضفيان على الحياة الزوجية الحيوية والنشاط : فقوة البنية يؤهل إلى تحمل أعباء الحياة والقيام بتكاليف الأسرة والزواج ، والذكاء هو سلاح الشخصية الذى يساعد على النجاح ، ويجنب الزوجين كثيراً من المتاعب التى ترجع أصلها إلى عدم نضج عقلية الزوج أو الزوجة بالدرجة الكافية التى تساعد على حل المشاكل قبل تفاقمها .. والنضج العقلى الذى نعنيه ليس بالضرورة نتيجة تعليم أو حصيلة شهادات، إنما هو استعداد فطرى مع خبرات وتجارب مكتسبة .

وأخيراً ينبغي أن نلاحظ أنه قلما يجد الإنسان الذى يتحلى بجميع الصفات التى يرغب فيها ، لأن الإنسان المثالى لايوجد إلا فى الأنبياء والمرسلين ، والكمال المطلق صفة الخالق لا صفة المخلوق :

والذى ينبغى أن نبحث عنه هو الشخص الذى يتمتع بالاستعداد للتكامل وتغيير الصفات غير المرغوبة والعادات غير الصحيحة ، فالاستعداد للتكامل والتفاهم يؤدى إلى التكامل والتفاهم .

وينبغى أن يبحث كل من الشريكين عن الطريقة التى يستطيع بها أن يعامل شريكه كما يحب أن يعامله ، وهذا يقتضى التضحية ببعض المطالب الشخصية ، وهذا ما لابد منه فى الحياة الزوجية لكى ترفرف عليها روح السعادة .

وينبغى على كل من الطرفين أن يحاول أن ينال رضى صاحبه وإدخال السرور فى نفسه وأن ينسى تضحياته ولايمتن بها عليه . إذ أن كلا منهما عندما يرى الآخر متجرداً من أهواء نفسه ومطالب ذاته مضحياً من أجله يزيد حبه له ، وكلما زاد حب كل منهما للآخر زادت بهجة حياتهما ، فأساس السعادة هو المحبة ، وأساس المحبة هو الشعور بالرضى والتقبل للهفوات وأن يهنأ بالعطاء كما يهنأ بالأخذ ، فالمحبة تسهل الصعب ، والعمل النابع من القلب لايترك أثراً للتعب فى النفس .

هذا ، ولقد بين الاسلام صفات الزوجة الصالحة التى ينبغى أن تختار لبناء البيت الاسلامى .

- **كيف تختار الزوجة؟**

إذا عرف المرء أن الزواج سنة أزلية ، وأنه هو نفسه فطر على مابوائم

هذه السنن ، فقد وقف على رأس أمره ، وهدى إلى مايصلحه ، ويسعد عاقبته ... وقد سن الزواج للنسل ، والسكن النفسى ، والالتقاء على مايثمر المودة والرحمة ومشاعر الخير والتواصل ... ومن البديهى أن أفضل الزوجات هى مايتوفر لها من خصائص النفس ومزايا الروح مايجعلها أقرب من غيرها إلى تحقيق مقاصد الزواج الحسية والمعنوية على خير وجه ..

وإذا يجب أن تنصرف جهود الانسان العاقل إلى طلب الصفات الكريمة والمعانى الجميلة والخلق الطيب الذى يمثل الانسانية الراقية .

• الزوجة والغنى .

ولكن من الناس من جهل قدر الحياة ، وحسبها مالا يقتنى ، وترفا يوفر لحواس البدن ماتشتهى فراح ينشد الغنى شرطا أساسيا فيمن يخطبها .

وذلك انحراف عن طبيعة الأشياء ، واتجاه بالزواج إلى غير ماشرع له ... ولذا يقول ﷺ : « لاتزوجوا النساء لأموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن » .

• الزوجة والجاه .

ومنهم من فتنه الجاه ، يجبر به نقصا أو يرفع خسيسة ، فراح يتحراه شرطا فيمن يتزوجها ... وهو - كما ترى - وثنية تفسد النية ، وتعالج العلة ، بجرثومة الداء ، فلايزيده الجاه المستعار إلا مقتا وذلة وفيه يقول ﷺ : « من تزوج امرأة لحسبها لم يزده الله إلا دناءة »

الزوجة والجمال .

ومنهم من كانت همته لذة الحيوان ، فأصر أن يكون جمال الحس

شرطا فيمن يتزوجها ... وذلك إهدار لمعنى الجمال الحق، فالمرأة إنسان ، وأجمل ما فى الإنسان إنسانيته ، أى دينه ، وخلقه وصفاته المحببة ، فإذا أوتيت حظها من ذلك فقد أوتيت الجمال الحق ولذا يقول ﷺ لمن جاء يسأله عمن يتزوج : « اظفر بذات الدين تربت يداك » ... ولقد جاءه رجل فقال : إنى أصبت امرأة ذات حسب وجمال ، وإنها لا تلد ، أفأتزوجها ؟ فقال عليه السلام : لا ... ثم أتاه الرجل ثانية ، فنهاه .. ثم جاءه الثالثة ، فقال عليه السلام : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم » .. والودود هنا على ماقرره علماء المسلمين ، هى المودودة المحبوبة لما هى عليه من حسن الخلق ولطف التودد إلى الزوج .

وعلى هذا :

ـ فإذا لم يكن إلا الجمال من غير خلق .. فلا ،

ـ وإذا لم يكن إلا المال من غير خلق .. فلا ،

ـ وإذا لم يكن إلا الدين والخلق .. فنعم ،

ـ وإذا كان مع الدين والخلق مال أو جاه أو جمال فبالأولى ، ولكن مع ذلك يستهدف الخلق والدين أولا ، قبل المال والجاه والحسب .

• اختيار الزوج .

ومادام الزواج هو اقتران صفات بصفات ، فأساس قبول من جاء يخطب المرأة أو رفضه يجب أن يكون هو الأخلاق والدين .

ومن التعقيد بل من الوثنية التى تأباها السنن ، ولا تستقر عليها الأوضاع ، أن ندع تقدير الدين والخلق إلى ماعداهما من أعراض الغنى ، والجاه ، والمنصب ، والجنس ، واللون ونحوه ... فهو إنسان وكفى ... وحظه من الإنسانية هو الذى يحدد كفايته لمن جاء يخطبها .. ولقد وضع

الاسلام الحكيم أساس هذه المفاضلة الانسانية بقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ٠٠ وعلى هذا فمن كان ذا خلق جميل ، وثقافة إسلامية، ودين عميق ، وشخصية محمودة ، فهو كفء لأفضل امرأة من أى طبقة ، ومن أى جنس ، ومن أى لون ٠٠٠ وفى مستوى هذا الأفق الرفيع يقول رسول الله ﷺ : « إذا جاءكم من ترضون دينه ، وخلقه ، فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » .

هذا ، ولما كانت مسألة زواج البنت مسألة تتعلق بمصيرها ومستقبلها كله ، فعلى الآباء أن يلتزموا جانب الأناة والحذر والحيطة ليبعدوا بناتهم عن الشرور والمشاكل التى تنتج عن سوء الاختيار ولهذا نبه الرسول ﷺ الآباء إلى حسن الاختيار لبناتهم فقال : « النكاح رق ، فلينظر أحدكم أين يضع كريمته ؟ »

* * *

الخلاصة : إن الآباء وأولياء الأمور مسئولون عن تزويج أبنائهم، فأب الفتاة ينبغى أن يختار لابنته زوجاً صالحاً أو أن يساعدها فى هذا الاختيار ، ثم عليه أن يبذل من المال اللازم إن اقتضى الأمر وكان قادراً على تزويج بنته ممن يرى فيه الصلاح .

وإذا كان الأبناء مسئولين عن تصرفاتهم بعد البلوغ بمقدار إدراكهم وإحاطتهم للأمور الحاضرة والمستقبلة ، فإن مسئولية الآباء عن تصرفات أبنائهم الخاطئة أكبر ، لأن خطأهم ناتج عن عدم إرشادهم ومساعدتهم لرؤية الحقائق ولأن جماح الشباب والحب الأعمى قد يجعلان الإنسان أعمى عن رؤية الحقائق والأخطار المحدقة به .

٥ الخطبة :

ولكن الإسلام مع هذا شرع الخطبة قبل الزواج ليتعرف كل من الخاطبين مدى ما الآخر من ملامح النفس أو ملامح البدن الظاهره ، حتى إذا أقدم على إتمام الزواج، أقدم وقد وقع صاحبه من نفسه موقعا يرضياه . وإلا انصرف عنه وقد كفى كل منهما عاقبة زواج غير مأمون.

وقد روى البخارى ومسلم وغيرهما أن المغيرة بن شعبة خطب امرأة ، فقال له النبي ﷺ : « انظر إليها ، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أي فإنه أحرى أن تحصل بينكما الموافقة والملاءمة . .

ولم يحدد رسول الله ﷺ للمغيرة بن شعبة القدر الذى يراه من مخطوبته ، إذ المعروف أن الإسلام لا يجيز الرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية إلى غير الوجه والكفين ، أما ما عداهما فلم يجزه إذ لا تتعلق به ضرورة من ضرورات الآداب أو المعيشة ، فضلا عما فيه من الإثارة ودواعى الفضول والفساد مما لا يرضاه الإسلام لمروءات أهله ، ولكن الإسلام استثنى من ذلك ظرف الخطبة ، قال عليه الصلاة والسلام : « إذا خطب أحدكم المرأة فقدر أن ينظر منها بعض ما يدعوه إلى زواجها فليفعل » .

فللخاطب أن يرى مخطوبته فى الملابس التى تظهر بها لأبيها وأخيها ومحارمها بلا حرج . . . بل له — فى نطاق الحديث الشريف — أن يصحبها مع أبيها أو أحد محارمها — وهى بزيها الشرعى — إلى ما اعتادت أن تذهب إليه من الزيارات أو الأماكن المباحة . لينظر عقلها وذوقها وملامح شخصيتها ، فإنه داخل فى مفهوم « البعضية » التى تضمنها قوله عليه السلام : « فقدر أن ينظر منها بعض ما يدعوه إلى زواجها » وهى

بعضية إذا أباحت للخاطب أن يرى نحو الذراعين والرأس فأولى أن تبيح له معرفة الخلق والفضيلة ، ومدى لباقتها فى بعض أنواع التصرف فإن ذلك أحرى - كما يقول الرسول عليه السلام - أن يؤدم بينهما .

وذلك طرف من سماحة شرع الإسلام فى الخطبة ويسره واعتداله بين الأطراف المتناقضة ، ولكن ما يدعو إلى الأسف ، أن من المسلمين من تزمت فرفض سنة رسول الله ﷺ فلم يبح للخاطب حتى مجرد الرؤية .. ومنهم من قلد الغربيين فأباح بيته وعرضه ، فيخلو الخاطب بخطيبته ، أو يخرج معها دون محرم بلا قيد ولا شرط ، ويكون من عواقب ذلك مايكون ، فقد يرخص العرض ، وتبتذل العفة ، ويسقط عن الفتاة بهاء الكرامة ، وقد تبوء من أمرها بعاقبة مذلة ، وحزن مقيم .

والخير فيما اختار لنا الاسلام ... وعلى العاقل الحكيم أن يستقبل كل أمره فى ذلك على بصيرة ، وحذر ، وأناة ، فلا يمكن خاطبا من حقه إلا بعد أن يدرسه ، ويطمئن إلى دينه ، وخلقه ، وعقله ، ويستبين جده فى الأمر ، وصدق رغبته فيما يريد ... والله الموفق .

• حق المرأة فى اختيار زوجها .

إذا انتهت الخطبة بإتمام عقد الزواج برضا الطرفين فبها ونعمت ... وإلا فللمرأة - ثيبا أو بكرا - كمال الحرية فى رفض من لاتريده ... ولا حق لأبيها أو وليها أن يجبرها على مالا تريده ، قال رسول الله ﷺ : « لاتزوج الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن .. » والأيم هى الثيب التى طلقها زوجها أو مات عنها ... والاستئمار هو طلب الأمر ، فلا يعقد عليها حتى تشاور ويطلب الأمر منها ... وعن عائشة رضى الله

تعالى عنها عن النبي ﷺ قال : « البكر تستأذن ، قلت إن البكر تستأذن وتستحى ، قال : إذنها صماتها » أى إذا سكتت ولم تعارض فذلك هو الأذن منها فإذا زوجت الثيب دون أن تستأمر فالعقد باطل وإذا زوجت البكر دون أن تستأذن فهى بالخيار : إن شاءت أمضت العقد ، وإن شاءت أبطلته .

ومما جاء فى الثيب أن خنساء بنت خدام زوجها أبوها وهى ثيب فكرهت ذلك ، فأتت رسول الله ﷺ فرد زواجها

ومما جاء فى البكر أن فتاة بكرا ذكرت لرسول الله ﷺ أن أباها زوجها وهى كارهة ، فخيرها عليه السلام ... أى جعل لها الخيار فى إبطال العقد أو إمضائه ..

وجاءت فتاة إليه ﷺ فقالت : « إن أبى زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسته .. فجعل الأمر إليها ، أى أخبرها أن أمرها بيدها إن شاءت أقرت ماصنع أبوها ، وإن شاءت أبطلته ، فقالت « قد أجزت ماصنع أبى ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شىء » .

وذلك ـ فى بابه ـ أول وأسمى مانالت المرأة من الحرية والكرامة والاعتراف بشخصيتها وحقها فى قبول أو رفض أى خاطب يتقدم لخطبتها، فى الوقت الذى كانت تباع فيه كالسلعة ، وتورث كالمتاع ، وتلعن فى المعابد على أنها أحبولة الشيطان ، ولا يرعى لشخصيتها أى اعتبار .

المهـــــــــر

ومن الحقوق التى أوجبها الاسلام للمرأة ، أن يدفع لها زوجها مهرا ، قدرا من المال ، وذلك فى قوله تعالى : وآتوا النساء صدقاتهن نحلة »

والصدقات جمع صدقة ، وهى المهر ... والنحلة كلمة فيها معنى العطاء المفروض ، قال الإمام القرطبى : « فالصداق عطية من الله تعالى للمرأة »

وقد كانت مهور النساء فى الجاهلية تصير إلى أوليائهن ، دون أن يكون لهن فيها شىء ، فلما جاء الاسلام جعل هـذا المهر حقا خالصا لها ، إذ هو فريضة الله تعالى لها لا لوليها ، وهو سبحانه يقول : وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فأضاف الصدقات إلى ضمير النساء لا إلى ضمير الأولياء ... وعلى هذا ، فليس لأبيها أو وليها أن يأخذه منها كله أو بعضه على نحو ما كان فى الجاهلية ، وكذلك ليس لزوجها أن يأخذ منه شيئا قل أو كثر ، بل هو ملك خالص لها من دون الناس جميعا تتصرف فيه بمحض مشيئتها بما ترى أنه الخير لها ... ولا يلزمها أن تتجهز إلى زوجها بشىء منه إطلاقا إلا أن تفعل ذلك بطيبة من نفسها .

وفى هذا المهر ـ علاوة على أنه حق ـ معنى التكرمة للمرأة ، إذ لم يرض لها الإسلام أن تتحول إلى بيت زوجها إلا بعد أن يبذل من الألطاف ما تقر به عينها ، ويعبر به هو عن مبلغ حرصه عليها ، ورغبته فيها .

ومما يحسن الإشارة إليه فى هذا المقام أن المرأة الغربية لم تظفر بمثل ذلك إلى اليوم ، فإن العرف مازال يجرى عندهم على ما كان عليه قديما أيام الرومان واليونان القدامى ، إذ يوجب العرف على والد الفتاة أن يعد لها مهرا « دوطة » ، يقدم لمن يتزوجها ، فتصير تلك الدوطة حقا خالصا

للزوج ، ولاحق لهـــا هي فيه ، أو تـكون فى بعض النظم أمرا مشتركا بينهما .

هذا وقد دعا الاسلام إلى عدم المغالاة فى المهر بمـا يشق على الزوج تحمله ، ورغب فى اليسر الذى تخف به المؤونة، وترتاح إليه النفوس ، وفى هذا يقول رسول الله ﷺ : « إن أعظم الزواج بركة ، أيسره مؤونة » وقال عليه السلام : « خير الصداق أيسره » .

ويسر الصداق أمر اعتبارى يختلف باختلاف ماقسم للمرء من رزق ، فقد يـكون مبلغ ما سهلا على شخص ، وشاقا على آخر ، باعتبار درجة كل منهما فى الرزق ... وقد تزوج النبى ﷺ زوجته أم حبيبة وهى بأرض الحبشة ، فأراد النجاشى أن يقدم مكرمة ، فدفع المهر لها عن النبى ﷺ ، أربعة آلاف درهم ، أو مائتى دينار ، ولم ير النبى عليه السلام أن ذلك كثـــير ، لأنه بالنسبة للملوك يسير ، ولـكنه عليه السلام حينما جاءه شاب فقير يقول له « إنى تزوجت على مائة وستين درهما استكثرها ، وقال له : « كأنـكم تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل » .

الفصل الثانى

العلاقات الأسرية فى ضوء القرآن الكريم

قداسة الروابط بين أفراد البيت

إن السمة الأولى المميزة لطبيعة أى نظام أو تجمع بشرى يقـوم عـلى قاعدة الإسلام وأحكامه، هى خضوع أفراده واستسلامهم الكامل للتمثل فى العمل بأحكام الله جميعاً ، وبذلك تتحقق فيهم صفة الإسلام والعبودية لله . هذه العبودية التى تمثلها وتكيفها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسـول الله ، وتتمثل هذه العبودية فى التصور الاعتقادى كما تتمثل فى شعائر العبـادة ، كما تتمثل فى الشرائع القانونية سواء .

— فليس عبداً لله من لا يعتقد بوحدانية الله سبحـــانه « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هـــو إله واحد ، فإياى فارهبون ، وله ما فى السموات والأرض ، وله الدين واصباً ، أفغير الله تتقون ؟ ! » والتوحيد هو القاعدة الأساسية التى تنبق منها كل القيم والموازين، كما ينبثق منها منهج الحياة كله فى المجتمع المسلم ، وهو الذى يربط كل حركة وكل نشـاط ، وكل خالجة وكل انفعال بمعنى العبادة لله ، التى هى غاية كل نشاط إنســانى فى ضمير المسلم وفى حياته كلها .

— لهذا ، ليس عبداً لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لأحد غـير

الله « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

— وليس عبداً لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من أحد سوى الله ، عن الطريق الذى بلغنا الله به ، وهو رسول الله ﷺ « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وعلى أساس هذه النظرة الكلية لمعنى العبادة كما تحددها معانى القرآن ، نجد أن معنى الإسلام يتغلغل حاكماً كل لحظة ولمحة من حياة المسلم ، فمهما كان قدر المسلم فى الحياة وحيثما وجد نفسه فى أحوالها وجب عليه أن يخضع وينزل على أحكام الله فيها ، أن يعبد الله بالانقياد والطاعة لله فى كل مجالى حيـاته .

ولئن كان من العبادة شعائر مفروضة ومسنونة أدعى وأخلص لذكر الله وطاعته، فهناك وجوه أخرى للعبادة وراء ذلك من خلال اتباع شرع الله فى مختلف أشكال الحياة وأنظمتها : فإذا تكامل إيمان المرء وخلصت عبوديته لله سرت روح الدين فى حياته الأسرية وانتظمت كل عمل من أعماله فيها ، وحملت أعماله إذا ابتغى بها وجه ربه صفة القداسة .

وقد نزلت أحكام القرآن الكريم وتوجيهاته صريحة فى إضفاء صفة القداسة على حياة الأسرة وعلاقات أفرادها، فلو تأملنا فى الآية التى تقول فى سورة النساء: «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً»، نجد أنها تبدأ بالأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن إشراك شىء به .. تبدأ بحرف عطف يربط بين هذا الأمر وهذا النهى والأوامر السابقة بتنظيم الأسرة فى نفس السورة ، فيدل هذا الربط بين الموضوعين على الوحدة الكلية الشاملة المتكاملة فى هذا الدين إذ يلى الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك الأمر بالإحسان إلى الوالدين . .

إلى تلك المجموعات من الأسرة الخاصة والأسرة الإنسانية .

فمن الملاحظ فى طريقة القرآن فى الأحكام المتعلقة بالمعاملات بعامة والأسرة بخاصة والعدل فى المعاشرة ، أنه يربط هذه الأحكام والتوجيهات بالله وملكيته للسماوات والأرض وقدرته على الذهاب بالناس واستبدال غيرهم بهم - مما يدل على ضخامة الأمر وعلاقته بحقيقته الألوهية الهائلة ، ومن ثم يستجيش تقوى الله فى الضمائر . فالرابطة الأولى بعد رابطة العقيدة فى الله، هى رابطة الأسرة .

لهذا فقد وصف الله هذه الرابطة ، وهذه العلاقة بالميثاق الغليظ ،فقال تعالى . « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » . . إنه ميثاق النكاح ، باسم الله وعلى سنة الله ، وهو ميثاق غليظ لايستهين بحرمته وقداسته قلب مؤمن ، إذ يخاطب الله الذين آمنوا بصفة الإيمان فيهم ويدعوهم أن يحترموا هذا الميثاق الغليظ .

والذى ينظر فى تشريعات الأسرة فى القرآن والسنة، فى كل وضع من أوضاعها وكل حالة من حالاتها ، وينظر فى التوجيهات المصاحبة لهذه التشريعات ، وفى ربط هذا الشأن بالله مباشرة فى كل موضع . يدرك إدراكاً كاملا ضخامة شأن الأسرة والعلاقات بين أفرادها فى النظام الإسلامى وقيمة هذا الأمر عند الله ، إذ يجمع بين تقواه وتقوى الرحم فى أول سورة النساء حيث يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيباً » . . كما يجمع بين عبادة الله والإحسان للوالدين فى سورة الإسراء وفى غيرها : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » . . وبين الشكر لله والشكر للوالدين

فى سورة لقمان : « ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك ، إلى المصير » وبعد أن قرن الله سبحانه شكر الوالدين بشكره ــ تعالى ــ جاء التعقيب تذكيراً بيوم القيامة والحساب حيث ينفع رصيد الشكر المذخور .

ومن مظاهر الاحتفال بشأن العلاقات الزوجية والعائلية فى النظام الإسلامى ، هى اتجاه القرآن الكريم ، لرفع هذه العلاقات الإنسانية إلى مستوى القداسة المتصلة بالله ، واتخاذها وسيلة للتطهر الروحى والنظافة الشعورية ، لا كما كان ينظر إليها فى العقائد الوثنية ، وعند أتباع الديانات المحرفة البعيدة عن فطرة الله التى فطر الناس عليها على أنها رجس من عمل الشيطان ! !

وهكذا نجد أن الإســـلام يضع الزواج فى مرتبة القداسة ويحيط العلاقات الأسرية بين أفراد البيت بهذه القداسة التى تكفل الاستقرار والاستمرار ، وفى سبيل هذه الغاية يدفعها إلى مقام طاعة الله .

فلو فهمت الزوجة أن طاعتها للزوج طاعة لله ، ولو فهم الزوج أن إسعاده لزوجته وإحسانه عشرتها طاعة لله ، ولو تربى الأولاد على أن طاعة الوالدين وبرهما طاعة لله . ولو تقدم كل منهم بسلوكه فى الأسرة منبثقاً من هذا الفهم لبارك الله لهم وبارك عليهم وجمع بينهم فى خير .

وتظهر أهمية النظرة الإسلامية فى العلاقات الأسرية على أنها روابط مقدسة وما تحققه من نتائج فى تماسك البيت ، فى دراسات بعض علماء الاجتماع للأسرة ، فوجدوا أنه لا يسود فيها الاستقرار والهدوء والثبات إلا إذا قامت على أساس الدين ، الذى يعطى للروابط بين الأفراد القداسة التى تربط بينهم بروابط الرحمة والمحبة . أما فى العصر الحديث فقد أدت الحياة المادية فى حضارة الغرب إلى تفكك نظام البيت وتدهور الحياة الأسرية ، فقد أصبحت الروابط

الأسرية مجرد عقود مدنية، الهدف منها تحصيل لذة وقتية ومنفعة شخصية.

وإننا إذ نضع هذه الحقيقة أمام من يريد بناء بيت مسلم ، فعليه أن يبدأ أولا بفهم الأساس الربانى الذى يقوم عليه الزواج والبيت فى نظام الإسلام، وأن يستشعر بكل جوارحه معانى القداسة فى الأحكام والتوجيهات المنظمة للعلاقات الأسرية وما ينشأ عن قيام الأسرة من روابط ، حتى إذا ما وفقه الله إلى اختيار الزوجة الصالحة استطاع بإخلاص النية وعون الله بعد بنائه بها أن يقيم بيتاً مسلماً تتحقق فى روابطه معانى القداسة والطهارة .

حقوق الزوجة

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

لكى ندرك جمال هذه الآية نذكر أنه لم يكن للمرأة من الأهلية فى كثير من الحضارات ما يجعلها من أرباب الحقوق . . بل ضن عليها رجال بعض الأديان أن تكون إنسانا ، فاعتبروها حيوانا نجسا لا روح له . . أو أنها إنسان ، لا حيوان ، لكنها إنسان خلق لخدمة الرجل . . فإذا نظرنا إلى الآية الكريمة من زاوية تلك الأحكام القاسية ، عرفنا أصالة الإسلام فى تقرير الحق بشأن المرأة . . فهى آية من آيات الله - لا حيوان نجس - خلقت من أنفس الرجال ، لا من طينة أخرى ، فهى من الرجل والرجل منها وقد خلقها الله لتكون زوجة ، لا لتكون خادمة . وذلك قوله سبحانه « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا » . . وقد خلق تلك الزوجة ليسكن إليها الزوج . . والسكن أمر نفسانى ، وسر وجدانى يجد فيه المرء سعادة الشمل المجتمع ، وأنس الخلوة التى لا تكلف فيها . . وقد ألقى

فى كل منهما سر الحنين إلى صاحبه والإقبال عليه ، فهو يدلى إليها بمودته ورحمته ، وهى تدلى إليه بمثل ذلك، وهو معنى قوله تعالى: « لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة » ..

على تلك الأسس الفطرية الجميلة ، شرع الإسلام مركز المرأة فى الحياة . ورسم علاقتها بالرجل . وقرر ما بين الزوج والزوجة من أصول التعاون على رسالة الزوجية . ونحن موردون من ذلك ما لا بد منه للرجل المسلم الذى يريد أن يقيم بيته ، وعلاقته بزوجته على أصول الاسلام إن شاء الله .

هـذا وقد جرى أكثر العلماء فى كلامهم عن حق كل من الزوجين على الآخـر بتقديم الـكلام على حق الزوجة ، مما يدل على مدى اهتمامهم بأمرها . ومراعاة أنهـا الجانب الأضعف والأحوج إلى العطف والرحمـة وحسن الرعاية .

وقد حث القرآن الكريم الرجال على القيام بحقوق أزواجهم سواء أكانت هذه الحقوق واجبة أم مستحبة ، وكذلك أمر رسول الله ﷺ الرجال أن يستوصوا بالنساء خيراً ولذلك حاول كثير من العلماء حصر حقوق النساء على أزواجهن فيما يلى :

● النفقة :

لا تلزم الزوجـة ـ ولو كانت ذات مال أن تنفق على نفسهـا شيئا من مالها ـ قليلا أو كثيرا ـ إلا أن تتطوع به عن طيبة نفس ، والزوج ملزم بنفقة زوجته من حين عقد الزواج : يعد لها المسكن والمتـاع ، ويوفر لها الطعام والشراب والـكسوة ، وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : « ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .. وعلم من الحديث :

(أ) نفقة الطعام والكسوة . ولم يذكر الحديث المسكن والفراش والغطاء ونحوها لأنه قد ورد به القرآن الكريم فى قوله سبحانه : « اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم » أى على قدر ما يطيقه كل منكم ، فإذا لزمه السكن فقد لزمه الفراش والغطاء بما يدفع ضرر الأرض والبرد ونحوهما .

(ب) إن نفقة الطعام والكسوة تقدر بطاقة الزوج وقدرته المالية : فالغنى ينفق من سعته والمقل على قدره . لقوله سبحانه : « لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله » وهو مقتضى قوله عليه السلام :

« رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

فإذا قصر الموسر ـ مثلا ـ أن يكسو زوجته الحرير ، حكم عليه بذلك وفاء لما أمر الله ورسوله من حقها . سئل الزهرى عن لبس النساء الحرير فقال : « أخبرنى أنس بن مالك أنه رأى على أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ برد حرير » .

● إحسان العشرة :

وفى إحسان عشرة الزوجة يقول الله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » ويقول سبحانه : « ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن » . أى أنه يطلب التوسيع عليهن فى المعاملة ، ويحرم ما يضرهن ، فمن استقام على ذلك مع زوجته فهو المسلم المقيم لحدود الله . ومن ضيق عليها وضارها بسوء خلقه وشراسة طبعه ، فليس ذلك من الاسلام فى شىء . وفى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ : « خياركم خياركم لنسائهم » . ويقول فى حديث آخر : خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » .

(أ) ومن حسن المعاشرة ، ألا يألو جهداً فى الترفيه عنها بما يدخل عليها السرور .. قالت عائشة رضى الله عنها :

« كنت ألعب بالبنات عند رسول - ﷺ - فى بيته » والبنات هى اللعب على هيئة التماثيل الصغيرة .. ولا ريب أن رسول الله - ﷺ - كان هو الذى يحضر تلك اللعب ويطلع عليها مع ما فيها من مماثلة للأصنام الكبار التى جاء لتحطيمها ، قالت : «كان لى صواحب يلعبن معى ، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن - أى يستخفين - فيسربهن إلى فيلعبن معى ».

ومن حسن العشرة أن يكون طلق الوجه مع زوجته ، يحسن اختيار الكلمة الحلوة ، ويشكرها على ما تؤديه من خدمة له ولأولادها ، فإنها غير مكلفة شرعاً بشىء من ذلك ويحاول أن يسرى عنها إذا غضبت ويخفف عنها إذا تعبت .

ولو أنك مازحت زوجتك تبتغى إدخال السرور عليها لوجه الله لكان ذلك حسنة توضع فى ميزانك ، لأن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك»، والمراد هنا المداعبة فوضع اللقمة من الزوج فى فم امرأته لا يليق إلا أن يكون فى مداعبة أو مرض .

وهكذا يستطيع المسلم الفاهم غير المعقد وغير المكبل بأغلال المفاهيم الخاطئة أن يجعل من مخدعه هو وزوجته محراب تعبد باستمتاع بعضهما ببعض ومؤانسة بعضهما لبعض .

وكان النبى يسابق السيدة عائشة فتسبقه أو يسبقها .. وكان عليه السلام

يجمع نساءه كل ليلة ، فيتبسط معهن فى الحديث ، ويلاطفهن حتى تنصرف كل منهن إلى مضجعها وهى قريرة العين .

ويستطيع كل إنسان فى ضوء هذه السماحة أن يعرف كيف يلاطف زوجته بما يسرها ، ويرفه عنها . وإذا كان الرسول عليه السلام يدع التحرج فى ملاطفة زوجته باللعب التى تشبه الأصنام ، فأحرى أن تسعنا الملاطفة فيما لا شبهة فيه ، والعبرة بكياسة المرء ولطف حسه وذوقه ووقوفه عند حدود الله .

(ب) ومن حسن عشرتها حسن الظن بها وترك التجسس عليها وعدم تتبع عثراتها ، فمن الأزواج من تذهب به الغيرة إلى سوء الظن الذى يقوده إلى تأويل كثير من كلماتها أو حركاتها تأويلا سيئا يفسد عليه عيشه معها ، ويدعوه الى التجسس عليها ، ومفاجأتها فى البيت لينظر ماتفعل ، أو لينظر من يكون معها . وقد نهى رسول الله — ﷺ — عن ذلك فيما نقل عنه جابر — رضى الله عنه — قال : « نهى نبى الله ﷺ أن يطرق الرجل أهله ليلا يتخونهم ، أو يطلب عثرتهم » . والتخون أن يظن وقوع الخيانة من زوجته . والمراد ألا يطرقها مفاجأة ليعرف ماتكون عليه من عثرات ، فحسن الظن بها وإشعارها بكمال الثقة أولى .

وهذا من آداب الإسلام التى تفرد بها : حسن الظن بالزوجة وعدم الاستسلام لمثيرات الغيرة .

(ج) هذا ويدخل فى حسن المعاشرة المحافظة على حيائها ، إذ أن جمال المرأة فى حيائها ، وكذلك المحافظة على حقوقها الزوجية من إعطاء حقها فى الفراش .

(د) عدم كشف سرها لأحد ، لأن ذلك ينذر بالقطيعة ويخلق الحقد والضغينة ولأنه يعتبر من سوء الخلق ، ولهذا كله فقد منع الإسلام كشف سرها ، فقال الرسول ﷺ . « إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سرها »

(هـ) السماح لها بزيارة أهلها إذا أرادت ذلك ، والسماح لأهلها بزيارتها فى بيتها فى أوقات معلومة ، لأن ذلك من صلة الرحم وهى واجب فى الإسلام فإذا هى أرادت هذه الصلة فمعنى ذلك أنها تريد أداء حق من حقوق الإسلام عليهـــا .

(و) مساعدتها ومعاونتها عند الحاجة كما كان يفعل الرسول الكريم مع نسائه ، ولاسيما فى الحالات المرضية .

(ز) احترام ملكيتها الخاصة وألا يتصرف فيها إلا بإذنها .

● تعليمها ماتحتاجه من أمور الدين :

الرجل مسئول عن امرأته أمام الله ، لأنه راعيها وكل راع مسئول عن رعيته كما جاء فى الحديث الصحيح ، فيعلمها مالم تتعلمه من الطهارة والوضوء وأحكام الحيض والنفاس والاستحاضة وأمور الصلاة والصيام ، وقراءة القرآن وذكر الله ، وواجبها نحو أهلها وجيرانها وأقاربهـا ، وكيف تلبس ملابس شرعية ، وكيف تجتنب الخلوة بالرجال ، وكيف تخاطب الرجال وتحادثهم إن دعا إلى ذلك داع .. إلى آخر مايطلب منها شرعاً ، فإن لم يستطع فعليه أن يسأل العلماء ويبلغها ، فإن لم يفعل وجب عليه أن يأذن لها لتخرج وتتعلم ، فإن لم يأذن لها وجب عليها الخروج بغير إذنه بالنسبة لتعلم الأمور الواجبة والمحرمة ، فإذا تعلمت الواجب والمحرم فلا تخرج لطلب العلم إلا بإذنه.

حقوق الزوج

سبق لنا أن عرفنا حقوق الزوجة على زوجها، وأدركنا مسئولية الزوج عن زوجته، وأن عليه أن يهيىء لها المال والسكن ووسائل الراحة المادية كما عليه أن يحسن عشرتها ويكرم صحبتها، ويقوم بكل أسباب الراحة النفسية والاستقرار والبهجة والسرور.

فالرجل فى نظام الإسلام هو المكلف أن يسعى ويكد ويتعب من أجل زوجته وأبنائه حاضراً ومستقبلا، فيتاجر أو يزرع أو يصنع أو يعمل أى عمل آخر يتعيشون منه. وهو المطلوب منه بعد ذلك أن يقوم بالواجبات الاجتماعية: فيشارك فى التعمير والبناء وأنواع المجاملات والمساعدات المالية وعليه ضريبة الدم يزود بها عن حياض دينه وماله وأهله ووطنه، وعليه أعباء الحكم وإدارة الأعمال والمنشآت والمؤسسات والشركات، والحفاظ على الأمن ومطاردة اللصوص والقتلة وجميع المجرمين. وهو المكلف أصلا بالبحث والاختراع والاكتشاف للوصول بأمته إلى المكانة العليا، مرفوعة الجانب، موفورة الكرامة فى رفاهية من العيش.

إن أحمال الرجل ثقيلة وتكاليفه شاقة . .

والمرأة لم يطالبها الشرع بشىء من ذلك كله، إنما المطلوب منها أمران لا ثالث لهما إن كانت زوجة:

١ - أن تعيش لزوجها سكناً ورحمة وودا، حتى يجد بجانبها السعادة والاستقرار.

٢ - أن تقوم بدور الأم كاملا مع أولادها حتى تسلمهم للمجتمع رجالا صالحين عاملين.

ونفصل هذين الواجبين على المرأة نحو زوجها فى الآتى:

• معرفة مكانته :

وهذه المكانة التى للرجل على المرأة يقررها القرآن الكريم فى آيتين ، إذ يقول الله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن ، وللرجال عليهن درجة » قال القرطبي : درجة : أى منزلة . فزيادة درجة الرجل بعقله وقوته على الإنفاق وبالدية والميراث والجهاد . إلى إن قال : « فدرجة » تقتضي التفضيل وتشعر بأن حق الزوج عليها أوجب من حقها عليه ، ولهذا قال عليه السلام : « لو أمرت أحداً بالسجود لغير الله ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها .. إلى أن قال : « وقال ابن عباس : الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء فى المال والخلق ، أى أن الأفضل ينبغي ان يتحامل على نفسه .

وإذ يقول تعالى : الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض . وبما انفقوا من أموالهم » قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى معنى تفضيل الرجل على المرأة : وفضل الرجل على المرأة بزيادة العقل ، وتوفير الحظ فى الميراث والغنيمة والجمعة والجماعات ، والخلافة والإمارة والجهاد ، وجعل الطلاق إليه إلى غير ذلك . وفى معنى قوله تعالى « وبما انفقوا من أموالهم » يقول ابن كثير : أى من المهور والنفقات والكلف التى أوجبها الله عليهم لهن فى كتابه وسنة نبيه ﷺ ، فالرجل أفضل من المرأة وله الفضل عليها والإفضال، فناسب أن يكون قيما عليها .

ومن هنا تتضح مكانة الرجل كما يقررها الخالق فى كتابه العزيز . وهى المكانة والدرجة التى يجب على المرأة أن تحيط بها علماً لتسلك مع زوجها السلوك الذى يرضاه الله ، ولتكون دافعاً لها فى أن لا تتبرم به ولا تمله ولا تنكر فضله عليها إن كانت مسلمة الوجه لله .

فعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة » .

وعن حصين بن محصن رضى الله عنه أن عمة له أتت النبي ﷺ ، فقال لها : أذات زوج أنت ؟ قالت : نعم ، قال : فأين أنت منه ؟ (١) قالت : ما آلوه إلا ما عجزت عنه (٢) قال : فكيف أنت له (٣)؟ فإنه جنتك ونارك»

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها قالت : فأى الناس أعظم حقاً على الرجل قال : أمه .

وهنا تقابل جميل يعطى للمرأة جزاء ما تقدم ، فبينما زوجها أعظم الناس حقا عليها .

إذا بها أعظم الناس حقا على ابنها وهكذا العدل الإلهى المطلق .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : لا ينظر الله تبارك وتعالى إلى امرأة لا تشكر لزوجها (٤) وهى لا تستغنى عنه »

• الطاعة وحسن العشرة :

جعل الله سبحانه وتعالى الرجل قواما على المرأة ورئيسا لها ، فطاعة

---

(١) يعنى أين تضعين نفسك منه ؟ هل تتكبرين عليه أم تخضعين له ؟

(٢) لا أقصر فى حقه إلا عند عجزى وعدم قدرتى .

(٣) أى على أى حال تكونين معه ، فإنك تأخذين جزاءك على ذلك .

(٤) أى لا يرحمها إن لم تشكر زوجها وتعترف بفضله.

المرأة لزوجها واجبة عليها ، وعصيان زوجها محرم عليها ، وتعذب عليه في الدنيا والآخرة إذا لم ترجع عنه وتعتذر لزوجها حتى يسامحها ، وحالة الزوجة مع زوجها كحالة الولد مع أبيه بل حق زوجها أكبر بنص حديث « لو أمرت أحد أن يسجد لأحد » والمرأة الصالحة هي التي تدرك ذلك وتعيه وعيا تاما ، وتخشى الله في زوجها ، وتراقبه سبحانه وتعالى في كل صغيرة وكبيرة مخافة أن يغضب عليها ، ولذا قال تعالى :

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله)

والمعنى أن النساء الصالحات مطيعات لأزواجهن حافظات لغيبتهم إذا غابوا فيحفظن أنفسهن ، ويحفظن أموال أزواجهن وأولادهم حتى يعودوا وذلك بتوفيق الله لهن وحفظه ، فالطاعة للزوج أول صفات المرأة المسلمة الصالحة

والطاعة شيء يدخل في حسن العشرة وقد تطيع المرأة وهي لا تحسن العشرة بل تحسن أن تطيع فيما تؤمر به ، ولا تبحث عما وراء ذلك مع أن حسن العشرة هام جدا في الحياة الزوجية .

وحسن العشرة ذوق وفن وتربية اجتماعيـة عالية . وبه دوام المحبة والألفة والرحمة ، وكثيراً ما تحل المشكلات المستعصية بالبسمة الحانية ، والنظرة الودود ، والمجاملة الرقيقة ، والأسلوب المهذب ، والخضوع اللين.

والمرأة التي تطيع زوجهـا وتحسن عشرته تـكسب ثقته ودوام حبه وشعوره بالسعادة مع زوجته ، فيعطي زوجته أضعاف أضعاف ما تعطيه حتى يصل الأمر إلى أن الزوجة في الحقيقة هي التي تجعل زوجها ملبياً كل رغباتها ، بل سعيدا كل السعادة وهو يلبي هذه الرغبات فيئول الأمر إلى أن الزوج هو الذي يطيع زوجته . وكلما أسبغت المرأة على زوجها من عواطفها ورقتها

وحسن اهتمامها به ملكت عليه قلبه وأشعرته بأن سعادته الحق لا تكون إلا معها . وقليل من النساء من يفهمن ذلك ومن يفهمن لايعملن غالبا . ولذلك يهرب الرجل .

والطاعة أمر عام يدخل تحته تنفيذ كل أوامر الزوج - فى غير معصية الله - والابتعاد عن كل شىء لا يرضاه أو ينهى عنه ويمنع منه .

فلا تدخل أحدا بيته إلا بإذنه ولو كان أقرب الناس إليها أو إليه .

ولا تخرج من بيته إلا بإذنه ، ولو كانت ذاهبة لأبيها وأمها .

ولا تتصرف فى ماله إلا بإذن خاص أو إذن عام ، كأن يقول لها : تصرفى كيف تشائين فيما تحت يدك من مال . هذا فى الأمور الكبيرة والمبالغ المرموقة ، أما فى التوافه فلا شىء عليها . كأن تعطى سائلة أو جارة قليلا من الطعام أو للمال أو الملابس القديمة ونحو ذلك .

ولا يجوز أن تصوم نفلا إلا بإذنه ، ولو صامت فاحتاجها جنسيا وجب أن تستجيب له وتفطر ، وكذلك لا تعتمر نفلا ولا تحج نفلا إلا بإذنه .

أما العمرة والحج الواجبان فإنها تستأذن مجاملة فقط ، فإن لم يأذن حجت واعتمرت بدون إذن ، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

وإليك الأدلة على ذلك كله . وما لم يذكر تابع لما ذكر .

جاء فى الوصايا التى أوصى بها النبى ﷺ فى حجة الوداع أنه أوصى بالنساء خيراً إلى أن قال : « ألاَ إنَّ لكم على نسائكم حقا ولنسائكم عليكم حقا ، فحقكم عليهن ، ألا يوطئن فرشكم (١) من تكرهون ،

---

(١) ألا تسمح لأحد أن يتمتع بالأمور الخاصة بزوجها كالسرير واللحاف والبيجاما إلا بإذنه .

ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن »

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها وأطاعت بعلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لإمرأة أن تصوم وزوجها شاهد (١) إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه » .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه (٢) فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « اثنان لا تجاوز صلاتهما رءوسهما : عبد آبق (٣) من مواليه حتى يرجع ، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع » .

وعنه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره لعنها كل ملك في السماء ، وكل شيء مرت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع ... »

● أن تتزين لزوجها :

---

(١) شاهد : حاضر ، أما إن كان غائباً فلها أن تصوم .

(٢) من أجل الاتصال الخاص بهما .

(٣) آبق : هارب من سيده ومالكه .

إن الطفل النظيف المرجل الشعر ، المهندم الثياب ، الطيب الرائحة يحبه كل من يراه .

والحجرة المنسقة، المزينة بالزهور والصور الطبيعية ،والكراسي الوثيرة ، والبساط اللين تريح الأعصاب ، وتجعل الجلوس فيها نوعاً من المتعة .

والبقعة الخضراء حين يجرى فيها جدول الماء ، وتتدلى عليها أغصان الأشجار ، وتسمع فيها تغاريد الطيور هى مكان شاعري يبعث الحب ، ويجعل للحياة طعم النعيم .

والزوجة التى يراها زوجها متزينة له ، متعطرة من أجله ، منظفة بيتها ودارها ، منظمة كل شئونها ، تستقبله بسمتها ، وترطب وجدانه بحلاوة مقابلتها وكلامها ، تمسح متاعبه بعطفها وحنانها وحسن تصرفها ، وتهيء له الجو الهادئ المناسب لوقت راحته ، وتوفر له مطالبه التى اعتادها حين يدخل وحين يخرج سواء بنفسها أو بمساعدة الخدم .. إن مثل هذه الزوجة متاع الدنيا وحوريتها ، وبهجة الحياة وبلسمها ، ونور البيت وجماله ، ولو وقفت الدنيا كلها فى جانب ووقفت هذه المرأة فى جانب لاختار جميع الرجال هذه المرأة،لأن بيدها مفاتيح السعادةوكنز الحياة وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » .

وللمرأة الصالحة فسرت صفاتها فى حديث آخر بأنها التى إذا نظرت إليها سرتك وإن أقسمت عليها أبرتك ، وإن غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك .

وقد كانت المرأة المسلمه حريصة كل الحرص على التزين فى كل جزء من جسمها وشعرها ، ومن تترك الزينة يعرف الناس أنها فى حالة حزن إما لموت زوجها أو نفوره منها ، أو إهماله لها ، أو لموت أحد أقاربها .

والله تعالى أخبر فى القرآن أن المرأة تعشق الزينة من صغرها وتنشأ فيها فترك الزينة ينافى طبيعتها . قال تعالى :

(او من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين)

فالله يرد على الكفار الذين يقولون : إن الملائكة بنات الله فيقول لهم ألم تجدوا إلا هذا الصنف لتنسبوه إلى الله وهو الصنف الضعيف الذى ينشأ فى الزينة والحلية ولا هم له سواها ؟ . وهو ضعيف أيضاً عند المخاصمة . لا يستطيع أن يحج غيره من الرجال ويفحمه كما يفعل الرجال . وهذه شهادة من الله العالم بطبيعة المرأة والخالق لها .

وفى حديث رواه البخارى خلاصته : أن سلمان الفارسى كان أخا فى الله لأبى الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فلم يجده ووجد امرأته متبذلة بغير زينة على غير المعهود من المرأة المتزوجة فسألها عن السبب فأخبرته أن أبا الدرداء لا يهتم بالدنيا ولا بالنساء إنما هو صوام قوام ، فلما وصل أبو الدرداء أعد طعاماً لسلمان فلم يأكل منه حتى أفطر أبو الدرداء وأكل معه ، ولما جاء الليل أراد أن يقوم أول الليل فمنعه سلمان حتى الثلث الأخير من الليل ثم قال له : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه . فذهب أبو الدرداء إلى النبى ﷺ وأخبره بقول سلمان فقال ﷺ : « صدق سلمان »

وهذه امرأة عربية تنصح ابنتها ليلة زفافها . . فروى عنها أنها قالت لها : إنك خرجت من العش الذى فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفيه وقرين لم تألفيه .

فكونى له أرضا يكن لك سماء . وكونى له مهاداً يكن لك عماداً .

وكونى له أمة يـكن لك عبداً ، ولا تلحفى به فيقلاك (١) . ولا تباعدى عنه فينساك ، إن دنامنك فادنى منه ، وإن نأى فابعدى عنه . واحفظى أنفه وسمعه وغيبته، فلا يشمن إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا يرى إلا جميلا واعلمى أن أطيب الطيب الماء .

وقال الأصمعى : رأيت فى البادية امرأة عليها قميص أحمر وهى مختضبة ، وبيدهـا سبحة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا « يعنى السبحة لا تتفق مع التزين والتجميل » فقالت :

وقد منى جانب لا أضيعه ∴ وللهو عندى والبطالة جانب

فعلمت أنهـا امرأة صالحة لها زوج تتزين له .

● ومن حق الزوج على زوجته :

أن لا تشتط عليه فى طلب ما لا يقدر عليه من النفقة ، ولا تمن عليه إن كانت تنزل عن مالها بشىء فى نفقة البيت ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال : « أيما امرأة أدخلت على زوجهـا فى أمر النفقة وكلفته مالا يطيق ، لا يقبل الله منها صرفاً ولا عدلا إلا أن تتوب وترجع وتطلع منه على طاقته » (٢) وروى عنه أيضا أنه قال : « لو أن جميع ما فى الأرض من ذهب وفضه حملته المرأة إلى بيت زوجها ، ثم ضربت على رأس زوجها يوماً من الأيام تقول : من أنت ، إنما المال مالى حبط عملها ولو كانت من أعبد الناس ، إلا أن تتوب وترجع وتعتذر إلى زوجها » (٣) .

---

(١) لا تلحى عليه فى المطالب فيبغضك .

(٢) ، (٣) مكارم الأخلاق للطبرسى ص ١٥٧ .

● ونحب أن لا نختم هذه العجالة من هدى الإسلام فى حقوق الزوج على زوجته ،قبل أن نضع هذه الملاحظات أمام نظر كل زوجة مسلمة تتشوف إلى معرفة مالها وماعليها من واجبات حتى تلزم حدود الله فى علاقتها بزوجها وحتى تتقدس هذه العلاقات ويباركها الله .

١ ـ المرأة قبل الزواج مسئول عنها أبوها وأمها وأخوها ومن يعولها وبعد الزواج تنتقل هذه المسئولية إلى الزوج . فإن عصت الله قبل الزواج وجب على أبيها وأمها وأخيها نهيها عن المنكر ومقاطعتها إن أصرت على المعصية كترك الصلاة والتبرج ، ووجب على زوجها تأديبها وإجبارها على ترك المعصية حسب الترتيب السابق من الوعظ ثم الهجر فى المضاجع ثم الضرب (١).

٢ ـ إن المرأة بعد الزواج لا يجوز شرعاً أن يتدخل أبوها وأمها وأقاربها فى الشئون الخاصة بها مع زوجها على سبيل الإفساد بينهما فإن ذلك حرام ، ولو صدر أمر من أبيها وأمر من زوجها فإن الواجب عليها تنفيذ أمر زوجها لأنها انتقلت إليه وصارت الولاية له عليها وأمرها بيده دون أهلها .

٣ ـ خدمة المرأة لنفسها ولزوجها تابعة لعرف البيئة ، ومهما يكن من أمر فإن أحداً لم يقل : إن الزوجة عليها أن تخدم أهل زوجها ، وإجبارها على خدمتهم حرام وظلم سواء كان المخدوم والد الزوج أو أمه أو أخاه أو أخته . وكثيراً ما نرى الزوجة تخدم عائلة زوجها ومع ذلك نجد أم الزوج تحرض زوجها عليها وتدبر المكائد لها .

٤ ـ من حق الزوجة أن تسكن فى بيت ومسكن لا يشاركها فيه أحد لأن حرية المرأة مع زوجها وحياتها معه شىء يخصهما فلينتبه الأزواج وأهلهم لذلك ، فإن أكثر الناس يعيش فى خطأ وبعد كبير عن الإسلام .

---

(١) مثل ضرب الأب لابنه للتعليم والأدب

• ـ احترام الزوجة أهل زوجها أمر واجب عليها مثل أبيه وأمه وجده وعمته وخالته ، وهم شرعاً أحق بماله وأولى به من أهل زوجته فمحـــاولة الزوجة إقحام أهلها على زوجها ، وإبعاد أهله عنه يعتبر جريمة تعاقب عليها الزوجة فى الدنيا والآخرة ، وعلى الزوج أن يـكون فى كل أموره رجـلا لا تركبه المرأة ولا تسخره فيما يغضب الله ، ويجعله سخرية بين الناس ·

تنظيم علاقة الآباء بالأبناء

إذا كان تنظيم العلاقات بين الزوجين يعتبر أساس البيت فإن تنظيم علاقة الآباء بالأبناء يعتبر بمثابة النتيجة من المقدمة فكما أولى الإسلام عنايته الخاصة بالتنظيم الأول ، فقد اهتـم بالتنظيم الثـانى حتى تقـوم الأسرة المسلمـة مستقرة الدعائم قوية البنيان ..

فكلما كان الزوجان صــالحين موفقين فى الحيــاة الزوجية . متحابين متعاونين ، نشأ الأولاد مبـاركين من الله ، محفوظين من همزات الشياطين ، بعيدين عن أسباب النـكد والضغط النفسى ، والعقد والانحراف ، والزيغ والأخلاق الذميمة ، لأن صـلاح الأبوين يعود بالخير على الأولاد ولو مات الأبوان والأولاد صغار ·

والعلاقة بين الآباء والأبناء تقوم على تبادل الواجبات ، فلكل واجبات نحو الآخر ، فهناك واجبات الآباء نحو الأبناء ، وهناك واجبات الأبناء نحو الآباء ، ولنبدأ بواجب الآباء نحو أبنائهم ، فقد أدى جهل الوالدين بالمبادىء العامة للإسلام وأهدافه الخاصة فى بناء الحياة ، إلى سوء التوجيه ، وفساد التقدير ، الذى أخرج إلى المجتمعات الإسـلامية أجيالا فاسـدة لا تمت فى أخلاقها وسلوكها وأهدافها فى الحياة إلى الإسلام بصلة .. ولما كنا فى مرحلة

إعادة بناء المجتمع المسلم، وكان الشباب هو عصب أي مجتمع وروحه الدافقة وبسواعده يقوم البناء، فقد أصبح الواجب الأول للأسرة المسلمة هو تكوين جيل مسلم ينهض بأعباء البناء وتتحقق به الآمال ..

١ - واجب الآباء نحو الأبناء

اهتم الإسلام كثيراً بالأبناء، فهم ثمرة الحياة الزوجية وأمل الأمة، فوجه الآباء إلى إحسان تربيتهم والعناية بهم، وحضهم على ذلك فقال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً »، وقال رسول الله ﷺ: « ما نحل والد ولده من نحلة أفضل من أدب حسن »، والنحلة هي العطية.

ولما كان الأولاد هم في الآخرة شفعاء لآبائهم وأمهاتهم إن ماتوا صغاراً، وحسناتهم يوضع مثلها في ميزان آبائهم وأمهاتهم إن كبروا صالحين، وعاشوا مؤمنين، ولهم شفاعتهم إن ماتوا شهداء مقربين إلى الله رب العالمين ...

فقد قرر الإسلام لهم حقوقاً: بعضها واجب، وبعضها مستحب، أهمها النفقة والتسوية بينهم في المعاملة، والتربية والتعليم ..

• النفقة

نفقة الأولاد ذكوراً كانوا أم إناثاً واجبة على الوالد حتى يشتد عود الذكر ويستطيع أن يعول نفسه، وحتى تتزوج الأنثى .. والأب الذي يقصر في الإنفاق على أولاده آثم، لأنه يعرضهم بذلك إلى الضياع والتشرد، لقول الرسول الكريم: « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » وقوله عليه السلام: « إن الله سائل كل راع عما استرعاه، حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته ». وهذه الأحاديث يجمعها قوله ﷺ: « كلكم راع ومسئول عن رعيته ».

وقد جعل الإسلام نفقة الرجل على أسرته وأهل بيتـه مقدمة على أى نوع آخر من أنواع النفقة ، فقال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » .

وحرصاً من الإسلام على عفة المرأة وحيائها ورقتها وجمالها ، فقد جعل ثواب الآباء فى النفقة على الإناث عظيماً ، فقال ﷺ : « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو، وضم أصابعه » وفى رواية أخرى قال : « من عال جاريتين دخلت أنا وهو الجنة كهاتين وأشـار بإصبعيه : السبابة والتى تليها » . . والمراد من الحـديث أن من قام برعاية بنتين أو أختين أو غيرهما ، فأنفق عليهما وأحسن أدبهما جعله الله يوم القيـــامة فى منزلة الجار الملاصق للنبى ﷺ فى الجنة. وهذا دليل رفع درجاته عند الله بسبب ذلك .

● التسوية فى المعاملة :

إن إيثار بعض الأبناء على البعض يعود على الأولاد بأسوأ العواقب ، لما يولده من روح الحقد والحسد فى نفوسهم، وما ينزعه من عواطف الحب والمودة فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الآباء من جهة أخرى ؛ هذا إلى جانب ما قد تسببه التفرقة فى المعـاملة من إصابة بالعقد والأمراض النفسية التى تعرضهم للانحراف .

إن إيثار بعض الإبناء على البعض ولا سيما إيثار البنين على البنات كما يحـدث عادة فى مجتمعاتنا بعـد أن حادت عن أخلاق الإسلام إلى أخلاق الجاهلية من أقبح الفعال وأرذل الخلال . التى حاربها الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم » .

والأصل فى هذا الموضوع ما رواه النعمان بن بشير ، فقال « إن أباه أتى

به رسول الله ﷺ فقال: إنى نحلت ابنى هذا غلاماً(١) كان لى، فقال رسول الله ﷺ: أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟ فقال: لا. فقال رسول الله ﷺ: فأرجعه».

وجاء فى رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قال له: أفعلت هذا بولدك كلهم ؟ قال: لا، قال: «اتقوا الله وأعدلوا فى أولادكم» قال: فرجع أبى فرد تلك الصدقة.

وفى رواية قال: «فلا تشهدنى، إذا فإنى لا أشهد على جور»

وجاء فى شرح الإمام النووى للحديث قوله: «وفى هذا الحديث أنه ينبغى أن يسوى بين أولاده فى الهبة، ويهب لكل واحد منهم مثل الآخر ولا يفضل، ويسوى على الراجح بين الذكر والأنثى. وهذا هو الصحيح المشهور لظاهر الحديث الذى لم يفرق بينهما».

وإذا رجعنا إلى الأحاديث الواردة فى الموضوع لأدركنا أن الرسول ﷺ، قد لمس جانبا خطيراً فى علاج المفاضلة بين الأولاد، حيث بين أن الأب فى حاجة إلى برهم جميعاً، وأن المفاضلة نوع من الجور الذى يسبب البغضاء بين الأولاد، كما أنه يسبب قطيعة الرحم، وقد يسبب عقوق الأب ومعلوم أن الإسلام حرص حرصاً كبيراً على توفير أسباب الوئام فى الأسرة الواحدة، فحض على صلة الرحم وجعل القطيعة من الكبائر، وحض على بر الوالدين، وجعل العقوق من الكبائر، فكل شىء يؤدى إلى القطيعة والعقوق يأخذ حكمها، لذلك لا يملك إنسان فى أن تفضيل أحد الأولاد إذا كان سيؤدى إلى القطيعة أو العقوق، أو إليهما حرام وظلم وخروج عن أصول الواجب نحو الأسرة الواحدة. وكثيراً ما يحدث

---

(١) نحلت: وهبت ـ غلاماً: المراد به عبد مملوك شاب

التمزق فى الأسرة والتناحر والتقاتل أحياناً بسبب وقوع الأبوين أو أحدهما فى غلطة التفضيل ، سواء التفضيل فى العطف أو التفضيل فى العطاء المادى . وقصة إخوة يوسف مع يوسف ومع أبيهم معلومة وهم الذين تربوا فى بيت رسول من سلالة الأنبياء والمرسلين

أما إذا كان التفضيل يسيراً غير مؤثر ، أو كان برضى باقى الأولاد رضاء حقيقياً ، أو كان له سبب ومبرر مثل عجز أحد الأولاد لمرضه ، أو شدة ضعفه ، أو عزوف الناس عن التزوج بإحدى البنات ، أو كان أحد الولدين باراً والآخر عاقاً ، أو كان أحدهما متديناً والآخر فاسقاً مستهتراً ، هنا يقال: إن التفضيل مكروه أو مباح .

وهذا كله فى الهبة والعطاء المتميز الواضح فى حال حياة الواهب الصحيح ، أما إن كان العطاء لا أثر له كما يعطى الوالد مصروفاً لأحد أبنائه قرشين مثلا ويعطى آخر ثلاثة وأخرى أربعة حسب اعتبارات السن أو الحاجة ، أو كثرة الغياب فى المدرسة ونحو ذلك فلا شىء فيه ، لأنه ليس مما يؤثر فى النفوس ويولد الحقد . فإن كان مما يؤثر فعلى الوالد أن يتصرف التصرف الذى لا يؤثر ، وليحذر الأب والأم كل الحذر من تدليل الذكور على حساب الإناث ، ومن إعطائهم أكثر بشكل مؤثر فى نفوس البنات ، فإن ذلك حرام كما سبق . ولا يدخل فى ذلك تربية الأولاد والإنفاق عليهم، فإن الواجب على الوالد إعداد البنين والبنات للحياة حسب قدرتهم والدور الذى ينتظره كل منهم فى المستقبل ، فإذا استطاع تعليم ولد تعليماً عالياً وعجز عن تعليم الآخر ، أو كان الآخر غير مستعد للسير فى خط التعليم إلى آخره فلا شىء على الأب ، ولا يقال له ، إن هذا له حق فى المال بقدر ما نقص من

نفقة بسبب عدم تعليمه ، لأنه تراعى حالة الأب وحالة الإبن أو البنت ، فما دام لم يقصر فلا شيء عليه.

كما أن هذا الكلام لا علاقة له بما يوصى به الأب لأحد أبنائه أو إحدى بناته بعد موته، لأن الشرع أبطل الوصية لوارث إلا إذا أذن بها الورثة (١)

• التربية والتعليم :

إن تربية الأولاد وتعليمهم فى مرحلة مبكرة تربية صحيحة من أهم واجبات الآباء، أو واجبات البيت عموماً نحو الأولاد والمجتمع، باعتبار أن البيت هو مدرسة الأطفال الأولى، فإذا لم يقم بوظيفته فلا تعوضها أية مدرسة أو مؤسسة أخرى فليست المهارة كل المهارة فى إنجاب الأطفال ، بل المهارة كل المهارة فى تربيتهم وتكوينهم رجالا تنتظرهم أمتهم ، وإذا كانت كثرة النسل من المطالب الحيوية للأمة فإن صناعة الرجال من هذه الكثرة من أشد هذه المطالب إلحاحاً على أمة تريد استئناف رسالتها كخير أمة أخرجت للناس

وإذا كان التربويون قد تواضعوا على أن الطفل يتقبل من آبائه أكثر مما يتقبل من معلمه ، وأن ما تربى عليه واكتسبه من عادات فى صغره من الصعب إزالته عنه فى كبره، ولذلك يجب الاعتناء به والحرص على تعليمه بحيث لا يلقن إلا العقائد والأفكار الصحيحة، ولا يفعل والداه بمرأى منه ما يخالف الدين والأخلاق الكريمة وآداب المعاشرة السليمة. إذا كان التربويون قد تواضعوا على ذلك ، فإن الإسلام قد سبق وجعل من التربية حقاً للطفل على والديه ، فقال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة » .

---

(١) عن كتاب « السلوك الاجتماعى فى الإسلام » للشيخ حسن أيوب ص ٢٤٣ / ٢٤٥ (بتصرف) .

فالتربية الحسنة حق للآباء والأمهات . والتربية الحسنة كما يعنيها الإسلام هي التربية المتفقة مع المنهج القرآني وأهدافه في صياغة الشخصية المسلمة وهي أمانة في عنق الوالدين ، إن قصروا فيهـا ووقع الأبناء في المعاصي . وانحرفوا عن طريق الله ، فإنهم يعذبون على ذلك يوم القيامة ، فعلى الوالدين أن يعرفوا أبناءهم بربهم وبنبيهم وبكتاب الله ، وباليوم الآخر ومـا فيه ، وبرسل الله وكتبه ، ليؤمنوا بذلك ، وعليهم أن يزرعوا في أنفسهم تقديس وتعظيم شعائر الله تعالى ، وكل ما جاء به الدين من عبادات وأخلاق ومعاملات

وعليهم أن يعلموهم التطهر من النجاسات ، والوضوء ، والصلاة ويجبروهم عليها بالكلمة وهم أبناء سبع ، ويضربوهم عليهـا وهم أبناء عشر ، فقد قال الرسول ﷺ : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم في المضاجع »

وعليهم أن يؤدبوهم بآداب الشرع ، ويغرسوا في نفوسهم حب الله ، وحب رسوله ﷺ : وحب الصالحين ، وعليهم أن يمنعوهم من الوقوع في المنـكر وما حرمه الله تعالى ونهى عنه كتاب الله وسنة رسوله . فمن أبي حفص عمر بن أبي سلمة ربيب (١) رسول الله ﷺ قال : كنت غلاما في حجر (٢) رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش (٣) في الصفحة (٤) ، فقال لي رسول الله ﷺ : « يا غلام ، سم الله تعالى ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » .. فما زالت تلك طعمتي (٥) بعد .

---

(١) ابن زوجته أم سلمه رضى الله عنها (٢) أي في كنفه وحمايته
(٣) يعني لا يأكل من موضع واحد (٤) إناء الطعام
(٥) طعمتي : بكسر الطاء يعني صفة أكلي وهيئته بعد ذلك .

وعلى الآباء أن يتدرجوا فى التعليم حسب سن الأولاد، ويبدأوا بالأهم، والأفضل أن يكون التعليم عن طريق القصة، وعن طريق التقليد فى الأمور العملية كالوضوء والصلاة .

وللبنت أن تتعلم الأمور الخاصة بالنساء مثل الحيض والنفاس وأمثالها من أمها .

وعلى الوالدين تعليم أبنائهما ما يعتبر من الأمور الضرورية حسب تطور العصر الذى يعيشون فيه وحسب طاقة كل منهم مثل القراءة والكتابة والسباحة والرماية والتخصص فى صنعة أو مهنة تؤهلهم للعيش الحر الكريم .

وعلى الآباء أن يوجهوا أبناءهم ويرشدونهم فى تخير أصدقائهم ولا يدعوهم يصاحبون الأشرار والفاسدين والعصاة، فإن الأخلاق تعدى، والمرء على دين خليله ، وصاحب السوء لا خير فيه لنفسه فلا يكون فيه خير لغيره والوقاية خير من العلاج .

٢ - واجب الأبناء نحو الآباء

ليت الأبنـــاء قدروا حق الآباء وعرفوا فضلهم عليهم حق معرفته وواجبهم نحوهم حتى يقابلوا الإحســان بالإحسان ، والفضل بالفضل ، والواجب بالواجب ، ولكن أنى لهم ذلك ، إن أقل الواجب عليهم : الطاعة والبر والإحسان مقابل إنعامهم عليهم وتعبهم من أجلهم وهم صغار ، وكيف لا يجب على الإنسان أن يطيع والديه وقد حملته أمه وهنا على وهن ووضعته وهنا على وهن ، وحملته حين كان جنيناً فى بطنها وحملته بعد أن وضعته فى حضنها أيام وشهور ، وكم سهرت عليه لراحته واستيقظت من نومها لصياحه، ومرضت لمرضه ، وبكت لبـكائه والأب كم كد وجد وتعب من أجل ولده رعاية لنموه ومحافظة على صحته وحياته . .

فإذا كان الأمر كذلك، أليس من الواجب معاونتهما ودفع الأذى عنهما والإنفاق عليهما، ولاسيما إذا كانا قد ضعفا وعجزا، أو مرضا وشاخا، وأخذا ينظران إليه نظرة من يطلب الوفاء ورد الجميل، فهل يقابل النعمة بالنعمة والإحسان بالإحسان، أم يسيء إليهما بعد إحسانهما إليه ؟!

إذن فلا غرو، أن شرع الله واجب الإحسان إليهما والبر بهما بعد واجب توحيده وعبـــادته، وجعل الإحسان إليهما قضـاء وإلزاماً فقال تعالى: « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحســانا » وقال تعالى: « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ».

لقد جعل الله مرتبة الإحسان إلى الوالدين بعد توحيده وعبادته، ولم يقدم على الوالدين مخلوقا، ولذلك قال الإمام النيسابوري في تفسيره: وإنما جعل الإحسان إلى الوالدين تالياً لعبادة الله لوجوه منها:

١ - أنهما سبب وجود الولد، كما أنهما سبب التربية، فلا إنعام بعد إنعام الله تعالى أعظم من إنعام الوالدين.

٢ - ومنها: أن إنعامهما يشبه إنعام الله تعالى من أنهما لا يطلبان بذلك ثناء ولا ثواباً.

٣ - ومنها: أنه تعالى لا يمل من إنعامه على العبد وإن أتى بأعظم الجـــرائم، فكذا الوالدان لا يقطعان عنه مواد كرمهما وإن كان غير بار بهما.

٤ - ومنها: أنه لا كمال للولد إلا ويطلبه الوالد لأجله ويريده عليه، كما أنه تعـالى لا يرضى لعباده إلا الخير، ومن غاية شفقة الوالدين: أنهما لا يحسدان ولدهما إذا كان خيراً منهما، بخـلاف غيرهما، فإنه لا يرضى أن يكون غيره خيراً منه.

ولهذا حكم رسول الله ﷺ بأن الولد وماله ملك لأبيه . فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن لي مالا وولداً ، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي ، فدعا أباه ، فهبط جبريل عليه السلام فقال : إن الشيخ قد قال في نفسه شيئاً لم تسمعه أذناه

فلما قدم ، فإذا هو شيخ يتوكأ على عصـــا . فسأله النبي ﷺ عما ادعى ولده .

فقال : سله يا رسول الله ، هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو إحـدى خالاته ؟

فقال رسول الله ﷺ : دعنا من هذا ، وأخبرني عن شيء ، قلته في نفسك ، ولم تسمعه أذناك !

قال الرجل : لا يزال الله يزيدنا بك بصيرة ويقينا ، نعم .

قال : هات . . فأنشأ الرجل في خطاب ولده :

غذوتك مولوداً وعلتـك يافعاً ... تعل بما أحنو عليك وتنهل(١)

إذا ليـلة نابتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ســاهراً أتملـل

تخاف الردى نفسي عليك وإنها ... لتعلم أن المــوت حت مؤجل

كأني أنا المطروق دونك بالذي ... طرقت به دوني فعيني تهمـل(٢)

فلما بلغت السن والغــاية التي ... إليها مدى ما كنت فيك أؤمل

جعلت جــزائي غلظة وفظاظة ... كأنـك أنت المنعـم المتفضــل

فليتـك إذا لم ترع حق أبوتي ... فعلت كما الجار المجــاور يفعل

فأوليتني حق الجوار ولم تـكن ... علي بمـال دون ذلك تبخــل

---

(١) تسقى اللبن مرة بعد مرة . (٢) تبكي لأجلك .

فبكى رسول الله ﷺ وقال : ما سمع بهذا حجر ولا مدر إلا بكى ؛ وأخذ بتلابيب الولد — أى بمجامع ثيابه ؛ وقال : أنت ومالك لأبيك .

● من معانى البر والعقوق :

قال الإمام القرطبى : بر الوالدين : موافقتهما على أغراضهما ، وعلى هذا إذا أمر أحدهما ولده بأمر وجبت طاعته فيه إذا لم يكن ذلك الأمر معصية

وعن سعيد بن أبى برده قال : سمعت أبى يحدث أنه شهد رجلا يمانياً يطوف بالبيت وقد حمل أمه وراء ظهره ويقول :

أنا لها بعيرها المذلل ... إن أذعرت ركابها لم أذعر

ثم قال يا ابن عمر : أترانى جزيتها ؟ قال : لا ، ولا بزفرة واحدة !!

وروى أن أبا هريرة رضى الله عنه أبصر رجلين ، فقال لأحدهما : ما هذا منك ؟ فقال : أبى . فقال أبو هريرة : لا تسمه باسمه ، ولا تمشى أمامه ، ولا تجلس قبله »

وسئل الفضيل بن عياض عن بر الوالدين ، فقال : ألا تقوم إلى خدمتهما وأنت كسلان ، وقيل : ألا ترفع صوتك عليهما ، ولا تنظر إليهما شزراً ولا يريا منك مخالفة فى ظاهر أو باطن ، وأن تترحم عليهما ما عاشا ، وتدعو لهما إذا ماتا .

ومن البر الإنفاق عليهما إذا احتاجا إلى نفقة ، والتوسعة عليهما إن كانت حالتهما أقل من حالة ابنهما أو بنتهما ، وأن يرحم أباه وأمه من الأعمال الوضيعة ، ويكفيهما النفقة :

وعقوق الوالدين : هو إهمال حقوقهما والخروج عن طاعتهما ، وفعل مالا يرضيهما ، وإيذاؤهما ولو بكلمة مرة ، أو نظرة شزرة . . فمن أفعل

شيئاً من هذا استحق سخط الله تعالى ؛ وحرم تأييده وتوفيقه ، وارتكب إثماً من أكبر الكبائر قال رسول الله ، ﷺ : ألا أخبركم بأكبر الكبائر قالوا : بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور والزنا » وقال ﷺ : « من الكبائر أن يسب الرجل والديه قالوا : وهل يسب الرجل أباه ؟ فقال . نعم ، يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه » ..

● حق الأم فى البر اكبر من حق الاب :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله ، من أحق الناس بحسن صحابتى ؟قال أمك: قال ثم من ؟ قال : أمك قال ثم من ؟ : قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أبوك .

قال الإمام القرطبى : فهذا الحديث يدل على أن محبة الأم والشفقة عليها ينبغى أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب . وذلك أن صعوبة الحمل ، وصعوبة الوضع ، وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب ، فهذه ثلاث مشقات يخلو منها الأب .

● من بر الوالدين استئذانهما للجهاد:

عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى نبى الله ﷺ فاستأذنه فى الجهاد « فقال أحى والداك ؟قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد» .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله ﷺ فقال : هل لك أحد فى اليمن ؟ قال : أبواى . قال : أذنا لك ؟ قال : لا . قال : فارجع إليهما فاستأذنهما ،فإن إذنا لك فجاهد، وإلا فبرهما

ويستدل الإمام القرطبي من هذه الأحاديث وغيرها على قوله : من الإحسان إليهما والبر بهما إذا لم يتعين الجهاد ألا يجاهد إلا بإذنهما .

وهذا دليل على وجوب استئذان الأبوين للجهاد إذا لم يتعين الجهاد عليه ، لأنه حين يتعين يصير فرض عين لا فرضاً كفائياً ، وهو يصير فرض عين فى الأحوال الثلاثة الآتية :

١ ـ أن يهاجم العدو بلده ٢ ـ أن يختاره الإمام المسلم للقتال .

٣ ـ أن يكون الجيش الذى يدافع عن بلد إسلامى غير كاف ويستطيع أن يساعد هذا الجيش .

● بر الوالدين بعد وفاتهما :

ولا يقتصر البر بالوالدين فى حياتهما ، فلهما هذا الحق على أولادهما بعد موتهما أيضاً ، وذلك بالاستغفار لهما والدعاء لهما بالرحمة والعفو ودخول الجنة ، والنجاة من عذاب القبر ومن نار جهنم ؛ فقد قال تعالى : « وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » ، وقد ورد فى حديث رسول الله ﷺ الذى ذكر أن عمل المرء ينقطع بموته إلا من ثلاث ، ذكر منها الولد الصالح الذى يدعو له . ويصل الوالدين بعد الموت ثواب صدقة الأبناء عنهما ، فقد جاء رجل إلى النبى ﷺ يسأله : « إن أبى مات ولم يوص أفينفعه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم » كما ينفعهما الصلاة لهما ، وقراءة القرآن ، والصيام ، وجميع الطاعات عند أهل السنة ، فذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء وجماعة من أصحاب الشافعى إلى ذلك .

ولا يخفى على الأبناء أن من الواجب عليهم سداد الديون عن الوالدين بعد موتهما ..

ومن البر بالوالدين بعد موتهما صلة أقربائهما وأصدقائهما ، فعن أبي بردة رضي الله عنه قال قدمت المدينة فأتاني عبد الله بن عمر فقال أتدري لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه بعده» ، وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك » .. وعن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله يقول : إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » .

وعن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من بني سلمة فقال: يارسول الله هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتهما ؟ « قال : نعم ، الصلاة عليهما (١) والاستغفار لهما (٢)، وإنفاذ عهدهما من بعدهما (٣) وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما (٤) ، وإكرام صديقهما » .

---

(١) الدعاء لهما بالرحمة (٢) طلب المغفرة لهما من الله

(٣) العمل بوصيتهما . (٤) صلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما مثل الأجداد والأعمام والأخوال وغيرهم .

الفصل الثالث

أسرار التربية السليمة

الطفل هو أغلى ما يملك الإنسان فى هذه الحياة بعد الإيمان بالله ، وهو قطعة منه ، ولهذا قال الشاعر :

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشى على الأرض

والطفل امتداد لحياة الإنسان وعمله على الأرض ، وفرع من شجرته . .

والطفل يولد على فطرة الإيمان والتوحيد ، وأبويه يمكن أن ينحرفا به إلى الشرك والكفر ، فيشقى وتشقى به أمته . ولمكانة الطفل العظيمة فى فى قلب والديه ، ولأنهما مسئولان عنه وعن تربيته أمام الله يوم الحساب ، صار من الواجب عليهما أن يبذلا أقصى العناية والرعاية لينشأ أولادهما على حب الله ورسوله وحب والديه وحب المؤمنين وحب الخير لأمته المسلمة التى تنشد جيلا قويا بإيمانه وأخلاقه يحقق آمالها ويستعيد قوتها وعزتها .

أسس التربية السليمة

يبدأ العمل التربوى الإسلامى فى تكوين الشخصية المسلمة فى وقت مبكر : منذ اللحظة الأولى فى ابتداء البيت المسلم حيث تنبت الناشئة وتدرج . منذ اختيار الزوجين ، إذ من أصلابهما ومن دمائهما يجيء الطفل ومعه وراثات واستعدادات ، ومنهما تتكون بيئة الأسرة التى يجد فيها الطفل عالمه ومقومات سلوكه ، فلا يقع سمعه أول ما يقع إلا على

ما يصدر منهما ، ولا يشاهد أول مايشاهد إلا صورتهما ولا يستقى أول ما يستقى من قيم واتجاهات إلامن معين روحهما وفكرهما . وقديماً قال بعض السلف : « لولا المربى ما عرفت ربى » .

لهذا يحث الإسلام على حسن اختيار المرء لزوجته لأن الولد فرع لها ، وللفرع حكم الأصل ، وإن الفرع بأصله يطيب ، فقال تعالى : « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض » وقال تعالى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ، وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين » .

كما يحث على أن يأكل المسلم من الحلال،ويطعم زوجته من الحلال أيضاً ، لأن النطفة تنشأ من الدم ، والدم ينشأ من الغذاء ، وكل لحم نبت من حرام فالنار أولى به ، ومن خلق للنار، عمل عمل أهل النار،ولا تربية حينئذ تفلح ولا تهذيب ينفع . ويحض المسلم على الدعاء عند الجماع بأن يجنب الله مايرزقانه الشيطان وأن تعلق الأم رجاءها بالله تعالى- عند شعورها بالحمل- أن يكون جنينها فى المستقبل تقياً صالحاً .. ويستحب أن تخالف الأم هواها فى مشتهياتها أحيانا فى أثناء الوحم ، فالجنين جزء منها ، ويتأثر مما تتأثر منه من قوة الإرادة أو ضعفها .

ويسن الإسلام الأذان بصوت خفيض فى أذن الوليد اليمنى وإقامة الصلاة فى أذنه اليسرى . .

ولما كان اسم المرء كان له إيحاءاته وأثره على دينه وسلوكه وخلقه، فقد حرص الرسول ﷺ أن يتسمى أبناء المسلمين بأسماء جميلة ومعبرة عن عقائد الإسلام وقيمه ، فكان عليه السلام يغير الاسم القبيح ، فغير إسم العاصى

وعزيز والحكم وغيرها من الأسماء القبيحة . . قال العلماء . أما العاصى ، فإنما غيره لمعنى العصيان ، وإنما سمة المؤمن الطاعة والاستسلام لله . وأما العزيز ، إنما غيره لأن العزة لله ، وشعار العبد الذلة لله والاستكانة له . وأما الحكم ، هو الحاكم الذى لا رد لحكمه ، وهذه الصفة لا تليق إلا بالله تعالى ، فمن أسمائه الحسنى : الحكم .

ولكى تحقق التربية أهدافها ، لا بد من أن تقوم على الأسس التالية :

١ – أن تخضع لقاعدة النمو : فنحن لا نستطيع أن نعلم الطفل كل شىء فى أى مرحلة أو أن نطالبه بأى سلوك فى أى سن ، إذ من الضرورى مراعاة مسايرة النمو الطبيعى للطفل . ذلك أن نمو الطفل يمر بمراحل ، لكل مرحلة طبيعتها وخصائصها ، الأمر الذى يقتضى اختلافاً فى أساليب التربية والتعليم بحسب كل مرحلة ، فمثلا الأساليب والوسائل التى ينبغى أن تستعمل فى مرحلة الطفولة غير الأساليب والوسائل التى يجب أن تستعمل فى مرحلة المراهقة ، إذ أنها يجب أن تكون حسية بقدر الإمكان فى المرحلة الأولى ، وأن تكون عقلية إدراكية فى المرحلة الثانية ، وقد يقتضى الأمر الجمع بين الوسيلتين فى بعض الموضوعات التعليمية .

٢ – أن تراعى الفروق الفردية بين الذكور والإناث من جهة ، وبين أفراد الجنس الواحد من جهة أخرى . . هذه الفروق قد تكون فى الإحساس وقد يكون فى القدرات العقلية وقد تكون فى الميول وغيرها .

٣ – أن يراعى تكامل الطبيعة الإنسانية ومكوناتها النفسية والعقلية والجسمية وما بينهما من تفاعل . فالضعف فى جانب من هذه الجوانب يؤدى

إلى ذبول الجوانب الأخرى ، فهناك من الآباء من يهتمون بتربية الأجسام ويهملون مطالب النفس والعقل والروح ، فيكون نتاج التربية حينئذ عبارة عن حيوانات تخرج إلى المجتمع بكل ما عندها من أثرة وشهوانية لا تملك عطاء ولا تقدر على بناء إن لم تكن عوامل هدم وتخريب.

٤ - مراعاة أن الطبيعة الإنسانية ليست خيراً محضاً وليست شراً محضاً ، فقد خلق الله الإنسان مستعداً للخير والشر معاً ، فقال تعالى : « وهديناه النجدين » ، وقال : ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » وقال الرسول ﷺ : « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . فالصبي كما يقول الإمام الغزالي رضى الله عنه : « أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة ، خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ماينقش فيه ، ومائل إلى كل مايمال به إليه ، فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد فى الدنيا والآخرة ، وشاركه فى ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب . وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقى وهلك ، وكان الوزر فى رقبة مربيه والمقيم عليه » .

٥ ـ الاستفادة من مرونة الطبيعة الإنسانية ، فالإنسان قابل لتكوين عادات جديدة وإزالة عادات قديمة ، وسهولة ذلك تختلف بحسب عمر الإنسان ومدى قابليته للتشكيل من جهة وبين أساليب التغيير من جهة أخرى .

٦ ـ التربية الاجتماعية يجب أن تتم فى بيئة ووسط اجتماعى ، فيجب تخير البيئة الصالحة للطفل . لتتوفر له فيها القدوة الطيبة ، كما يجب أن لا نتركه لإخوان السوء ، وندله على الأخيار الأبرار ليجد منهم عونا على الاستقامة والصلاح والبر والتقوى .

مبادىء الصحة النفسية للطفل

إذا كنا لا نغفل بناء أجسام أطفالنا بنـــاء صحيا ، بتحرى شروط التغذية الكاملة وإعطائهم حقهم فى الأنشطة الرياضية والترويحية ، وتعوديهم على النظافة وإبعادهم عن الأماكن الموبوءة ..

إذا كان ذلك كذلك فلا يجب أن نغفل هذه المبادىء فى الصحة النفسية للطفل :

أولا : سلامة الجو العائلى من الخصـومات المستمرة ، إذ أن الخصومة المستمرة بين الوالدين تؤثر تأثيراً كبيراً فى نفسية الطفل . فإذا أحس أحد الوالدين أو كليهما بأن الحياة الزوجية أصبحت لا تطاق لأى سبب من الأسباب ، فهذا الشعور يؤدى إلى السخط والضيق من الحياة المنزلية الذى يمنعه من إضفاء حنـان الأبوة وعواطفها على جو البيت ، عندئذ لا يجـد الأبناء حباً ولا عطفاً بل يشعرون بالنبذ والإهمال والسخط ، فيتـكون لديهم شعور بالحرمان من عاطفة الأبوة قد يتسبب فى العقد النفسية التى تؤدى إلى اضطراب الشخصية.

ثانياً : تحقيق الحاجات النفسية الأولية للطفـل : ومن أهمها الشعور بالأمن ، الذى يجـده الطفل فى الحب والتقبـل من الوالدين واستقرار معاملاتهم له .

ثالثا : تجنب الأساليب الخاطئـة فى التربية وأهمها :

١ ـ الحرمان من رعاية الأم، وغيابها عنه لأى سبب من الأسباب .

٢ ـ شعور الطفل بأنه غير مرغوب فيه أو منبوذ، وذلك نتيجة الإهمال

وعدم تحقيق رغباته والتهديد المستمر بالطرد من البيت أو عقابه للأمور التافهة ، وهذا هو السبب فى بعض الحالات المرضية التى نجدها عند بعض الأطفال مثل الثورة والعناد والعدوان والخروج على النظام..

٣ ـ إفراط الأبوين فى التسامح والتساهل والصفح ، وهذا يؤدى إلى عدم النضج الإنفعالى للأولاد ، وعدم أخذهم الأمور بجدية وتحملهم نتائج الفشل فى الحياة لأنهم ينتظرون من الناس أن يكونوا كالأبوين فى الصفح وعدم العقاب والحساب .

٤ ـ التدليل والإفراط فى رعاية الأطفال وحمايتهم أو الصرامة والقسوة من جانب الوالدين .

٥ ـ الطموح الزائد من الآباء، فقد يرغب بعض الآباء فى أن يحتل ابنه مركزاً معيناً دون مراعاة لاستعداداته وإمكانياته وميوله وقدراته ، ونتيجة لهذا يضغط الوالد على ابنه فى العمل والمذاكرة فيضجر الطفل ويتكون لديه انفعال مضاد لهذا الاتجاه .

* * *

مبادىء التربية العقلية

العقل فى الإنسان هو مناط التكليف ، لذلك اهتم المنهج القرآنى بتنمية القدرات العقلية وإيقاظها ، لأن تقدم المسلمين العلمى والحضارى متوقفان عليها.

والتربية العقلية فى فى عمومها هى تنمية القدرات العقلية المختلفة بحسب ماتسمح به الاستعدادات الفطرية والوراثية لدى كل فرد، ولكى تحقق هذه التربية أهدافها يراعى ما يلى :

١ ـ أن يخضع تقديم المعلومات لقاعدة النمو ومستوى الإدراك ،لأنه إذا كانت المعلومات أو طريقة تقديمها للطفل فوق مستواه ، أدى ذلك إلى عدم فهمه لها ، وإعاقة نموه العقلى ، وإلى عدم ثقته بنفسه .

٢ ـ ألا نتركه بعد تقديم المعلومات إلا بعد أن نتيقن أنه قد أدركها واستوعبها حتى أصبحت واضحة فى ذهنه ، فإن التفريط فى هذا يؤدى بالطفل إلى عدم القدرة على التمييز بين المعلومات والخلط بينها ، فلا يستطيع استخدامها فى مواضعها عند اللزوم .

٣ ـ استخدام الطريقة النقدية ، وذلك ببيان أوجه الكمال والنقص فيما يقدم من معلومات ، وتشجيع الطفل على تحديد ذلك بنفسه .

٤ ـ تقديم المعلومات الصحيحة الموثقة ، ليكون بناء الثقافة فى ذهن الطفل سليماً من أساسه وذلك بالرجوع إلى مصادر هل الثقة .

٥ ـ بيان طرق التفكير الصحيح للوصول إلى الحقائق ، والتمييز بين التفكير العلمى والتفكير الخرافى .

٦ ـ تدريب الأبناء على تطبيق المعلومات وحل المشكلات فى الحياة العملية ، فالمجهود الذى نبذله فى عملية تعليم الأبناء إن لم يظهر أثره فى حياتهم يعتبر مجهوداً ضائعاً .

٧ ـ إثارة انتباه الأبناء إلى الطبيعة وظواهرها المثيرة . . هذه الإثارة تدفع عقولهم إلى البحث عن الحقيقة وعن السنن التى تجرى بها هذه الظواهر المدهشة ، وهذا بدوره ينشط العقل ويوقظه من سباته ونومه وغفلته .

٨ ـ تشجيع الطفل على البحث عن الحق بطريقة موضوعية ليقوم التزامه به واتباعه له على أساس وطيد لا يتزعزع أمام شكوك المبطلين .

٩ ـ توجيه نشاط الطفل العقلى وتركيزه فى أعمال عقلية باستمرار وأن يكون هذا التوجيه خاضعاً للأسس التربوية ويتعلق بهذه النقطة تخليص الطفل من القلق والصراع النفسى والتشتت الذهنى والمشكلات الأسرية والنفسية الأخرى ، وكل ما يشكل عائقاً أمام فاعلية الذكاء ونشاطه وتركيزه ، وكل مايتسبب فى تعويق نمو عقل الطفل نمواً سليماً وإرهاقه وتبديد حيويته ونشاطه

ويجب أن يعلم الآباء والأمهات أن التعليم فى الإسلام لا يقتصر على علم معين من العلوم ولا ناحية من نواحى الحياة ، بل يشمل كل علم و كل خبرة دينية ودنيوية تتصل بحياة الأولاد المختلفة .

مبادىء التربية الروحية

لا يبلغ الإنسان رقيه ، ولا يبلغ حقيقة الإنسانية فى كيانه إلا بصحوة روحه وتزكية طاقاتها وعقد الصلة الدائمة بينها وبين الملأ الأعلى ..

وفى الإسلام ليس من العسير اتصال البشر بعالم الغيب ، ففى روح الإنسان طاقة ربانية تصله بهذا العالم .. فلقد نفخ الله من روحه فى الإنسان ، فكان ذلك الروح سر امتيازه وتفضيله وتعدد آفاقه ومواهبه ، هذا التكوين فيه إشارة إلى أفق آخر من آفاق الغيب يتصل به الإنسان ويتجاوب معه ويتعرض لما شاء الله من رحماته ونفحاته القدسية ..

وقصة نشأة الإنسان وغاية وجوده تنص على أن الأرض إن هى إلا مستقر مؤقت للإنسان : « .. ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » .. هبط إليها من الملأ الأعلى وعما قليل سيرحل عنها إلى حيث يشاء الله : « وقال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون » ، « وإن إلى ربك المنتهى » .

فإذا تمثل وجدان المسلم ذلك استطاع أن يتبين دستور الإقامة المؤقتة ومنهجها الذى التزم به سيدنا رسول الله ﷺ وأوصى به صحبه وأمته ، إذ أخذ بمنكبى عبدالله بن عمر يوماً فقال له : « كن فى الدنيا غريب أو عابر سبيل » .. بحضور هذه الحقيقة فى وجدان المسلم دوماً وعيشه فيها يكون على صلة لا تنقطع بالملأ الأعلى ..

وعلينا دائماً أن نركز هذه الحقيقة فى قلوبنا وقلوب أولادنا ، وسبيلنا إلى ذلك هو العمل بمنهج القرآن ، والحياة فى أجوائه وآفاقه ..

ومنهج القرآن فى تزكية الروح وتربيتها يقوم على ما يلى :

١ ـ البدء بتأصيل الإيمان بالله الواحد ، تأصيل معرفة وحب وتقوى وثقة وطمأنينة .. ولا تدرك الروح هذا الزاد إلا بفتح نوافذ التفكر فى آيات الخلق، فإذا معالم الجلال والجمال بادية فى آثار القدرة من العلم والحكمة والحق والمجد ، والعظمة والإحسان والعدل والكرم والود والبر والخير والرحمة إلى غير ذلك .

٢ ـ هذه العقيدة السليمة تتقاضى صاحبها أن يحقق فى ذاته معانى العبودية الحقة لله بالصلاة والذكر والصوم والحج والزكاة .. فالعبادة صلة مباشرة بين العبد وربه ، وتربية على الإحساس بقرب الله وحبه : فالصلاة لقاء دعاء وذكر ومناجاة . والصوم هجر لما تحبه النفس إيثاراً لما يحبه الله ، والحج زيارة لبلد الله وبيته ، وإحساس بالضيافة والقرب ، والزكاة تطهير وإحساس بالفضل والنعمة .. هذه الحياة الروحية لا بد أن ينشأ عنها وجدان قوى لا ينفك عنها بحال : يحب الإيمان ، ويكره الكفر ، يلهم الإنسان غايته العليا التى يجب أن تتعلق بها همته ، وأن تنعقد بها جهوده ، فلا يرى باطلا إلا جرد نفسه لمجاهدته ، ولا يرى حقاً إلا جرد نفسه لدعمه وتأييده ، فهو عامل للخير مكافح للشر ما دام قد أوتى حظه من معرفة الله .

وهذه الطريقة يسوقها لنا القرآن الكريم فى منهج تربية لقمان لابنه ، إذ بدأ أولا بغرس عقيدة التوحيد فى نفس ابنه ، وذلك بنهيه عن الشرك بالله فقال تعالى : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » ، ويتبع ذلك بذكر أوصاف يصور بها له عظمة الله وعلمه وقدرته وقوته تصويراً يرتجف له الوجدان البشرى فقال: « يابنى إنها

إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير » .

وبعد انتهائه من أمر العقيدة يأمره بتحقيق معانى العبودية لله : بالصلاة وعمل الخير والأمر به، والنهى عن المنكر، واتباع الآداب الاجتماعية الجيدة، والصبر على ما يصيبه فى سبيل ذلك من نصب ووصب وجهد وتعب، فقال: « يا بنى أقم الصلاة لذكرى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير».

ونلاحظ هنا ميزة رئيسية فى التربية الإسلامية ، وهى أنها تربط بين التربية الروحية وبين التربية الأخلاقية والاجتماعية أو بين العقيدة وبين سلوك الإنسان بوجه عام .

مبادىء التربية الخلقية

لا تستقيم الحياة الإنسانية ولا يستمر للمجتمعات البشرية بقاء ولا وجود بغير الأخلاق إذ لو سادت فى الحياة الاجتماعية الخيانة والرشوة والفاحشة والكذب والظلم وعدم الإخلاص والتعاون والمحبة والرحمة ،فكيف تستقيم حياة الجماعة والحالة هذه ؟! وكيف يشعر الناس بالأمن والسكينة ؟! وكيف يستريح بعضهم إلى بعض فى المعاملة والمصاحبة؟! . . لا شك أنها لاتستقيم بأى حال من الأحوال .

لذلك بعث الله الرسول الكريم ليعلن على الناس كافة . « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . . وبهذا يحصر الرسول ﷺ هدف الرسالة كله فى

إتمام مكارم الأخلاق ، التى اتسع مجالها ليشمل الكون كله : فدخل فى نطاق الأخلاق الإسلامية علاقة الإنسان بالله وتنظمها العبادة ، وعلاقة الإنسان بالإنسان ، وتنظمها الشريعة ، وعلاقته بالكائنات الحية وتدخل فى قسم الآداب العامة . . لأن الإسلام يأمر بالأدب مع الله ، ومع الناس ، ومع الحيوانات ، ومع الملائكة .

وإذا كانت التربية الأخلاقية تهدف إلى بناء شخصية خلقية أو شخصية إنسانية كاملة ، فإن خطورة شأن هذا الهدف تظهر بوضـــوح فى تربية الأطفال وهم صغار لأن بناء الشخصية ينبغى أن يبدأ مع بناء الجسم واللحم ويتطور معه ويكتمل حتى تصبح الأخلاق طبيعة ثانية للطفل فى كبره .

ومن هنا يبدو بوضوح دور الآباء فى بناء هذه الشخصية ومسئولياتهم إزاءها . .

وهناك مبـــادىء فى التربية الأخلاقية لا بد من قيام الآباء بتطبيقها وهى :

١ ـ بث روح الثقة فى نفس الطفل . . الثقة فى نفسه وبغيره من المؤمنين ، ولا سيما بالمربى . والثقة بأن الإنسان صانع سلوكه ويستطيع تغييره وتبديله إذا شاء .

٢ ـ بث روح الحب والتعاطف بين الطفل وبين أفراد البيت من جهة وبينه وبين الناس من جهة أخرى وخاصة أهل العلم والتقوى والجهاد

٣ ـ تكوين شعور لدى الطفل بأن المبادىء الخلقية نابعة من داخل الإنسان أصلها الدين وليست قوانين مفروضة عليهم من الآباء أو المجتمع ، لأنها مبادىء إنسانية ميز الله بها الإنسان عن غيره من الحيوانات ، وأنها ضرورة اجتماعية لا تقوم المجتمع قائمة بدونها .

٤ ـ إن التربية الخلقية لا تتم ولا تقوم لها قائمة بدون تربية قوة الإرادة، فتكوين قوة الإرادة هو المبدأ الأساسي فى التربية الأخلاقية ، فلا يستطيع الإنسان أن يكون له موقف فى الحياة يليق بمكانته فى الوجود بدون أن يملك قوة الإرادة ، ومظاهر قوة الإرادة هى الشجاعة فى مواجهة الحياة وضروبها المختلفة حلوها ومرها ، والثبات على مبادىء الخير التى يؤمن بها مهما كلفه ذلك من تضحيات

٥ ـ خلق إحساس خلقى فى نفس الطفل ، باحترام إنسانيته وعدم زجره وعقابه على كل صغيرة وكبيرة ، وإذا كان لا بد من الزجر والعقاب،فينبغى أن يكون بأخف ما يمكن حتى لاتتبلد أحاسيس الطفل.

٦ ـ تطبيع الطفل تطبيعاً خلقيا ، بجعل الأخلاق طبيعة ثانية وعادة لا يستطيعون مخالفتها لأن النفس لا تخالف عاداتها بسهولة .

● طرق التربية الاخلاقية :

أولا : القدوة الحسنة . يتميز الطفل بقدرة فائقة على التقليد والمحاكاة، فينبغى أن يكون الكبار قدوة حسنة يحاكيها الأطفال ، حيث يتعلم الأطفال فى المرحلة الأولى من حياتهم سلوكهم عن طريق تسجيلهم لكل ما يرونه من سلوك الوالدين وما يلاحظونه من حركاتهم. وقد يظن الكبار أن الاطفال لا يدركون معانى أعمالهم حقاً،فقد لا يدركون مغزى ما يفعلون، إلا أنهم سيفسرونه فيما بعد ويدركون ما فيه من معانى الحسن والقبح.

ثانياً : تقديم الحقائق الموضوعية عن المبادىء الخلقية ، بالاعتماد على الاقتناع النظرى للأطفال والنتائج العلمية والحقائق التاريخية فى عواقب الانحراف ومضار سوء الخلق . . كيف أن الغش والكذب والرشوة تصيب

المجتمعات بالانحلال ، وكيف أن عدم إتقان العمل والبطالة يعودان على صاحبهما بالفقر والإفلاس وعلى المجتمع بالتخلف والضعف ، وكيف أن شيوع الفاحشة والخمر يضر النسل ويصيب العقل ... وفى قصص القرآن عبرة.

ثالثاً : طريقة الممارسة والتدريب العملى . بإتاحة الفرص والمواقف الأخلاقية التى يختار فيها الأطفال تطبيق مبادىء خلقية معينة ، ويكافأون على ذلك إما بالتأييد والتشجيع أو بوسائل مادية مناسبة لكل طفل .

● مراتب التربية الاخلاقية :

وتبدأ بتحديد الصورة الأخلاقية فى ذهن الأطفال ، ثم بث الوعى بالمبادىء والصور الاخلاقية على أساس للمعايير العقلية للسلوك الأخلاقى وتنتهى بخلق الشعور العاطفى والانسجام بين للمبادىء الخلقية وبين الجانب النظرى من جهة وبين التطبيق العملى من جهة أخرى .

مع نهاية فصول هذا الباب نوصي بهذه الكتب:

- المرأة فى التصور الإسلامى .. للأستاذ عبد المتعال الجبرى.
- المرأة بين الفقه والقانون .. لفضيلة الدكتور مصطفى السباعى.
- السلوك الاجتماعى فى الاسلام .. للشيخ حسن أيوب
- تحفة المودود فى أحكام المولود .. للامام ابن قيم الجوزية
- موعظة المؤمنين .. للعلامة جمال الدين القاسمى
- منهج القرآن فى التربية .. للاستاذ محمد شديد
- منهج التربية الاسلامية (جزءان) .. للاستاذ محمد قطب

الباب الثالث

الأخوات المسلمات
مكانةً ودوراً

- نظرة تاريخية .
- واجبات الأخت المسلمة .
- منهج تكوين الأخت المسلمة ثقافياً وروحيا .
- مواقف للأخت المسلمة .

الفصل الأول

نظرة تاريخية

« وددت لو أبلغ هذه الدعوة للطفل فى بطن أمه »

حسن البنا

تقديراً لمسئولية الدعوة إلى الله ، وخضوعا لأمر الله تبارك وتعالى ، صدع الإمام الشهيد حسن البنا بأمر ربه ، وكانت صيحته المدوية ، داعيا إلى الله .. إلى الإسلام كمنهج حياة .

فكان أول عمل قام به — عند ما استقر به المقام كمدرس بمدينة الإسماعيلية مهد دعوة الإخوان المسلمين الأول ، وهو فى صدر شبابه ، وكان عمره ٢٢ اثنين وعشرين عاما — أن نادى فى الناس جميعا أن يعودوا إلى الإسلام الصافى الذى جاء به محمد ﷺ .

وتكونت أول شعبة للإخوان المسلمين سنة ١٩٢٨ .

وما من شك فى أن دعوة الإخوان المسلمين هى صدى للدعوة الأولى ونداء موجه إلى الرجل والمرأة على السواء .

ولهذا كان واضحا فى ذهن الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله أن دور المرأة فى الإسلام دور خطير ، له أثره البعيد فى تكوين الرجال والدعائم الأساسية التى ارتكزت عليها دعوة الإخوان المسلمين هى :

تكوين الفرد المسلم ، والأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، ثم تخرج من هذا المجتمع المسلم الحكومة المسلمة .

وفى شهر رمضـان المبارك ١٣٤٨ وفى ليلة ١٧ منه وتفاؤلا بغزوة بدر الـكبرى تم افتتـاح أول مسجد للاخوان المسلمين فى الاسماعيلية . ثم تبعه بناء مدرسة فوق المسجد سميت « معهد حـــراء الإسلامى » . ولما استقر العمل بالمعهد تم إنشاء مدرسة للبنات أطلق عليها إسم : « مدرســة أمهات المؤمنين » .

ووضع لهذه المدرسة منهاج عصرى إسـلامى : يجمـع بين أدب الإسلام — وتوجيهه السامى للفتيـــات والأمهات والزوجات — وبين مقتضيات العصر ومطالبه من العلوم النظرية والعملية .

وقد أدت المدرسة رسالتها ، فاستتبع ذلك إنشاء قسم للأخوات المسلمات ، يتـألف من نساء الإخوان المسلمين وبنـاتهن وقريباتهن ، ويقوم بالتدريس فيه مدرسات المدرسة ، وأطلق عليه الإمام الشهيد حسن البنـا فى هذا الوقت إسم « فرقة الأخوات المسلمات »

ووضعت لهن لائحة خاصة ، تنظم طرائق السير ووسائل نشر الدعوة الإسلامية بين السيدات والفتيات المسلمات من بيوت الإخوان وغيرهن.

● وقد جاء بمذكرات « الدعوة والداعية » مايلى (١) :

وللذكرى نثبت هنا « أول لائحة لقسم الأخوات المسلمات ، وكان عليها العمل بالإسماعيلية والقاهرة بعد ذلك :

فى غرة المحرم ١٣٥٢ الهجرية الموافق ٢٦ من إبريل سنة ١٩٣٣ تألفت فى الإسماعيلية فرقة أدبية إسلامية تسمى « فرقة الأخوات المسلمات » .

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية ص ١٥٦ .

(أ) الغرض من تكوين هذه الفرقة :

التمسك بالآداب الإسلامية ، والدعوة إلى الفضيلة ، وبيان أضرار الخرافات الشائعة بين المسلمات .

(ب) وسائل التفرقة :

الدروس والمحاضرات في المجتمعات الخاصة بالسيدات ، والنصح الشخصي ، والكتابة والنشر .

(ج) نظام الفرقة :

١ ـ تعتبر عضوا في الفرقة كل مسلمة تود العمل على مبادئها ، وتقسم قسمها وهو :

« على عهد الله وميثاقه أن أتمسك بآداب الإسلام ، وأن أدعو إلى الفضيلة ما استطعت »

٢ ـ رئيس الفرقة هو المرشد العام لجمعيات الإخوان المسلمين، ويتصل بأعضائها وكيلة عنه تكون صلة بينهن وبينه .

٣ ـ كل أعضاء الفرقة ، ومنهن الوكيلة أخوات في الدرجة والمبدأ . وتوزع الأعمال التي تستدعي تحقيق الفكرة عليهن ، كل فيما يخصه .

٤ ـ يعقد أعضاء الفرقة اجتماعاً أسبوعيا خاصا بهن ، يدون فيه ما قمن به من الأعمال خلال الأسبوع الماضي ، وما يرونه في الأسبوع الآتي ، وفي حالة ما إذا كثر عدد الأعضاء ، يصح أن يقتصر هذا الاجتماع على المكلفات بالأعمال منهن .

٥ ـ تحصل اشتراكات مالية اختيارية حسب القدرة ، وتحفظ في عهدة إحدى الأخوات للانفاق منها على مشروعات الفرقة .

٦ ـ يصح تعميم هـذا النظام فى غير الإسماعيلية ، فى حـدود هذه اللائحة .

٧ ـ يعمل بهذه اللائحة بمجرد التصـديق عليها من أعضـاء الفرقة التأسيسية والتوقيع منهن بما يفيد ذلك .

الأخوات المسلمات فى القاهرة

بعد انتقال إدارة الإخوان المسلمين إلى القاهرة ، والتى نشرت جريدة الإخوان نبأه بعددها الثلاثين فى الخميس ١٥ من ذى القعدة ١٣٥٢ الهجرية الموافق ١٩٣٢ تقريبا تكونت فى القاهرة « فرقة الأخوات المسلمات » يشتغل عبء العمل فيها نساء بيوت الإخوان وقريباتهن .

واختيرت السيدة الصالحة الحاجة « لبيبه أحمد » رئيسة لها ولفرق الإخوات فى الإسماعيلية وبور سعيد .

وقد وجهت بعد اختيارها كلمة طيبة نشرتها المجلة جاء فيها

أخواتى وبناتى :

أحمد إليكن الله الذى لا إله إلا هو ، وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، وأحييكن بتحية الإسلام ، فالسلام عليكن ورحمة الله وبركاته. كم أنا سعيدة مسرورة بأن أتقبل هذه الدعوة من حضرة المرشـــد العام للاخوان المسلمين للتشرف بخدمة مبادئكن ، والتقدم لرياسة فرقكن وإنى مع ضعفى عن احتمال هذا العبء ، وعجزى عن القيام بهذه المهمة ؛ أعتقد أنى سأجد من غيرتكن ومعاونتكن ما يجعلنا نصل إلى الغاية التى ننشدها من نشر تعاليم الإسلام ، وبث آدابه ومبادئه فى نفس الفتاة المسلمة ، والأسرة المسلمة ، والله المستعان .

ومضت الحاجة لبيبة أحمد فى ندائها للأخوات تقول:

المرأة أستاذ العالم

إن الأمة كما ترون فى تدهور خلقى، وخلل اجتماعى، بدت أعراضه فى كل مظاهر الحياة؛ فى المنزل وفى الشارع وفى المصنع والمتجر، وفى كل بيئة، وفى كل وسط، ودوام هذا الحال يؤدي بنا إلى أوخم العواقب، وأحط النتائج

وأساس إصلاح الأمة إصلاح الأسرة، وأول إصلاح الأسرة إصلاح الفتاة، لأن المرأة أستاذ العالم، ولأن المرأة التى تهز المهد بيمينها، تهز العالم بيسارها.

وإن على الفتاة المسلمة أن تفهم أن مهمتها من أقدس المهمات وأن أثرها فى حياة أمتها أعمق الآثار، وأن فى مقدورها أن تصلح الأمة، إذا وجهت عنايتها لهذا الإصلاح.

لهذا نحن نريد أن نصلح أنفسنا وأعتقد أن فى تعاليم الإسلام وأحكامه إن علمناها وعملنا بها؛ ما يكفل هذا الإصلاح المنشود.

وإذاً: فهيا يا أخواتى وبناتى نصلح أنفسنا لنفهم الإسلام ونعمل به، ونبث تعاليمه فى نفس المرأة المسلمة، فإن صلحنا صلحت بصلاحنا الأسرة، وكان ذلك صلاح أمتنا جمعاء.

ذلك ما أردت أن أبينه لكن منهاجا لعملنا الذى ألزمنا أنفسنا. والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير لأمتنا العزيزة المفداة «لبيبة أحمد»

• السبب فى اهتمام الاخوان بالمرأة المسلمة :

السبب الرئيسى هو السبب الذى من أجله بايع رسول الله ﷺ الرجال والنساء فى بيعة العقبة الأولى والثانية؛ هذه واحدة، أما الثانية فهى

للمساواة الكاملة فى الثواب والعقاب على العمل الذى وضحته الآية الكريمة فى قوله تعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »

ولكى يسير العمل سليما ومتمشيا مع آداب الإسلام وأحكامه ، كان لا بد من أن يكون قسم الأخوات المسلمات منفصلا بمكانه وإدارته وكل شئونه عن شئون وإدارة الإخوان ، ولكنه فى النهاية يخضع لنظام الإخوان المسلمين . كفرع من فروع النشاط التى تحكمها أنظمة الإخوان .

وقد اقتضت ظروف الحاجة لبيبة أحمد ـ الرئيسة العامة للأخوات أن تقيم بالحجاز ، مما أدى إلى فتور نشاط الأخوات المسلمات ، ثم تعددت الهيئات النسوية الإسلامية تعمل كلها جاهدة فى سبيل الغاية الإصلاحية المشتركة ، كل ذلك حدا بلفيف من الأخوات المسلمات إلى إحياء الفكرة من جديد ، والنهوض بها تحت إشراف المركز العام للاخوان المسلمين ، ووافق مكتب الإرشاد العام على ذلك .

وتكونت أول لجنة تنفيذية للأخوات المسلمات فى ١٢ من ربيع الآخر ١٣٦٣ الموافق ١٤ من أبريل ١٩٤٤ ، واتخذت مقراً لها للنزل رقم ١٧ بشارع سنجر الخازن بالحلمية الجديدة بالقاهرة .

وبعد أن انتشرت فكرة الأخوات المسلمات بالقطر المصرى ، ووثبت أو كادت تثب إلى خارج القطر إن شاء الله ، واتسعت تبعا لذلك نواحى النشاط رأى المركز العام للاخوان المسلمين إعادة تنظيم قسم الأخوات المسلمات على أساس يضمن نهوضه برسالته فى حدود بنود اللائحة الداخلية للنظام الأساسى للأخوات المسلمات كما يلى :

١ ـ المساهمة فى المشروعات الاجتماعية النافعة بالقدر الذى يتناسب مع ظروفهن وجهودهن ، وفى محيطهن ، ومن هذه المشروعات :

المستوصفات ، ودور الطفولة ، ورعاية اليتامى ، والمدارس ، وتنظيم مساعدة الأسر الفقيرة . إلخ .

٢ ـ المعاونة فى حدود ظروف الأخوات المسلمات وجهودهن فى تحقيق البرنامج الإصلاحى الأساسى لهيئة الإخوان المسلمين العامة ، ولا زالت بعض هذه المؤسسات حتى الآن ، بعد أن استولت عليها الحكومة الغاشمة وقتئذ عقب حل الإخوان والأخوات سنة ١٩٥٤ مثل دار التربية الإسلامية للفتاة بشارع بستان الفاضل بالمنيرة بالقاهرة

٣ ـ وفى ٢ من صفر ١٣٧١ الهجرية الموافق ٢ من نوفمبر ١٩٥١ أعيد اعتماد اللائحة الداخلية لقسم الأخوات المسلمات ومما جاء فيها زيادة عما سبق :

١ ـ يحسن كلما أمكن ذلك أن يكون مقر شعب الأخوات المسلمات ودروسهن هو دور شعب الإخوان المسلمين أو بيوتهن أو المساجد التى يشرفون عليها ، بشرط أن يلاحظ إخلاء الدور من الإخوان تماما كلما كان هناك اجتماع أو درس للأخوات .

٢ ـ يسند الإشراف على هذا القسم للمرشد العام للإخوان المسلمين رأسا ، ولفضيلته أن ينتدب من الإخوان العاملين سكرتير اتصال لتنظيم الأعمال الإدارية ، بالقسم ، وتتصل الهيئة العامة بالمركز العام للإخوان المسلمين عن طريق السكرتير الذى انتدبه فضيلة المرشد العام ، وتتصل بالأخوات عن طريق الشعب .

وحتى تاريخ اعتماد هذه اللائحة المعــدلة سنة ١٩٥١ كانت شعب

الاخوات المسلمات وفروعها فى كل أنحاء القطر المصرى أكثر من ١٥٠ شعبة .

● بعض ذكريات قسم الاخوات مع الامام الشهيد :

ترجع أولى هذه الذكريات إلى تكوين أول مجموعة من المثقفات من خريجات الجامعات والمعاهد وطالباتها ، وعدد غير قليل من الموظفات كالمدرسات والطبيبات وغيرهن .

وكان اهتمام الإمام الشهيد بهذه المجموعة بالغاً ، باعتبارها نواة صالحة لقيادات قسم الأخوات المسلمات ، وركيزة طيبة لفهم الإسلام والعمل على نشره بمضمونه السليم بين النساء .

وتعهد الإمام الشهيد هذه المجموعة بالدروس والمحاضرات التى كان يلقيها بنفسه عليهن بشكل دورى أسبوعى تقريباً، حرصاً منه على نشر الوعى الإسلامى الصحيح بين هذه النوعية من النساء ، واستمر ذلك فترة تقارب العام واستمر قسم الأخوات المسلمات يؤدى رسالته على أكمل وجه ، حتى أعلنت الحكومة المصرية سنة ١٩٤٨ الحرب على الإخوان وأصدرت قرارها المشئوم بحل الإخوان المسلمين والأخوات المسلمات ، وكان الحل بداية لمؤامرة اغتيال الإمام الشهيد حسن البنا وبتدبير من رئيس الحكومة محمود فهمى النقراشى والطاغية فاروق وفق مخطط استعمارى صهيونى صليبى .

ومن الذكريات الطيبة التى لا تنسى ، أنى رافقت الإمام الشهيد رضى الله عنه مدة ست سنوات تقريبا ، وسافرت معه فى بعض رحلاته بالوجه البحرى والاسكندرية لتنظيم فروع قسم الأخوات المسلمات ومنشآته .

وأذكر مرة أنى قدمت لفضيلته مذكرة أرجو فيها إعفائى من العمل

بقسم الأخوات المسلمات لأتفرغ لبعض النشاط الإخوانى على اعتبار أن قسم الأخوات للسلمات من العناصر ما يسد مكانى . فأخذ المذكرة وما ح ما يبدو على وجهى من الجدية فى الطلب، فابتسم ابتسامته المشرقة وكتب على المذكرة بالمداد الأحمر هذه العبارة :

« الأستاذ محمود الجوهرى سكرتير الأخوات المسلمات حتى الممات.»

ووقع بإمضائه وأعطاها لى .

ولم أملك وقتها إلا التسليم والرضا وأجبته « حاضر يا أفندم »

أثر الاخوات المسلمات على المرأة المصرية

يتضح ذلك من اتساع نشاط قسم الأخوات المسلمات، فى حدود لائحة نظام القسم، واستمرار هذا الاتساع ، والاقبال المتزايد الملموس فى القاهرة والاسكندرية ، وجميع محافظات الوجه البحرى وبعض محافظات الوجه القبلى ، والنداء المنشور بمجلة الاخوان المسلمين بالعدد الصادر فى أواخر شوال ١٣٦١ الموافق أواخر ١٩٤٢ من الاخت المسلمة منيرة محمد نصر ثم الرد عليه من الأخت المسلمة نعيمة محمد وصفى المنشور بالعدد السادس من مجلة الاخوان المسلمين الصادر فى ٢٨ شوال ١٣٦١ الموافق ٧ نوفمبر ١٩٤٢.

والنداء المنشور بالعدد ٤٨ من نفس المجلة فى ١٦ من ذى الحجة ١٣٦٣ الموافق ٢٨ ديسمبر ١٩٤٤، السكرتيرة الثانية لقسم الأخوات المسلمات تدعو فيه كل مسلمة للعمل مع الأخوات المسلمات حتى تجتمع نفوس الأمة رجالا ونساء على غاية واحدة ، ومنهاج واحد هو القرآن الكريم ، ولا يزال هذا الأثر باقيا ، وسيستمر استمرار الحياة لأن منهاجهن وهو القرآن الكريم باق بقاء الحياة .

يضاف إلى ذلك الجهد الجبـار الذى بذلته لجنة الزيارات المـكونة من الأخوات :

(١) زينب الشمشاعى حرم فضيلة الشيـخ عبد اللطيف الشمشاعى رحمه الله واعظ قسم الأخوات.

(٢) فاطمة عبد الهادى حرم الشهيد محمد يوسف هواش .

(٣) أمينة على الشهيرة بأمينة الجوهرى حرم محمود الجوهرى .

زارت هذه اللجنة معظم فروع الأخـوات المسلمات بالوجه البحرى والاسكندرية وبعض مدن الصعيد ، عدة مرات من أجل هدفين :

الأول : إلقاء المحاضرات التى تشرح دعوة الأخوات المسلمات.

والثـانى : الوقوف على مدى نواحى النشـاط الأخرى كالمؤسسات وغيرها .

وفى ٣٠ من المحرم ١٣٦٥ الموافق ٤ من ينـاير سنة ١٩٤٦ أقام قسم الأخوات للمسلمات حفلا بمناسبة ذكرى الهجرة النبـوية الشريفة بدار المركز العام للاخوان المسلمين بالحلمية ووجه الدعوة إلى عدد غير قليل من النساء ، وكان فناء الدار غاصا بعدد كبير شهد الحفل تحت رياسة شرفية لحرم المرحوم السيد خشبة باشا.

وفى مجـلة الاخوان المسلمين الصـادرة فى أول ربيـع الآخر ١٣٦٥ الموافق ٥ مارس ١٩٤٦ نشر احتجاج قسم الأخوات موجهـا اللوم إلى المندوب السامى البريطانى بالقاهرة وقتئذ على اعتداء جنود الجيش البريطانى المحتل على المصريين الآمنين .

المعرض السنوى الخيرى لقسم الأخوات المسلمات

تحت هذا العنوان نشرت جريدة الاخوان المسلمين اليومية بالعدد رقم ٧٧١ بتاريخ الاثنين ٧ من المحرم ١٣٦٨ الموافق ٨ نوفمبر ١٩٤٨ ما يلى :

يفتتح قسم الأخوات المسلمات المعرض السنوى الثالث لدار التربية الاسلامية للفتاة إبتداء من يوم الأربعاء ٩ من المحرم ١٣٦٨ الموافق ١٠ من نوفمبر ١٩٤٨ ويستمر أسبوعا ، ويخصص إيراده لتنفيذ أغراض الدار الخيرية .

الوصايا العشر

تحت هذا العنوان فى صفحة الأسرة بجريدة الإخوان اليومية كتبت إحدى الأخوات عجالة عن « دعائم البيت المسلم» متضمنة وصايا عشر موجهة إلى الزوجة حتى ترفرف على البيت المسلم السعادة وموجزها :

(١) الاتجاه إلى طاعة الله ورسوله ومحبتهما .

(٢) الأدب الكامل قبل الجمال ، وعدم التصرف فى مال الزوج إلا بإذنه .

(٣) يجب أن ينحصر اهتمام الزوجة فى واجبات بيتها وإصلاح شأنه.

(٤) دوام الحياء من الزوج وطاعته ، والسكوت عند كلامه والاستماع إليه واحترامه

(٥) إكرام أهل الزوج وأقاربه .

(٦) القناعة بما وهب الله الزوج من رزق.

(٧) تقديم حق الزوج على كل الحقوق بعد حق الله ورسوله

(٨) ألا تمن عليه بمالها أو جمالها ، أو حسبها .

(٩) ألا تخرج من البيت إلا بإذنه.

(١٠) أن تغار على زوجها وتحافظ على شعوره وكرامته

ونشرت مجلة الاخوان على فترات متتابعة مقالات وأراء للأخت المسلمة في الشئون المختلفة ، وصد حملات الجمعيات النسائية العاملة بتوجيه استعماري لإخراج المرأة المسلمة من رسالتها

وقد امتد أثر قسم الأخوات وذاع أمره حتى وصل إلى أمريكا فقد جاء بالعدد رقم ٧٤٤ من جريدة الاخوان المسلمين اليومية الصادر في غرة ذي الحجة ١٣٦٧، الموافق ٤ أكتوبر ١٩٤٨ ما يلي :

نداء عام للاخوات المسلمات

الاحتفال بالعيد السنوي الأول للاخوات المسلمات في أمريكا :

إخواني وأخواتي :

حول إلينا خطاب من سكرتيرة الأخوات المسلمات « بنيويورك » تخبرنا فيه بفتح اكتتاب عام في أمريكا والقاهرة لإنشاء مقبرة هناك للمسلمين والمسلمات حتى يكون هناك مكان خاص لدفن المسلمين ، كما ستنشأ مدرسة لتعليم الأطفال المسلمين اللغة العربية والدين وسيقوم بعض الطلبة المصريين بالاضطلاع بهذه المهمة هناك

وسيكون الاكتتاب على صفحات جريدة الاخوان المسلمين باسم رئيس التحرير وتحت عنوان : العيد السنوي الأول للاخوات المسلمات بأمريكا ـ

« سعاد الجيار »

وكانت الوفود تأتي من البلاد الإسلامية ، ويتم الاتصال بالمسلمات من

هذه الوفود بمعرفة الأخوات المسلمات ، ثم تعود هذه الوفود إلى بلادها حاملة معها منهاج العمل للاسلام وفق أهداف الأخوات المسلمات ومن هذه البلاد : الباكستان والأردن وسوريا وغيرها .

وكان التعاون بين قسم الأخوات المسلمات وبين الجمعيات النسائية المصرية الأخرى منعدماً نظراً لاختلاف النظرتين والهدفين، فقد كانت قبلة الأخوات هى حضارة الإسلام وطاعة الله والانقياد لحكمه ، وقبلة الجمعيات النسائية هى حضارة الغرب وإيثار الأهواء والشهوات .. الأخوات يعملن على صد غارات العدو عن حصون الأمة، والنسائيات يعملن مع العدو لدك حصون الأمة .. الأخوات يدعون إلى الأصالة والتميز، وأولئك يدعون إلى التبعية والتميع .. المسلمات يجدن جمال المرأة فى تقواها وإيمانها العميق وشرفها الرفيع وعفافها الطاهر ، وللمتفرنجات يجدن جمال المرأة بتهتكها وتبرجها وخلاعتها وميوعتها وتكشفها واختلاطها ووقاحتها .. فكيف يلتقى الضدان ، كيف يجتمع الداعيات إلى الجنة والداعيات إلى النار ؟ !!

جهود الأخوات المسلمات

نحو الاخوان المسلمين فى السجون

كان لقسم الأخوات المسلمات نشاط مشكور تجاه الإخوان المسجونين وأسرهم ينبع من إيمانهن بالفكرة الإسلامية والعمل على تطبيقها :

فقد تكونت لجنتان فى هذه الظروف القاسية :

- اللجنة الأولى ، ومهمتها إعداد الطعام والملابس للاخوان بالسجون، وكانت المسئولة عن هذه اللجنة الأخت الكريمة « زهرة السنانيرى»
- واللجنة الثانية ، ومهمتها زيارة أسر الاخوان المسجونين بصفة مستمرة وتقديم كل ما تحتاجه كل هذه الأسر ماديا وأدبيا . بالإضافة إلى

القيام بتقديم الشكاوى والاحتجاجات إلى الجهات المسئولة عن الظلم الفادح الواقع على الاخوان المسلمين والأخوات المسلمات وأسرهم .

الوصايا التى يهديها قسم الأخوات

إلى بناته من الجيل الجديد وخاصة طالبات الجامعة والمعاهد

(١) العمل للاسلام واجب مقدس ، بل هو فى نظر الأخوات المسلمات الآن فرض عين على كل مسلمة وخاصة بناتنا طالبات الجامعة والمعاهد .

(٢) يتحتم الآن على طالبات الجامعة والمثقفات أن يفهمن رسالة الإسلام من منبعها الأصيل: القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عن طريق القائمين بنشرها والعمل لها ، وممن ضحوا فى سبيلها ولا يزالون .

(٣) ونظراً لخطورة دور المرأة والفتاة بصفة خاصة لأنها أم المستقبل ، ومربية القواد والزعماء المصلحين، يصبح لزاما عليها أن تحمل هذا العبء فى الوقت الذى اتفقت وتعاهدت كل قوى الشر والبغى على حرب الاسلام ،كما أصبح لزاما عليها أن لا تخدع فيمن يلبس ثياب الغيرة على الاسلام والأدعياء العاملين لصرفها عن المنهج القويم وجماعة الحق .

(٤) على كل راغبة فى هذا الخير التعاون مع الأخوات المسلمات على حمل هذا العبء ، ونشره ، على أن تكون كل داعية إلى هذا الحق قدوة صالحة ونموذجاً طيباً لما تدعو إليه .

٥ ـ وإذا كان الأمر كذلك ، فهذه يد الأخوات المسلمات تصافح كل من تعاهد الله وتبايعه على العمل لدينها تحقيقا لقول الله تبارك وتعالى : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون»

ونستطيع أن نقول مطمئنين أنه بين الأخوات المسلمات فى مختلف ظروف المحن التى مرت بالاخوان المسلمين والأخوات والمسلمات نماذج صدق فى القرن العشرين أمهات وزوجات وبنات وأخوات تجسدت فيهن سيرة

الصحابيات الجليلات فى العهد الزاهر للإسلام فهما وعملا وصبراً ابتغاء وجه الله فكان بين الأخوات أمهات وزوجات وبنـات وأخوات لشهداء مما هو معروف على المستوى العالمى ، وما تناقلته وكالات الأنباء وشهدت به المحاكم التى حاكمت أعوان فرعون الصغير أيام محنة مصر بحكمه الدكتاتورى الغاشم « جمال عبد الناصر » .

فقد كانت معظم الأسر تعتقل عن آخرها رجالا ونساء وصبيانا ومن بين هذه الأسر :

أسرة المرحوم الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين وأسرة المرحوم الشهيد سيد قطب .

وقد حوكمت الأختان حميدة قطب وحكم عليها بعشر سنوات والسيدة الحاجة زينب الغزالى وحكم عليها بخمسة وعشرين عاما .

ومن المواقف الخالدة الدالة على الفهم السليم المتسم بالشجـاعة موقف السيدة الجليلة المرحومة حرم المرحوم الأستاذ حسن الهضيبى ، حينما كانت تحمل إليه بالسجن بعض المأكولات والملابس فى الزيارة ؛ أن تقـدم أحد الضباط للتفتيش، كأنه يقود حملة حربية ، فقالت له السيدة الفاضلة رحمها الله بكل الهدوء والحزم :

يا بنى إن مكانك ليس هنا ، وليست هذه مهمتك ، إن مكانك الطبيعى هو جبهة القتال ، ومهمتك حمل السلاح لدفع العدو وتخليص الوطن من عار الاحتلال . وليس تفتيش الخبز والبطاطس وغيرها .

فما كان من الضابط أمام هذا الجد ، إلا أن التفت إليها ، وكأنه أفاق من غشية ألمت به، وكل ملامحه اعتذار ومرارة، و كف عن عمله الصغير وتركها وانصرف قائلا : هذا حق يا سيدتى .

الفصل الثاني

واجبات الأخت المسلمة

لدينها، وعقلها، لبيتها، لمجتمعها

القدوة الحسنة، نشر الدعوة

إذا أرادت الأخت المسلمة أن تعرف قدرها ومركزها فلا بد أن تعرف واجباتها في الحياة التي خلقها الله من أجلها .. ولا بد أن تعمل على إعداد نفسها ثقافياً وأخلاقياً للقيام بهذه الواجبات، وفيما يلي نضع تصوراً موجزاً لهذه الواجبات، كما وردت في الرسالة التي أصدرها قسم الأخوات المسلمات سنة ١٩٥٢ .

أولا : لدينها

١ - عليها أن تؤمن بالله .. والإيمان بالله طمأنينة يقينية تحل بالقلب، ومنطق روحي يوجه العقل، ومن شأن هذه الطمأنينة أن يكون الله في حياة صاحبها هو كل شيء .. فهو وحده الكبير المتعال وهو القوى الذي له جنود السموات والأرض .. وهو الغني وما عنده خير وأبقى .. قسم الأرزاق، وحدد الآجال، فما أخطأك ما كان ليصيبك، وما أصابك ما كان ليخطئك، جفت الأقلام وطويت الصحف. فمن آمن بذلك وسرى في يقينه التصديق به صرف رجاءه إلى الله في كل حال، وأنزل بساحته حاجته، ووجد أثره في قلبه : غنى بغير مال، وأنساً بغير أهل، وعزاً بغير عشيرة، وعلماً بغير معلم، وذلك من أكرم ثمار الإيمان .

٢ ـ وأن تؤمن بالآخرة، فتضع بين عينيها أنها آتية لا ريب فيها، وأنها في تلك الدنيا إنما تصنع بيديها ما تكون عليه في الآخرة .

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها   إلا التي بالأعمـــال يبنيهـا

فعلى كل منا أن يجعل دنياه على وفق ما يريد لنفسه في الآخرة من مثوبة الله وعظيم رضوانه . . عليه أن يتحرى موقع كل عمل من آخرته قبل أن يعمله . . عليه أن يجعل كل قول وكل عمل مؤسسا على نية رصده للآخرة، حتى اللقمة يأكلها والثوب يلبسه . . ولنعلم أن الله لا ينظر إلا إلى ما أريد به وجهه والفوز في الآخرة، لا ما أريد به وجه الناس وهوى النفس في متاع الحياة الدنيا .

٣ ـ أن ترعى كل ما أنزل الله من أمر ونهي حق رعايته في غير غلو يجاوز ما أراد الله من اليسر، ولا ترخص يفسد همة المرء عن تعظيم حرمات الله

ثانيا : لعقلهـا

ويجب عليها نحو عقلها:

١ ـ أن تزوده بأصح الحقائق، وأقوم المعاني وأصدق المعارف، فإن العقـل بذلك ينضج، وتزداد طاقات إدراكه، وتتسع آفاقه، ويسمو مستواه

وليس من قبيل التعصب الأعمى أن تذكر : أن القرآن الكريم هو بحق خزانة هذه المعارف والحقائق . . ولا يوجد كلام يليه في هذه المرتبة ـ على وضوح وسهولة مأخذ ـ إلا صحيح ما أثر عن رسول الله ﷺ .

فعلى الأخت الكريمة أن تتأمل فيما تقرأ من نصوص الإسلام . . وأن تستخلص ما يرد عليها من أصول المعاني، وأن تعرف موقع كل أصل في هذا الوجود، أو ما يتناوله كل أصل من تنظيم المجتمع، أو تهذيب الخلق،

أو تثبيت العقيدة أو إمداد العقل بالمعرفة ، بالمعرفة السليمة . . ثم تثبيت ما تدركه فى ذهنها بمختلف الوسائل ، فإنها إنما تثبت أهدى المصابيح وأضوأ السرج ، وقد خاطب القرآن الكريم أمهات المؤمنين بذلك حين قال : (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا)

٢ـ والتاريخ الإسلامى : تاريخ للمعارك ، والسياسة ، ونشاط العقل ، ومجاهدة النفس ، وإرشاد الخلق هو التطبيق العملى لما فهم سلفنا الصالح من أحكام الاسلام الحنيف ، فعلى الأخت المسلمة أن تجيل ذهنها فيما يطبق من آفاق هذا التاريخ ـ ولا سيما ما يتعلق بسير الرجال والنساء ففيه بعد معرفة حقائقه التاريخية وإنشاء الصلات بيننا وبين ماضينا ، كثير من ألوان القدوة الحسنة التى تنهض الهمم إلى خير العمل ، وكلها ألوان نقلها قدوة المسلمين الأول ﷺ .

٣ـ وعليها أن تثقف نفسها بما تستطيع من معارف العصر فى الاجتماع والاقتصاد ، والصحة ، ومبادىء العلوم وما يضطرب فيه الناس سياسيا واجتماعيا وخلقيا من غى ورشد ، ورذيلة وفضيلة ، وانحراف واستقامة بحيث تعود نفسها أن تحكم على ما ترى وتسمع وتقرأ ، حكما يستهدى مقاييس الاسلام .

والصحف اليومية ـ إن وجدت ـ والمجلات الأسبوعية والشهرية ، المستهدية بحكم الاسلام والكتب السهلة ، والنشرات العلمية والأدبية كلها مراجع تيسر لقارئها سرعة التحصيل ، وتسعفه بقدر لا بأس به مما يريد .

ثالثا : لبيتهـا

١ ـ أن تؤسسه على التقوى من أول يوم، وأن تشيع فيه روح الربانية العاطرة (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا) . وأن تجعل كل مافيه من أثاث ونحوه يلهم الخير ، ويشرح الصدر بحسن تنسيقه ، ونظافته ، وبساطته التى لا تسقطه من عين الله .

٢ ـ وأن تجعل كل مطالبها وفقا منها فى حدود الكفاية ، ومن مواريثنا الصالحة أنه « لا خير فى السرف ولا سرف فى الخير » والعبرة بالاعتدال فهو الخطة المثلى، ومن أرادها تفاخرا وزهوا أعرض الله عنه وتولته شياطين السرف والتهلكة .

٣ ـ والبيت مملكتها الصغيرة .. وهى له بالطبيعة ، « والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عنه » على ماجاء فى الحديث الشريف، ولن يتسنى لها أبدا أن تحسن تدبيره والإشراف عليه ، وأن تكون جديرة به ، إلا إذا فرغت له قلبها وعقلها ، وآثرته على كل ما سواه ، واستقرت فيه معرضة عن الخروج للأغراض الصبيانية ، والبواعث التافهة الرخيصة .

ولو تأملت الأخت الكريمة فى الأمومة وحدها لألفتهـا شرفا رفيع الجوانب جديراً بكل وقتها وعنايتها . فكيف بما وراء الأمومة من مسئوليات ومهام لها وزنها ؟

٤ ـ وعليها أن تطبع نفسها منذ اللحظة الأولى على المفهوم الصادق لقوله سبحانه (الرجال قوامون على النساء) (وللرجال عليهن درجة) وأن تدرك أن المساواة بين إنسانية الرجل والمرأة ، لا تستتبع أبدا التكافؤ فيما يلقى على كل منهما من أعباء ، فذلك مالا تطيقه المرأة فى كل حال ،

وهو ما يفسد عنصر الضعف فيها أو عنصر الوداعة والرقة الذى هو سر من أسرار جمالها النفسانى ، ولعله سر السكينة التى يفىء إلى ريحانها وجدان الرجل كلما عاد محروباً من لفح الحياة ومنافسة الأقران ، والويل للرجل إذا آب إلى بيته فلم يجد فيه إلا قرينة من طراز منافسيه الجبارين فى الخارج تطاوله إرادة بإرادة ، وتصاوله شوكة بشوكة ، ولأمر ما كان ذلك السر اللطيف من أجل شواهد رحمة الله بعباده إذ امتن به عليهم فى قوله : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

رابعا : لمجتمعها

وليس المجتمع تلك الأندية والمجالس والحفلات التى يختلط فيها الرجال بالنساء فى غير ورع أو قيود بل المجتمع هو البيئة التى تحيط بك ، والتقاليد التى تنظم علاقة كل شىء فيه بعضه ببعض . . فعلى الأخت المسلمة الكريمة أن تساهم فى بناء المجتمع على التقاليد الصالحة والعرف الذى يحرس الفضيلة ويثمر التعاون على البر والتقوى .

(١) عليها أن تقاطع كل ما فى المجتمع من مساوىء التبرج واللقاء فى حفلات الرقص والخمر والميسر والملاهى الماجنة وما يسمى بحفلات الإحسان تلك التى ينثر فيها الرجال تبرعاتهم تحت تأثير ما يسلط عليهم من سحر المرأة وزينتها فيما يشبه الغزل والمعابثة . . ذلك ونحوه رجس من عمل الشيطان يجب عليها مقاطعته والعمل على تطهير المجتمع من وصمته المخزية بالتنفير منه، وبذل النصح والموعظة لمن تغشينه .

(٢) أن تعمل على بث الأفكار الناضجة ، والمبادىء القويمة فى أذهان بنات جنسها مثقفات كن أو غير مثقفات .

فأولئـك المثقفات اللائى يجرين وراء الاشتغال بالسياسـة ونحوها ، تافهات مقلدات ، وهن فى مجتمعنا كالفقاعات الحائرة الفارغة لا أثر لها إلا خفة الوثوب هنـا وهنـاك فى ألوان الطيف التى تزينها . ولو أن كلا منهن فقهت رسالتها الخطيرة ، وامتلأ ذهنها بالحقائق الصادقة وللمعـانى السديدة لوجدت فى محيطها النسوى من الأعمال الجليلة ما يعلى ذكرها بين أهل الأرض والسماء.

وفى محيط غير المثقفات ملايين من نساء الطبقة الشعبية فى أشد الحاجة إلى من يرشـدهن ويثقف عقولهن وقلوبهن ، بما يطهر النفوس ويزيل الجهل والخرافة ، ويعلم قواعد النظافة والصحة ومبادىء التمريض وتفصيل الملابس وإعدادها ، وتدبير ميزانية البيت ، على وجه سديد ، وكيفية التغلب على أزمات الغلاء والدخل الصغير وبطالة الزوج أو الكفيل . هذا ونحوه لا ينهض به إلا جماعات من الفضليات ، فعلى الأخت الكريمة أن توليه أكبر قسط من عنايتها ما وجدت إليه سبيلا . وحبذا لو فقه المثقفات أن ذلك خير وأنفع وأكرم من تدبير المظاهرات ، والتزاحم على منصات الخطابة لوعظ الرجال فى الوطن والوطنية .

خامسا : القـدوة الحسنة

ونريد للأخت المسلمة أن يكون سلوكها العام والخاص ، وتصرفها فى كل شـأن صورة صادقة لمبـادىء دينها ودعوتها ، وكان من حق هذا المعنى أن يلحق بالواجب السابق ولكن لا بأس أن يفرد بكلام خاص فإن التحقق بشرائط القدوة آية الإخلاص ، وسبيل التأثير فى نفوس الآخرين ، فعليها أن يكون حالها أفصح دلالة وأقوى أثراً فى النفوس من مقالها ووعظها .

ولا نعنى بذلك استكمال أوصاف الملبس الوقور والمظهر العفيف فحسب ،

بل نعني معه أن يكون كل عمل وكل حركة وكل إشارة صادرة عن تقيد بالمثل العليا ، ورغبة فيها ، وحب لها ، حتى يصير العمل بها والتزام نهجها عادة مألوفة يجرى عليها المرء دون أن يلقى إليها باله .

تلك هى القدوة الصالحة التى تلهم ، وتؤثر ، وتنهض عزائم الآخرين ، وتخلق بيتا مثاليا ، وبيئة فاضلة ومجتمعا كريما ، ولو لم تعمد إلى وعظ محضر أو نصح مقصود .

إنها القدوة الأولى للطفل ، وهو سريع التقليد ، قوى التأثر بما يكون من حالها ، وهو من أعز الأمانات التى اكرمت بها بعد دينها ، ولن نقول لها أطبعيه على الخير ، بل أطبعى نفسك أنت على مبادىء هذا الخير ومثله فإنما تصنعين المثال الذى يكون عليه ولدك .

ولتعلم الأخت الكريمة أنها لن تبلغ أن تكون مؤثرة فى مجتمعنا إلا إذا كانت قوية الشخصية ، وإنما تقوى شخصية المرء وتعظم إذا ترك هذر القول، وفارغ الحديث وأقام صلب نفسه على الحق فى جد ووقار ، بقوله ولو على نفسه، ويسيغ جرعته ولو كان مرا ، وينتصف له من نفسه دائماً . وليس أهيب فى نفوس الناس من ذلك الذى أضنى نفسه برعاية الحق والصبر على تكاليفه حتى عظمت حرمته لديهم ، وعلت منزلته فى نفوسهم فأخذوا عنه وتأثروا به ، واستجابوا له فى غبطة ورضا ، وليس لقوة الشخصية معنى أصدق من هذا فعلى الأخت الكريمة رعاية هذا الجانب فإن المجتمع يصح به ويعتدل ميزانه .

سادسا : نشر الدعـوة

والدعوة إلى الله مرتبة الأنبياء والرسل ، وأشرف ما شغل المرء نفسه والله سبحانه يقول : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين)

فلتدع الأخت المسلمة إلى الله ما استطاعت إليه سبيلا .

١ ـ فلتدع كل من فى محيطها الخاص ، وكل من استطاعت من أترابها إلى الإيمان بالله والدار الآخرة على النحو الذى ذكرنا بعض معالمه فى صدد هذا الكلام .

٢ ـ ولتذكر بالله فإنه يجلو صدأ الغفلة من القلوب ، ويورثها وجلا وخشية ويكسبها نزولا على أمر الله ، ويفتح لها أبواب الجنة .

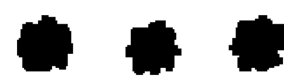
٣ ـ ولتأمر بالخير ، ولتنه عن المنكر ، ولتفقه المسلمات فى دينهم وفرائضهم وما جاء به الإسـلام من حقوق المرأة وسياسة الأسرة ما استطاعت .

٤ ـ ولتبشر فى المسلمات بما جاء به الإسلام من أسس العدالة ، والحرية والتكافل الاجتماعى وأصول التشريع الصالح ، والسياسات الوافية بكل خير .. ليبشر بذلك كله أو بما عرفت منه .

٥ ـ ونحن نعمل على إيجاد المجتمع الإسلامى الفاضل ، وأخص خصائص هذا المجتمع الاخاء والحب فى الله (إنما المؤمنون أخوة) والغيرة على الإسلام والاعتزاز به ، والاستمساك القوى بآدابه وتعاليمه ، وكل تلك صفات قد يجدى فى كسبها الوعظ والارشاد ، ولكننا لا نرى وسيلة أعمق أثرا وأوعب لما نريد من تأليف الجماعات الصغيرة التى نسميها أسراحينا وأحيانا كتائب

فعلى الأخت المسلمة أن تعمل على تأليف تلك الأسرة أو تلتحق هى بأسرة مؤلفة فإن الذكر والمدارسة فى جماعة أنشط لحوافز النفس ، وأعون على الاخاء وإحكام روابط المودة ، وتوثيق قوى الايمان وإزكاء الغيرة على محارمه ٠

ونسأل الله أن يشرح صدورنا للخير ، وأن يرزقنا الايمان ، وينير قلوبنا بمعرفته ، ويوفقنا إلى طاعته وحسن عبادته ويجعلنا من السابقين إلى الخيرات ، المقربين فى الدنيا والآخرة . . آمين .



الفصل الثالث

منهج تكوين الأخت المسلمة ثقافيا وروحيا

فى المرحلة التأسيسية

تمهيد :

● حلقة الأسرة المسلمة .. ما هى ؟

هى حلقة ذكر ، وحلقة الذكر بمعناها الاسلامى الشامل هى : الجمع من المتحابين فى الله يعين بعضهم بعضاً على طاعة الله ، بمدارسة أحكام الدين وترتيل القرآن والاستماع إلى تفسيره ، كما يذكر فيها الملك الدياذ بالتسبيح والتحميد والتكبير .

قال رسول الله ﷺ : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ». قالوا . وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر » .

وكان ابن مسعود رضى الله عنه ، إذا ذكر هذا الحديث يقول : أما أنى لا أعنى القصاص ، ولكن حلق الفقه .

وكان عطاء الخراسانى يقول : مجالس الذكر، هى مجالس الحلال والحرام : كيف تشترى وكيف تبيع ، كيف تصلى وتصوم وتعقد العقد وتبرم الأمر أو تنقضه بحقه على الحالين ، وكيف تحج وأشباه ذلك من المعاملات والعبادات .

وكان أبو السوار العـدوى فى حلقة يتذاكرون العلم ، وكان معهم فتى شاب . فقال للحاضرين : قولوا سبحان الله والحمد لله قال أبو السوار موجها خطابه لهذا المدعى : « ويحك . .فى أى شىء كنا إذن ؟ !

فما أحوج بيوتنا الآن إلى هذا النوع من حلقات الذكر والمعرفة ، التى تتنزل عليها سحائب رحمة الله وبركاته وتتغشاها ملائكة الرضوان والغفران . .

ولا بد لحلقـات الذكر والمعرفة من منهج تسير فيه الأخت المسلمة وتتدرج به فى مراقى الفهم والتـكوين شأن كل عمل فى الإسلام يقوم على قاعدة ويتبع منهجاً ونظاماً ، كما أنه لابد للمنهج من مسئول أو نقيب يعرف أهداف المنهج وأغراضه، ولا بأس أن نذكره بالآتى:

• أن يـكون فى شخصه مثلا يحتذى ، وقدوة عملية لأفراد حلقته . . فعليه الوفاء بما تمليه عليه هذه الصفة لينعكس الأثر على إخوانه بتقليدهم له ، فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال . . وليعلم أنه — إذ صار مسئولا — أن براعته لاتكون بترديد النظريات،ولكن بترجمة ذلك إلى وقائع محسوسة : فعليه أن يكون شعلة من حماس يتقد ، وكتلة زاخرة من التضحية والبذل، وبحر عميق محيط من وعى وفهم ، وأن يكون فى الدرجات العالية الرفيعة من النبل ومكارم الأخلاق وصفاء القلب .

• وعليه أن يعلم : أن غاية هذا المنهاج ليست هى المعلومات بذاتها بقدر ما هى تكوين الشخصية المسلمة وبعث كل قدراتها على تطبيق معانى القرآن والسنة التطبيق العملى المتواصل .

• وعليه وهو يعمل على تطبيق هذا المنهاج أن يهدر الخلافيات ، وأن

يصرف كل جهوده فى غرس الموازين الاسلامية وفق قواعد شرعية صافية، ويحذر الخوض فى الفرعيات التى قد تنحرف به وتعوق عن الهدف الذى يعمل له، وهو تربية مجاهدين لا فلاسفة .

• وعليه أن يبتعد عن التكلف فى فهم الاسلام ودخول دائرة الاصطلاحات التى لا ضرورة لها، فالأمر كما قال الإمام الشهيد حسن البنا : « كان المسلمون الأولون رضوان الله عليهم لا يعرفون الإسلام ألفاظاً منمقة ولا عبارات ولا تقاسيم مزوقة، ولا تعاريف علمية واصطلاحية، وإنما كان إسلامهم عقيدة استقرت فى قلوبهم واستولت على نفوسهم فدفعتهم إلى العمل، العمل الذى ينطبق على هذه العقيدة ويحقق مراميها ويصدق مضمونها » .

• وإذا كان لم يبلغ درجة النظر فى الأحكام، فلا يتجرأ على الفتوى فيما لا دراية ولا علم له به . وإنما عليه أن يرجع إلى أهل العلم من أهل التقوى والورع .

أبواب المنهج :

العقيـــــدة

كل نظام اجتماعى وكل حضارة إنسانية تنبثق عن مفهوم للوجود وتصور للإنسان يحدد موقعه فى الوجود وعلاقته بالكون وما وراء الكون وتنطلق من اعتقاد يؤمن به الانسان، فالعقيدة سواء كانت دينية أم فلسفة فكرية هى الأساس الذى تقوم عليه حضارة أولئك الذين يدينون بتلك العقيدة أو تلك الفلسفة بل تقوم عليه جميع الأنظمة الاجتماعية فى تلك

الحضارة . فمن العسير مثلا أن نفصل نظام الحكم فى الإسلام من عقيدته التى تعتبر الحاكم عبداً لله أختير ليسوس الجماعة الإسلامية سياسة تطبق فيها أحكام الإسلام بالتشاور مع جماعة المسلمين . فهذه النظرة إلى الحاكم وإلى الشعب وما بينها من صلة منبثقة عن الأساس الذى يعتبر أن البشر متساوون وأن الله استخلف بنى آدم فى هذه الأرض لم يخص منهم فرداً ولا أسرة ولا طبقة بهذا الاستخلاف ، وأن أمير الجماعة ليس إلا إنساناً يخطىء ويصيب ، وكذلك البشر كلهم وأن معالم الهداية للبشر حددها الله كما حدد للكون سننه وللطبيعة قوانينها ، وأن الاستهداء بها وحسن تطبيقها راجع إلى الجماعة كلها لا إلى فرد يستبد برأيه ولذلك كانت الشورى أساساً وكانت مسئولية الحاكم بارزة فى هذا النظام ، وكذلك لو نظرت إلى أى جزء من النظام الاجتماعى فى النظام الديمقراطى لوجدته متصلا بفلسفة هذا النظام وتصوره ومفاهيمه ، وكذلك لو نظرت إلى أى جزء من النظام الاجتماعى فى المجتمع الشيوعى لألفيته منسجماً مع فلسفة الشيوعية المادية ومنبثقاً عن نظرتها إلى الانسان والحياة .

ولذلك كان لابد للإنسان أن يتخذ لنفسه موقفاً فى الحياة ، ويحدد سلوكه ويقيم لمجتمعه نظاما من عقيدة ومن فلسفة أو تصور للوجود تكون أساساً لسلوكه. فما هى العقيدة التى هى أساس نظام الاسلام ، وما هى نظرته العامة إلى الوجود أو التصور الذى قدمه للناس،وما هو موقع هذه العقيدة بين العقائد ؟ وما مكان ذلك التصور بين سائر التصورات الأخرى أو للمفاهيم العامة للوجود ؟ .

إن أسس العقيدة الإسلامية ومعالمها موجودة فى القرآن الكريم ماثلة فى سوره وآياته ، فإذا أراد الباحث أن يعرفها ويقف على نظرة الاسلام

العامة إلى الوجود وتصوره له وما يتفرع من ذلك من مفاهيم ونظرات ، فما عليه إلا أن يتحرى ذلك فى آيات الكتاب المبين ، ففيها عرض كامل لهذه النظرة العامة التى دعا القرآن إليها ، وعرضها عرضا واضحا مقترنا بالأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة .

لقد كان الخطاب القرآنى موجها ـ منذ البداية، منذ أول سورة نزلت وهى سورة العلق ـ إلى الإنسان بوجه عام لا إلى قبيلة ولا إلى قوم ، وليس فى القرآن نداء خاص موجه إلى قبيلة النبى صلوات الله عليه ، ولا إلى قومه العرب وإنما نجد فيه الخطاب موجها إلى الناس والكلام عن الانسان .

وقد دعا القرآن الكريم الانسان إلى الإيمان بالله والحياة الأخرى التى فيها نتائج المسئولية والحساب والجزاء . ولكن القرآن الكريم حين خاطب الانسان ودعاه إلى هذا الإيمان انطلق به من الكون الذى يعيش فيه ومن نفسه (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ولذلك تكرر فى القرآن الكريم الكلام عن الانسان نفسه والكلام عن الكون ومشاهده على أنها طريق الوصول إلى ما وراءهما . ولذلك كان لا بد لنا من السير فى هذا الطريق نفسه ، ولا بد لنا من معرفة موقع الكون والانسان فى عرض القرآن الكريم ، والنظرة التى يوحى بها ويوجه إليها فى هذا المجال لما لها من نتائج هامة فى تكوين العقلية الاسلامية وإن لم تدخل فى اصطلاح علماء الكلام فى إطار العقيدة ، ولم تكن مقصودة بالذات كذلك .

وعلى هذا نرى أن يتدرج دارس العقيدة الاسلامية حسب المنهج التالى :

أولا ـ الكون (الطبيعة) وكيف لفت القرآن النظر إليه فى أكثر من سورة .

ثانيا ـ الله الخالق فى صفاته وأسمائه الحسنى .

ثالثا ـ حقيقة التوحيد .

رابعا ـ الإنسان : صلته بالكون وصلته بالله تعالى وحريته ومسئوليته .

خامسا ـ النبوة : (الإنسان وحقائق الوجود ـ طبيعة النبوة ـ محمد رسول الله ﷺ ـ الإيمان بالنبوة ونتائجه) .

سادسا ـ الغيبيات : (الملائكة عليهم السلام ـ الجن ـ الروح) .

سابعا ـ المسئولية العظمى والحياة الآخرة : (طريقة القرآن فى عرض عرض الحياة الآخرة واثباتها ـ أحوال القبر ، وعلامات القيامة ، والبعث ، والموقف والحساب ، والجزاء ـ أثر الإيمان باليوم الآخر والحساب) .

ثامنا ـ خصائص العقيدة الاسلامية ونتائجها : أثر الايمان فى حياة الفرد وحياة المجتمع .

وقد صدرت مؤلفات حديثة تعالج مسائل العقيدة بمنهج قرآنى بعيدة عن تعقيدات ومصطلحات علماء الكلام نرشح منها الكتب الآتية :

١ ـ العقائد . . . . للإمام الشهيد حسن البنا .

٢ ـ الله فى العقيدة الاسلامية . . . « « « «

٣ ـ الله . . . . سعيد حوى

٤ ـ الرسول (جزءان) . . . « «

٥ ـ عقيدة المسلم . . . للشيخ محمد الغزالى

٦ ـ الايمان (الحضارة الاسلامية : أسسها ومبادئها) . . . للعلامة أبى الأعلى المودودى

٧ ـ تبسيط العقائد الاسلامية . . للشيخ حسن أيوب

٨ ـ العقائد الاسلامية . . . للشيخ سيد سابق

٩ ـ حقيقة التوحيد . . . للدكتور يوسف القرضاوى
١٠ ـ عقيدة اليوم الآخر : المحرك الدائم للإنسان المسلم . . . عبد الودود يوسف .
١١ ـ كبرى اليقينيات الكونية . . . دكتور محمد سعيد رمضان البوطى .
١٢ ـ خصائص التصور الاسلامى . . . سيد قطب .
١٣ ـ الخصائص العامة للإسلام . . . للدكتور يوسف القرضاوى
١٤ ـ الايمان والحياة . . . . . . » » »

فقه العبادة

فريقان من الناس ضاع الحق بينهما ، وانقلبت الحياة عندهما مشوهة ممسوخة على السواء، أما أحدهما فقد أخرج العبادة عن حقيقتها ، وانحرف بها عن غايتها الأساسية ، وأساء فهمها ، وشوه جمالها ، وجعل منها عملا مستقلا منفصلا ، بعد أن كانت حلقة من سلسلة وجزءاً من نظام كامل ، واعتبر مظاهرها وأشكالها ، لا روحها وجوهرها . فالصلاة عندهم أقوال وحركات ، والصوم جوع وعطش ، والحج أدعية وسعى وطواف وذبح قرابين . وقد يجعلون ذلك ثمنا لمطالب دنيوية يطلبونها من الله ، حتى كأن العبادة تجارة مادية بين الله والانسان . وقد يجرهم ذلك إلى تعطيل الأسباب التي شرعها الله وسنها فى هذا الكون للوصول إلى نتائجها الطبيعية .

وفريق آخر من الناس قضى على جزء عزيز من تراثنا ، وجوهر أصيل من حضارتنا ، به أصلحنا الحضارات السابقة وقومنا اعوجاجها، وبه نصلح اليوم هذه الحضارة المعاصرة القائمة على الاعتبارات المادية وحدها ، وذلك بإهمالهم تربية الروح وتنمية الفعالية الروحية ، وإلغائهم العبادة من

نظام الحياة ، حتى غدت الحياة ناقصة بتراء مجدبة مقفرة ، بحجة إحلالهم التربية العقلية أو الوطنية أو القومية محلها ، فى حين أن كل هذه الأنواع من التربية لا تحل محل العبادة ، التى هى الصلة بين الإنسان وخالقه أنى كانت أرضه ووطنه وقوميته . إنها تنمية وتزكية للخاصة الإنسانية فى الإنسان تلك الخاصة التى هى أثر من آثار النفحة الإلهية فيه ، والتى من أجلها كان مخلوقا مكرما ، سجدت له الملائكة وطرد من أجله الشيطان من الجنة .

لقد كانت العبادة فى تاريخنا مقدمة للأحداث الكبرى وإرهاصاً بالمعجزة العالمية . فقد كانت العبادة فى حياة النبى ﷺ مقدمة لبعثته وحمله للرسالة لقد كانت تهيئة لنفسه ليستطيع الاضطلاع بعبء الرسالة ، وإعدادا لروحه لتبلغ الوعى الكامل وتقدر أن تتحمل الوحى وتتصل بالملأ الأعلى .

إن العبادة هى أول ما طلب إليـــه وأمر به ، وأول ما بدأ به حياته ودعوته الكبرى وحمله الضخم (يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) وتكرر الخطاب بهذا المعنى :

(إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا . فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا . واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ، ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) .

لقد كانت صلته بالله أسبق من صلته بالمجتمع الذى سيقوم بإصلاحه وتطهيره لنفسه وتزكيتها وتهيئتها قبل إصلاحه للمجتمع . وكانت العبادة كذلك هى الصفة البارزة والعمل الأول لذلك العدد القليل الذى آمن فى مكة مع رسول الله ﷺ وتحققت فيه صفة العبودية الكاملة لله حيث كان يجتمع سرا فى دار الأرقم على عبادة الله .

لقد بدأ أولئك المسلمون الأولون بتعبيد أنفسهم لله وفتح آفاق أنفسهم قبل أن يفتحوا العالم ، وتهيئوا وتجردوا لذلك العمل العالمى الضخم ولتلك الحركة الكبرى ، لقد كونت نواتها الأولى العبادة وتطهير النفس وتقوية صلتها بالله ووعيها لآفاق الوجود ، لقد كانت العبادة اللبنة الأولى فى تاريخ الدعوة ، وكانت بالنسبة للحضارة التى أقامها المسلمون بمثابة الجذور العميقة التى نبتت وأثمرت .

ذلك أن الغاية الأولى للعبادة فى الإسلام هى أن تزج بالإنسان المسلم فى معركة تعبيد الناس لله ، وصراع الخير والشر والحق والباطل ، وهو أمضى مايكون سلاحا ، وأقوى عزيمة ، وأطهر نفسا ، وأنبل قصدا .

إنه يدخل معركة الحق والباطل والعدل والظلم وهو يعلم أن النصر من عند الله ، فلا تطغى قوته ، ولا يداخله الغرور ونشوة النصر ، ولا تغريه مفاتن الدنيا إذا عرضت له فى طريقه أو حين يكسب المعركة ، ولا يصبح الظفر والغلبة وسيلة لاستعباد الناس وظلمهم والاستعلاء عليهم .

إن الاسلام جاء بعقيدة جامعة وبفكرة عن الوجود والكون وعن الإنسان ومصيره ومسئوليته أمام الله الخالق المهيمن كان لها أعظم الأثر فى تخليص عبادة الله من أى شائبة شرك وتحرير تفكير الإنسان من الأساطير وتحريره من الخضوع لانسان آخر أو للمجتمع الجائر ، أو لأهوائه وشهواته ، وجعله أداة منفذة للخير ، مجاهدا فى سبيل الله .

ولذلك لم يغفل المسلمون الأولون عن أن وراء العبادة غايات سامية ، إنها إعداد لمعارك الجهاد فى الحياة وقد ورد فى الكتاب الكريم (واستعينوا

بالصبر والصلاة) فهى سبيل لتقوية الروح وتهيئة للنفس لخوض المعركة إنها تذكره أنه يعيش لا ليأكل ويشرب وينام ، ولا ليجمع المال ويبنى الدور ويرتع فى نعيم العيش ، وإن كان يعتبر ذلك من متطلبات الفطرة التى فطر الناس عليها ، ولكنه يعيش ليحمل أمانة وينفذ رسالة ، إنه يعيش فى الطبيعة بغرائزها ودوافعها ومغرياتها ، ولكن العبادة تذكره أن يتحرر من تأثيرها ويعيش فى جو أعلى من جوها .

إن الإنسان ليرتقى بإختلاف الطاقات الموجودة فيه من نوع الى نوع ، فأدناه الطاقة العضلية ثم الطاقة الغريزية ، وهذه يشترك فيها مع الحيوان ثم الطاقة العقلية وأسمى من هذه الطاقات كلها الطاقة الروحية التى يمتاز بها الإنسان عن الموجودات كلها والعبادة هى الوسيلة الوحيدة لترقيتها وقد جاءت العبادات فى الإسلام لتنمية هذه الطاقة وتزكيتها لتؤثر بدورها فى الطاقات الأخرى لتتجه فيما يرضى الله .

وقد تخلصت العبادة فى الإسلام من آثار الطلاسم والألغاز والأسرار فجاءت تعبيرا واضحا عن الصلة بالله ، سواء فى الصلاة بحركاتها وأقوالها أو فى الصيام ورياضته النفسية أو فى الحج وما فيه من تجرد عن متاع الدنيا وزخارفها .

وجاءت العبادة فى الإسلام متنوعة تنوعات مفيداً من حيث أوقاتها وتوزعها ، ومن حيث كونها فردية أحيانا وجماعية تارة أخرى . وجاءت كذلك خالصة من شوائب الوثنية فهى دائما صلة بالخالق وتوجه إليه وطلب لرضاته وانتظار للقائه وثوابه .

إن أسلافنا انتصروا فى معارك الجهاد وأقاموا معالم العدل والعلم حين استعلت فيهم قوة الروح وكان النصر حليفا لهم فى كل الميادين .

وإنطلاقاً من هذا المفهوم للعبادة الإسلامية يمكن للأخت المسلمة أن تتدرج فى معرفتها لفقه العبادة وفقاً للمنهج الآتى :

أولا ـ خصائص العبادة الاسلامية ومزاياها

ثانيا ـ الصـــلاة :

١ ـ أثر الصلاة فى حياة المسلم .
٢ ـ مكانة الصلاة فى الإسلام وحكم تاركها .
٣ ـ الطهارة ونظافة المصلى .
٤ ـ الوضوء (فرائضه وسننه ونواقضه ولماذا يجب) .
٥ ـ الغسل (موجباته ومايستحب له وفرائضه وسننه) .
٦ ـ التيمم (أسبابه وكيفيته ونواقضه)
٧ ـ الدماء الخاصة بالنساء (دم الحيض والنفاس ودم الاستحاضة والأحكام الخاصة بها ومايحرم على الحائض والنفساء) .
٨ ـ لصلاة (أركانها وسننها وبطلانها ومكروهاتها وما يباح فيها) .

ثالثا ـ الجنائز (غسل للمرأة الميتة ـ التكفين ـ صفة الصلاة على جنازة للمرأة ـ حكم حمل للميتة وكيفيتها ـ تشييع الميت ـ البكاء على للميت) .

رابعا ـ الدعاء (تعريفه ـ فضائله ـ آدابه ـ الأذكار الواردة فيه) .

خامسا ـ الزكاة (الترغيب فى آدائها والترهيب من منعها ـ وجـوب الزكاة ومنزلتها فى الإسلام ـ أحكامها) . (الصدقات : فضائلها والحض عليها) .

سادسا ـ الصيام (فضائله والجوانب الاجتماعية فيه ـ أحكامه) .

سابعا ـ الحج (فضائله ـ أحكامه)

ونرشح للمنهج الكتب التالية :

١ ـ فقه السنة (الأجزاء من ١ إلى ٥) . . . الشيخ السيد سابق
٢ ـ تعليم الطهارة والصلاة . . . . الشيخ حسن أيوب
٣ ـ فقه النساء فى الطهارة . . . . . . للأستاذ محمد عطيه خميس
٤ ـ فقه النساء فى الصلاة . . . . . . » » » »
٥ ـ فقه النساء فى الزكاة والصيام . . » » » »
٦ ـ موعظة المؤمنين (من إحياء علوم الدين) . . . للعلامة القاسمى
٧ ـ العبادة فى فى الإسلام . . . . الدكتور يوسف القرضاوى

القرآن الكريم وعلومه

لقد جرت عادة جمهرة المسلمين فى العصور الأخيرة أن يقرأوا القرآن التبرك بتلاوته ورجاء ثواب الله لمجرد قراءته ، سواء فهموه أم لم يفهموه وعملوا به أم لم يعملوا . وبعد أن كان هذا الكتاب الإلهى العظيم مصدراً لحضارة وثقافة وباعثاً لنهضة وبانياً لأمة ، أصبح فى عصور الانحطاط كوصفة الطبيب يكتفى للمريض بحفظها فى جيبه والنظر إليها وقراءتها بين الحين والحين دون أن يستعمل الدواء الذى دلت عليه وأرشدت إليه .

لقد فتح القرآن عقولا وقلوباً وبعث أمة بل أمماً . . .

لقد تفتحت العيون والعقول بما فى القرآن من مشاهد وصور وحوادث وما خلق الله فى الكون الواسع والمجتمع البشرى ، كما تفتحت على مشاعر ومنازع فى النفس الانسانية ، وحقق الله قوله فيما أطلعنا عليه فى آفاق الكون وآفاق النفس (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وحرك القرآن

الكريم القلوب وفتح فيها كذلك آفاقا جديدة ووصل حبلها بخالقها وأشعرها بنعمه، بعد أن كانت مفعمة بحب المال والطمع وأنواع من عواطف الغرور والكبر والأثرة والطغيان تخلد إلى الشهوة وتسكن للذة ولو كان فى ذلك الشر والفساد والظلم، فجعلها تخشع لعظمة الله، وتلين لذكره وتشعر بفضله، وتشكر نعمته وتحب الخير لمخلوقاته، وتستشعر مراقبته، وتحس بالمسئولية أمامه، وتطمع فى مرضاته.

لقد كان القرآن فى مبادئه ونظمه حربا على الاستبداد والاستعلاء (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) فالبشر متساوون أفرادا وجماعات (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وللمظلوم أن يجهر بأنه مظلوم ويدفع عن نفسه الظلم (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) واختلاف الناس فى الدين ليس داعيا للخصومة والعداء (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) ولكن الاعتداء على حرية الانسان فى دينه وعقيدته وسلبه أرضه ووطنه يجيز الخصومة ويبيح المقاومة (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون).

وفى القرآن العظيم تشريعا يقيم التوازن بين أفراد الأسرة الواحدة التى بنيت على أساس الاستقرار والطمأنينة والثقة. وعلى أساس المساواة بين الرجل والمرأة مع جعل الرياسة فى هذه الجمعية للرجل. وأقام المجتمع على أساس التضامن بين أفراده (والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل

والمحروم (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور) .

إن فى القرآن من المبادىء التشريعية والنظم الاجتماعية مايكفل إقامة مجتمع إنسانى عادل . إن هذا القرآن الذى كان سببا لتفتح العقول والسمو بالنفوس وتنظيم المجتمع فى العصر الاسلامى الأول فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، فى داخل أنفسهم وفى مجتمعهم ، لم يعد كذلك مذ ترك المسلمون فهمه وتدبره ، واكتفوا بظاهر تلاوته ، وحلاوة نغمته ، وكسب الثواب بقراءته ، ولاسيما للأموات طمعا فى غفران ذنوبهم ، بعد أن كان للأحياء ليعملوا به ، وليكون دستور حياتهم ، وشهيدا عليهم ، والصلة فيما بينهم وبين الله ، وبعد أن كان العمل نتيجة لقراءته أصبحت قراءته مغنية — بزعمهم — عن العمل لأنها هى العمل نفسه .

يجب أن نعيش فى جو القرآن وأن يكون الأثير الذى تسبح فيه عقولنا وقلوبنا ونفوسنا . يجب أن نفهمه من جديد وأن يكون وسيلة للعودة إلى ذاتيتنا وشخصيتنا . يجب أن نهيىء نفوسنا ليتنزل عليها القرآن كما كان يتنزل على الصحابة غضا طريا . لقد نزل القرآن بالتدريج مقسطا على بضع وعشرين سنة تثبيتا للرسول الكريم ﷺ وتربية للمسلمين الأولين وتدريجا لهم فى التعليم والتربية (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا) (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) فامتزجت نفوس ذلك الجيل بآيات القرآن خلال نزولها فى هذه المدة فتكونت وتربت بالقرآن . فكان تثقيفا لعقولها وتهذيبا لنفوسها وترويضا لقلوبها وتنظيما

لمجتمعها ، حتى غدا القرآن أفكارا ومفاهيم فى عقولهم ، وعواطف ومشاعر فى أفئدتهم وقلوبهم ، وأعمالا تصدر عن جوارحهم .

فأين نحن اليوم من القرآن ؟ ! وإذا كان آباؤنا الأقربون يتبركون بتلاوته فحسب ، فنحن اليوم نكتفى بما تحدثه نغمات القرآن فى نفوسنا من نشوة وما تبعثه موسيقاه العذبة العميقة فى قلوبنا من هدوء ولذة ونحن فى كلا الحالين بعيدون عن تمثله واستيعابه ووعيه،وجعله شهيدا على أنفسنا وطريقا نسير فيه نحو الله ، ودستورا نتخذه للحياة .

ولئن كانت رسالة القرآن إلى الناس كافة، فلقد كان العرب أول المدعوين إليه والمخاطبين به . فكانوا هم الدعاة الأولين الذين بلغوا دعوته إلى الأمم ، فهل أدينا نحن العرب فى هذا العصر الأمانة التى أداها أسلافنا ؟ فإن العرب هم أول من خوطب بالقرآن ، وبلسانهم نزل ، وعن طريقهم تبلغ العالم هذه الدعوة الإنسانية الحضارية الخالدة لذا نرجو أن نسلك فى فهم القرآن والتعبد به والحياة به المنهج التالى :

أولا ـ التلاوة :

وهى من أفضل أنواع الذكر لأنه يتضمن جميع أنواع ذكر الله، فيذكر الإنسان بالله وآياته ويذكره بصفاته وآلائه ، يثير فى نفسه عظمته وقدرته وحكمته ورحمته وفضله وإحسانه وعذابه ونعيمه . والقرآن يتضمن كثيراً من الأدعية يتعلمها قارئه ويدعو بها وكثيراً من الثناء على الله وتسبيحه وتنزيهه ويحتوى على أوامر الله وأحكامه ووصاياه وتعاليمه ولهذا ورد فى القرآن نفسه قوله : (فاقرأوا ما تيسر من القرآن) وقوله : (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) ورتل القرآن ترتيلا)

ووردت أحاديث فى الحض على تلاوته وحفظه منها قوله عليه الصلاة

والسلام « عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك فى الارض وذخر لك فى السماء - رواه ابن حبان، وقوله: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة - رواه أحمد ».

والأصل فى تلاوة القرآن أن تكون بفهم وتدبر وتفكر (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب) . ولذلك كره أن يختم القارىء القرآن فى أقل من ثلاثة أيام وفقا لحديث النبى ﷺ « لم يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاثة - رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه » . وكانت وصيته ﷺ لعبد الله بن عمر ألا يقرأه فى أقل من سبع كما ورد فى الصحيحين . وقد كره سلفنا الصالح رضوان الله عليهم أن يختم الإنسان القرآن فى أقل من ثلاثة أيام فقالوا : إن فى الختم فى أقل من ثلاث إسراعا لا يعين على التفهم والتدبر . كما كرهوا الختم فى أكثر من شهر لأن فى ذلك إسراف فى هجر القرآن .

١ - مقدار الورد:

تختلف ظروف المسلمين وأحوالهم ، ولهذا لم يحدد مقدار الورد ، وترك ذلك لظروف كل شخص ومقدرته والمهم ألا يمر به يوم بغير أن يقرأ شيئاً من كتاب الله تعالى. فإن لم يكن المسلم من أهل القراءة فليجتهد فى الاستماع أو فى حفظ بعض السور يتلوها كلما سنحت له الفرصة .

٢ - آداب التلاوة وأحكام التجويد :

لكى تحدث التلاوة أثرها فى القلب لا بد من مراعاة آدابها وإلا كانت مجرد ألفاظ لا تأثير فيها فلا بد من الخشوع والتأدب ، واستحضار معانى الصيغ ومحاولة التأثر بها ، وملاحظة مقاصدها وأغراضها .

كما أن من آداب التلاوة كذلك مراعاة أحكام التجويد ، فيخرج الحروف من مخارجها ، ويؤديها على قواعدها ، ويمد للممدود ، ويغن ما يستحق الغنة ، ويفخم للمفخم ويرقق للمرقق ، وهكذا(١) فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به ، فمن لم يتغن بالقرآن فليس منا » . والمراد بالتغني هنا التحسن وإظهار الخشوع مع تجويد القراءة فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ حسبتموه يخشى الله » .

قال ابن كثير : والغرض أن المطلوب شرعاً إنما هو التحسين بالصوت الباعث على تدبر القرآن وتفهمه والخشوع والخضوع والانقياد للطاعة ، فأما الأصوات بالنغمات المحدثة المركبة على الأوزان والأوضاع الملهية والقانون الموسيقي، فالقرآن منزه عن هذا ويجل ويعظم أن يسلك في آدائه هذا المذهب ، وقد جاءت السنة بالزجر عن ذلك .

ثانيا ـ الحفظ والدراسة :

١ ـ يحفظ الجزء الثلاثون ، لقصر سوره مما يجعل حفظها سهلا تمشيا مع طبيعة هذه المرحلة من تكوين الأخت المسلمة .

وحيث أن هذا الجزء كله تركيز على النشأة الأولى للإنسان والأحياء الأخرى في هذه الأرض من نبات وحيوان ، وعلى مشاهد هذا الكون وآياته في كتابه المفتوح ، وعلى مشاهد القيامة الرهيبة ومشاهد الحساب والجزاء من نعيم وعذاب في سور تقرع وتذهل وتزلزل كمشاهد القيامة الكونية في ضخامتها وهولها . . واتخاذها جميعا دلائل على الخلق والتدبير

---

(١) لا يستغنى المبتدىء في التجويد عن التلقي من معلم . وظهر حديثا شرائط صوتية لتعليم التجويد

والنشأة الأخرى وموازينها الحالمة مـــع التقريع والتخويف والتحذير . وأحيانا تصاحبها صور من مصارع الغابرين من المكذبين . لذا يستحسن دراسة كل سورة وتدبر مافيها من عبر وعظات قبل الحفظ . هذا ونوصي بالتركيز على دراسة سورة الفاتحة وذلك لاستمرار ترديد المسلم لهذه السورة في صلاته كل يوم لذن للتمين عليه أن يـكون مستوعباً للحكمة في ترديدها.

٢ ـ سورة النور وذلك لأنها بمثابة حجر الأساس لحياة المسلمين الخلقية والاجتماعية وما يتخللها من الآداب النفسية الفردية وآداب البيت والأسرة، وآداب الجماعة والقيادة ، وأنه لابد ـ على هذا ـ أن يـكون كل فرد من أفراد المسلمين على معرفة بها .

٣ ـ سورة الأحزاب : ذلك أن هذه السورة تولت جانبا كبيرا من عملية تنظيم الجماعة المسلمة وإبراز ملامحها وتثبيتها في حياة الأسرة والجماعة، وبيان أصولها من العقيدة والتشريع ، كما تولت تعديل الأوضاع والتقاليد أو إبطالها ، وإخضاعها في هذا كله للتصور الإسلامي .

٤ ـ سورة الحجرات : هذه السورة تفتح للقلب وللعقل آفاقا عالية وآمادا بعيدة ، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة ومعاني كبيرة وتشمل من مناهج التكوين ، وقواعـــد التربية والتهذيب ، ومبادىء التشريع والتوجيه، ما هو ضروري في بناء القاعدة الأخلاقية للأخت المسلمة

ونرشح من المصادر العلمية فى فهم القرآن وتدبره والتأدب بأحكامه مايلى:

(أ) فى آداب التلاوة وأحكام التجويد:

بعد تبلبل الألسنة وفشو اللحن وانتشار العاميه والبعد عن الفصحى يستحب للأخت المسلمة أن يصاحبها عند التلاوة أحد الكتابين الآتيين :

١ ـ كلمات القرآن . . . . للشيخ حسنين مخلوف
٢ ـ المصحف الميسر . . . . للشيخ عبد الجليل عيسى

وتدرس الكتابين الآتيين :

١ ـ التجويد وعلوم القرآن . . . . عبد البديع صقر
٢ ـ التبيان فى آداب حملة القرآن . . . . الامام النووى

(ب) الحفظ والتفسير :

١ ـ فى ظلال القرآن . . . . سيد قطب
٢ ـ تفسير القرآن العظيم . . . . لابن كثير
٣ ـ التفسير الواضح . . . . الدكتور محمد محمود حجازى
٤ ـ تفسير سورة الفاتحة . . . . الامام الشهيد حسن البنا
٥ ـ تفسير سورة النور . . . . . . للعلامة أبى الأعلى المودودى

السنة المطهرة

١ ـ إن كتاب الله لايفهم فهما تطبيقيا بدون السنة . فمثلا القرآن أمر بالصلاة ، والسنة هى التى أرشدتنا إلى كيفية تطبيق هذا الأمر ، وكذلك الزكاة هى التى حددت نسبتها ، وهكذا بقية الإسلام . لذلك كان من

اتباع كتاب الله اتباع سنة رسول الله ﷺ (ومن يطع الرسول فقد أطاع الله) (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

وعدا من ذلك فإن الرسول ﷺ هو المظهر العملى للقرآن من الناحية التطبيقية « كان خلقه القرآن » فكان أسوة لكل إنسان (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا) ولذلك كانت السنة الأصل الثانى .

٢ ـ وبناء على ماتقدم فإنه لافرق بين طاعة الله تعالى فى كتابه وطاعة رسوله فى سنته من حيث المعنى « فطاعة الله طاعة لرسوله ، وطاعة رسوله طاعة له ، إذ لايأمر الرسول إلا بما أمر الله عز وجل به وقد انصبت آيات القرآن مبينة هذا المعنى (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فا على رسولنا إلا البلاغ المبين) (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم) (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) .

وحيث وردت طاعة الله فذلك طاعة كتابه ، وحيثما وردت طاعة الرسول ﷺ فتلك طاعة سنته فهما متلازمان « تركت فيكم أمرين لن تضلوا ماتمسكتم بهما كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ » « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه » .

وحيثما وردت الحكمة ممتنا بها علينا بجانب الكتاب فإنما هى السنة لاغير :

(لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) .

٣ ـ وحينما كانت السنة فلا يسع مسلم أن يتجاوزها « جاء ثلاثة رهط إلى بيوت رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالوها قالوا : أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفرله ماتقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى أخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى »

٤ ـ ونعنى هنا بالسنة مايعنيه الأصوليون فيها وهى :

ما نقل عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وذلك لأن علماء الأصول هم الذين بحثوا عن رسول الله ﷺ باعتباره المشرع الذى يضع القواعد ويبين للناس دستور الحياة .

وأما المحدثون فمفهومهم عن السنة أوسع إذ هى فى اصطلاحهم : ماأثر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خُلقية أو سيرة سواء كان قبل البعثة أو بعدها فهى عندهم أوسع منها فى اصطلاح الأصوليين .

هذه السنة لا يتجاوزها إلى غيرها بعد ثبوتها إلا متهم ، وتلك كانت سنة الخلفاء الراشدين التثبت من السنة حتى إذا تثبتوا لم يلتفتوا عنها .

روى الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد أن أبا موسى رضى الله عنه سلم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن له فرجع فأرسل عمر رضى الله عنه فى أثره فقال : لما رجعت ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم فلم يؤذن له فليرجع » قال : لتأتينى على ذلك ببينة أو لأفعلن بك فجاء أبو موسى رضى الله عنه ممتقعا لونه ونحن جلوس فقلنا : ما شأنك ؟ فأخبرنا وقال : فهل سمع أحد منكم ؟ فقلنا : نعم ، كلنا سمعه ، فأرسلوا رجلا منهم حتى أتى عمر فأخبره .

ونرشح هذه الكتب :

١ ـ رياض الصالحين للنووى . . . . للدراسة

٢ ـ الأربعين النووية . . . . حفظ ودراسة

٣ ـ الباعث الحثيث فى اختصار علوم الحديث . . . . . لابن كثير

السيره النبويه

منهجنا فى دراسة السيرة النبوية .

(أ) دراسة حياة الرسول ﷺ قبل البعثة وبعدها .

(ب) الوقوف على مراحل دعوته وتطوراتها .

(حـ) التعرف على الطرق التى سلكها فى تكييف التبليغ حسب طاقات الأفراد ومعادن الناس والتدرج فى إرتفاع درجات الإيمان وموجة سير الدعـــوة

(د)استعراض ما كان من قومه حين واجههم برسالته من صد واضطهاد وما كان منه ومن أصحابه من صبر واحتمال .

(هـ) الدولة الصالحة والحكومة الفاضلة فى العهد المدنى نتيجة طبيعية للأمة المؤمنة والشعب الواعى فى العهد المكى .

ونحن حين ندرس السيرة لا ندرسها من الجانب التاريخى فحسب لنشبع به الشهوة العلمية ونتوصل إلى قتل الوقت وتحصيل المتعة واللذة الذهنية

ولكن ندرسها من الجانب التطبيقى على أن دعوتنا صدى من أصدائها وامتداد طبيعى من امتدادها فنتفاعل معها ونتجاوب مع رجالها فنبنى كما كانت أوائلنا تبنى ونفعل مثلما فعلوا . ونحن حين ندرس السيرة نأخذها أخذا جديدا غير ما يألف الناس فنحن متبعون لا مبتدعون يغمر مشاعرنا ويستولى على أفهامنا حين نتدبرها أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ومن أهدافنا من دراستها كذلك :

١ ـ أن نعيش فى صحبة روحية دائمة مع رسول الله ﷺ فى سيرته حيث قد حرمنا الصحبة الزمنية .

٢ ـ أن نستمد القوى الدافعة من النماذج والقوالب الربانية والصدور السليمة التى صاغتها الرسالة وصنعتها النبوة .

٣ ـ أن نستنير بها فى حل مشاكلنا الخاصة والعامة التى تعرض لنا فى أطوار دعوتنا ومراحلها وفى انتقالها من جيل إلى جيل وفى مواجهتها لتقلبات المجتمع ومطالب العمران :

ونرشح لذلك الكتب الآتية :

١ ـ فقه السيرة . . . . محمد الغزالى
٢ ـ صور من حياة الرسول . . . . أمين دويدار
٣ ـ الرسول (جزءان) . . . . سعيد حوى
٤ ـ معارك الإسلام الفاصلة . . . . محمد أحمد باشميل

أصول الإسلام كنظام اجتماعي

من المعلوم أن الإسلام لم يقتصر على عقيدة دعا إلى الإيمان بها وشعائر للعبادات أمر بإقامتها، وقواعد للسلوك والأخلاق حض على التزامها، بل تجاوز ذلك وبنى على هذا كله بناء اجتماعياً كاملاً قدم للناس أسسه وهيكله العام وخطوطه الكبرى واتجاهاته العامة وأحياناً بعض تفصيلاته وجزئياته.

ويشتمل هذا النظام الاجتماعي على تشريع للأسرة وتحديد وظيفة أفرادها وعلاقات بعضهم ببعض، ويشتمل على نظام اقتصادي مالي يحدد طرق الكسب وطرق الإنفاق، وعلاقات الناس بعضهم ببعض من الوجهة المالية، وأسس التكافل والتضامن فيما بينهم، ويحدد مفهوم الملكية ويبين قيودها، ويفصل ما بين الفرد والجماعة في شئون المال والتصرف، ويشتمل على نظام سياسي أو نظام للدولة: ويتضمن مبادىء عامة للحكم والسياسة، ويحدد العلاقة بين الحاكم وأفراد الشعب، وحقوق المواطنين في الدولة الإسلامية من المسلمين أو غير مسلمين، وموقف الدولة الإسلامية من الدول الأخرى، ومن الأفراد المنتمين إليها، وقواعد السلم والحرب، ويشتمل على نظام للعقوبات بضمان تنفيذ هذه الأنظمة الأخلاقية والتشريعية جميعاً . .

إن لهذا التشريع الشامل للأسرة والدولة ولحقوق الأفراد والجماعات قواعد وخصائص يتميز بها عن سائر التشريعات الأخرى، لذلك كان من الواجب على المسلم التعرف على مزاياه وخصائصه وقواعده ومبادئه . .

ونقترح لهذه الدراسة الكتب الآتية:

١ ـ نظام الحياة في الاسلام . . . العلامة أبي الأعلى المودودي

٢ ـ العدالة الاجتماعية فى الإسلام . . . سيد قطب
٣ ـ السلام فى الإسلام . . . للإمام الشهيد حسن البنا
٤ ـ مشكلاتنا فى ضوء النظام الإسلامى . . . سيد قطب
٥ ـ الإسلام والأوضاع الاقتصادية . . . محمد الغزالى
٦ ـ الإسلام وأوضاعنا القانونية . . . عبد القادر عودة
٧ ـ الإسلام وأوضاعنا السياسية . . . « «
٨ ـ الإسلام (أربعة أجزاء) . . . سعيد حوى
٩ ـ السلام العالمى والإسلام . . . سيد قطب
١٠ ـ منهاج الإسلام فى الحكم . . . محمد أسد
١١ ـ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام . . . دكتور يوسف القرضاوى .

الثقافة التاريخية

إن دراسة التاريخ الإسلامى من أهم عوامل تكوين الشخصية المسلمة الواعية، كما أنها تذكى فى الأمة شعور التميز ، كما تؤصل الصلابة والاستعصاء على كل محاولات الذوبان والتمييع .

إن الإنسان المسلم لا يستطيع أن يحس بحقيقة انتمائه وارتباطه بأمته إلا بعد تفاعله بحركتها التاريخية، كما لا يستطيع أن يدرك حقيقة أصالته وعراقته إلا إذا تعرف على أمجاد آبائه وأسلافه .

وعلينا لكى نبلغ هذه الغاية فى دراستنا التاريخية أن نلتفت إلى هذه الحقائق:

● حقيقة الجاهلية العالمية والعربية التى كان يتردى فيها العالم عامة والعرب خاصة قبيل البعثة .

● تكوين الجماعة الإسلامية فى مكة ، ثم قيام المجتمع المسلم فى المدينة كنموذج تطبيقى لمفهوم الإسلام : دنيا ودولة ، وانطلاقه لنشر الإسلام وإذاعته والتبشير به كرسالة تقوم على أسس حضارة إنسانية يسود فيها الحق والعدل .

● حقيقة عنصر المقاومة فى حركة التاريخ الإسلامى ، التى تتمثل فى مقاومة القضاء على الإسلام وشجب محاولات التآمر والانتقاض بالانتصار على القوى الغازية أو تذويبها فى بوتقته. إن حركة المقاومة فى تاريخ الإسلام تمثل جزءاً هاماً فى كيانه وطبيعته الأساسية ، ومنها يبرز مفهوم الجهاد بوصفه : اليقظة والاستعداد الدائم المستمر فى مواجهة العدو .

● حقيقة فاعلية الإسلام وقدرته المستمرة على تصحيح مجرى حركته ، وتظهر فى السلسلة المتصلة من حركات التجديد والإصلاح وتصحيح المفاهيم .

● حقيقة الحضارة الإسلامية وآثارها على الفكر العالمى ، وحقيقة أن أديان العالم كلها سبب التخلف ، إلا الإسلام فإنه طريق التقدم الحضارى أبداً ، ولولاه ما كانت هذه المدنية الأوربية .

● سنن الضعف والقوة ، كما تمثلت فى الواقع التاريخى الإسلامى بالاقتراب أو الابتعاد عن قيم الإسلام الأساسية ، فلم يضعف المسلمون فى مرحلة من مراحل تاريخهم إلا حين تخلفوا عن مفاهيم الإسلام وانحرفوا نحو مفاهيم أخرى ، أو انحرفوا عن تكامل مفهوم الإسلام ووسطيته ، أو انحرفوا عن معنى الإيمان الحق وأسباب القوة والوحدة .

● حقيقة الخسائر التى لحقت بالعالم بسبب تخلف وانحطاط المسلمين . وفى سبيل إشباع هذه الحاجة نقترح الكتب الآتية .

١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للسيد أبى الحسن الندوى
٢) تاريخ الاسلام (مجلد) الاستاذ أنور الجندي
٣) العواصم من القواصم للقاضى ابن العربى
٤) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعى
٥) حاضر العالم الإسلامى شكيب ارسلان

هـذا ، ونحـذر من كتب المستشرقين والمبشرين والشيوعيين ومن تربوا فى أحضـانهم من المتغربين ، فهناك فى تاريخنا مجرمون يصورونهم لنا كأبطال ، وهناك قضايا أساسية كجزء من الإسلام العظيم يصورونها اليوم بشكل بشع مستهجن ، كقضية الخلافة ، كما أنهم يحـاولون تضخيـم بعض الأخطاء وربطها بالإسلام . ويحاولون التأكيد فى دراساتهم التاريخية عـلى توسيع الهوة بين المسلمين وإبراز التفرقة ، ويحاولون تمجيد كل الحركات المنحرفة فى تاريخنا لخدمة اتجاهات كافرة

التحـــديات

قد يكون المسلم صالحاً تقياً ورعاً ، صواماً قواماً ، وفيه غفلة ويسهل أن تدخل عليه حيل أعدائه وتنطلى عليه ألاعيبهم ..

ولا يقع المسلم فريسة للخداع والتضليل إلا بسبب النقص فى منهـج تربيته وتكوينه . إذ لم يزود بسلاح معرفة العدو وأساليبه فى المكر وخططه ومؤامراته على المسلمين وإلحاق الهزيمة بهم ، كما لم يحط علماً بطبيعة المعركة الدائرة رحاها إلى آخر الزمان بين المسلمين وأعدائهم ، وصـدق الله العظيم حيث قال : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »

ولا يكيد للمسلمين ولا يتآمر على الإسلام إلا اليهودية ومنظماتهـا السرية والعلنية كما تتمثل فى الصهيونية والماسونية وبدائلهـا كنوادى

الروتارى والليونز ، والصليبية ومؤسساتها جميعاً ، والشيوعية بفروعها كلها ، والدول الاستعمارية بجواسيسها ودوائر استخباراتها . وكل من هؤلاء الأوله أذناب من أبناء المسلمين لهم أسماء إسلامية وهم منافقون ، ينفذون مايريد أسيادهم من خلال السلطات التى خولها لهم فى الحكم والأحزاب القائمة باتجاهاتها المتعددة الرأسمالية أو الديموقراطية أو الشيوعية أو الاشتراكية أو القومية ، ومن خلال هيمنتهم على مؤسسات التربية والتعليم والصحافة والنشر والإعلام.

ويحسن مبدئيا أن تقرأ الكتب الآتية :

١) التبشير والاستعمار . . . . . د. عمر فروخ ود. مصطفى الخالدى
٢) الغارة على العالم الإسلامى . . . . محب الدين الخطيب
٣) بروتوكولات حكماء صهيون . . . . . ترجمة محمد خليفة التونسى
٤) الإسلام والحضارة الغربية . . . . د. محمد حسين
٥) الماسونية فى المرآة . . . . محمد على الزغبى
٦) حركات ومذاهب فى ميزان الاسلام . . . . فتحى يكن
٧) الديبلوماسية والميكيافيلية . . . . د. محمد صادق

ومتابعة كل ماصدر عن سلسلة « اليهود والعالم » نشر دار النفائس ببيروت ، وكل ماصدر من كتب فى موضوع الغزو الفكرى الصادرة عن دار الدعوة بالاسكندرية ومكتبة وهبه ودار الأنصار ودار الاعتصام والمختار الإسلامى .

ومتابعة مجلة الدعوة والاعتصام والمختار الإسلامى ، ويعتبر التقصير فى متابعة هذه المجالات شهرياً تقصيراً فى واجب إسلامى .

فقة الدعوة والعمل

كتب الإمام الشهيد حسن البنا فى دعامة « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » وأثرها فى حماية المجتمعات وصيانتها يقول رضى الله عنه :

(يقظة الرأى العام ، واستقامة العرف فى الجماعة ، ووضوح حدود الخير والشر فى حياتها العامة ، وتقديرها للخير وحرصها عليه ، واحتقارها للشر ونفورها منه ، فإذا توفرت هذه المعانى فى أمة من الأمم ، التزم أفرادها فى سلوكهم سبيلا قويمة ، لايحيدون عنها ولا ينحرفون فيها ، ولم يكن أمرهم فرطا .

وإذا بدا لأحدهم أن ينحرف عن الطريق المستقيم وزل به قدمه إلى الإثم والخطيئة ، ولم يكن له فى حياة ضميره ، ويقظة شعوره مايردعه أو يرده ، وجد من يقظة الرأى العام ودقة شعور الجماعة ما يدعوه إلى الهدى ويرده عن الردى ، ويستنقذه من براثن الشر ويأخذ به إلى الصراط المستقيم .

وهذا مايعبر عنه بلسان العرف الإسلامى « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ولقد وزن القرآن الأمم بهذا الميزان ، فإن تمسكته بهذا المعنى وصار خلقاً من أخلاقها وملكة من ملكاتها ، رفعها القرآن إلى أعلى عليين وجعلها خير أمة فى العالمين وقال : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وإن أهملت أداء هذا الواجب وغفلت عن عظيم أثره فى حياة الأمم والشعوب ، آخذها القرآن بذلك أشد المؤاخذة وقال فى حقها « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ماكانوا يفعلون » .

ولقد قال رسول الله ﷺ فى هذا المعنى مامعناه : « لايكن أحدكم إمعة يقول : إن أحسن الناس أحسنت وإن أساؤوا أسأت ، ولكن إذا أحسن الناس فأحسنوا ، وإذا أساؤوا فأرشدوهم وانصحوا لهم » ، ولقد صور النبى ﷺ هذا المعنى تصويراً دقيقاً بديعاً ، وأبان عن أثر الإهمال فى الضرب على أيدى المفسدين بدعوى الحرية الشخصية وضعف سلطان روح الجماعة على أفرادها ، فقال : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة ، فأخذ بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فقال الذين فى أسفلها : لو ثقبنا ثقبا فى قسمنا نستقى منه الماء ، فلو تركهم الذين فى أعلاها يفعلون هلكوا جميعاً ، وإن منعوهم نجوا جميعاً » .

كما صور مراتب الفتنة وتدرج الناس فى إهمال هذا المعنى فى حديث آخر إذ يقول ﷺ : « كيف بكم إذا طغى نساؤكم ، وفجر شبابكم ، وتركتم جهادكم ؟ قالوا : وإن ذلك لكائن يارسول الله ؟ قال : نعم ، والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ! كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف قالوا : وإن ذلك كائن يارسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده وأشد منه سيكون ! يقول الحق عز وجل : بى حلفت لأفتننهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران » .

فأول الفساد أن تفسد المرأة فيتبعها الشاب ، فتهمل الواجبات فيفسد الفرد ، ويسكت الناس عن الأمر والنهى بل يرون المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، فيأمرون بالأول وينهون عن الثانى ، فيغضب الحق غضبة يتبعها فتنة تدع الحليم فيهم حيران .

فيأيها المسلمون : أحيوا ضمائركم بالإيمــان بالله وحسن مراقبته ، وصونوا مجتمعاتكم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهذان هما دعامتا

الصلاح والإصلاح ، والله ولى التوفيق (١))

إن مهمة دعوة الناس إلى الله وتبليغهم بالإسلام وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من المهام الأصيلة للمسلم الحق : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » .

والمسلم داعية إلى ماعنده لقول الرسول ﷺ : « بلغوا عنى ولو آية » وقال الفقهاء فى هذا المعنى : « إن من تعــلم مسألة عليه تبليغها لأنه صار فقيها بها » .

وتطبيقاً للقاعدة الأصولية : «مالايتم الواجب إلا به فهو واجب » ، فإن دعوة الناس إلى العودة إلى الإسلام وتهيئتهم للنزول على أصوله وأحكامه من الوسائل التى يتحقق بها قيام المجتمع المسلم واستئناف الحياة الإسلامية . فإذا كان تحقيق قيام المجتمع المسلم واجباً بذاته ، فتصبح تبعاً لذلك كل وسيلة لإقامته وإيجاده واجباً هى الأخرى .

وللدعوة إلى الإسلام أصول وقواعد وأساليب وطرائق ، ولذلك ننصح بالـكتب الآتية :

١ ـ رسائل الإمام الشهيد حسن البنا : « دعوتنا ، إلى أى شىء ندعو الناس ، نحو النور ، المؤتمر الخامس ، دعوتنا فى طور جديد ، إلى الشباب ، هل نحن قوم عمليون ، رسالة التعاليم » .

٢ ـ مذكرات الدعوة والداعية . . . . للامام الشهيد حسن البنا

---

(١) منبر الجمعة للامام الشهيد حسن البنا : ص ٩٥ / ص ٩٧ - دار الدعوة باسكندرية .

٣ ـ تذكرة الدعاة . . . . البهى الخولى
٤ ـ طريق الدعوة . . . . مصطفى مشهور
٥ ـ الإخوان المسلمون . . . . محمود عبد الحليم
٦ ـ حسن البنا : مواقف . . . . عباس السيسى
٧ ـ كيف ندعو إلى الإسلام . . . . فتحى يكن
٨ ـ مشكلات الدعـوة والداعية . . . . « «
٩ ـ ماذا يعنى انتمائى إلى الإسلام . . . . « «
١٠ ـ المنطلق . . . . محمد أحمد الراشد
١١ ـ أصول الدعوة . . . . د. عبد الكريم زيدان

ويجب أن تلاحظ الأخت المسلمة أن أولى الناس بالدعـــوة هم أهلها وجيرانها ، قال ﷺ : « ما بال قوم لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمـــونهم ولا يعظـــونهم ولا يأمرونهم ولا ينهـونهم . وما بال أقـوام لا يتعلمـون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون ، والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم ، وليتعلمن قـوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون أو لأعاجلنهم بالعقاب » .

نصائح عامة

• لابد للأسرة المسلمة من وجود مكتبة إسلامية مناسبة حسب طاقتها المالية .

إن وجود الحد الأدنى من الـكتب التى تعين على تحقيق أهداف التربية المثلى والثقافة الصحيحة داخل الأسرة ضرورى كضرورة المأكل والملبس . فإذا كان رب الأسرة يكدح فى سبيل توفير الراحة والسعادة المادية لزوجته

وأولاده ، فلا بد أن يستكمل جهاده النبيل بتوفير الحياة الروحية والفكرية لهم . وتهيئة الثقافة الإسلامية الرصينة أمامهم حتى يغترفوا منها ، ويصطبغوا بصبغتها الربانية .

• كل جوانب الثقافة الإسلامية التي ذكرناها آنفا ضرورية للمسلم ، وأي تفريط في أي جانب منها إنما يكون على حساب العمل أو الوعي أو سلامة العقيدة أو سلامة السير أو حكمة الدعوة والحركة .

ولكن القدر الذي ينبغي أن يستوعبه كل مسلم من هذه الجوانب يختلف باختلاف حال المسلم من حيث النشاط والذكاء وجودة الفهم والإيمان والمربي حكيم يعطي كل إنسان ما يناسبه ثم يتدرج به حسب مستواه ، فمنهم من يؤمر بقراءة كتاب ، ومنهم من يتدارس معه ومنهم من تكفيه جلسة لكل جانب . مع ملاحظة الابتداء مع كل إنسان بالأهم فالمهم .

• إن درساً أو جلسة علمية في الأسبوع لاتكفي لأخذ ثقافة إسلامية كاملة ، لذلك لا بد من المطالعة الشخصية لمن يستطيعها ولا بد من المدارسة في علوم معينة لاتؤخذ إلا بواسطة التلقي كالفقه والتجويد .

• يجب الاهتمام بحفظ مجموعة من قصائد وأناشيد الدعوة الإسلامية ، لإشعال شعور الحماسة للقضية الإسلامية وإحياء حاسة التذوق الأدبي . كما يجب تخصيص بعض الوقت للقراءة بصوت عال لتدريب اللسان والتعود على النطق بالفصحى .

• إن تحديات حياتنا الحاضرة ومضامين جوانبها المنحرفة من القوة بحيث يجب أن يضربها : فندحرها قبل أن تهزمنا وتطغى علينا وعلى أهل بيتنا ، وذلك يكون عن طريق المعايشة الكاملة المستمرة للاسلام وحياته ،

وتكوين بناء عائلي مؤمن يقتل كل جرثومة تدخل في تكوين أفراد البيت من أول يوم ، وتحصنهم تحصين الجندي الصامد في خندقه أمام أعدائه بفضح الثقافة الدخيلة والسياسة الانهزامية العميلة . وهذا ليس أشد خطراً الآن على البيوت المسلمة من التلفزيون : ذلك الجرثوم الخبيث .

إن التليفزيون ببرامجه الحاضرة مدرسة للرذيلة لا للتوجيه .. فبرامج للرقص الداعر ، والفكاهة التافهة المبتذلة ، والدعاية لكل ألوان الفساد والانحلال ، غدت دروساً شيقة ممتعة تلتقي عندها الأسر كل مساء وحتى ساعة متأخرة من الليل دونما شعور بخطر « الأفعى » تنفث سمها الزعاف في النفوس والعقول والأجسام في سبيل المتعة والتسلية البريئة يتعلم الناس فنون الخداع واللصوصية والإجرام ، ولتقتل الأوقات وهي أعمار الناس ، ولتدمر الصحة بالسهر ، وليقضى على مستقبل الناشئة بإهمال واجباتهم .. ثم لينشأ جيل تربى في مستنقع آسن لم ير فيه إلا مظاهر العربدة والتخنث والفجور .

فاحذري أيتها الأخت المسلمة هذا الملعون ببرامجه على نظام الحياة في بيتك ، وعلى طهارة جوه ونظافته .. إنهما نقيضان لا يجتمعان في بيت مسلم الملاك والشيطان ، الصلاح والفساد ، نور القرآن وظلمات التليفزيون .

- وننصح الأخت المسلمة بما يلي(١) :

١ - أن يكون لها ورد يومي من كتاب الله وأن تحسن تلاوة القرآن والاستماع إليه والتدبر في معانيه .

---

(١) عن رسالة التعاليم للامام الشهيد حسن البنا .

٢ ــ أن تكون صادقة الكلمة فلا تكذب أبداً .

٣ ــ أن تكون شديدة الحياء ، دقيقة الشعور ، عظيمة التأثر بالحسن والقبيح تسر للأول وتتألم للثانى ، وأن تكون متواضعة فى غير ذلة ولا خضوع ولا ملق .

٤ ــ أن تكون عادلة صحيحة الحكم فى جميع الأحوال لاينسيها الغضب الحسنات ، ولا تغضى عين الرضا عن السيئات ولا تحملها الخصومة على نسيان الجميل وتقول الحق ولو كان على نفسها أو على أقرب الناس إليها وإن كان مراً .

٥ ــ أن تكون رحيمة القلب كريمة سمحة تعفو وتصفح وتلين وتحلم وترفق بالإنسان والحيوان ، جميلة المعاملة حسنة السلوك مع الناس جميعاً ، محافظة على الآداب الإسلامية الاجتماعية فترحم الصغير وتوقر الكبير ، ولاتتجسس ولا تغتاب ولاتغتاب ولا تصخب .

٦ ــ أن تجيد القراءة والكتابة وأن تكثر من المطالعة فى رسائل الإخوان وجرائدهم ومجلاتهم وكل المطبوعات التى تنتهج نهجهم فى فهم الإسلام والعمل له .

٧ ــ أن تخدم الثروة الإسلامية بتشجيع المنتجات الإسلامية، وأن تحرص على القرش فلا يقع فى يد غير إسلامية ، فلا تأكل ولا تلبس إلا من صنع وطنها الاسلامى .

٨ ــ أن تدخر للطوارىء جزءا من دخل البيت مهما قل وألا تتورط فى الكماليات .

٩ ـ أن تعمل على إحياء العادات الإسلامية وإماتة العادات الجاهلية في كل مظاهر الحياة ، وأن تتحرى السنة المطهرة في كل ذلك .

١٠ ـ أن تديم مراقبة الله تبارك وتعالى وتذكر الآخرة وتستعد لها وتقطع مراحل السلوك إلى رضوان الله بهمة وعزيمة وتتقرب إليه سبحانه بنوافل العبادة ومن ذلك صلاة الليل وصيام ثلاثة أيام من كل شهر على الأقل والاكثار من الذكر القلبي واللساني وتحري الدعاء المذكور في كل حال.

١١ ـ أن تحسن الطهارة وأن تظل على وضوء في غالب الأحيان .

١٢ ـ أن تجدد التوبة والاستغفار دائماً وأن تتحرز من صغائر الآثام فضلا عن كبارها ، وأن تجعل لنفسها ساعة قبل النوم تحاسبها فيها على ما عملت من خير أو شر ، وأن تحرص على الوقت فهو الحياة فلا تصرف جزءاً منه في غير فائدة وأن تتورع عن الشبهات حتى لا تقع في الحرام .

الفصل الرابع

صــور من

مواقف للأخت المسلمة

إن الثقافة الغربية قد واجهت العالم بسيل غامر من أحاديث أبطالها رجالا ونساء ، ونحن إذ نتحدث عن الفضليات من نساء المسلمين وبطولاتهن قديماً وحديثاً، نجد أنفسنا في جو مسموم قد امتلأت سماؤه بأسماء الغربيات، ففي مدارسنا وصحافتنا وأجهزة إعلامنا لا يذكرون في سجل الخلود عندهم غير جان دارك و مدام كورى أو يتحدثون عن بعض أولئك المتطوعات من أسبانيا في حرب نابليون ، ولدينا في تاريخ الإسلام كله ذكريات حافلة بنجوم مشرقة من أولئك المجاهدات الصابرات الخيرات المستبسلات ، اللواتي وقفن حياتهن لإعلاء كلمة الإسلام ورفع رايته ، وناضلن إلى جانب الرجل في الحدود التي تسمح بها أنظمة الإسلام وتقاليده عندنا عائشة في العلم وأسماء في مواجهة الطغيان ، والخنساء ونسيبة في الفداء والاستبسال.

إن تاريخ الإسلام حافل بوقائع كلها عظمة لمسلمات خالدات تحيي في قلوبنا العز والفخار . ولكن آذاننا — واحسرتاه — قد أصيبت بصمم عن هذا التاريخ ، لأن أسماء أخرى قد تكدست بها أفكارنا وعقولنا فأصبحنا لا نسمع طنينـاً ولا دوياً ولا نصغي إلى صوت إلا إذا أقبل ذلك كله من ناحية الغرب .

إن في تاريخنا الحديث نساء مجاهدات مستبسلات على طريق أسماء والخنساء ونسيبة تجل عن الحصر .

ونحن فى هذه العجالة نورد شواهد وأمثال صادقة لهذه النماذج النسائية التى شملها منهاج الأخوات المسلمات بالتربية والرعاية فغمر قلبها الإيمان وأشرق على نفسها نور تعاليم القرآن، فشاركت أخاها أو زوجها أو أبناءها رافعة معهم راية الدعوة إلى الله ، عاملة وإياهم على مجابهة الطغيان .

(١)

هذه أم شاء الله لها أن تبتلى — كما ابتليت كثير من الأمهات معها — باعتقال ولدها الأكبر(١) عام ١٩٥٤ ، فما جزعت وما أصيبت بهلع الأم على وليدها عندما يلحقه سوء، بل كانت المسلمة المؤمنة الصابرة الثابتة، المدافعة عن الحق والفئة المؤمنة فى هذه الأمة ، إذ طالما ردت سهاماً مسمومة من ألسنة المنهزمين والمنافقين ، حاولت النيل من المؤمنين المجاهدين خلف القضبان . فذكرتنا بتلك المرأة المسلمة التى واجهت الحجاج وزلزلت طغيانه وردته خائفاً مذعوراً وفى ذلك يقول الشاعر :

أسد على وفى الحروب نعامة ∴ فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلاّ برزت إلى غزالة فى الوغى ∴ بل كان قلبك فى جناحى طائر

حتى إذا انقشعت الغمة ، وانتهت هذه المحنة، فما زادها ذلك إلا صلابة ووعياً بطبيعة هذه الدعوة التى كان ولدها واحداً من آلاف شبابها .

ثم إذا ما هوت ضربات الطغيان — لمرة أخرى فى عصر عبد الناصر — على الإخوان المسلمين وجنودهم عام ١٩٦٥ ، وكان ولدها — مرة أخرى — من الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، رأيناها ثابتة

---

(١) هو الأخ محمد عبد المنعم ، أحد الدعاة العاملين بالإسكندرية .

الجنان، رابطة الجأش، قوية الإيمان، عارفة بطريق أصحاب الدعوات، فلم تقل إلا ما قالته أسماء فى ولدها عبد الله بن الزبير وهو يواجه القتل : « اللهم قد سلمته لأمرك فيه ورضيت بما قضيت ، فأثبنى فيه ثواب الصابرين الشاكرين »

وظلت ثلاثة أعوام لا تراه ولا تسمع إلا أخبار المذبحة الكبرى التى يخوضها الأنكال الأنذال مع العزل من خيرة أبناء هذه الأمة . . حتى إذا سمح للهزومون فى أعقاب نكستهم سنة ١٩٦٧ بالزيارة، تذهب إليه مع الزائرين لا لتقول إن قلبى ملهوف عليك وقد طالت المحنة، بل لتشد على يديه وتدعو له وتحثه على الثبات ، وتوصيه بألا يهن أو يضعف . . تقول له هذا ولا يبدو منها غير علامات الفخر والاعتزاز بابنها وبإخوانه فهم فى عينها أمثلة صدق ورجولة. ولا تنتهى الزيارة إلا مع قولها له : إنى لأدعو المولى سبحانه أن تكون يابنى آخر إخوانك خروجاً من السجن حين يأذن الله لكم بالخروج، وأنك عندى لست بأفضل منهم .

وحين يتوفى والده رحمه الله ، وهو ما يزال بين جدران السجن، تكتب إليه مواسية معزية ، تبلغه باعتزام زيارتها له — كالمعتاد — كى تراه « على حد قولها » يستقبلها بابتسامة الرضا المعهودة فيه، وتروح إليه حين الزيارة لا ترتدى سواداً ، تقص أحداث الوفاة ، وكيف أنعم الله عليها من فضله رضا وطمأنينة : فلم تقم للنساء مأتماً ولم يصدر منها إلا ما يصدر من المؤمنات الصابرات المحتسبات .

وظلت على هذا — يرحمها الله — تزوره وتكتب إليه وتحيى إخوانه حين زيارتها له ، وتبث فيهم الأمل والعزيمة وأنهم الغالبون ، حتى خرج ابنها مع آخر من خرجوا من المعتقل . تماماً كما دعت المولى سبحانه فاستجاب دعاءها.

(٢)

أخذت على نفسها العهد أن تشارك إخوانها محنتهم ، فها هى تبادر إلى رعاية أسر المسجونين ، بأن تطوف على بيوتهم مشرفة على أبنائهم وبناتهم.. فذلك تتعهد شئونه فى المدرسة أو الجامعة ، وتلك فى مدرستها أو جامعتها ، وهذه تبحث لها عن أخ مؤمن يكون لها نعم الزوج البار الحنون، وهى بين هؤلاء جميعاً تسدد الديون ، وتحضر كساء الشتاء والصيف ، وتسدد إيجار المنزل ، ولديها — بين حنايا صدرها — عناوين هؤلاء جميعاً ، وبيانات وافية بأحوالهم المعيشية والاجتماعية ، لا تنام إلا حين ينامون، ولا تهدأ إلا بعد أن يجد كل بغيته واحتياجاته ، وعبثاً تصل إليها عيون الطغاة وأسماعهم ، ثم يلقون عليها القبض عام ١٩٦٥ ويودعونها — وهى الكبيرة المسنة — سجن القناطر ،وتحتسب ذلك عند الله ، كما احتسب زوجها الذى أودع — فى الليلة ذاتها — السجن الحربى ، وتخرج لتستأنف حياة الجهاد — فى تجرد خالص واحتساب كريم .

(٣)

حينما أودع زوجها المؤمن جدران السجون كتب إليها كما كتب إخوانه إلى زوجاتهم — يخيرها بين أن تبقى زوجة — على الورق — وبين أن تطلب الخلع فهذا حقها ، سيما وقد حكم عليه بالمؤبد ، فما كان منها إلا أن أرسلت إليه عاتبة . أهكذا هانت عليك تلك العشرة الطيبة ، والتى وثقتها أخوة فى الله خالصة جمعت بينى وبينك ، أتضن على أن أشاركك بعض أجرك حين يثقل الله ميزان حسناتك ؟ أم آثرت أن تمض به وحدك ؟ ضاناً به على شريكة حياتك ؟ قد أقسمت ألا يفرق بيننا إلا الموت . وظلت تلك المؤمنة على عهد الله وميثاقه وخرج إليها زوجها بعد عشرين عاماً ليجد

البيت الآمن، والأبناء وقد تخرجوا ، والإبنة وقد أوشكت على الزواج .. ووجد كل شيء في مكانه . ليعـــاودا معا - على الطريق - حياتهما في طاعة الله .

(٤)

كانا قد حددا موعداً للزواج في سبتمبر عام ١٩٦٥ ، وكان كل شيء قد أعد ورتب في عناية بالغة وحسابات دقيقة ، حتى كانت ليلة طرق فيها زوار الفجر باب البيت بأيد محطمة لكل شيء ، وبدا لهما أن كل شيء قد ضاع، وحالت بينهما أسوار وجدران، حتى إذا أذن الله لهما أن يريا بعضهما البعض بعد سنوات ثلاث، جددت معه العهد والميثاق بأنها ستظل له زوجة مهما طالت السنون وباعدت بينهما الأيام . . وعبثا حاول أن يحلها من الارتباط به . بل إن دموعها المنهمرة حالت بينه وبين أن يتم كلماته إليها . ثم علمناها زائرة له مع بداية كل شهر تحمل إليه أطيب الآمال ، وجميل الـكلمات المشجعة الحانية الرقيقة ، ثم تكتب إليه تستحلفه بالله ألا يلين أو يضعف ، وأن يكون كما عهدته وكما اختارته - صلب القناة ، قوى العزيمة ، صادق الإيمان . وخرج إليها بعد سنوات ست عجاف كي يعمرا البيت بالصلاة والصيام وبتقوى من الله ورضوان ، ويرزقان بعـدهد عددها من البنين والبنـات .

(٥)

---

(١) ---

(١) أنظر كتاب «أيام من حياتي» للأخت الفاضلة السيدة زينب الغزالي .

(٦)
آل بيت الهضيبي *

« ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله تعالى خيراً من زوجة صالحة . إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا أقسم عليها أبرته ، وإذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » حديث شريف

هذا ما وصف به نبي الرحمة الزوجة الصالحة وهذا ما قسم لها عليه السلام من أثر بالغ فى سعادة الزوج . وما حسبنى والله رأيت أنموذج هذه الزوجة النبوية قبل أن أعرف سيدتى الوالدة أم أسامة ، بارك الله فى عمرها(١) . وأحسن عن المرشد الراحل وعنا جزاءها ، وألبسها التوفيق والعافية ، وألزمها كلمة التقوى ما أحياها .

وسأجتزىء فى هذه الحلقة بسبع ومضات من سيرتها الحافلة بالنضارة والإشراق ، إثباتا لمواطن الكمال — التى أوردها الحديث النبوى — فى شمائلها .

(أ) التفنن فى إدخال السرور على الزوج :

وأول ما لفت نظرى من مثاليتها الزوجية شقيقتى القروية البريئة ، آمنة عليها رحمة الله ، فقد وافتنى للعلاج ، ورحلى فى الركاب إلى الاسكندرية ، للاجتماع بالمرشد ، فى مسعى أشار إليه شهيد الاسلام الألمعى التقى الشيخ محمد فرغلى طيب الله ثراه لإزالة الجفوة بين الاخوان والثورة ، فلم يسعنى إلا حمل الشقيقة معى لعلاجها هناك . وما بلغت الاسكندرية بسيارة الأخ فى الله الحاج توفيق الفشنى — وفيها كذلك أختنا خالدة الهضيبي وأولادها

(١) انتقلت إلى جوار الله فى ١٩٧٦/٣/٩

(*) مقال للاستاذ عبد الحكيم عابدين فى مجلة الشهاب البيروتية عدد ١٥ سنة ١٩٧٤ .

الثلاثة — حتى وضع آل الهضيبي يدهم على شقيقتي المتواضعة — ولنا فى الاسكندرية أهل ودار — ولم يسمحوا لها قط بمغادرة دارهم إلا إلى عيادة الطبيب فى حراسة نشء الإيمان يومذاك « علية الهضيبي » التى كانت فى الثالثة عشرة من عمرها للبارك لمديد إن شاء الله ٠

قضت شقيقتي ثلاثة أيام فى بيت الهضيبي وهو حاضر ، وأربعة أيام مع زوجته وابنتيه ، أثناء غيابه فى الرحلة التى وفقنى الله لإقناعه بالقيام بها فى بعض مناطق الدعوة بدلتا مصر ، قبل وصوله إلى القاهرة ، تمهيدا لاجتماع إصلاحى مع قيادة الثورة ٠

وكان على أن أتخلف بالاسكندرية هذه الأيام الأربعة ، لأنوب عن فضيلة المرشد فى تنظيم الاتصال بالأطباء القائمين على علاج زوجته الجليلة ، إذ كانوا جميعا من خاصة الأصدقاء ، ولأعود بشقيقتى ٠ إلى القاهرة بعد أن يكتب الله لها الشفاء.

ولبثت الأستار قائمة بينى وبين الشقيقة رحمها الله ، لا أراها إلا مع علية « العلية » لحظات الانتقال بها إلى الطبيب فى سيارة الصديق الكريم النبيل الأستاذ عبد العزيز القيسى، الذى سبق إلى جوار الله ورحمته إن شاء الله!

ولما انقضت مآربنا من الأسكندرية وعدت بشقيقتى لا ثالث لنا إلا الله أقبلت على رحمها الله تسائلنى بلغتها العامية ونحن فى القطار ، ما ترجمته بالفصحى :

— يا أخى يا ابن أمى وأبى : من أى طينة امرأة الهضيبي هذه؟ أهى من طينة الملائكة ليس فيها من طبائع البشر والنساء شيء قط ؟!

— ولم يا آمنة ؟ وما وجه هذا السؤال ؟!

— يا عبد يا أخى .. أخذنى العجب من سلوكها نحو زوجها ٠ ٠

فى الأيام الثلاثة التى قضيتها بحضوره ، تبالغ فى التحبب إليه ، وإدخال السرور على قلبه ، فلا تلقاه فى الضحى بثياب الصبح ، ولا فى العصر بثياب الظهر ، وإذا ودعته حين يخرج ساعة الأصيل تجهزت بثياب أجمل حين تستقبله فى المساء ، ولا تخلو فى كل ذلك من التزين له بما يناسب أهل الكمال والوقار ! أضف إلى ذلك ـ تقول الشقيقة ـ إنها تنشط لتوديعه حين يخرج ، وتتأهب لاستقباله حين يرجع ، بأغدب مايصنع عروسان متوافقان ، فى الأيام الأولى من الزواج ! والأعجب من ذلك ـ تقول شقيقتى الساذجة عليها رحمة الله ـ إنه منذ سافر عنها الهضيبي لم تبدل الثوب الذى ودعته به طوال هذه الأيام ولم تقرب الماء العادى ـ إلا للوضوء والصلاة !!

رحمك الله يا أختاه قلتها وهى معى فى القطار وقد خنقتنى العبرات ، لاختفاء هذا المثل الرفيع إلا فى آل الهضيبي ـ : لقد علمتنى من مناقب هذه السيدة فى حياتها الخاصة ما أخفاه عنى لمعان مواقفها فى حياة الجهاد العامة !!

(ب) الطموح التقلى فى خدمة الوثاق :

وقد أثار هذا الأسلوب المثالى فى معاملة الزوج ـ من سيدة فى حدود الخمسين ـ فضولى إلى الإحاطة بشىء من أسلوبها فى معاملة أستاذنا الجليل أيام الشباب حيث كثرة الأعباء والاستغراق فى تربية الأولاد ، وكانت لى معه رحمه الله دعابة ومباسطات يسعها بكل تلطف وانشراح ، كما كنت أعلم من لصوقى به ، وإعجابى بأثر دعوته فى محيطه ، بالغ إعزازه وإيثاره لأهله ، وطربه للحديث عن مناقبها الجليلة الرفيعة .

وهكذا أقبلت عليه أسأله : بعد أن رويت له افتتان شقيقتى الريفية بأم ولده يا فضيلة المرشد : هذا مبلغ حفاوة أهلك بك وأنتما على أبواب الشيخوخة فقل لى ـ بأبى أنت وأمى ـ كيف كانت لك فى مطالع الشباب فقد أكلت قلوبنا الغيرة من هذا التدليل !!

وانبسطت أسارير الزوج العظيم، المؤمن العظيم، الداعية العظيم، وابتدرنى مازحا بهذه العبارة (عين الحسود فيها عود) ثم راح يسألنى : أيكفيك الإيجاز أم تريد الإطناب ؟ وأجيبه : ماشئت هات!

وهنا قال المرشد عليه رضوان الله : من طبعى الإيجاز فاعلم أننا شارفنا الأربعين عاما من حياتنا الزوجية، لم يتكدر صفو الوفاق بيننا أربعين ثانية منها والحمد لله . قلت : ولكن فى طبعك إصرار و«حنبلية» لاتصبر عليها النساء !! فأجاب : قد صبرت راضية قريرة العين، والفضل لها بعد الله . واستطرد رحمه الله يستشهد على مسارعتها فيما يرضيه ويرفع رأسه : فذكر أنها تعلمت الفرنسية إجادة وهى أم لأربعة أولاد، لمجرد أنها رأت صديقتها زوجة وكيل النيابة الذي كان يعمل معى فى إحدى المحاكم القريبة من مدينة المنصورة تتقن الفرنسية وتتحدث بها مع عاملات المتاجر الكبيرة فى عاصمة الدقهلية، فأكبرت أن تكون لزوجة وكيل النيابة قدرة على التحدث بلغة لاتعرفها، وهى زوجة القاضى الذى يعلو فى المرتبة على وكيل النيابة، وسرعان ما استأجرت مدرسة، تختلى لحظات فراغها النادرة، لتتلقى عنها الفرنسية، وتلتهما قراءة وكتابة وفهما فى بضعة أشهر، صارت بعدها تتحدث معى الفرنسية إذا دعت الحال كما يتحدث إلى زملائى فى القضاء!

أبعد ذلك غاية من علو الهمة وكبر النفس، فى سبيل إسعاد الزوج وإشعاره بالمشاركة الحقيقية فى تأمين أسباب الوفاق، إدخالا للسرور على قلبه ومقاسمة له فى حمل الأعباء والتبعات ؟!

(جـ) الطاعة والامتثال حيث لاأمر ولا إلزام :

اهتزت مصر كلها أسفا لكارثة السفينة «السلوم» التى غرقت فى البحر الأحمر ـ وعليها نخبة من الجنود والضباط ـ بعد قيام الثورة بأسابيع ـ

وتبارت الصحف وأجهزة الإعلام فى وصف المأساة والإعلان عن الجنازة الوطنية الكبرى التى ستشيع بها جثث أولئك الشهداء من ساحة المنشية بالاسكندرية فى ضحى اليوم التالى لإعلان المأساة . وكنت بجوار المرشد الهضيبى رحمه الله بمكتبه بالقاهرة فى الليلة السابقة لموعد التشييع ، وهو يمارس تصفية الحاضر بين يديه من أعمال الدعوة قبل ذهابه بأهله مغرب اليوم التالى لقضاء شهرى الصيف بالاسكندرية تنفيذا للنظام العام الذى كان ضرورة لامحيص منها ، للإبقاء على حياته الغالية !

وما هو إلا أن لاح فى خاطرى مشهد الجنازة الوطنية يتقدمها رئيس الجمهورية اللواء محمد نجيب يحتشد فيها سائر الزعماء والشخصيات ، وليس بينهم المرشد العام للإخوان المسلمين ، الذى لن يصل الاسكندرية حسب منهاجه التطبيقى إلا بعد الجنازة بساعات حتى كبر على أن يفتقده المشيعون ورجال الصحافة ، فإذا الجنازة منه خلاء !

وسرعان ما نقلت إليه هذه المشاعر وأشرت عليه بالتبكير إلى الاسكندرية لحضور الجنازة الوطنية ، لأنه أولى بذلك من سائر الرؤساء والزعماء .

غير أن الرجل – بحكم زهده فى المظاهر وكراهته لأضواء الدعاية – لم يرحب بالمشورة ولا سيما لأنه لازال رأهله فى إعداد العدة لرحلة شهرين إلى الاسكندرية ، ولن يستطيعوا إلا بشق الأنفس إنجاز الإعداد فى اليوم الباقى على الرحيل !

ولكنى لجأت إلى كل مالى عليه من دالة فى محاولة حمله على التبكير بالسفر فى أول قطار لإدراك الجنازة متعهدا أن أكون ومن يشاء فى خدمة الأسرة لمعاونتها فى الإعداد وتوصيلها إلى القطار فى المساء .

وقبيل أن تبلغ بنا المناقشة درجة اللجاج أسعفنى الخاطر باقتراح مخـابرة السيدة - باعتبارها المتضررة الأولى بسفره دونها فى البكور - ليعـرض عليها رأيى وليسمع الجواب !

وفى مثل لمح البصر أدار المرشد الحبيب قرص الهـاتف وأدركت أن أم أسامة هى التى أجابت من إنصاتى لحوار لم أسمع منه طبعا إلا عبارات المرشد القصيرة الخالية من التكليف كما يلى :

(١) عبد الحكيم عابدين بجانبى يريد أن أسافر بقطار السادسة صباحاً بدلا من السادسة مساء لادراك الاشتراك فى تشييع شهداء العلوم ، بحيث أتركك تلحقى بى حسب الخطة فى قطار المساء .

(٢) كيف ؟ أنا أقول له إن ذلك غير ممكن لأننـا مازال مستغرقـين فى الإعداد لرحلة الصيف ، ولا يمكن الفراغ منها قبل مساء غد

(٣) وأنت أيضا تستطيعين الفراغ من عدة الرحيل وتسـافرين معى فى الصباح ؟! هذا إرهاق معناه أنك ستسهرين فى تعب الى الصباح !

(٤) ومهما تكن المناسبة وطنية ، فلا أرى ضرورة لوجودى فيهـا إلا الدعاية التى لا أحبها وقد أبت إخوان الاسكندرية وفيهم الكفاية .

(٥) الآن يشمت بى عبـد الحكيم لأنى رافض إقتراحه حرصـاً عـلى راحتك .

(٦) طيب أنت حرة ! راحتنا وحياتنا للدعوة ؟ خلى عبد الحكيم يشبع شماتة !!

وما بلغ الحديث الهاتفى هذه العبارة التى كنت أستنبط منها إجابات

الزوجة الوفية المجاهدة حتى أسرعت أعبر عن شماتتى قبل أن يضع سماعة الهاتف من يده بقبلات فرحة أغمر بها جبينه النضر ـ وأنا أصيح فى نشوة النصر .

« الآن تعلم أن عبد الحكيم ربح عليك الجولة فى عقر دارك ! » والمرشد رحمه الله يقول فى بشر وابتسام: « وما الحيلة إذا كانت أم أسامة لا تعرف أن تقول لا ؟ » .

وهكذا سافر المرشد بأهله عقب صلاة الفجر وحملت الصحف صورته بين أعلام الشيمين بما أقر أعين الإخوان فى جميع أنحاء البلاد .

(د) رعاية نشاط الأخوات المسلمات .

كان الجانب النسائى لدعوة الاخوان المسلمين يتولاه فريق من الأخوات المؤمنات ذوات الإيمان الصادق والغيرة اللاهبة ، سبق منهن إلى العمل فى الدعوة ـ بعد أن انفردت الداعية المجاهدة زينب الغزالى أكرمها الله بجماعة السيدات المسلمات ـ الأخوات : فاطمة البدرى ، وفاطمة أخرى غاب عنى لقبها ، وسنية الوشاحى[1] ، وسنية عبد الواحد ، وغيرهن من السابقات المجاهدات ، وكن على فضلهن جميعا واعتزاز الدعوة بنشاطهن ـ من ذوات الثقافة المتوسطة ، باستثناء الأخت المجاهدة الألمعية الأستاذة آمال العشماوى زوجة البطل الحبيب الصديق الصدوق منير دلة ، الذى سبقت له الحسنى على تقوى وجلد وإيمان بحمد الله .

ولما قدر الله لسفينة الدعوة أن تلقى بأزمتها إلى أستاذنا الهضيبى ، وشمر عن ساعده ناهضا بأعباء القيادة استجابة لرغبة الاخوان ، سارعت

---

(١) وقد التحق بالدعوة فى أعصف أوقات المحن أخوات يزن أبطال الرجال والحمد لله لا يسعنى إحصاؤهن ولكن أمثل لهن بالأخوات : أمينة الجوهرى وحميدة وأمينة قطب وغيرهن وأعزهن الله .

الأخوات كذلك إلى حرم المرشد الجديد يسألونها تقلد الزمام في قيادة الأخوات المسلمات ، لما كان معروفا عنها من رجاحة العقل وسعة الثقافة وأصالة الإيمان .

واستجابت أم أسامة الجليلة بمثل تواضع زوجها الصديق لحمل نصيبها من الجهاد ، والعمل لإعلاء كلمة الله بكل ما تتسع له طاقة المرأة ، وما تختص به المؤمنة دون المؤمن من أعباء الدعوة والتربية .

وفي الحق لقد كانت السيدة الفضلى دعوة ناطقة بعملها وخلقها وإيمانها ، أضعاف ما كانت كذلك بأحاديثها وجولاتها وإرشاداتها .

وبتسنم السيدة نعيمة خطاب ذروة النشاط النسائي متعاونة مع أمثال من سلفت إليهن الإشارة من الأخوات ، اشتد الإقبال على أقسام الأخوات المسلمات ولاسيما بين طوائف المثقفات من المعلمات والجامعيات وذوات المناصب الرفيعة في بعض الوزارات .

وسنزداد معرفة بأثر هذه الطاقة الإيمانية العظيمة إذا عرفنا دور بناتها المؤمنات ، وما بذلن في سبيل الدعوة من جهد وتحملن مع أمهن الفضلى من محن السجن والتشريد والاعتقال .

(هـ) الورع عن شبه الاستفادة بمكانها في الدعوة :

وهل ينتظر من شريكة الهضيبي ، ولدة ورعه وإيمانه ، إلا أن تكون على شاكلته في الورع عن كل شبهة للاستفادة بما جرى العرف على التساهل في الاستفادة من ممتلكات الدعوة

أجل كانت السيدة نعيمة – أكرمها الله – صورة صادقة لكل

ماأشرقت به سيرة الهضيبي من الورع عما يستحله، بما يستسيغه جمهرة الدعاة ورؤساء الهيئات .

رفض استخدام سيارة المرشد العام

عندما استقل الأستاذ الهضيبي الطائرة فى صيف ١٩٥٤ متجها إلى إلى السعودية وبعض بلاد الشام ، جاءنى سائق السيارة ـ التى خصصها مكتب الإرشاد العام لاستعمال المرشد دون غيره من قادة الاخوان ـ يسألنى ما يصنع بالسيارة بعد أن سافر المرشد العام فأمرته بقيادة السيارة إلى داره بروضة القاهرة لوضعها تحت تصرف السيدة عقيلته،وما هى إلا لحظات حتى عاد (الأسطى سيد) بالسيارة إلى منزلى فى منطقة سراى القبة ، يذكر أن السيدة لم تقبل السيارة ، بل أعلنت ألا حاجة لها فيها ، فضلا عن استحالة الاستفادة بها ، حتى لو دعت الحاجة، لأنها لا حق لها فى استعمالها.وغضبت على السائق أن غادر بيت المرشد مكررا إليه الأمر بإعادتها ووضع نفسه والسيارة رهن تصرف السيدة الفاضلة.

وما لبث « الأسطى سيد » أن أثارشفقتى وهو يسألنى بلهجة التوسل أن أرحه من كثرة التردد بين بيتى وبيت المرشد وأن أفض هذا الخلاف داتفيا بينىأوبين السيدة الجليلة ، ثم أصدر الأوامر إليه وفق ما يتم عليه الاتفاق.

ورأيت المنطق فى طلب السائق المسكين ، فأمسكت الهاتف وأدرت الحديث مع السيدة الفضلى مستخدما كل ما أملك من وسائل الإقناع، دون أن أبلغ مثقال ذرة ، من صخرة الورع التى اعتصمت بها السيدة فى قولها « إن السيارة مخصصة للمرشد العام بصفته ، لا لحسن الهضيبي بشخصه ،فإذا غاب المرشد العام فلا حق لأحد من أهله أن ينتقل بها لبضع خطوات .

ومن ثم توسلت مبررا جديدا لاحتفاظها بالسيارة ، فقلت لها : إنك تقومين برعاية نشاط الأخوات وتنتقلين بين شعبهن للتفقد والإرشاد ، وبذلك تحتاجين إلى السيارة لتحقق بها للدعوة أجل الخدمات !

ولكن الداعية الحصيفة الواعية كانت أمنع من أن يستدرجها هذا المبرر الجديد إلى قبول السيارة ، إذ راحت تقول إنني أتفقد الشعب والأخوات وفقا لجدول أضعه وتعتمده ، فاحتفظ بالسيارة حتى إذا أرسلت لك جدول زياراتي واعتمدته أرسلت معه السيارة إن شئت ، لأستخدمها في حدود ما يلزم لتنفيذه !!

بشاشة الإيمان في أتون البلاء

وأشهد وسيشهد التاريخ أن هذه السيدة التي يدل مظهرها أنها ينبوع رفق وحنان ، فقد سجلت في مواطن البأس والضراء من ضروب الجلادة والصمود ، ما لم تألفه العصور الحديثة من عزائم الأبطال !

وإليك ثلاثة من مواقفها تحت وطأة البلاء في أقلها ما يجاوز الكفاية الوفاء .

١ - مع زوجة الوزير أ . ح بعد اعتقال المرشد العام

«وجئت عقب خروجي من السجن الحربي في ربيع ١٩٥٤ بالأخ م ع يلتهب حنيننا إلى المرشد ويتدفق إعجابا به وبعد أن كنت أعنفه حتى ساعة دخولي السجن على غمزه من قناة المرشد الجديد تحت ستار المبالغة في الثناء على الإمام الشهيد !

فلما رآني استغرب هذا التحول المفاجىء ، لم يمهلني لأسأله بل راح يقول لا تعجب : لقد ذهبت زوجية - إسم زوجة الأخ المتحدث - لزيارة

آل بيت الهضيبي بعد سجنه لمجرد إبراء الذمة ورفع الملامـــة إذ كانت فى تضيعها لآل الامام الشهيد لا تكاد تطيق أن ترى بيت من يخلفه . .

غير أنها عادت من هذه الزيارة المستقلة ، وقد انقلبت مشاعرها وأفكارها رأسا على عقب ، وانطلقت تقول: «هكذا يجب أن يكون المرشد وكذلك ينبغى أن تكون زوجته وأولاده ...

لقد فوجئت ـ تقول روحية ـ بسيدة تغمرها البشاشة، وحولها بناتها الثلاث إذ كان الذكور فى المعتقلات على وجوههن الاطمئنان والسكينة ، فنهضن جميعا لاستقبالى بترحيب، وشملننى بكل لطف وإيناس، واتفق أن حضرت السيدة « س » زوجة الوزير أ . ح لتواسى ربة البيت وزهراتها الثلاث فما استقرت فى مجلسها حتى دار بينهما الحوار التالى أو ما فى معناه :

ـ ياسيدة « أم إسامية » هونى عليك « فحسن بك » بخير وقد أرسلنى زوجى لأحمل تحياته إليك وإلى البنات ولأطمئنك بأنه مستمر فى بذل أقصى الجهود حتى لا يصاب فى نفسه بأذى ، وإن كانت كلمة المرشد لا مجال لها بعد الآن.

ـ شكرا لك وللوزير . ولكن من أخبره أننا فى قلق حتى ينصحنـا بالاطمئنان ويبشرنا بسلامة الأستاذ ؟

ـ أعنى أن الجهود مبذولة لمنع محاكمته أمام محكمة الثورة، وما وراءها من مصير !

ـ أتريدين تذكيرى والبنات بأن الأحكام تصدر قبل المحاكمة ! وأن المصير هو الحكم بالاعدام ! يا سعدية هانم، إسمعى مشكورة و بلغى السيد الوزير أن حسن الهضيبى ما تولى قيادة الإخوان المسلمين إلا وهو يعلم أن

سلفه العظيم حسن البنا قد اغتيل وأهدر دمه علنا فى شارع رئيسى بالعاصمة وما رضى الهضيبى أن يكون خليفته إلا وهو ينتظر هذا المصير ، وقد باع الله نفسه ، وبعناه سبحانه أنفسنا معه فلن يرانا أحد إذا كان هذا قدر الله إلا نماذج سكينة واطمئنان ، سعداء بأن نحتسب عميدنا عند الله ، وأوفر سعادة أن نلحق به شهداء . .

ثم تلتفت صحابية الزمن إلى بناتها لتقول : هذا ما عندى فماذا عندكن يابنات؟! فتنبعث الصيحة من علية وخالدة وسعاد : ليس عندنا إلا ماعندك يا أماه !!

٢ - رسالتها إلى ملك عربى توسط فى تخفيف الحكم

حدثنا أخ من قادة الدعوة فى بلد عربى اجتمع فى الرياض بالملك السابق سعود بن عبد العزيز رحمه الله ، أنه رأى الملك العربى مأخوذا بدهشة الإعجاب والإجلال من كتاب نقلته إليه سفارته فى مصر ، بتوقيع زوجة الهضيبى وبناته الثلاث - بعد تخفيض حكم الإعدام على الهضيبى بناء على شفاعته إلى الأشغال الشاقة المؤبدة !!

إذ قرأ فى هذا الكتاب عبارات ومعانى ما كان يخطر بباله ، أن يسمع بها بعد عصر الصحابة والسلف الصالح ، لا من نساء ولا من رجال ، ومما لا يزال عالقا بالذاكرة من ذلك الكتاب كما اطلع عليه الأخ بيد الملك سعود رحمه الله ، ما نصه أو معناه :

يا جلالة الملك ، إننا إذ نشكر كريم عاطفتك نؤكد لك أننا على عهد الدعوة وميثاق الجهاد ، وسواء استشهد الهضيبى أو طالت به حياة فلن تقف عجلة الصراع ، لأنه فى الواقع ليس صراعا بين الهضيبى وعبد الناصر؛

ولا بين الإخوان والثورة ، ولكنه الصراع الأزلي الأبدي بين الحق والباطل بين الإيمان والكفر - بين الهدى والضلال ، بين جند الله وحزب الشيطان وسيظل لواء الدعوة مرفوعا وحملها موصولا ، ولو ذهب فى سبيله آلاف الشهداء ، من رجال ونساء ، حتى تعلو كلمة الله ، ليحق الله الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون !

٣ — الإباء والجلادة وراء القضبان

وقدر الله للسيدة الفضلى أن تصيب قسطها المباشر من البلاء فاقتيدت فى بعض مراحل المحنة الطاحنة إلى السجن ، وألقى بها فى زنزانة مظلمة تتيح لها الانفراد بالمولى سبحانه والأنس بمناجاته ، وذلك بعد أن وخطها الشيب ووهن منها العظم - وإن بقى لها مضاء العزم - واستضافت طائفة من الأمراض عجزت كلها أن تصيب مناعة النفس ، وكانت تعلم أنها لم يبق من أبنائها أو بناتها من لم يشرفه الله باحتمال المحنة فى التعذيب والسجن ! .. وعلى الرغم من كل ذلك كانت « أم أسامة » أعزها الله فى دياجير المحنة كما كانت فى منازل الرخاء والعافية ، مجلى بشاشة لم يتجهم ، ومعين سكينة لا ينضب ، وفيض أمن لمن حولها لا يخاف ولا يفزع ، ومثال رزانة وصبر لا يتخلف حتى لكأن الله سقاها من رحمته سحابة تظلل المكتويات بنار المحنة ونفحة إسعاف تنصب فى قلوب الشاكيات من ضراوة النكبة ... ولم لا وهى تعلم من جلال القدرة بين الرجال بزوجها ما ترى حقا عليها أن يلمس النساء فى ذاتها .

وفى مثل أم أسامة والله لا فى سيف الدولة يصدق قول المتنبي :

لو كان النساء كمن عرفنا .:. لفضلت النساء على الرجال
فما التأنيث لإسم الشمس عيب .:. ولا التذكير فخر للهلال

الفهرست

الموضوع	صفحة
إهداء	٣
مقدمة الكتاب	٥

فصل تمهيدى

نظرات فى خصائص المنهج القرآنى

فى تربية الفرد وبناء الجماعة

بين الوسائل والأهداف	١٩
الخاصية الأولى : التكامل والشمول	٢٤
« الثانية : التحرير	٣٨
« الثالثة : الإيجابية	٦٤
« الرابعة : التوازن	٧٣
« الخامسة : الواقعية	٨٤
« السادسة : التقدم والتطور	٩٦
« السابعة : التكافل والعدل	١٢٣
« الثامنة : التميز	١٥٣

الباب الأول

الأسرة المسلمة بين البناء والهدم

• الفصل الأول: الأسرة فى القرآن الكريم	١٦٥
أصل الأسرة ومكانتها فى الإسلام	١٦٧
خصائص التنظيم القرآنى للأسرة	١٧٢

الموضوع	صفحة

أهداف الأسرة القرآنية ١٧٨
المرأة أساس البيت ١٩٣
المرأة المسلمة للإمام البنا ٢٠١
● الفصل الثانى : الخطة الصهيونية الصليبية وتدمير الأسرة ٢١٥

الخطة الصهيونية ٢١٥
الخطة الصليبية ٢٢٢
حركة تحرير المرأة ٢٢٨
تحرير المرأة فى التاريخ الأوربى ٢٣٠
حركة تحرير المرأة فى مصر ٢٣٥
رفاعة الطهطاوى ٢٣٦
قاسم أمين ٢٤٠
هدى شعراوى وزعامة الحركة النسائية المصرية ٢٥٥
درية شفيق وزعامة حزب بنت النيل ٢٥٩
الحصاد المــــر ٢٧٣

● الفصل الثالث : الأسرة المسلمة على مفترق طريقين ٢٨٢

أولا : عمل المرأة ٢٨٢
ثانيا : المساواة وإسقاط القوامة ٢٩١
ثالثا : تحديد النسل ٣٠١
رابعا : تعدد الزوجات ٣١٠

الموضوع — صفحة

خامسا : الطلاق ٣١٦

سادسا : الحجاب ٣٢١

على مفترق طريقين ٣٣٣

الباب الثانى

الأسرة المسلمة كما يجب أن تكون

● تمهيد : الإسلام والبيت : من أقوال الإمام البنا ٣٤٢

● الفصل الأول : أسس تكوين الأسرة المسلمة ٣٤٦

الزواج : أسراره وأهدافه ٣٥٠

الزواج وفطرة الكون ٣٥٠

الزواج للفرد والمجتمع ٣٥١

وجوب الزواج فى الإسلام ٣٥٥

الامتناع من الزواج ٣٥٧

الاختيار فى الزوجية ٣٦٣

أسس الاختيار ٣٦٣

١ ـ ضرورة رؤية كل من الطرفين للآخر ٣٦٤

٢ ـ الاتفاق فى المبادىء ٣٦٥

٣ ـ التوافق الروحى ٣٦٧

٤ ـ الاتفاق على نوع الحياة ٣٦٨

٥ ـ معرفة كل من الطرفين للآخر معرفة جيدة ٣٦٨

٦ ـ الانتفاع بقانون الوراثة ٣٧٠

الموضوع	صفحة
كيف تختار الزوجة	٣٧٢
الزوجة والغنى	٣٧٢
الزوجة والجاه	٣٧٢
الزوجة والجمال	٣٧٢
الخطبـة	٣٧٥
حق المرأة فى اختيار زوجها	٣٧٦
المهــر	٣٧٨
• الفصل الثانى : العلاقات الأسرية فى ضوء القرآن الكريم	٣٨٠
قداسة الروابط بين أفراد البيت	٣٨٠
حقوق الزوجة	٣٨٤
النفقـة	٣٨٥
إحسان العشرة	٣٨٦
تعليمها ما تحتاجه من أمور الدين	٣٨٩
حقوق الزوج	٣٩٠
معرفة مكانته	٣٩١
الطاعة وحسن العشرة	٣٩٢
أن تتزين لزوجها	٣٩٥
تنظيم علاقة الآباء بالأبناء	٤٠٠
١ ـ واجب الآباء نحو الأبناء	٤٠١

الموضوع	صفحة

النفقة	٤٠١
التسوية فى المعاملة	٤٠٢
التربية والتعليم	٤٠٥
٢ـ واجب الأبناء نحو الآباء	٤٠٧
من معانى للبر والعقوق	٤١٠
حق الأم أكبر من حق الأب	٤١١
من بر الوالدين استئذانهما للجهاد	٤١١
بر الوالدين بعد وفاتهما	٤١٣
• الفصل الثالث : أسرار التربية السليمة	٤١٤
أسس التربية السليمة	٤١٤
مبادىء الصحة النفسية للطفل	٤١٨
مبادىء التربية العقلية	٤٢٠
مبادىء التربية الروحية	٤٢٣
مبادىء التربية الخلقية	٤٢٤
الباب الثالث	
الأخوات المسلمات ـ مكانة ودورا	
• الفصل الأول : نظرة تاريخية	٤٣١
تمهيد	٤٣١
الوسائل والأهداف كما تحددها اللائحة	٤٣٣
الأخوات المسلمات فى القاهرة	٤٣٤
أثر الأخوات على المرأة المصرية	٤٣٩

الموضوع	صفحة
وصايا قسم الأخوات	٤٤٤
● الفصل الثاني : واجبات الأخت المسلمة	٤٤٦
أولا : لدينها	٤٤٦
ثانيا : لعقلها	٤٤٧
ثالثا : لبيتها	٤٤٩
رابعا : لمجتمعها	٤٥٠
خامساً : القدوة الحسنة	٤٥١
سادساً : نشر الدعوة	٤٥٣
● الفصل الثالث : منهج تكوين الأخت المسلمة	٤٥٥
حلقة الأخت المسلمة	٤٥٥
أبواب المنهج	٤٥٧
العقيدة	٤٥٧
فقه العبادة	٤٦١
القرآن الكريم وعلومه	٤٦٦
السنة المطهرة	٤٧٣
السيرة النبوية	٤٧٦
أصول الاسلام كنظام اجتماعى	٤٧٨
الثقافة التاريخية	٤٧٩
التحديات	٤٨١
فقه الدعوة والعمل	٤٨٣
نصائح عامة	٤٨٦

الموضوع	صفحة
• الفصل الرابع : صور من مواقف للأخت المسلمة	٤٩١
(١) موقف أم	٤٩٢
(٢) جهاد أخت عاملة	٤٩٤
(٣) موقف زوجة	٤٩٤
(٤) موقف عروس	٤٩٥
(٥) موقف السيدة زينب الغزالى	٤٩٥
(٦) آل بيت الهضيبى	٤٩٦
الفهـــرس	٥٠٩

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين

اعتذار

وقعت أخطاء مطبعيـة خارجة عن إرادتنـا ولانغيب عن فطنة الأخ القارىء ، ونعتذر ونرجو التصحيح ؟

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق القومية
١٩٧٩/٤٧٦٥



١٣ شارع حسبو - محرم بك
الاسكندرية

نحن نريد الفرد المسلم والبيت المسلم والشعب المسلم .

ولكنا نريد قبل ذلك أن تسود الفكرة الاسلامية حتى تؤثر فى كل هذه الاوضاع وتصبغهاصبغة اسلامية وبدون ذلك لن نصل لأى شىء. نريد أن نفكر تفكيرا استقلاليا يعتمد على أساس الاسلام الحنيف، لا على أساس الفكرة التقليدية التى جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب واتجاهاته فى كل شىء ..

ونريد أن نتميز بمقومات ومشخصات حياتنا كأمةعظيمة مجيدة تجر وراءها أقدموأفضل ماعرف التاريخمن دلائل ومظاهر الفخار والمجد.

حسن البنـا

عن رسالة :

((دعوتنا فى طور جديد))

هذا الكتاب

يقول الامام الشهيد حسن البنا : « اذا لامست معرفة الله قلب الانسان ، تحول من حال الى حال ، واذا تحول القلب تحول الفرد ، واذا تحول الفرد تحولت الاسرة ، واذا تحولت الاسرة تحولت الامة ، وما الامة الا مجموعة أسر وأفراد » •

وهذا يعنى أن عملية تحويل مجتمعاتنا الى الاسلام من جديد تقع على عاتق الاسرة •• فالاسرة أصل الفرد وهى فى نفس الوقت قاعدة المجتمع ووحدته الاولى ••

وهذا ما يفسر لنا سر عناية الاسلام بالاسرة ومجىء أحكامه بشأنها فى بيان كامل وتفصيل تام ، فالاسرة فى نظام الاسلام تحيط بالفرد مدى حياته ، طفلا وشابا وزوجا ووالدا •• وعلى ما يتلقاه فيها يتوقف مصيره ، ففى أجوائها – ان كانت صالحة – يتشرب أخلاق الاسلام وعقائده وشرائعه وتاريخه ، ومنها يعرف الطريق الى المسجد ، فيشب على التقوى والتميز والعراقة والاصالة •

وفى ظل الانظمة العلمانية التى تعمل مؤسساتها الاعلامية والتربوية بولاء لقيم الغرب وحضارته اللا دينية ، مستهدفة تشويه حقائق الدين وتأويله تأويلا فاسدا يتصادم مع حكمته الالهية السامية يخدم أهداف الغزو الثقافى اليهودى الصليبى •• فى ظل هذه الانظمة تصبح الاسرة مع المسجد الحصن الذى يحمى النشء المسلم من أخطار المسخ والتميع والتحلل •

وان كان هذا الكتاب حاجة لكل مسلم ومسلمة ، فأحوج المسلمين اليه هؤلاء الذين يريدون بناء أسرة مسلمة تقوم على دعائم الاسلام وأسسه وهديه أو هؤلاء الذين يرغبون فى تحويل بيوتهم من فوضى الجاهلية الى نظام الاسلام •

•• كما نرجو أن يكون دليلا للعاملين على بعث الشخصية المسلمة وتكوين البيت المسلم قاعدة المجتمع المسلم المرتقب •

دار الدعوة – الاسكندرية

١ شارع منشا – محرم بك

